لمؤلّف «عدّاء الطائرة الورقية» و«ألف شمس ساطعة»

خالـد حسيني

وردّدت الجبَال الصَّدى

ترجمة:
إيهاب عبد الحميد

دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.bqfp.com.qa

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING





صدرت الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٥

الترقيم الدولي:
الغلاف العادي: ٩٧٨٩٩٢٧١٠١٩٠٨

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١



MIX
Paper from responsible sources
FSC® C020471

تمت الطباعة في بريطانيا العظمى بمعرفة CPI Group (UK) Ltd, Croydon CR0 4YY.
زورونا على موقعنا www.bqfp.com.qa للمزيد من المعلومات حول كُتّابنا ومؤلفاتهم.

وردّدت الجبال الصَّدى

خالد حسيني

ترجمة: إيهاب عبد الحميد





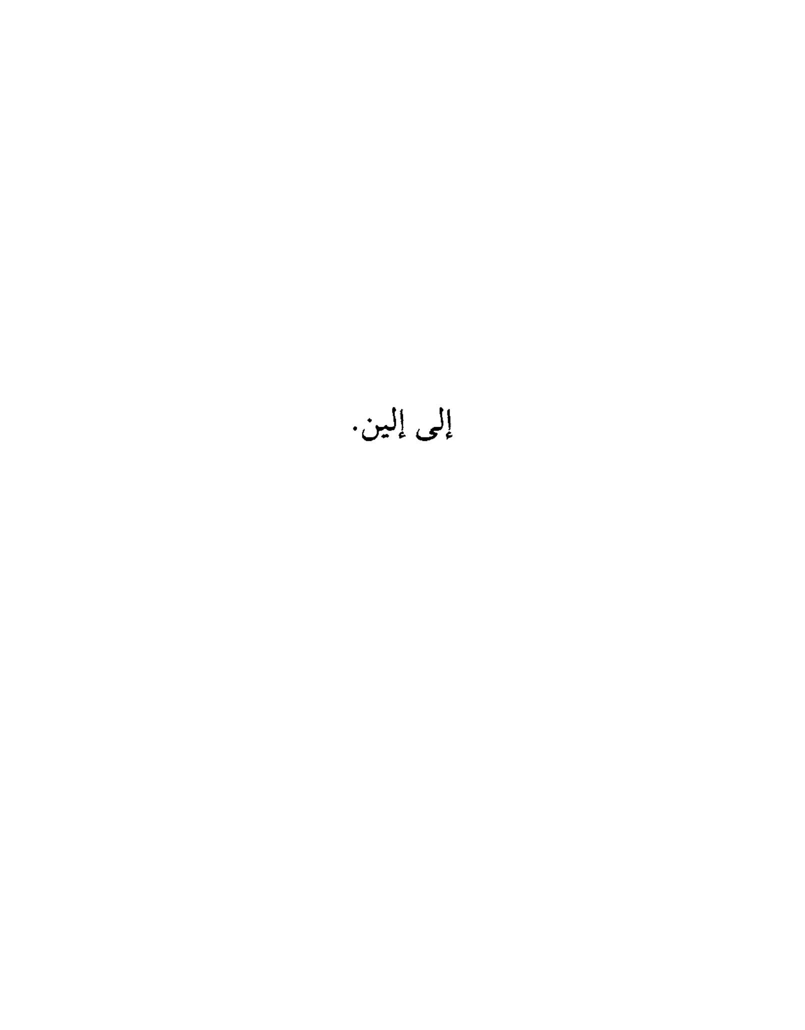
دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



أُهدي هذا الكتاب

إلى حارس وفرح، نور عينيَّ

وإلى أبي، الذي كان ليشعر بالفخر



إلى إلين.

«هناك
وراء الأفكار
عن الحق والباطل
ثمة حقل
فيه سألتقيك».
- جلال الدين الرومي، القرن الثالث عشر



١
خريف ١٩٥٢

إذًا، تريدان حكاية، وأنا سأحكي لكما حكاية، لكن حكاية واحدة، فلا يطلب أحد أكثر من ذلك، فالوقت قد تأخَّر، وأمامنا يوم سفر طويل يا «باري»، أنا وأنتِ. ستحتاجين إلى النوم الليلة. وأنت أيضًا يا «عبد الله»؛ فأنا أعتمد عليك يا ولدي في غيابنا أنا وأختك، وأمك أيضًا تعتمد عليك. الآن، حكاية واحدة إذن. أنصتا، أنصتا جيدًا، ومن دون مقاطعة.

في يوم من الأيام، كان «غيلان الديف» والجان والعماليق يجوسون في الأرض، وكان هناك فلاح اسمه «بابا أيوب»، يعيش مع أُسرته في قرية صغيرة اسمها «ميدان سابز». ولأن بابا أيوب كان مسؤولًا عن إطعام أُسرة كبيرة، فقد كانت أيامه تضيع في العمل الشاق. كل يوم، يعمل من الفجر وحتى غياب الشمس، يحرث حقله، ويُقلِّب التربة، ويرعى أشجار الفستق الهزيلة. فإذا نظرتَ، رأيتَه في حقله، مُنكفئًا، ظهره مُقوَّس مثل المنجل الذي يضرب به يمينًا ويسارًا طوال اليوم. وكانت يداه يابستين دومًا، وداميتين في أغلب الأوقات، وفي كل ليلة يستولي عليه النوم فور أن يضع خده على الوسادة.

وسأقول إنه، في هذا الخصوص، لم يكن بمفرده؛ فالحياة في «ميدان سابز» كانت شاقة على كل سكانها. كانت هناك قرى أكثر حظًّا في الشمال، في الوديان، بها أشجار فاكهة وأزهار وهواء لطيف، وجداول تجري فيها مياه صافية وباردة. لكن «ميدان سابز» كانت مكانًا مُقفرًا، لا تشبه في شيء الصورة التي قد يوحي بها اسمها: «الحقل الأخضر». كانت تقع في سهل مُسطح مُترب، تُطوِّقه سلسلة من الجبال الوعرة. كانت الريح ساخنة، تذر التراب في العيون. وكان العثور على الماء كفاحًا يوميًّا، لأن آبار القرية، حتى العميقة منها، غالبًا ما تغيض. نعم، كان ثمة نهر، لكن على أهل القرية أن يتحملوا مسيرة نصف يوم للوصول إليه، فإذا وصلوا، وجدوا مياهه تنساب موحلة طوال العام. والآن، بعد عشر سنوات من الجفاف، غاض النهر أيضًا. خلاصة القول أن الناس في «ميدان سابز» كانوا يكدحون كدحًا مضاعفًا ليجنوا نصف العيش.

مع ذلك، كان بابا أيوب يعد نفسه من بين المحظوظين، لأن لديه أسرة يحبها أكثر من أي شيء. كان يحب زوجته، ولم يرفع صوته عليها قَطُّ، ولا يده كذلك. وكان يُقدِّر مشورتها، ويجد متعة حقيقية في رفقتها. أما الأطفال، فقد أنعم الله عليه بقدر ما في اليد من أصابع؛ ثلاثة أولاد وابنتين. كان يحب كلًّا منهم حُبًّا كبيرًا. كانت ابنتاه مُطيعتين وبارَّتين، تتمتعان بأخلاق طيبة وسُمعة حسنة. أما أولاده، فقد علَّمهم قيم الأمانة، والشجاعة، والصداقة، والعمل الشاق من دون شكوى. وكانوا يطيعونه، كما يجب على الأبناء الأبرار، ويساعدونه في حقله.

ومع أن بابا أيوب كان يحب أطفاله جميعًا، إلا أنه كان في سريرته مُتيَّمًا على وجه خاص بأحدهم، وهو الأصغر، «قيس»، الذي كان في الثالثة من عمره. كان قيس صبيًّا صغيرًا بعينين زرقاوين داكنتين، وكان يفتن كل من يلقاه بضحكته العابثة، كما كان واحدًا من أولئك الصبية المتفجرين بالطاقة، حتى إنه يستنزف من الآخرين طاقاتهم. عندما تعلَّم المشي، فرح به أيما فرح، حتى إنه ظل يمشي طوال النهار في صحوه. بعدها، وكم أثار ذلك من قلق، صار يمشي ليلًا في منامه. كان يمشي نائمًا، فيخرج من بيت الأُسرة الطيني، ويهيم في الظلام على ضوء القمر. وبالطبع، انزعج والداه. فماذا لو سقط في بئر، أو ضل الطريق، أو، الأسوأ من كل ذلك، هاجمه أحد المخلوقات التي تتسكع في السهول ليلًا؟ جرَّبوا علاجه بشتى الطرق، ولم تنجح أي منها. وفي النهاية، كان الحل الذي توصَّل إليه بابا أيوب بسيطًا، مثل أفضل الحلول عادة: خلع جرسًا صغيرًا من حول رقبة إحدى عنزاته وعلَّقه حول رقبة قيس. وهكذا، إذا استيقظ قيس في منتصف الليل، فسيوقظ الجرس شخصًا ما. وانتهى المشي في أثناء النوم بعد فترة، لكن قيس شب مرتبطًا بالجرس ورفض أن يفارقه. وهكذا، ومع أن الجرس لم يعد يؤدي الغرض الأصلي منه، فقد ظل مربوطًا بخيط حول رقبة الصبي. وعندما كان بابا أيوب يرجع إلى البيت بعد يوم عمل طويل، كان قيس يخرج مندفعًا برأسه في بطن أبيه، فيرن الجرس مع كل خطوة من خطاه الصغيرة. وكان بابا أيوب يرفعه ويأخذه إلى داخل المنزل، ويذهب قيس ليراقب بانتباه بالغ والده وهو يغتسل، ثم يجلس إلى

جوار بابا أيوب ساعة العشاء. وبعد الأكل، يرتشف بابا أيوب شايه، وهو ينظر إلى أسرته، ويتصور يوم يتزوج كل أولاده وينجبون له أطفالًا، وكم سيفتخر ساعتها بذرية أكبر وأكبر.

لكن يا للحسرة، يا عبد الله ويا باري، فأيام هناء بابا أيوب وصلت إلى منتهاها. فقد حدث ذات يوم أن جاء أحد غيلان الديف إلى «ميدان سابز». وفد إلى القرية من جهة الجبال، والأرض ترتج مع كل خطوة من خطاه. ألقى أهل القرية ما في أيديهم من جواريف ومعازق وفؤوس وتفرقوا. دخلوا بيوتهم، وأغلقوا على أنفسهم وتكوَّموا معًا. وعندما سكت وقع أقدام «الديف» الذي يصم الآذان، خيم بظله على السماوات فوق «ميدان سابز». قِيل إن قرونًا ملتوية تنبت من رأسه، وإن شعرًا أسود خشنًا يغطي كتفيه وذيله القوي. قالوا إن عينيه تلمعان بوهج أحمر. لا أحد كان يعلم على وجه اليقين، تفهمان! على الأقل لا أحد من بين الأحياء: كان الديف يلتهم فورًا كل من يجرؤ على اختلاس ولو نظرة واحدة. ولما كان أهل القرية يعرفون ذلك، فقد استمعوا إلى صوت العقل وثبتوا عيونهم في اتجاه الأرض.

كل مَن في القرية كان يعرف لماذا جاء الديف. كانوا قد سمعوا الحكايات عن زياراته لقرى أخرى، وكانوا يتعجبون كيف استطاعت «ميدان سابز» أن تتجنب لفت انتباهه طوال تلك الفترة. جال بخاطرهم أن حياتهم القاسية الفقيرة في «ميدان سابز» ربما كانت في مصلحتهم؛ فأطفالهم لا يأكلون جيدًا، وليس لديهم الكثير من اللحم حول عظامهم. حتى إن كان الأمر كذلك، فقد وصل حظهم الحسن إلى نهايته.

ارتعدت «ميدان سابز» وحبست أنفاسها. وأخذت كل أسرة تدعو الله ألا يتوقف الديف عند بيتها؛ حيث كانوا يعرفون أن الديف إذا نقر على سقفهم، فسيكون عليهم أن يعطوه طفلًا. وعندها سيرمي الديف بالطفل في جوال، ويطوح الجوال فوق كتفه، ويرجع حيثما أتى. ولن يرى أحد الطفل المسكين ثانيةً. وإذا رفض أحد البيوت، أخذ الديف كل أطفاله.

إذن، إلى أين كان الديف يأخذ الأطفال؟

إلى قلعته، التي تقع على قمة جبل شديد الانحدار. كانت قلعة الديف بعيدة جدًّا عن «ميدان سابز»، وللوصول إليها، عليك أن تعبر وديانًا، وتجتاز صحارى، وتتسلق اثنتين من سلاسل الجبال. ومَن العاقل الذي يفعل ذلك، لا لشيء إلا ليلقى حتفه؟ كانوا يقولون إن القلعة مليئة بالزنازين، حيث السواطير مُعلَّقة على الجدران، وخطاطيف اللحم تتدلى من الأسقف. وكانوا يقولون إن هناك أسياخًا عملاقة، وحُفر نيران هائلة. وكانوا يقولون إن الديف إذا أمسك بمُتسلل، تجاوز عن نفوره من لحم البالغين.

أظنكما عرفتما السقف الذي تلقَّى نقرة الديف الرهيبة. فور سماعها، فرَّت صرخة ألم من بين شفتي بابا أيوب، وأغشي على زوجته من الخوف، وبكى الأطفال من الرعب، ومن الحزن أيضًا، لأنهم أدركوا أن فقدان أحدهم بات مؤكدًا. كان أمام الأسرة حتى فجر اليوم التالي كي تُقدِّم قربانها.

ماذا أقول لكم عن العذاب الذي اكتوى به بابا أيوب وزوجته تلك الليلة؟ فلا يجب أن يضطر أي والد إلى اختيارٍ مثل هذا. بعيدًا عن مسامع الأطفال، راح بابا أيوب وزوجته يتناقشان حول ما يجب

فعله. أخذا يتكلمان ويبكيان، ويتكلمان ويبكيان. طوال الليل، كانا يذهبان ويجيئان، ومع اقتراب الفجر، كان عليهما التوصُّل إلى قرار - وربما هذا ما كان يريده الديف؛ فعدم اتخاذ قرار سيسمح له أن يأخذ الأطفال الخمسة بدلًا من طفل واحد. وفي النهاية، جمع بابا أيوب خمسة أحجار من أمام المنزل، لها نفس الحجم والشكل، وعلى كل منها خطَّ اسم أحد الأطفال، وعندما انتهى رمى بالأحجار في جوال من الخيش، وقدَّمه إلى زوجته التي ارتدَّت إلى الوراء وكأن في الجوال حية في نابها سم زعاف.

قالت لزوجها وهي تهز رأسها:

- لا أستطيع أن أفعلها. لا أستطيع أن أكون صاحبة الاختيار. لن أحتمل.

فقال بابا أيوب:

- ولا أنا...

وقبل أن يُكمل كلامه نظر من النافذة فرأى الشمس لا تفصلها عن البزوغ من فوق التلال الشرقية سوى لحظات. كان الوقت يجري. نظر ببؤس إلى أطفاله الخمسة. لا بد من بتر إصبع للحفاظ على اليد. أغمض عينيه وسحب حجرًا من الجوال.

أظنكما عرفتما أيضًا أي حجر التقطه بابا أيوب. عندما رأى الاسم عليه، رفع وجهه صوب السماء وأطلق صرخة. وبقلب محطَّم، رفع أصغر أبنائه بين ذراعيه. وقيس، الذي كان يثق في والده ثقة عمياء، لف ذراعيه حول رقبة والده. ولم يدرك الصبي ورطته إلا عندما وضعه بابا أيوب خارج المنزل وأغلق الباب. وهناك وقف بابا أيوب، يعتصر عينيه، والدموع تنساب منهما، مُستندًا بظهره

على الباب، بينما قيسه الحبيب يضرب عليه بقبضتيه الصغيرتين، يصرخ مناديًا والده ليُدخله مرَّة أخرى، وبابا أيوب يقف هناك، يتمتم: «سامحني. سامحني». وكانت الأرض ترتج على وقع أقدام الديف، وقيس يصرخ، والأرض ترتجف ثانية وثانية، بينما الديف يغادر «ميدان سابز»، حتى اختفى أخيرًا، وسكنت الأرض، وهدأ كل شيء إلا بابا أيوب الذي ما زال يبكي ويطلب من قيس أن يسامحه.

عبد الله، أختك راحت في النوم، غطِّ قدميها بالغطاء. ها نحن. حسنًا. ربما من الأفضل أن أتوقف الآن. لا؟ تريدني أن أُكمل؟ هل أنت متأكد يا ولد؟ حسنًا.

أين كنت؟ حسنًا. تلت ذلك فترة حداد استمرت أربعين يومًا. كل يوم، كان الجيران يطبخون وجبات للأسرة، ويقومون الليل معهم. كان الناس يقدمون ما استطاعوا من هبات - شاي، حلوى، خبز، لوز - ويقدمون معها آيات العزاء والتعاطف. ولم يستطع بابا أيوب أن يحمل على نفسه ليقول أكثر من كلمة شكر. جلس في الركن، يبكي، وجداول من الدموع تسيل من عينيه، وكأنما يريد أن ينهي بها مواسم الجفاف التي شهدتها القرية. عذابه ومعاناته لا تتمناهما لأكثر الرجال خسة ووضاعة.

ومرت عدة سنوات، وتواصلت مواسم الجفاف، وسقطت «ميدان سابز» في براثن فقر أشد، ومات عدة أطفال من العطش في مهادهم، وغاضت الآبار أكثر فأكثر، وجفت الأنهار، على نقيض عذاب بابا أيوب، الذي كان نهرًا يعلو منسوبه يومًا بعد يوم. لم يعد ذا فائدة لأسرته. لم يعد يعمل، ولا يُصلي، ولا يأكل إلا قليلًا. وتوسلت زوجته وأطفاله إليه ولكن بلا جدوى. وكان على ولديه

الباقيين أن يحلا محله في العمل، إذ لم يكن بابا أيوب يفعل شيئًا كل يوم غير الجلوس على حافة حقله؛ حطام إنسان وحيد يحدق في الجبال. ثم كف عن الكلام مع أهل القرية، إذ بات يظن أنهم يرددون أشياء من وراء ظهره: يقولون إنه جبان؛ لأنه تخلى طوعًا عن ابنه. إنه لا يصلح لأن يكون أبًا؛ فالأب الحقيقي كان سيقاتل الديف، كان سيموت دفاعًا عن أُسرته.

وذكر هذا لزوجته ذات ليلة.

فردَّت زوجته:

- إنهم لا يقولون ذلك. لا أحد يراك جبانًا.

قال:

- أستطيع سماعهم.

فقالت:

- ما تسمعه هو صوتك أنت يا زوجي.

لكنها لم تخبره أن أهل القرية يتهامسون حقًّا من وراء ظهره. يقولون إنه ربما أُصيب بالجنون.

حتى جاء يوم وقدَّم لهم الدليل: استيقظ في الفجر، ومن دون أن يوقظ زوجته وأطفاله، دس بضع لقيمات من الخبز في حقيبة من الخيش، وانتعل حذاءه، وربط منجله حول وسطه، وانطلق.

ظل يمشي لأيام وأيام. يمشي حتى تصير الشمس وهجًا أحمر خافتًا في البعيد. وفي الليل، ينام في كهوف تصفر الريح خارجها، أو ينام بجوار الأنهار وتحت الأشجار وبين أستار من جلاميد الصخر. أتى على ما معه من خبز، ثم راح يأكل ما يجده - ثمار التوت البري، الفطر، السمك الذي يصطاده من الجداول بيديه العاريتين -

وفي بعض الأيام لم يأكل على الإطلاق، لكنه ظل يمشي. وعندما كان المارة يسألونه عن وجهته، كان يخبرهم، فيضحك منه البعض، ويتركه البعض الآخر ويمضي مُسرعًا خوفًا من أن يكون مجنونًا، ويدعو لأجله البعض ممن سلبهم الديف أطفالهم أيضًا. ظل بابا أيوب يمشي منكس الرأس. عندما اهترأ حذاؤه، ربطه بحبال إلى قدميه، وعندما تمزقت الحبال مضى قُدمًا بقدمين حافيتين. في طريقه، قطع الصحارى والوديان والجبال.

وأخيرًا وصل إلى الجبل الذي تقع فوق قمته قلعة الديف. كان مُتلهفًا لإتمام مسعاه، حتى إنه لم يخلد للراحة، وبدأ على الفور في التسلق. ملابسه تمزقت، وقدماه أدميتا، وشعره كساه التراب، لكن عزمه لم يتزعزع. الصخور الوعرة مزقت أصابع قدميه، وراحت الصقور تنقر خديه وهو يتسلق مرورًا بأعشاشها، وكادت هبات الريح العنيفة أن تطيح به من فوق حافة الجبل، لكنه استمر في التسلق، من صخرة إلى أخرى، حتى وقف أخيرًا أمام البوابة العملاقة لقلعة الديف.

دوَّى صوت الديف عندما رمى بابا أيوب البوابة بحجر:

- مَن يجرؤ؟

أعلن بابا أيوب اسمه، وقال:

- جئت من قرية «ميدان سابز».

- هل تتمنى الموت؟ لا بد أنك تتمنَّاه، وإلا ما جئت تزعجني في بيتي. ما مشكلتك؟

- جئت لأقتلك.

عندها عم الصمت من الجانب الآخر من البوابة، ثم انفتحت

البوابة بصريرٍ مدوٍّ، وتبدَّى الديف أمام بابا أيوب، شاهقًا بكل جلاله الكابوسي.

قال بصوت غليظ كالرعد:

- حقًّا؟

قال بابا أيوب:

- حقًّا. بشكل أو بآخر، واحد منا سيموت اليوم.

بدا للحظة أن الديف سيطيح ببابا أيوب من فوق ظهر الأرض، ويقضي عليه بعضة واحدة من أسنانه الحادة كالخناجر. لكن شيئًا ما جعل المخلوق يتردد، ثم ضيَّق عينيه. ربما كان الجنون البادي في كلمات الرجل المُسن، ربما كان مظهر الرجل، الأسمال الممزقة، الوجه الدامي، التراب الذي غطاه من رأسه إلى أخمص قدميه، القروح المفتوحة في جلده، أو ربما لأن الديف لم يرَ في عيني الرجل المُسن مجرد ذرة من خوف.

- قلت لي من أين جئت؟

قال بابا أيوب:

- «ميدان سابز».

- بالنظر إلى حالتك، لا بد أنها بعيدة، «ميدان سابز» هذه؟

- لم آتِ إلى هنا لأثرثر. جئت إلى هنا لكي...

رفع الديف يدًا مخلبيَّة:

- نعم، نعم. جئت لتقتلني. أعرف. لكن لا بد أنك ستسمح لي بكلمات قليلة قبل أن تذبحني.

قال بابا أيوب:

- حسنًا. كلمات قليلة وحسب.

- شكرًا.

افتر ثغر الديف عن ابتسامة واسعة:

- هل لي أن أسألك: أي ذنب جنيت بحقك لكي أستحق الموت؟

رد بابا أيوب:

- لقد أخذت مني أصغر أبنائي. هو أغلى ما في العالم بالنسبة إليَّ.

نخر الديف ونقر على ذقنه وقال:

- لقد أخذت أطفالًا كثيرين من آباء كثيرين.

أشهر بابا أيوب منجله في غضب:

- إذن فسوف أقتص لهم أيضًا.

- لا بدِ أن أقول إن شجاعتك تثير إعجابي.

قال بابا أيوب:

- أنت لا تعرف شيئًا عن الشجاعة. الشجاعة تتطلب أن يكون عندك ما تخاطر به، وأنا جئت هنا وليس لديَّ ما أخسره.

قال الديف:

- لديك حياتك.

- لقد سلبتها مني بالفعل.

نخر الديف مُجددًا وتفحَّص بابا أيوب متأملًا. وبعد برهة قال:

- حسنًا إذًا. سأمنحك المنازلة التي جئت تطلبها. لكن سأطلب منك أولًا أن تتبعني.

قال بابا أيوب:

- بسرعة، فقد نفد صبري.

لكن الديف كان قد تحرك بالفعل في اتجاه بهو عملاق، ولم يكن أمام بابا أيوب من خيار سوى أن يتبعه. سار في أعقابه عبر متاهة من الأبهاء، سقف كل منها يكاد يناطح السحاب، ويقوم على أعمدة هائلة. مرا بسلالم عدة، وحجرات تتسع لـ«ميدان سابز» بأكملها، وسارا هكذا إلى أن قاد الديف بابا أيوب إلى غرفة هائلة، في آخرها ستارة.

أشار إليه الديف:

- اقترب.

وقف بابا أيوب إلى جوار الديف.

فتح الديف الستارة. خلفها كانت نافذة زجاجية، ومن وراء النافذة، نظر بابا أيوب إلى أسفل فرأى حديقة هائلة، حديقة تحيط بها صفوف من أشجار السرو، وقد امتلأت الأرض تحتها بأزهار من كل لون. كانت هناك أحواض سباحة من البلاط الأزرق، وشرفات من الرخام، ومروج عشب ناضرة. ورأى بابا أيوب أسيجة من الشجيرات منحوتة بأشكال جميلة، وفسقيات تقرقر في ظلال أشجار الرمان. لم يكن يتخيَّل أنه سيرى مكانًا بهذا الجمال، ولو عاش بدلًا من الحياة ثلاثًا.

لكن ما أجهز على بابا أيوب حقًّا كان منظر الأطفال وهم يجرون ويلعبون بسعادة في الحديقة. كانوا يطاردون بعضهم بعضًا على المماشي وحول الأشجار. كانوا يلعبون «الغُمَّيضة» خلف الأسيجة. وجال بابا أيوب بعينيه بين الأطفال حتى عثر على مراده. ها هو! ابنه قيس، حي، وبأفضل حال. كان قد ازداد طولًا، وطال

شعره بأكثر مما يتذكر بابا أيوب. يرتدي قميصًا أبيض جميلًا على سروال أنيق، وكان يضحك بسعادة وهو يجري خلف اثنين من رفاقه.

- قيس.

همس بابا أيوب، فَكَسَت أنفاسُه الزجاج بالضباب. ثم صرخ باسم ابنه.

قال الديف:

- لا يمكنه سماعك، ولا رؤيتك.

راح بابا أيوب يقفز، مُلوِّحًا بذراعيه وضاربًا على الزجاج، حتى أسدل الديف الستارة من جديد.

قال بابا أيوب:

- لا أفهم. لقد ظننت أن...

قال الديف:

- هذه مكافأتك.

تساءل بابا أيوب:

- وضِّح لي.

- لقد وضعتك في اختبار.

- اختبار؟

- اختبار لحُبك. كان تحديًا صعبًا، أعرف ذلك، ولا تفوتني الخسارة الثقيلة التي ألمَّت بك. لكنك نجحت. وهذه مكافأتك، ومكافأته.

صرخ بابا أيوب:

- وماذا لو عجزت عن الاختيار؟ ماذا لو رفضت اختبارك؟

قال الديف:

- ساعتها كان كل أطفالك سيهلكون، إذ ستكون قد أصابتهم اللعنة على أية حال، لعنة أن يكون أبوهم رجلًا ضعيفًا، جبانًا، يُفضِّل أن يراهم جميعًا موتى على أن يُثقل على ضميره. قلت إنك لا تتمتع بالشجاعة، لكنني أراها فيك. ما فعلته، العبء الذي رضيت بأن تحمله على كاهلك، كان يتطلب شجاعة. ولهذا، فأنا أُبجِّلك.

سحب بابا أيوب منجله بوهن، لكنه انزلق من يده وارتطم بالأرضية الرخامية محدثًا صليلًا مدويًا. خانته ركبتاه، وكان عليه أن يجلس.

تابع الديف:

- ابنك لا يتذكرك. هذه حياته الآن، وأنت رأيت سعادته بعينيك. هنا يُقدَّم إليه أطيب طعام وأجمل ملبس، وهنا يجد الصداقة والحب. إنه يتلقى دروسًا في الفنون واللغات والعلوم ودروب الحكمة والخير، ولا ينقصه شيء. ويومًا ما عندما يُصبح رجلًا، قد يختار أن يرحل، وسيكون حرًّا في ذلك، وأظنه سيؤثر في حياة الكثيرين بطيبته، ويجلب المسرة لمن سقطوا في شباك الأسى.

قال بابا أيوب:

- أريد أن أراه. أريد أن آخذه إلى البيت.

- حقًّا؟

رفع بابا أيوب عينيه إلى الديف.

توجه المخلوق ناحية خزانة تقع بالقرب من الستائر، وأخرج ساعة رملية من أحد أدراجها. هل تعرف ما الساعة الرملية

ياعبد الله؟ تعرف. حسنًا. أخذ الديف الساعة الرملية وقلبها، ووضعها عند قدمي بابا أيوب.

قال الديف:

- سأسمح لك بأن تأخذه معك إلى البيت. إذا قررت ذلك، فلن يكون بإمكانه أن يعود إلى هنا ثانية. وإذا قررت أن تتركه، فلن يكون بإمكانك أن ترجع إلى هنا ثانية. عندما تنسكب آخر حبة رمل، سأسألك عن قرارك.

وبهذه الكلمات، خرج الديف من الغرفة، تاركًا بابا أيوب أمام اختيار مؤلم آخر.

«سآخذه إلى البيت»، فكر بابا أيوب على الفور. كان هذا ما يرغب فيه أكثر من أي شيء، بكل ذرة من كيانه. ألم يتخيَّل ذلك في ألف حلم؟ أن يمسك بقيس ثانية، أن يُقبِّل خده ويشعر بنعومة يديه الصغيرتين في يديه؟ مع ذلك.. إذا أخذه إلى البيت، فأي حياة تنتظر قيس في «ميدان سابز»؟ حياة المزارع القاسية على أفضل الأحوال، مثل حياته هو، بل وأشد قسوة. هذا إذا لم يمت قيس في أحد مواسم الجفاف مثلما مات الكثيرون من أطفال القرية. وسأل بابا أيوب نفسه: «هل تغفر لنفسك ساعتها، وأنت تعلم أنك انتزعته، لأسباب أنانية، من حياة الترف والنعيم؟» وعلى الجانب الآخر، إذا ترك قيس وراءه، كيف يتحمل، وهو يعرف أن ابنه على قيد الحياة، يعرف مكانه لكنه ممنوع من رؤيته؟ كيف يتحمل؟ بكى بابا أيوب، وأصابه القنوط، حتى إنه رفع الساعة الرملية وألقى بها إلى الحائط، حيث تحطَّمت إلى قطع صغيرة، وانسكبت رمالها الناعمة على الأرض في كل مكان.

عاد الديف إلى الغرفة فوجد بابا أيوب يقف فوق الزجاج المكسور وكتفاه متهدلتان.

قال بابا أيوب:

- أنت وحش قاسٍ.

فرد الديف:

- لو عشت طويلًا مثلما عشتُ أنا، لوجدت أن القسوة والإحسان ليسا سوى درجات من لون واحد. هل اتخذت قرارك؟

جفف بابا أيوب دموعه، والتقط منجله، وربطه حول وسطه، ومشى ببطء في اتجاه الباب، ورأسه منكس إلى أسفل.

قال الديف وبابا أيوب يمر به:

- أنت أب صالح.

فقال بابا أيوب بإعياء:

- أدعو الله أن تُشوى في نار جهنم على ما فعلته بي.

ثم خرج من الغرفة، وكان في طريقه عبر البهو عندما ناداه الديف قائلًا:

- خذ هذه.

أعطاه قارورة زجاجية تحتوي على سائل داكن اللون، وقال:

- اشرب هذه في طريق عودتك إلى ديارك. وداعًا.

أخذ بابا أيوب القارورة وغادر من دون كلمة أخرى.

وعلى مدار أيام طويلة، كانت زوجته تجلس على مشارف الحقل، تنتظر إطلالته، تمامًا كما جلس بابا أيوب هناك على أمل رؤية قيس. ومع كل يوم يمر، تتضاءل آمالها في عودته. كان الناس في القرية قد بدأوا يتحدثون بالفعل عن بابا أيوب بصيغة الماضي.

وذات يوم كانت تجلس على التراب كعادتها، وعلى شفتيها يتراقص دعاء، عندما رأت هيئة نحيلة تقترب من «ميدان سابز» من ناحية الجبال. في البداية ظنته درويشًا ضالًّا، إذ كان رجلًا يرتدي أسمالًا بالية، عيناه خاويتان وصدغاه غائران، ولم تتعرف فيه على زوجها إلا عندما اقترب أكثر فأكثر. قفز قلبها طربًا، وأطلقت صرخة ارتياح عالية.

اغتسل، وبعد أن قدمت إليه الماء ليشرب والطعام ليأكل، تمدد بابا أيوب في بيته، محاطًا بأهل القرية الذين وجهوا له السؤال تلو الآخر:

- إلى أين ذهبت يا بابا أيوب؟
- ماذا رأيت؟
- ماذا حدث لك؟

لم يستطع بابا أيوب الرد عليهم، لأنه لم يتذكر ما حدث له. لم يتذكر شيئًا من رحلته: تسلُّقه جبل الديف، حديثه معه، القصر المنيف، الغرفة الكبيرة ذات الستائر. كان الأمر وكأنما استيقظ من حلم بعد أن نسيه. لم يتذكر الحديقة السرية، ولا الأطفال، والأهم، لم يتذكر رؤيته لابنه قيس وهو يلعب بين الأشجار مع أصدقائه. في الحقيقة، عندما أتى أحدهم على ذكر قيس، طرف بابا أيوب بعينيه في حيرة. قال: «من؟» لم يتذكر أنه كان لديه يومًا ابن اسمه قيس.

هل تفهم يا عبد الله، كيف كانت تلك رحمة به؟ الشراب الذي مسحِ تلك الذكريات؟ كانت تلك مكافأة بابا أيوب على النجاح في ثاني اختبارات الديف.

في ذلك الربيع، انفتحت أخيرًا سماوات «ميدان سابز». وما

نزل منها لم يكن الرذاذ الخفيف كما في السنوات السابقة، وإنما أمطار غزيرة. مطر ثقيل هطل من السماء، وانتفضت القرية العطشى للقائه. على مدار اليوم، ظلت المياه تقرع سقوف «ميدان سابز»، وتغرق كل ما عداها من أصوات. حبات مطر ثقيلة ممتلئة تتدحرج من فوق أوراق الشجر. امتلأت الآبار، وعلا النهر، واخضوضرت التلال الشرقية، وتفتحت الأزهار البرية. وللمرَّة الأولى منذ سنوات عدة راح الأطفال يلعبون على العُشب، وراحت الأبقار ترعى، وشاعت البهجة في الأرجاء.

عندما توقفت الأمطار، كان أمام أهل القرية أعمال لا بد من إنجازها؛ فقد ذابت عدة جدران طينية، وارتخت بضعة أسقف، وتحولت أقسام كاملة من الأراضي الزراعية إلى مستنقعات. لكن بعد بؤس السنين العشر الأخيرة، كان الأمر بسيطًا، فلا شكوى ولا تذمر من أهل «ميدان سابز». أُعيد بناء الجدران، وأُصلحت الأسقف، وصرفت قنوات الري المياه. وفي ذاك الخريف، أنتج بابا أيوب أغزر محصول من الفستق في حياته، وتحسنت محاصيله كمًّا وكيفًا في العام التالي، والذي تلاه. وفي المدن الكبرى التي باع فيها بضائعه، كان بابا أيوب يجلس بفخر خلف أهرام من الفستق ووجهه مشرق كما لو كان أسعد رجل يمشي على الأرض. ولم يضرب الجفاف «ميدان سابز» بعد ذلك مُطلقًا.

لم يتبق الكثير لأقوله يا عبد الله. ربما تسأل، مع ذلك، هل حدث ذات يوم أن مر شاب وسيم بالقرية على صهوة جواده، في طريقه لخوض مغامرات عظيمة؟ هل توقف ربما من أجل رشفة ماء، وما أكثر المياه في القرية الآن؟ وهل جلس ليتناول لُقيمات

مع أهل القرية، وربما مع بابا أيوب نفسه؟ لا أستطيع أن أخبرك يا ولدي. يمكنني أن أقول لك إن العمر قد تقدَّم ببابا أيوب حتى طعن في السن، وإنه رأى أولاده متزوجين، كما كان يتمنى، وإن أولاده أنجبوا له الكثير من الأحفاد، كل منهم منح بابا أيوب سعادة بالغة.

وأستطيع أيضًا أن أقول لك إنه في بعض الليالي، ومن دون سبب محدد، كان النوم يجافي بابا أيوب. ومع أنه بات عجوزًا جدًّا، فقد ظل قادرًا على المشي على قدميه طالما أنه يمسك بعصا. وهكذا، في ليالي الأرق تلك، كان ينسل من فراشه بغير أن يوقظ زوجته، ويتناول عصاه، ويغادر المنزل. كان يمشي في الظلام، عصاه تنقر الأرض أمامه، ونسيم الليل يضرب وجهه. كانت هناك صخرة مسطحة على حافة حقله يجلس عليها، ويظل هناك غالبًا لساعة أو أكثر، يحدق في النجوم، والسحب التي تتماوج من تحت القمر. يفكر في حياته المديدة، ويشكر الله على كل ما أنعم به عليه من هبات ومسرات. كان يعرف أنه من الوضاعة أن يرغب في المزيد، أو يتمنى المزيد. كان يتنهَّد بسعادة، وينصت إلى أصوات الريح الكاسحة عند هبوبها من الجبال، وإلى زقزقة طيور الليل.

لكن بين حين وآخر، كان يُهيأ إليه أنه سمع صوتًا آخر بين تلك الأصوات. كان الصوت نفسه دائمًا، رنين جرس حاد. لم يكن يفهم لماذا يسمع صوتًا كهذا، وهو وحده في الظلام، وكل الخراف والعنزات نائمة. أحيانًا يقول لنفسه إنه لم يسمع شيئًا، وأحيانًا يكون مقتنعًا جدًّا بالعكس، حتى إنه ينادي في الظلام:

- هل من أحد هناك؟ مَن هناك؟ اظهر لأراك.

لكنه لم يحصل على رد قَطُّ. لم يفهم بابا أيوب، كما لم يفهم لماذا في كل مرَّة يسمع فيها رنين الجرس، تكتسحه موجة من شيء ما، شيء أشبه بأذيال حلم حزين، تفاجئه في كل مرَّة مثل عصفة ريح هبت على غير توقع، لكنها سرعان ما تمضي، مثل كل شيء. تمضي.

هذا ما حدث يا ولدي، وهذه هي النهاية. ليس لديَّ المزيد لأحكيه، ولقد تأخَّر الوقت فعلًا وأنا مُتعب، ولا بد أن أستيقظ مع أختك عند الفجر، فأطفئ شمعتك إذًا، وتمدد وأغمض عينيك. نومًا هانئًا يا ولدي، ولندع الوداع للصباح.

٢
خريف ١٩٥٢

لم يسبق للأب أن ضرب عبد الله من قبل. لذا فعندما ضربه، عندما هوى على جانب رأسه، فوق الأذن مباشرة - بقوة، وفجأة، وبكف مفتوحة - طفرت دموع الدهشة من عيني عبد الله. وسرعان ما أغمض عينيه ليمنعها من الهطول.

قال الأب وهو يصرُّ على أسنانه:

- عُد إلى البيت.

من الأمام، سمع عبد الله باري وهي تنفجر بالنشيج.

ثم ضربه الأب ثانية، هذه المرَّة على الخد الأيسر. تطوَّح رأس عبد الله جانبًا. التهب وجهه، وانسالت دموعه ثانية. صفرت أذنه اليسرى. انحنى الأب مقتربًا، حتى إن وجهه المجعد الداكن خسف الصحراء والجبال والسماء كلية.

قال بنظرة متألمة:

- قلت لك عُد إلى البيت يا ولد.

عبد الله لم يُصدر صوتًا. ابتلع ريقه وضيق عينيه وهو ينظر إلى أبيه، وراح يطرف من وراء اليد التي تحمي عينيه من الشمس.

من العربة الحمراء الصغيرة أمامهما، راحت باري تصرخ باكية وهي تناديه، صوتها عالٍ، يرتجف من القلق.

- أبوللـه!

ثبته الأب بنظرة حادة، وعاد متثاقلًا إلى العربة. من فوقها، مدت باري ذراعيها إلى عبد الله براحتين مفتوحتين. تركهما عبد الله يتقدمان قليلًا، ثم مسح عينيه بباطن كفيه، وتبعهما.

بعد برهة، رماه الأب بحجر، كما كان يفعل أطفال «شدباغ» مع كلب باري: «شوجا» - وإن كانوا يقصدون إصابة شوجا. أما حجر الأب فقد سقط على بُعد أقدام من عبد الله، الذي انتظر قليلًا، وعندما تحرك الأب وباري ثانية، تبعهما من جديد.

أخيرًا، وبعد أن تجاوزت الشمس قبة السماء، أوقف الأب عربته ثانية، واستدار في اتجاه عبد الله، وبدا عليه التفكير، ثم أشار بيده قائلًا:

- لن تستسلم.

من فوق سطح العربة، سرعان ما تسللت يد باري لتمسك بيد عبد الله. كانت ترفع رأسها تجاهه، عيناها نديتان، وكانت تبتسم ابتسامتها العريضة فتنكشف أسنانها ذات الفراغات الواسعة، وكأنما يستحيل أن يصيبها سوء ما دام بجانبها. أطبق أصابعه على يدها، كما كان يفعل كل ليلة عندما ينام هو وأخته الصغيرة في فراشهما، رأساهما يتلامسان، وأقدامهما تتشابك.

قال الأب:

- كان يُفترض بك أن تبقى في المنزل مع أمك و«إقبال»، كما قلت لك.

فكر عبد الله: «إنها زوجتك، أما أمي فقد دفنَّاها». لكنه أمسك تلك الكلمات قبل أن تخرج من شفتيه.

قال الأب:

- حسنًا، تعال. لكن من دون بكاء. هل تسمعني؟

- نعم.

- أنا أحذرك. لن أسمح بذلك.

ابتسمت باري لعبد الله ابتسامة واسعة، ونظر هو إلى عينيها الشاحبتين وخديها المدورين الورديين وأعاد إليها الابتسامة.

من وقتها، ظل يمشي بجوار العربة وهي تشق طريقها بصعوبة على أرض الصحراء الوعرة، ممسكًا بيد باري. يتبادلان نظرات سعيدة مختلفة، أخ وأخته، لكنهما لا يقولان إلا القليل خوفًا من تعكير مزاج الأب وإفساد حظهما السعيد. ولمسافات طويلة، ظلوا وحدهم، ثلاثتهم، لا شيء ولا أحد في المدى المنظور سوى أخاديد عميقة بلون النحاس، وأجراف شاسعة من الحجر الرملي. كانت الصحراء تنبسط أمامهم، مفتوحة وواسعة، وكأنما خُلقت من أجلهم، ومن أجلهم فقط. الهواء ساكن، ساخن سخونة لافحة، السماء عالية وزرقاء، الأحجار تتلألأ على الأرض المتشققة، الصوت الوحيد الذي كان يسمعه عبد الله هو صوت أنفاسه، والطقطقة الإيقاعية للعجلات فيما يجر الأب العربة الحمراء صوب الشمال.

بعد فترة، توقفوا للاستراحة في ظل صخرة كبيرة. تأوَّه الأب وهو يسقط يد العربة على الأرض، وانقبض وهو يقوس ظهره إلى الخلف، ورفع رأسه نحو الشمس.

سأل عبدُ الله:

- كم تبقَّى لنا حتى نصل إلى «كابول»؟

نظر الأب إليه. كان اسمه «صبور»؛ رجل داكن البشرة وله وجه قاسٍ حاد وبارز العظام، وأنف معقوف مثل منقار صقر صحراوي، وعينان في محجرين عميقين. كان الأب نحيلًا جدًّا، لكن حياة الكد جعلت عضلاته قوية ومشدودة بقوة مثل حبال الخيزران حول ذراع كرسي الخوص. قال وهو يرفع قربة المياه المصنوعة من جلد البقر إلى شفتيه:

- غدًا بعد الظهر، إذا أسعدنا الحظ.

تجرع جرعة طويلة، وتفاحة آدم تعلو وتهبط في رقبته.

قال عبد الله:

- لماذا لم يوصلنا الخال «نبي»؟ لديه سيارة.

أدار الأبَ عينيه في اتجاهه.

- حينها ما كنا مضطرين إلى قطع كل هذا الطريق مشيًا.

لم يقل الأب شيئًا. خلع طاقيته المتسخة بالسخام ومسح عرقه عن جبهته بكُمِّ قميصه.

برزت إصبع باري من العربة، وهتفت من فرط الإثارة:

- انظر يا أبوللـه. واحدة ثانية.

تتبع عبد الله إصبعها، تعقبها وصولًا إلى بقعة في ظل الصخرة حيث كانت ريشة طويلة، رمادية، مثل الفحم بعد احتراقه. اتجه عبد الله إليها والتقطها. نفخ عنها ذرات التراب. ريشة صقر، قلبها وهو يفكر: ربما حمامة أو قُبَّرة صحراوية. لقد رأى عددًا من القُبَّرات

ذاك اليوم. لا، صقر. نفخ فيها ثانية وناولها إلى باري، فاختطفتها من يده في سعادة.

في بيتهم في شدباغ، كانت باري تحتفظ تحت وسادتها بعلبة شاي من الصفيح أعطاها لها عبد الله. كان لها مشبك صدئ، وعلى غطائها رجل هندي ملتحٍ، يعتمر عمامة ويرتدي سترة طويلة، يرفع بيديه فنجانًا من الشاي يتصاعد منه البخار. وداخل العلبة تتراص كل الريشات التي جمعتها باري. كانت أعز مقتنياتها إلى قلبها: ريشات ديوك خضراء داكنة وخمرية كثيفة، ريشة بيضاء من ذيل حمامة، ريشة عصفور ترابية اللون عليها بقع داكنة، أما أكثر ما كانت تفخر به باري، فكانت ريشة طاووس خضراء تتغير ألوانها في الضوء، في آخرها عين كبيرة جميلة.

تلك الأخيرة كانت هدية أهداها إليها عبد الله قبل شهرين. كان قد سمع عن صبي من قرية أخرى تمتلك أسرته طاووسًا، وذات يوم عندما كان الأب بعيدًا، يحفر قنوات الري في بلدة تقع إلى الجنوب من شدباغ، مشى عبد الله إلى تلك القرية الأخرى، وعثر على الصبي، وطلب منه ريشة من الطائر. أعقبت ذلك مفاوضات، في نهايتها وافق عبد الله على أن يقايض حذاءه بالريشة. ولدى عودته إلى شدباغ، وريشة الطاووس مدسوسة في خصر بنطلونه أسفل قميصه، كان عقباه قد انفلقا وصارا يلطخان الأرض بالدماء. كانت الأشواك والشظايا قد انغرزت في جلد أصابعه، وصارت كل خطوة ترسل وخزات من الألم عبر قدميه.

عندما عاد إلى بيته، وجد زوجة أبيه، «بروانة»، خارج الكوخ،

منحنية أمام «التنور»، تصنع خبز «النان» اليومي. توارى سريعًا خلف شجرة البلوط العملاقة قرب بيتهم وانتظرها حتى تنتهي. أخذ يختلس النظر من وراء جذع الشجرة، ويراقبها وهي تعمل؛ امرأة غليظة الكتفين، لها ذراعان طويلتان، ويدان يابستان، وأصابع قصيرة بدينة، امرأة بوجه مدور منتفخ لا تملك شيئًا من عذوبة الفراشة التي سُميت باسمها.

كان عبد الله يتمنى لو يحبها كما أحب والدته. والدته، التي نزفت حتى الموت وهي تضع باري قبل ثلاثة أعوام ونصف عندما كان عبد الله في السابعة. والدته، التي ضاعت ملامحها منه الآن. والدته، التي كانت تمسك رأسه بكفيها وتضمه إلى صدرها، وتمسح على خده كل ليلة قبل النوم وتغني له أغنية رقيقة:

رأيت جنية صغيرة حزينة

تحت ظلال شجرة الورقاء

أعرف جنية صغيرة حزينة

عصفت بها الريح في ليلة ليلاء

تمنى لو يحب أمه الجديدة بالقدر نفسه، وفكر أن بروانة ربما تتمنى الأمر نفسه في سريرتها؛ لو تستطيع أن تحبه كما أحبت إقبال، ابنها البالغ من العمر عامًا واحدًا، الذي لا تكف عن تقبيل وجهه، ويصيبها الهم مع كل سعلة أو عطسة منه. أو كما أحبت طفلها الأول، «عمر»، وكانت مُتيمة به، لكنه مات من البرد في الشتاء قبل الماضي بعد أسبوعين من مولده، وبالكاد اختارت له بروانة والأب اسمًا. كان أحد ثلاثة رُضَّع حصدهم ذاك الشتاء القاسي في شدباغ. وتذكَّر عبد الله بروانة وهي تتشبث بجثمان عمر الصغير الملفوف

في قماطه، ونوبات حزنها. تذكَّر يوم دفنوه فوق التل، كومة صغيرة على أرض مجمدة، تحت سماء بلون القصدير، والملا «شكيب» يتلو أدعيته، والريح تذرو شظايا الثلج والجليد في عيون الجميع.

كان عبد الله يتوقع أن يجن جنون بروانة عندما تعلم أنه قايض حذاءه الوحيد بريشة طاووس. فقد كدح الأب تحت الشمس لكي يدفع ثمن الحذاء، ولسوف تذيقه الأمرَّين عندما تكتشف، وربما تضربه، هكذا فكر عبد الله، فقد سبق وضربته بضع مرَّات من قبل، ولديها يدان ثقيلتان قويتان - تخيَّل عبد الله أن ذلك بفضل كل السنوات التي حملت فيها أختها المعاقة - وتعرفان كيف تضربان بمكنسة أو تُنزلان على الوجه صفعة محكمة.

لكن الحق يُقال، لم يكن يظهر أن بروانة تشعر بأي قدر من الرضا عندما تضربه، كما أنها لم تكن عاجزة عن الحنو على طفلي زوجها. في مرَّة خاطت لباري فستانًا باللونين الفضي والأخضر من لفة قماش جلبها الأب من كابول. وتلك المرَّة حين علَّمت عبد الله، بصبر مدهش، كيف يكسر بيضتين في الوقت نفسه من دون أن يفتت صفارهما. والمرَّة التي علمتهما كيف يحولان قش الذرة إلى دُمى صغيرة، كما كانت تفعل مع أختها في صغرهما. وعلمتهما كيف يصممان أزياء للدُّمى من مزق القماش الصغيرة.

لكن تلك كلها كانت مجرد أفعال، كان عبد الله يعرف ذلك، أفعال من باب الواجب، مجلوبة من بئر ضحلة، ليست كتلك التي كانت تجلب منها لإقبال. إن اندلعت النار ذات ليلة في بيتهم، كان عبد الله يعرف من دون شك أي طفل ستحمله وتهرع إلى الخارج، لن تفكر كثيرًا؛ فالأمر بسيط في نهاية المطاف: هو وباري ليسا

طفليها. معظم الناس يحبون أطفالهم. وليس ذنب أحد أنه وأخته ليسا لها. إنهما مخلفات تركتها امرأة أخرى.

انتظر أن تأخذ بروانة الخبز إلى الداخل، ثم راقبها وهي تخرج ثانية من الكوخ، تحمل إقبال على إحدى ذراعيها وكومة من الغسيل تحت الذراع الأخرى. راقبها وهي تسير على مهل في اتجاه الجدول، وانتظر حتى اختفت عن الأنظار قبل أن يتسلل إلى المنزل. أصابع قدميه تنبضان بالألم كلما لمست الأرض. في الداخل، جلس على الأرض وانتعل صندله البلاستيكي القديم، الخف الوحيد الذي كان يمتلكه. كان عبد الله يعرف أن ما فعله غير منطقي، لكن عندما جثا إلى جانب باري، وهزها بلُطف ليوقظها من قيلولتها، وأخرج الريشة من خلف ظهره مثل ساحر، وجد أن الأمر يستحق - يستحق لوجهها الذي انبسط، دهشة في البداية، ثم فرحة، وكيف غمرت خديه بالقبلات، وكيف قهقهت وهو يدغدغ ذقنها بطرف الريشة الناعم - وفجأة اختفى من قدميه كل ألم.

مسح الأب وجهه بكُمه من جديد. تناوبوا على الشرب من القربة. وعندما انتهوا، قال الأب:

- أنت مُتعَب يا ولد؟

قال عبد الله:

- لا.

مع أنه كان مُتعبًا ومُنهكًا، وكانت قدماه تؤلمانه؛ فقطع الصحراء بصندل في القدمين ليس سهلًا.

قال الأب:

- اطلع.

في العربة، جلس عبد الله وراء باري، ظهره مستند على الحاجز الخشبي، والنتوءات الصغيرة في عمود أخته الفقري تضغط على بطنه وعظام صدره. وفيما كان الأب يجرهما إلى الأمام، راح عبدالله يحدق في السماء، الجبال، التلال المستديرة المكدسة، صفوفًا من وراء صفوف، تبدو خافتة في البعيد. راقب ظهر والده وهو يجرهما، رأسه منخفض، قدماه تركلان عصفات صغيرة من الرمال البنية الحمراء. مرت بهم قافلة من «بدو الكوشي»، موكب مغبر من أجراس رنانة وجمال راغية، وامرأة بعينين مكحلتين وشعر بلون القمح، ابتسمت لعبد الله.

شعرها ذكَّر عبد الله بأمه، واشتاق إليها من جديد، اشتاق إلى رقتها، وسعادتها الفطرية، وحيرتها من قسوة الناس. تذكَّر ضحكتها المتقطعة، والطريقة الخجول التي تُميل بها رأسها أحيانًا. كانت أمه رقيقة، رقيقة القد والطبع، رشيقة القوام، نحيلة الخصر، بخصلة شعر تنسدل دومًا من تحت طرحتها. كان يتساءل كيف لهذا الجسد الصغير الواهن أن يؤوي بداخله هذا القدر من الفرح، وهذا القدر من الطيبة. لكن الجسد كان يعجز، فتنسكب خارجة منه، تنسال من عينيها. الأب كان مختلفًا. الأب فيه قسوة. تنظر عيناه إلى العالم نفسه الذي تنظر إليه عينا الأم، فلا تتأثران بشيء. كدح لا ينتهي. عالم الأب كان شحيحًا. لا شيء طيبًا يأتي من دون مقابل، حتى الحب. أنت تدفع مقابل كل شيء. فإذا كنت فقيرًا، كانت المعاناة عُملتك. نظر عبد الله إلى الفرق الذي يكشف عن فروة رأس أخته الصغيرة، إلى رسغها النحيل المتدلي من جانب العربة، فعرف

أن أمه حين ماتت نقلت شيئًا منها إلى باري، شيئًا من إخلاصها المرح، من سذاجتها، من تفاؤلها المطمئن. كانت باري الشخص الوحيد في العالم الذي لن يؤذيه، ولن يستطيع أن يؤذيه أبدًا. في بعض الأيام، كان عبد الله يشعر أنها عائلته الحقيقية الوحيدة، وليس سواها.

ذابت ألوان اليوم تدريجيًّا حتى اكتسى بالرمادي، وأصبحت قمم الجبال البعيدة صورًا ظلية مبهمة لعمالقة رابضين. في وقت سابق من النهار، كانوا قد مروا بعدة قرى، معظمها متناثرة ومغبرة مثل شدباغ. بيوت تشبه مكعبات صغيرة شُيدت من الطين المحروق، بعضها مُقامٌ على سفح جبل، وبعضها لا، وأعمدة من الدخان تتصاعد من سقوفها. حبال غسيل. نساء يجلسن القرفصاء إلى جوار نيران الطهي. عدد من أشجار الحور، وبضع دجاجات، وحفنة من الأبقار والماعز، ودائمًا مسجد. وآخر ما مروا به من قرى كان على أطراف حقل خشخاش، حيث لوَّح لهم رجل عجوز كان يعكف على قطف قرون النبات. صاح بشيء لم يسمعه عبد الله، فلوَّح له الأب.

قالت باري:

- أبوللـه؟

- نعم.

- هل تظن شوجا حزينًا؟

- أظن أنه بخير.

- لن يضربه أحد؟

- إنه كلب كبير يا باري، يستطيع الدفاع عن نفسه.

كان شوجا كلبًا كبيرًا بحق، وكان الأب يقول لا بد أنه كان كلب عراك في وقت ما؛ لأن شخصًا ما قد قطع أذنيه وذيله. أما إذا كان قادرًا، أو مُستعدًّا، للدفاع عن نفسه فتلك قضية أخرى. فعندما ظهر هذا الكلب المُتشرد لأول مرَّة في شدباغ، راح الصبية يرجمونه بالحجارة، وينخسونه بأفرع الأشجار أو بالأسلاك الحديدية لإطارات الدراجات، ولم يدافع شوجا عن نفسه قَطُّ. ومع الوقت، سئم صبية القرية من تعذيبه وتركوه لحاله، وإن كان سلوك شوجا لا يزال حريصًا، ومُتشككًا، وكأنه لم ينسَ قسوتهم السابقة تجاهه.

كان يتجنب كل مَن في شدباغ باستثناء باري، فمعها فقد شوجا رباطة جأشه. كان حبه لها شاسعًا وصافيًا. كانت هي الكون بالنسبة إليه. في الصباحات، عندما يرى شوجا باري وهي تخرج من البيت، كان ينتفض، ويرتعش جسده كله. يهز ذيله المجدوع بقوة، ويتراقص على أقدامه وكأنما يدوس على فحم ساخن. يتقافز سعيدًا في دوائر حولها. وطوال النهار يتبع الكلب باري كظلها، يتشمم عقبيها، وفي الليل، عندما يفترقان، يتمدد خارج الباب، بائسًا، في انتظار الصباح.

- أبوللـه؟

- نعم؟

- عندما أكبر سأعيش معك.

أخذ عبد الله يراقب الشمس البرتقالية في غروبها، وهي تنكز الأفق.

- إذا أردتِ، لكنك لن تريدي.

- سأريد!

- ستريدين بيتًا خاصًّا بك.

- لكن يمكن أن نصبح جيرانًا.

- ربما.

- لن تعيش بعيدًا.

- ماذا لو مللتِ مني؟

لكزت جنبه بمرفقها:

- لن يحدث!

ابتسم عبد الله في نفسه:

- حسنًا. لا بأس.

- ستكون قريبًا مني؟

- نعم.

- حتى نصبح كبارًا؟

- كبارًا جدًّا.

- إلى الأبد؟

- نعم، إلى الأبد.

من مقدمة العربة، استدارت لتنظر إليه:

- وعد يا أبوللـه؟

- إلى الأبد وحتى آخر العمر.

لاحقًا، رفع الأب باري على ظهره، بينما عبد الله في المؤخرة، يجر العربة الخاوية. وفي أثناء السير، أصابه شرود غافل. لم يعد يعي إلا ارتفاع ركبتيه ونزولهما، إلا حبات العرق المنسابة من حافة طاقيته. كانت قدما باري الصغيرتان تقفزان على فخذي الأب. لا

يفطن إلا لظلِّ والده وأخته يستطيل على أرض الصحراء الرمادية، ويبتعد عنه إن أبطأ خطاه.

* * *

كان الخال نبي هو مَن عثر على هذا العمل الأخير للأب - الخال نبي هو الأخ الأكبر لبروانة، أي أنه لم يكن خاله في الحقيقة. كان الخال نبي طباخًا وسائقًا في كابول. وفي كل شهر، كان يقود السيارة من كابول لزيارتهم في شدباغ، تعلن عن وصوله الزمامير، والصرخات التي يطلقها حشد من صبية القرية وهم يطاردون السيارة الزرقاء الكبيرة ذات السقف البرونزي والإطارات البراقة. كانوا يخبطون على جانبيها وشبابيكها إلى أن يُطفئ المحرك ويخرج مُبتسمًا من داخلها، الخال نبي الوسيم بسالفيه الطويلين وشعره الأسود المتموج الممشط إلى الخلف، يرتدي بدلته الواسعة زيتونية اللون وقميصه الأبيض طويل الأكمام، وينتعل حذاء بُنيًّا خفيفًا. كان الجميع يخرجون لرؤيته لأنه يقود سيارة، وإن كانت تخص مخدومه، ولأنه يرتدي بدلة ويعمل في المدينة الكبيرة، كابول.

في آخر زيارة للخال نبي أخبر الأب عن العمل. الناس الأثرياء الذين يعمل لحسابهم كانوا بصدد بناء ملحق لبيتهم - مضيفة صغيرة متكاملة في الباحة الخلفية، بها حمام، ومنفصلة عن البناية الرئيسية- وكان الخال نبي قد اقترح أن يستأجروا الأب، صاحب الخبرة في التعامل مع مواقع البناء. وقال إن العمل راتبه مجزٍ ويستغرق إنجازه شهرًا تقريبًا.

كان الأب يمتلك بالفعل خبرة في مواقع البناء، فقد عمل في

عدد لا بأس به منها. وبحسب ما يتذكر عبد الله، كان الأب يبحث عن عمل، يطرق الأبواب بحثًا عن عمل ولو باليومية. وقد تناهت إلى مسامعه ذات مرَّة كلمات الأب وهو يقول لكبير القرية، الملا شكيب:

- والله يا ملا شكيب، **لو كان الله خلقني حيوانًا، لكنتُ بغلًا.**

أحيانًا كان الأب يصطحب عبد الله في أشغاله. وذات مرَّة ذهبا لجمع التفاح في بلدة تبعد مسيرة يوم كامل عن شدباغ. تذكَّر عبد الله والده وهو واقف أعلى السلم حتى الغروب، كتفيه المحدودبتين، ورقبته المتغضنة تحترق في الشمس، وجلد ساعديه الملتهب، وأصابعه الغليظة تلف التفاحات وتديرها، تفاحة في كل مرَّة. وفي مدينة أخرى، صنعوا الطوب لبناء مسجد. وقد علَّم الأب عبد الله كيف يأتي بأجود طين، الطين العميق ذي اللون الفاتح. وأخذا يغربلان التراب معًا، ويضيفان القش، وراح الأب يُعلِّمه بصبر معايرة الماء حتى لا يخرج الخليط مائعًا. وعلى مدار العام السابق، جرَّ والده الحجارة، وجرف التراب، وجرَّب حرث الحقول، كما عمل ضمن طاقم عمال في تعبيد إحدى الطرق.

كان عبد الله يعرف أن والده يلوم نفسه على ما حدث لعمر. فلو كان قد وجد فرص عمل أكثر، أو عملًا أفضل، لاستطاع أن يشتري للرضيع ملابس شتوية دافئة، وبطاطين أثقل، وربما حتى موقدًا ملائمًا لتدفئة البيت. هذا ما كان يفكر فيه الأب. لم يذكر كلمة لعبد الله حول عمر منذ الدفن، لكن عبد الله كان يعرف.

تذكر رؤيته لأبيه ذات مرَّة، بعد أيام من موت عمر، وهو يقف وحيدًا تحت شجرة بلوط عملاقة. كانت الشجرة تعلو فوق كل

شيء في شدباغ، وكانت أكبر كائن على قيد الحياة في القرية. قال الأب إنه لن يُفاجأ إذا قيل له إنها شهدت الإمبراطور «بابور» وهو يتقدَّم جيشه للاستيلاء على كابول. قال إنه قضى نصف طفولته في ظل تاجها الهائل، أو مُتسلقًا فروعها الملتوية. وقد ربط والده، جد عبد الله، حبالًا طويلة إلى أحد الفروع الغليظة وعلق أرجوحة، تلك البدعة التي نجت من مواسم جفاف لا حصر لها، وعاشت بعدما مات الرجل المسن نفسه. وقال الأب إنه كان يتبادل اللعب على الأرجوحة مع بروانة وأختها، «معصومة»، عندما كانوا أطفالًا.

لكن في تلك الأيام، كلما شدت باري كُم الأب وطلبت منه أن يجعلها تطير على الأرجوحة، وجدته مُجهَدًا من كثرة العمل.

- ربما غدًا يا باري.

- دقيقة واحدة يا بابا. أرجوك قم معي.

- ليس الآن. فرصة أخرى.

وكانت تذعن في النهاية، فتفلت كُمه، وتمضي مستسلمة. وأحيانًا كان وجه بابا الضيق يتقلص وهو يراها تمضي، فيتقلب في فراشه، ثم يسحب الغطاء إلى رأسه ويغمض عينيه المرهقتين.

لم يستطع عبد الله أن يتصور والده وهو يتأرجح على الأرجوحة. لم يستطع أن يتخيَّل أن والده كان صبيًّا يومًا، مثله هو، صبيًّا خاليًا من الهموم، خفيف الحركة، يجري مندفعًا في الحقول المفتوحة مع رفاق اللعب. الأب، صاحب اليدين المغطاتين بالندوب، والوجه الذي انحفرت فيه آثار التعب. الأب، الذي وكأنما وُلد بجاروف في يده وطين تحت أظافره.

* * *

كان عليهم أن يناموا في الصحراء تلك الليلة. تناولوا خبزًا وما تبقى من البطاطا المهروسة التي حزمتها لهم بروانة. أشعل الأب نارًا ووضع عليها غلاية لإعداد الشاي.

تمدد عبد الله إلى جوار النار، تكوَّر تحت بطانية الصوف خلف باري، وأصابع قدميها الباردة تلتصق به.

انحنى الأب على اللهب وأشعل سيجارة.

انقلب عبد الله على ظهره، وعدلت باري وضعها، لكي تضع خدها في التجويف الأليف تحت ترقوته. استنشق الرائحة النحاسية لتراب الصحراء، وتطلع إلى السماء الممتلئة بنجوم تشبه بلورات ثلجية، تومض وتتلألأ. هلال رقيق يحتضن الحدود الشبحية المعتمة للقمر الكامل.

رجع عبد الله بذاكرته إلى الشتاء قبل الماضي. كان كل شيء غارقًا في الظلام، والريح تتسرب من إطار الباب، تصفر صفيرًا بطيئًا وطويلًا وعاليًا، وتصفر من كل شق صغير في السقف. وفي الخارج، كانت الثلوج تطمس ملامح القرية. الليالي طويلة وخالية من النجوم، والنهارات قصيرة ومعتمة، يندر أن تظهر فيها الشمس، فإن ظهرت فظهور شرفيٌّ قبل أن تختفي. تذكر صرخات عمر المتألمة، ثم صمته، ثم الأب وهو مُتجهم، يحفر على لوح خشبي بمنجل هلالي، أشبه بالهلال الذي يعلوهم الآن، ويدق اللوح في الأرض الصلبة الملتهبة بالصقيع على رأس القبر الصغير.

وقتها، كانت نهاية الخريف تلوح في الأفق من جديد، والشتاء يتسكع عند الناصية. لكن لا الأب ولا بروانة يتحدثان في أمره، وكأن نطق اسمه سيُعجل بوصوله.

قال:

- أبي.

من الجانب الآخر من النار، أطلق الأب آهة خافتة.

- هل تسمح لي أن أساعدك؟ أقصد في بناء المضيفة.

تصاعد الدخان متلويًا من سيجارة الأب. كان يحدق في الظلام.

- أبي؟

راوح الأب مكانه على الصخرة التي يجلس عليها، وقال:

- أعتقد أنك تستطيع المساعدة في خلط الملاط.

- لا أعرف كيف.

- سأفعلها أمامك. ستتعلم.

قالت باري:

- وأنا؟

- أنتِ؟

قالها الأب ببطء، ثم سحب نفسًا من سيجارته، ونخس النار بعود حطب فتطايرت شرارات وراحت تتراقص في الظلمة:

- أنتِ ستكونين مسؤولة عن الماء. تحرصين على ألا يصيبنا عطش، لأن الرجل لا يستطيع أن يعمل وهو عطشان.

ظلت باري صامتة.

قال عبد الله:

- أبي مُحق.

شعر أن باري تريد أن تلوث يديها، أن تغوص في الطين، وأنها أُحبطت من المهمة التي كلفها بها الأب.

- إذا لم تجلبي لنا الماء، فلن نستطيع أن نبني المضيفة أبدًا.

وضع الأب عود الحطب أسفل يد غلاية الشاي ورفعها عن النار، ثم تركها جانبًا حتى تبرد.

قال:

- أقول لكِ، اثبتي لي أنك تستطيعين القيام بمهمة جلب المياه وأنا سأعثر لك على مهمة أخرى.

رفعت باري ذقنها ونظرت إلى عبد الله، وأشرق وجهها بابتسامة عريضة.

تذكر عندما كانت رضيعة، عندما كانت تنام فوق صدره، ويفتح هو عينيه أحيانًا في منتصف الليل فيجدها تبتسم له بصمت، وعلى وجهها هذا التعبير نفسه.

كان هو مَن يربيها. نعم. حتى وهو نفسه ما يزال طفلًا. عشرة أعوام. عندما كانت باري رضيعة، كان هو مَن توقظه في الليل بصراخها وغمغمتها، هو مَن كان يُساعدها على المشي ويُهدهدها في الظلام. لقد غيَّر لها حفاظاتها المتسخة، وكان هو مَن يحممها. لم تكن تلك مهمة الأب - فقد كان رجلًا - كما أنه كان مُتعبًا من العمل طوال الوقت. وبروانة، التي كانت حُبلى بعمر، كانت أبطأ من أن تنهض لتلبية احتياجات باري. لم تمتلك الصبر أو الطاقة قَطُّ. وهكذا وقعت مهمة الرعاية على كاهل عبد الله، لكنه لم يمانع على الإطلاق. كان يفعل ذلك بكل سرور. كان يحب أن يكون هو مَن يساعدها على أن تخطو خطواتها الأولى، هو مَن يشهق عندما تنطق أولى كلماتها. كان يؤمن أن تلك هي غايته، الغرض الذي

خلقه الله من أجله، أن يكون هناك ليعتني بباري بعدما أخذ الله أمهما.

قالت باري:

- بابا. احكِ لنا حكاية.

قال الأب:

- الوقت قد تأخَّر.

- أرجوك.

كان الأب كتومًا بطبعه. يندر أن يتفوه بأكثر من جملتين متتاليتين في أي مناسبة. لكن أحيانًا، ولأسباب لم يعرفها عبد الله، كان ينفتح فيه شيء ما وتنسكب منه الحكايات على غير انتظار. أحيانًا كان يجعل عبد الله وباري يجلسان أمامه مأسورين، بينما تتخبط الأواني مع شغل بروانة في المطبخ، ويحكي لهما حكايات كان قد سمعها من جدته وهو صبي، فيسافران إلى أراضٍ يسكنها السلاطين والجن وغيلان الديف الأشرار والدراويش الحكماء. وفي أحيان أخرى، كان يختلق قصصًا. يرتجلها من وحي اللحظة، حكايات تكشف عن مقدرة على التخيُّل والحلم لطالما أدهشت عبد الله. لم يكن الأب قَطُّ أكثر حضورًا بالنسبة إلى عبد الله، ولا أكثر حيوية، وجلاء، ولا أكثر صدقًا، من تلك الأوقات التي يحكي فيها قصصه، وكأن الحكايات ثقوب تنفذ إلى عالمه الغامض المبهم.

لكن عبد الله استطاع أن يعرف من التعبير على وجه الأب أن الليلة لن تشهد المزيد من الحكايات.

كرر الأب:

- الوقت قد تأخَّر.

رفع الغلاية بطرف الشال المنسدل على كتفيه، وصب لنفسه فنجانًا من الشاي. نفخ البخار، وارتشف رشفة، ووجهه متوهج في اللهب.

- حان وقت النوم. أمامنا يوم طويل غدًا.

سحب عبد الله البطانية فوق رأسيهما. تحتها، أخذ يغني في مؤخرة عنق باري:

رأيت جنية صغيرة حزينة

تحت ظلال شجرة الورقاء

ورددت باري، في نعاسها، مقطعها بكسل:

أعرف جنية صغيرة حزينة

أطاحت بها الريح في ليلة ليلاء

وفورًا، راحت تغط في نومها.

استيقظ عبد الله لاحقًا فوجد أباه وقد رحل. انتصب في جلسته خائفًا. كانت النار قد خمدت، ولم يتبق منها سوى بضع جمرات قرمزية. اندفعت نظرات عبد الله إلى اليسار، ثم إلى اليمين، لكن عينيه لم تتمكنا من اختراق الظلام، الشاسع والخانق في آنٍ. شعر بوجهه يبيضُّ، بقلبه ينطلق عدوًا، أصاخ السمع، وكتم أنفاسه.

همس:

- أبي؟

صمت.

بدأ الذعر يتضخم في أعماق صدره. جلس متجمدًا في مكانه، جسده منتصب ومشدود، يصيخ السمع لفترة طويلة. لم يسمع

شيئًا. لقد كانا وحدهما، هو وباري، والظلام يطبق عليهما. لقد تُركا وحدهما. تخلى عنهما الأب. شعر عبد الله للمرَّة الأولى كم هي شاسعة الصحراء، والدنيا. كم هو سهل أن يضل المرء طريقه فيها. لا أحد يمد يد العون، لا أحد يدل على الطريق. ثم بدأت فكرة أسوأ تشق طريقها إلى رأسه: لقد مات الأب، ذبحه أحدهم، قطاع طرق، لقد قتلوه، وهم الآن يقتربون منه ومن باري، يأخذون وقتهم، يستمتعون بالأمر، يجعلون منه لعبة.

- أبي؟

نادى ثانية، وصوته يرتعش هذه المرَّة.

ولم يأتِ رد.

- أبي؟

نادى على أبيه ثانية وثانية، مخلب يعتصر حنجرته. لم يعد يحصي كم مرَّة نادى على أبيه، ولكم من الوقت، من دون أن يأتي رد من الظلام. تصور وجوهًا مختبئة في الجبال النابتة من الأرض، تراقب، تنظر إليه هو وباري بابتسامة حقد. استولى عليه الذعر. قبض على أحشائه. بدأ يرتجف، ويئن أنينًا خافتًا. شعر بنفسه على حافة الصراخ.

ثم، وقع أقدام. هيئة تجسدت من الظلام.

- ظننتك قد رحلت.

قالها عبد الله وهو يرتعد.

جلس الأب إلى جوار بقايا النار.

- إلى أين ذهبت؟

- نم يا ولد.

- لن تتركنا. لن تفعل ذلك يا أبي.

نظر الأب إليه، لكن وجهه تراخى في الظلام راسمًا تعبيرًا لم يستطع عبد الله تبيُّنه:

- ستوقظ أختك.

- لا تتركنا.

- قلت لك اصمت الآن.

تمدد عبد الله ثانية، وضم أخته إليه بقوة، وقلبه يضرب في حلقه.

* * *

لم يسبق لعبد الله أن ذهب إلى كابول، ومعلوماته عن كابول جاءت من القصص التي أخبره بها الخال نبي. كان قد زار بضع بلدات أصغر في رحلات عمل مع والده، لكنه لم يزر مدينة حقيقية، وبالتأكيد لا شيء مما ذكره الخال نبي كان يمكن أن يهيئه للصخب والضجيج في أكبر تلك المدن وأكثرها ازدحامًا. أينما ذهبوا، كان يرى إشارات مرور، ومقاهي، ومطاعم، ومتاجر بواجهات زجاجية لها لافتات ساطعة متعددة الألوان. السيارات تنعب بصخب في الشوارع المزدحمة، تنعب، وتندفع لتمر من بين الحافلات، والمشاة، والدراجات. عربات «الكارو» تصلصل جيئة وذهابًا في الشوارع العريضة، وعجلاتها المؤطرة بالحديد تتأرجح على الطريق. الأرصفة التي مشى عليها مع باري والأب كانت مزدحمة ببائعي السجائر واللبان، رفوف بيع المجلات، حدادين يضربون نعال الخيل. وفي التقاطعات، رجال مرور يضعون أردية

لا تناسب مقاساتهم، وينفخون في صافرات، ويلوحون بإشارات سلطوية آمرة لا يبدو أن أحدًا يُلقي لها بالًا.

جلس عبد الله، وباري على حجره، على أحد مقاعد الرصيف بالقرب من محل جزارة، يتشاركان في صحن صفيح من الفاصولياء المطبوخة وصلصة الكزبرة اشتراه لهما الأب من عربة في الشارع.

- انظر يا أبولله.

قالتها باري، وهي تشير إلى محل على الجانب الآخر من الشارع. في واجهته وقفت امرأة شابة ترتدي فستانًا أخضر جميلًا مُرصعًا بحبات خرز ومرايا صغيرة، وكانت تضع منديل رأس طويلًا مُنسجمًا مع الفستان، وحليًّا فضية، وسروالًا أحمر داكنًا. وقفت في ثبات تام، تحدق بغير مبالاة في المارة من دون أن ترمش بعينيها، ولم تحرك ولو إصبعًا، بينما كان عبد الله وباري ينهيان الفاصولياء، وظلت بلا حراك بعدها أيضًا. وعند الناصية، رأى عبد الله مُلصقًا ضخمًا مُعلَّقًا على واجهة بناية عالية. كان يُظهر امرأة هندية جميلة وشابة في حقل «تيوليب»، تقف تحت سيل من المطر، تنحني بدلال خلف منزل صغير. كانت تبتسم بخجل، وساريها المبلل يحتضن ثنياتها. وتساءل عبد الله إن كان هذا هو ما يسميه الخال نبي «سينما»، حيث يذهب الناس لمشاهدة الأفلام، وتمنى لو أن الخال نبي يأخذه وباري لمشاهدة فيلم الشهر المقبل. وابتسم للفكرة.

فور أن تعالى الأذان من الجامع المغطى بالبلاط الأزرق في آخر الشارع، رأى عبد الله الخال نبي يتوقف بالسيارة عند الرصيف، ويخرج من بابها المجاور له، ببدلته الزيتونية، وكاد الباب

أن يصدم راكب دراجة شابًا يرتدي قفطان «تشابان»، قبل أن ينحرف في اللحظة الأخيرة.

هرع الخال نبي يدور حول مقدمة السيارة. عانق الأب، وعندما رأى عبد الله وباري، افترَّ وجهه عن ابتسامة واسعة، وانحنى ليصبح في مستواهما.

- ما رأيكما في كابول يا أطفال؟

- صاخبة جدًّا.

قالتها باري، فضحك الخال نبي.

- حقًّا. تعاليا. اركبا. ستريان أكثر وأكثر من السيارة. امسحا أقدامكما قبل الركوب. صبور، أنت اركب بجواري.

كان المقعد الخلفي باردًا، وصلبًا، ولونه أزرق فاتحًا ليتماشى مع لون السيارة. تزحزح عليه عبد الله حتى الشباك خلف مقعد السائق، وساعد باري لتجلس على حجره. لاحظ نظرة الحسد في عيون الواقفين وهم ينظرون إلى السيارة. أدارت باري رأسها صوبه، وتبادلا ابتسامة.

شاهدا المدينة وهي تنساب كالنهر في أثناء قيادة الخال نبي. قال إنه سيسلك طريقًا أطول حتى يتمكنوا من رؤية القليل من كابول. أشار إلى تل يُسمى «تبة مرنجان»، وإلى الضريح المُقبب الذي يطل على المدينة من فوق قمته. قال إن «نادر شاه»، والد الملك «ظاهر شاه»، مدفون هناك. أراهم قلعة «بالا حصار» على قمة جبل «كوهي شيردوزه»، وقال إن البريطانيين استخدموها في أثناء حربهم الثانية على «أفغانستان».

نقر عبد الله على الشباك، وهو يشير إلى مبنى أصفر مُكعب:

- وما هذا يا خال نبي؟

- هذا «سيلو». مصنع الخبز الجديد عندنا.

أمسك بالمقود بيد واحدة، واستدار بعنقه ليغمز له:

- تحية من أصدقائنا الروس.

مصنع يُنتج خبزًا. اندهش عبد الله، وهو يتصور بروانة هناك في شدباغ تضرب قطع العجين في التنُّور الطيني أمام بيتهم.

أخيرًا، انعطف الخال نبي في شارع واسع نظيف مغطى بأشجار سرو تنتصب على مسافات متساوية. كانت البيوت هناك فاخرة، وأكبر من أي شيء رآه عبد الله. كانت بيضاء، وصفراء، وزرقاء فاتحة. أغلبها مكون من طابقين، ومحاطة بأسوار عالية، ومغلقة ببوابات معدنية ذات مصراعين. ولاحظ عبد الله عدة سيارات مثل سيارة الخال نبي مصفوفة على جانبي الشارع.

توقف الخال نبي عند مدخل للسيارات مزدان بصف من الشجيرات المقلمة بعناية. وخلف المدخل، لاح البيت الأبيض، المكون من طابقين، كبيرًا إلى حد لا يُصدَّق.

همست باري وقد اتسعت عيناها وراحتا تدوران من الدهشة:

- بيتك كبير جدًّا.

استدار رأس الخال نبي فوق كتفيه وهو يضحك:

- ليته كان بيتي. لا. هذا هو بيت أصحاب العمل. ستقابلينهم حالًا. أريدك الآن أن تكوني في غاية الأدب.

* * *

عندما قاد الخال نبي عبد الله وباري والأب إلى الداخل، اتضح أن البيت أكثر إبهارًا مما بدا لهم. وقدَّر عبد الله أنه يتسع

لاحتواء نصف بيوت شدباغ على الأقل. شعر أنه خطا داخل قصر الديف. كانت الحديقة، في الطرف الخلفي، بديعة المنظر، بصفوف من الأزهار من كل لون، مقلمة بعناية، بشجيرات لا تتجاوز الرُّكبة طولًا ومُرصعة بأشجار فاكهة - تعرف عبد الله على الكرز، والتفاح، والمشمش، والرمان. وكانت هناك سقيفة تمتد من البيت إلى داخل الحديقة - قال الخال نبي إنها تُسمى «فراندة» - على جانبيها سياج تغطيه شبكات من الكرم الأخضر. وفي طريقهم إلى الغرفة حيث ينتظر السيد والسيدة «وحدتي» وصولهم، اختلس عبد الله النظر إلى حمَّام به المرحاض الخزفي الذي كان الخال نبي قد حكى لهم عنه، وكذا حوض الغسيل المصقول المزود بصنبورين برونزيين. وتعجب عبد الله، الذي كان يقضي الساعات كل أسبوع وهو يحمل أسطال المياه من بئر شدباغ العمومية، من تلك الحياة التي يصبح فيها الماء على بعد حركة يد ليس إلا.

الآن كانوا يجلسون على أريكة ضخمة لها «شراشيب» مُذهبة، عبد الله وباري والأب. كانت الوسائد الناعمة وراء ظهورهم مطرزة بمرايا صغيرة ثمانية الأضلاع. وفي مواجهة الأريكة، لوحة واحدة تشغل أغلب الحائط، يظهر فيها نحَّات حجر مُسن، مُنحنيًا على طاولة العمل، يضرب بمطرقة على حجر أسود. وكان هناك أيضًا ستائر خمرية اللون متعددة الطيات تكسو النوافذ العريضة التي تفتح على شرفة لها حاجز حديدي بارتفاع الخصر. كل شيء في الغرفة كان لامعًا، وخاليًا من التراب.

لم يسبق لعبد الله طيلة حياته أن أحس بمدى قذارته لتلك الدرجة.

كان مخدوم الخال نبي، السيد وحدتي، يجلس على كرسي جلدي، ذراعاه معقودتان على صدره، ينظر إليهم بتعبير ليس باردًا، وإنما نائيًا، مُستغلقًا. كان أطول من الأب؛ لاحظ عبد الله ذلك فور أن وقف لتحيتهم. وكانت له كتفان ضيقتان، وشفتان رفيعتان، وجبهة لامعة عالية. كان يرتدي بدلة بيضاء، ضيقة من عند الخصر، مع قميص أخضر مفتوح الياقة أساوره مضمومة بمشبكين بيضاويين من اللازورد. وطوال الوقت، لم ينطق أكثر من بضع كلمات.

راحت باري تنظر إلى صحن البسكويت على الطاولة الزجاجية أمامهم. لم يتخيَّل عبد الله قَطُّ وجود كل تلك الأصناف: بسكويت الشوكولاتة الذي تعلوه دوامات من الكريمة، البسكويت الصغير المدور ذو الحشو البرتقالي، البسكويت الأخضر على شكل أوراق الشجر، وغير ذلك.

- هل تريدين واحدة؟

قالتها السيدة وحدتي. كانت هي مَن يقوم بمهمة الكلام.

- هيا. أنتَ وهي. لقد أخرجتها من أجلكما.

استدار عبد الله إلى الأب يستأذنه، وفعلت باري مثله. بدا أن تلك الحركة استهوت السيدة وحدتي، التي رفعت حاجبيها، وأمالت رأسها، وابتسمت.

أومأ الأب بخفة، وقال في صوت خفيض:

- كلٌّ منكما قطعة.

قالت السيدة وحدتي:

- أوه، هذا لن ينفع. لقد جعلتُ نبي يذهب إلى المخبز في آخر كابول ليأتي بها.

تورد وجه الأب، وحوَّل بصره عنها. كان يجلس على حافة الأريكة، يمسك طاقيته المهترئة بكلتا يديه. كان قد أمال ركبتيه بعيدًا عن السيدة وحدتي، وظل ينظر إلى زوجها.

التقط عبد الله قطعتين من البسكويت وأعطى واحدة لباري.

- حسنًا، قطعة أخرى. لا نريد أن نضيع تعب نبي.

قالتها السيدة وحدتي بعتاب مرح، وابتسمت للخال نبي.

قال الخال نبي، ووجهه يتورد خجلًا:

- لم يكن هناك أي تعب.

كان الخال نبي واقفًا قرب الباب، إلى جانب خزانة خشبية عالية لها أبواب زجاجية سميكة. على الرفوف بداخلها، رأى عبد الله صورًا ذات إطارات فضية للسيد والسيدة وحدتي. كانا، ومعهما زوجان آخران، يضعون شالات سميكة ومعاطف ثقيلة، ينساب وراءهم نهر يعلوه الزبد. وفي صورة أخرى، تمسك السيدة وحدتي بكوب، تضحك، وذراعها المكشوفة تحيط بخصر رجل. اندهش عبد الله دهشة بالغة حين رأى أنه ليس السيد وحدتي. وكانت ثمة صورة زفاف أيضًا؛ هو طويل وأنيق في بدلة سوداء، وهي في فستان انسيابي، كلاهما يبتسم بفم مُطبق.

اختلس عبد الله نظرة إليها، إلى خصرها النحيل، وفمها الصغير الجميل، وحاجبيها المقوسين على أفضل ما يكون، وأظافر قدميها الوردية المتناغمة مع طلاء شفتيها. الآن تذكر أنه رآها قبل عامين، عندما كانت باري تقترب من سنتها الثانية. كان الخال نبي قد أحضرها إلى شدباغ لأنها طلبت منه مقابلة عائلته. وقد ارتدت فستانًا بلون الخوخ وبلا أكمام - تذكر نظرة الاندهاش على وجه

الأب - ونظارة شمس داكنة لها إطار أبيض سميك. ظلت مُبتسمة طوال الوقت، تسأل أسئلة عن القرية، عن حياتهم، تستفهم عن أسماء الأطفال وأعمارهم. تصرفت وكأنها تنتمي إلى ذاك البيت الطيني ذي السقف المنخفض؛ إذ استندت بظهرها إلى الحائط المُلطخ بالسخام، جالسة إلى جوار النافذة التي تناثرت عليها فضلات الذباب، والستارة البلاستيكية المُغبَّشة التي تفصل الغرفة عن المطبخ، حيث ينام عبد الله وباري أيضًا. كانت قد حوَّلت الزيارة إلى استعراض متكامل، حيث أصرت على خلع حذائها ذي الكعب العالي على الباب، واختارت الجلوس على الأرض، بينما كان الأب يسارع ليُقدم لها كرسيًّا. وكأنها كانت واحدة منهم. كان عبد الله ما يزال في الثامنة وقتها، لكنه استطاع أن يُدرك حقيقتها.

أما أكثر ما تذكره عبد الله في تلك الزيارة فهو كيف ظلت بروانة - التي كانت حُبلى بإقبال وقتها - هيئة مستورة عن الأعين، جالسة في زاوية في صمت مطبق، متكورة على نفسها. كانت قد جلست وكتفاها مضمومتان، وقدماها مدسوستان تحت بطنها المنتفخ، وكأنما تحاول أن تختفي في الجدار، وكان وجهها مستورًا عن الأعين بحجاب مُتسخ، وهي تقبض على طرفه تحت ذقنها. وكاد عبد الله أن يرى العار وهو يتصاعد منها مثل البخار، والخجل. كم كانت تشعر بالضآلة. وشعر ساعتها بموجة مفاجئة من التعاطف مع زوجة أبيه.

مدت السيدة وحدتي يدها إلى العلبة المجاورة لصحن البسكويت وأشعلت لنفسها سيجارة.

قال الخال نبي:

- أخذنا جولة طويلة في الطريق، وأطلعتهم على جزء من المدينة.

قالت السيدة وحدتي:

- جميل! جميل. هل زرت كابول من قبل يا صبور؟

قال الأب:

- مرَّة أو اثنتين يا بيبي صاحب.

- وهل لي أن أسألك عن انطباعك؟

هز الأب كتفيه:

- إنها شديدة الازدحام.

- نعم.

نزع السيد وحدتي تيلة نسيج من كُمِّ سترته ونظر إلى السجادة.

قالت الزوجة:

- مزدحمة، نعم، وفي بعض الأحيان مُملة أيضًا.

هز الأب رأسه وكأنه يفهم.

- كابول جزيرة، بالفعل. البعض يقول إنها تقدُّمية، وربما كان هذا صحيحًا. إنه صحيح لدرجة كبيرة، على ما أظن، لكنها غير مُنسجمة مع بقية البلاد.

نظر الأب إلى الطاقية بين يديه وطَرَف بعينيه.

قالت:

- لا تفهمني خطأ. أنا مُستعدة أن أدعم من قلبي أي أجندة تقدُّمية تأتي من المدينة. يعلم الله أن هذه البلاد بحاجة إلى ذلك.

مع ذلك، فالمدينة تبدو أحيانًا شديدة الاكتفاء بذاتها من وجهة نظري. أقسم أن التباهي في هذا المكان (تنهَّدت) يبعث على الملل. أنا نفسي شديدة الإعجاب بالريف، لديَّ شغف كبير به. الأقاليم البعيدة، القرى الصغيرة. أفغانستان «الحقيقية» إذا أردنا القول.

أومأ الأب في حيرة.

- ربما لا أتفق مع كل أو حتى معظم التقاليد القبلية، لكن يبدو لي أن الناس هناك يعيشون حياة أكثر أصالة. يتمتعون بالجَلَد، بتواضع مُنعش، وكرم ضيافة أيضًا، وقدرة على التحمل. نوع من الكبرياء. هل هذه هي الكلمة المناسبة يا «سليمان»؟ «الكبرياء»؟

قال زوجها بصوت خفيض:

- كفى يا «نيلا».

أعقب ذلك صمت ثقيل. راقب عبد الله السيد وحدتي وهو ينقر بأصابعه على ذراع كرسيه، وزوجته تبتسم ابتسامة مزمومة، وعلى عقب سيجارتها لطخة وردية، وقدماها متقاطعتان عند الكاحلين، ومرفقها مستند على ذراع الكرسي.

قالت، لتكسر الصمت:

- ربما ليست الكلمة المناسبة. «عزة النفس»، ربما.

ابتسمت، فافترّ ثغرها عن أسنان منتظمة وبيضاء. لم يسبق لعبد الله أن رأى أسنانًا مثلها قَطُّ.

- نعم. هذا أفضل كثيرًا. الناس في الريف لديهم نوع من عزة النفس. يستعرضونه، أليس كذلك؟ يعلقونه مثل شارة على صدورهم؟ أنا أتكلم بصدق، وأرى ذلك فيك يا صبور.

- شكرًا يا بيبي صاحب.

غمغم الأب، وهو يراوح مكانه على الأريكة، ومن دون أن يرفع عينيه عن طاقيته.

أومأت السيدة وحدتي، وحولت بصرها إلى باري:

- اسمحي لي أن أقول إنك جميلة جدًّا.

تحركت باري لتقترب من عبد الله.

وراحت السيدة وحدتي تتلو ببطء:

- رأيت اليوم السحر، والجمال، وبهاء الوجه الذي لا تُسبر أغواره، فإليك كنت أنظر.

ابتسمَت:

- الرومي. هل سمعتم عنه؟ وكأنه نظمها خصيصًا من أجلكِ يا عزيزتي.

قال الخال نبي:

- السيدة وحدتي شاعرة بارعة.

على الجانب الآخر من الغرفة، مد السيد وحدتي يده وتناول قطعة بسكويت، قسمها نصفين، وقضم قضمة صغيرة.

قالت السيدة وحدتي وهي ترمي نبي بنظرة دافئة:

- نبي يُجامل.

ومن جديد، لمح عبد الله احمرارًا يصعد في خدي الخال نبي.

سحقت السيدة وحدتي سيجارتها، وخبطت العقب خبطات سريعة حادة في المنفضة، وقالت:

- ربما يمكنني أن أصطحب الطفلين في جولة؟

أطلق السيد وحدتي نفخة، وضغط كفيه على ذراعي كرسيه، وكأنه سينهض، لكنه لم ينهض.

كانت السيدة وحدتي لحظتها تقول للأب:

- سآخذهما إلى السوق، إذا لم يكن لديك مانع يا صبور. نبي سيوصلنا، وسليمان يمكن أن يُطلعك على موقع العمل في الباحة الخلفية، حتى ترى بنفسك.

أومأ الأب برأسه.

أغمض السيد وحدتي عينيه ببطء.

نهضوا ليغادروا.

فجأة، تمنى عبد الله لو أن الأب يشكر هؤلاء القوم على البسكويت والشاي، ويأخذ يده ويد باري، ويغادرون هذا البيت بما فيه من لوحات وستائر وثراء فاحش وعيش رغيد. يمكنهم أن يملأوا قربة الماء، وأن يشتروا الخبز وبعض البيض المسلوق، وأن يرجعوا من حيث أتوا، يرجعوا عبر الصحراء، والصخور، والتلال، ويحكي لهم الأب حكايات. سيتبادلان جر باري في العربة، وفي غضون يومين أو ثلاثة، ورغم أن رئاتهم ستمتلئ بالتراب وأطرافهم سيصيبها التعب، سيصبحون في شدباغ ثانية. سيراهم شوجا وهم قادمون فيهرع إليهم، يدور ويدور حول باري. سيكونون في ديارهم.

قال الأب:

- اذهبا يا أطفال.

تقدم عبد الله خطوة إلى الأمام، قاصدًا أن يقول شيئًا، لكن يد الخال نبي الغليظة أمسكت بكتفه، وأدارته حول نفسه. وقاده الخال نبي عبر البهو، وهو يقول:

- انتظرا حتى تشاهدا الأسواق في هذا المكان. أشياء لم تشاهدا مثلها من قبل.

* * *

جلست السيدة وحدتي في المقعد الخلفي معهما، وامتلأ الهواء بعطرها الثقيل وبشيء لم يتعرف عليه عبد الله، شيء حلو، لاذع قليلًا. انهالت عليهما بالأسئلة، فيما كان الخال نبي يقود السيارة: مَن أصدقاؤهما؟ هل يذهبان إلى المدرسة؟ أسئلة عن واجباتهما المنزلية، عن جيرانهما، الألعاب التي يلعبانها. سقطت الشمس على النصف الأيمن من وجهها، واستطاع عبد الله أن يرى الزغب الخفيف على خدها، والخط الخفي أسفل فكها حيث تنتهي زينتها.

قالت باري:

- عندي كلب.

- حقًّا؟

وقال الخال نبي من المقعد الأمامي:

- كلب جميل.

- اسمه شوجا. عندما أكون حزينة يعرف.

قالت السيدة وحدتي:

- الكلاب هكذا، وهم أفضل في ذلك من معظم الناس الذين عرفتهم.

مروا بثلاث من فتيات المدارس يتقافزن على الرصيف. يرتدين أزياء سوداء وطرحات بيضاء مربوطة أسفل ذقونهن.

- أعرف ما قلته من قبل. لكن كابول ليست سيئة بهذا القدر.

داعبت السيدة وحدتي قلادتها في شرود. كانت تنظر من الشباك، وقد كسا الهمُّ ملامحها:

- أفضل وقت عندي هنا هو نهاية الربيع. بعد الأمطار، فالهواء يكون نقيًّا جدًّا. هجمة الصيف الأولى. والشمس وهي تضرب الجبال.

ابتسمت بوهن وتابعت:

- سيكون جميلًا أن يسكن طفل معنا في البيت. بعض الصخب، كنوع من التغيير. بعض الحياة.

نظر إليها عبد الله، واستشعر شيئًا مُقلقًا في المرأة، تحت الزينة والعطر واستجداء التعاطف، شيئًا مُهشمًا في أعماقها. وجد نفسه يفكر في الدخان المتصاعد من طبيخ بروانة، ومنضدة المطبخ وقد تناثرت عليها مرطباناتها وأطباقها غير المتجانسة وقدورها الملطخة. افتقد المرتبة التي يتقاسمها مع باري، مع أنها قذرة، والنوابض المتشابكة التي تهدد طوال الوقت بالقفز من داخلها. افتقد كل ذلك، وهو الذي لم يسبق له أن اشتاق إلى دياره إلى هذه الدرجة.

ارتمت السيدة وحدتي بظهرها على المقعد ثانية، مُطلقة تنهيدة، وهي تحتضن حقيبتها كما تمسك المرأة الحُبلى ببطنها المنتفخ.

توقف الخال نبي إلى جانب رصيف مُزدحم. على الجانب الآخر من الشارع، إلى جوار جامع له مآذن شاهقة، ثمة سوق، مكونة من متاهة مكتظة من الأزقة المقببة والمفتوحة. تجولوا في الممرات الممتلئة بأكشاك تبيع معاطف جلدية، وخواتم بمجوهرات وأحجار ملونة، وتوابل من كل نوع. الخال نبي في الخلف، وهما والسيدة

وحدتي في المقدمة. الآن وقد خرجوا من السيارة، وضعت السيدة وحدتي نظارة داكنة جعلت وجهها يبدو غريبًا، مثل وجوه القطط.

كانت نداءات الباعة تتردد في كل مكان، والموسيقى تصدح من كل كشك. مروا بمتاجر مفتوحة الواجهة تبيع الكتب، والراديوهات، والمصابيح، وقدور الطهي فضية اللون. ورأى عبد الله اثنين من الجنود في أحذية عالية مُتربة ومعاطف ثقيلة بُنية داكنة، يتبادلان السجائر، ويرمقان الجميع بفتور وملل.

توقفوا عند كشك أحذية. فتشت السيدة وحدتي في صفوف الأحذية المعروضة في صناديق. تمشَّى نبي حتى الكشك التالي، ويداه متشابكتان وراء ظهره، ورمق بعض العملات القديمة باستعلاء.

قالت السيدة وحدتي لباري:

- ما رأيكِ في هذا؟

كانت تمسك حذاء رياضيًّا أصفر جديدًا.

قالت باري، وهي تنظر إلى الحذاء غير مُصدِّقة:

- إنه جميل.

- هيا نجربه.

ساعدت السيدة وحدتي باري على إدخال الحذاء في قدميها، وربطت لها الشريط والإبزيم. نظرت إلى عبد الله من فوق نظارتها:

- تحتاج إلى حذاء أنت أيضًا، أظن. لا أصدق أنك مشيت كل هذا الطريق من قريتك بهذا الصندل.

هز عبد الله رأسه، وأشاح ببصره. أمامهم في الزقاق، كان شيخ بلحية مشعثة وقدمين ملتويتين يتسول من المارة.

- انظر يا أبوللـه!

قالتها باري وهي ترفع قدمًا، ثم الأخرى. خبطت بقدميها على الأرض، وقفزت. نادت السيدة وحدتي على الخال نبي وطلبت منه أن يتجول مع باري في الزقاق، ليرى إن كان الحذاء يريحها. أمسك الخال نبي بيد باري وقادها في الزقاق.

نظرت السيدة وحدتي إلى عبد الله، وقالت:

- أنت تعتقد أنني شخصية سيِّئة، بسبب ما قلته سابقًا.

تابع عبد الله باري ونبي وهما يمران بالشحاذ المُسن ملتوي القدمين. قال الرجل شيئًا لباري، فاستدارت ورفعت عينيها للخال نبي وقالت شيئًا، ورمى الخال نبي عملة للشيخ.

بدأ عبد الله يبكي من دون صوت.

قالت السيدة وحدتي وقد جزعت:

- آه، أيها الولد الجميل. يا عزيزي المسكين.

أخرجت منديلًا من حقيبتها وناولته إياه.

نحَّاه عبد الله جانبًا، وقال بصوت مُتهدج:

- أرجوكِ، لا تفعلي هذا.

كانت راكعة إلى جواره، نظارتها مرفوعة على شعرها، عيناها كانتا مُبللتين، وعندما جففتهما بالمنديل عاد مُلطَّخًا بلون أسود.

- أنا لا ألومك لأنك تكرهني. إنه حقك. لكن - وأنا لا أتوقع منك أن تفهم الآن - هذا من أجل المصلحة. صدقني يا عبد الله، من أجل المصلحة، وسوف تفهم يومًا.

رفع عبد الله وجهه إلى السماء وشرع في العويل، بينما كانت

باري ترجع إليه وهي تتقافز، عيناها تقطران امتنانًا، ووجهها يشرق بالسعادة.

* * *

ذات صباح في ذلك الشتاء، أخذ الأب فأسه وقطع شجرة البلوط العملاقة. استعان بـ«بيت الله»، ابن الملا شكيب، وعدد من الرجال الآخرين لمساعدته. لم يحاول أحد أن يتدخل. عبد الله وقف إلى جوار بقية الصبية يراقب الرجال. كان أول ما فعله الأب هو إنزال الأرجوحة، فتسلق الشجرة وقطع الحبال بسكين، ثم شرع هو وبقية الرجال يضربون الجذع السميك إلى أن غربت الشمس، حين انقلبت الشجرة أخيرًا بأنين هائل. قال الأب لعبد الله إنهم يحتاجون الحطب من أجل الشتاء. لكنه كان يضرب الشجرة العجوز بفأسه بعنف، وهو يضغط فكيه ووجهه مكفهر، وكأنما لا يطيق أن ينظر إليها بعد الآن.

الآن، تحت سماء بلون الحجر، راح الرجال يقطِّعون الجذع الصريع، أنوفهم وخدودهم محمرة في البرد، ونصالهم تتردد بصدى مكتوم عندما يضربون الخَشب. وبينما الأب فوق الشجرة راح عبد الله يقصف الفروع الصغيرة عن الكبيرة. لقد سقطت أوَّلُ زخَّات الثلج الشتاء قبل يومين. ليست غزيرة، ليس بعد، لكنها منذرة بما هو آتٍ. قريبًا، سينزل الشتاء على شدباغ، الشتاء بعواصفه الجليدية والثلوج التي يتواصل هطولها لأسبوع كامل، والريح التي تشقق الجلد في ظهر اليد في دقيقة واحدة. أما الآن، فما يزال الأبيض قليلًا على الأرض، تقطعه من هنا وحتى سفح التل المنحدر بقع بنية شاحبة من التراب.

جمع عبد الله ملء ذراعيه من الفروع الرفيعة وحملها إلى كومة عمومية قريبة متنامية. كان ينتعل حذاء الثلج الجديد، ويضع قفازات، ويرتدي معطفًا للمطر، كان مُستعملًا، ولكنه بغضِّ النظر عن السحَّاب المكسور، الذي أصلحه الأب، كان مثل الجديد؛ محشوًّا، لونه أزرق داكن، مبطنًا بفراء برتقالي من الداخل، وله أربعة جيوب عميقة تنفتح وتنغلق وغطاء رأس منجَّد يضيق حول وجه عبد الله عندما يشد حبليه. أزاح الغطاء عن رأسه وأطلق زفيرًا طويلًا تصاعد منه بخار أنفاسه.

كانت الشمس تسقط في الأفق، واستطاع عبد الله أن يميز طاحونة الهواء القديمة، وهي تطل، جرداء ورمادية، على جدران القرية الطينية. ألواحها تصدر أنينًا مُتقطعًا كلما هبت عصفة ريح قارسة من التلال. كانت الطاحونة في الصيف مسكنًا لطيور البلشون الزرقاء، لكن الآن وقد حل الشتاء، فقد رحلت طيور البلشون، وحلت محلها الغربان. كل صباح، كان عبد الله يستيقظ على الصرير والنعيب.

لفت نظره شيء ما، هناك على يمينه، على الأرض. اتجه إليه وانحنى.

ريشة.. صغيرة.. صفراء.

خلع أحد قفازيه والتقطها.

الليلة سيذهبون إلى حفلة، هو وأبوه وأخوه الصغير غير الشقيق إقبال. لقد رُزق بيت الله بصبي جديد. وسوف يأتي «مطرب» ليغني للرجال، وسيضرب أحدهم على الدُّف. سيكون هناك شاي وخبز طازج ساخن، وشوربة «شروه» مع البطاطا. بعدها، سيغمس الملا

شكيب إصبعه في سلطانية من الماء المحلَّى ويجعل الرضيع يلعقه. سيخرج حَجَره الأسود اللامع وشفرته ذات الحدين، وينضو الثياب عن خصر الصبي. طقس اعتيادي. الحياة تسير في شدباغ.

قلب عبد الله الريشة في يده.

لن أسمح بالبكاء. هكذا سبق وحذره الأب. **لا بكاء. لن أسمح به.**

ولم يكن هناك بكاء. لم يسأل أحد في القرية عن باري، ولم ينطق أحد باسمها حتى. وقد ذُهل عبد الله كيف اختفت كليًّا من حياتهم.

فقط في شوجا وجد عبد الله انعكاسًا لحزنه الخاص. ظل الكلب يظهر عند بابهم كل يوم. رجمته بروانة بالحجارة، وهدده الأب بعصاه، لكنه ظل يرجع. كل ليلة كان أنينه الحزين يتردد، وكل صباح كانوا يجدونه مُمددًا أمام الباب، ذقنه على مخلبيه الأماميين، يطرف بعينيه وهو ينظر إلى مهاجميه بائسًا حزينًا، نظرةً لا تحمل اتهامًا. استمر هذا الحال لأسابيع حتى رآه عبد الله ذات صباح يعرج في اتجاه التلال، مطأطئ الرأس. ومن وقتها، لم يره أحد في شدباغ ثانية.

وضع عبد الله الريشة الصفراء في جيبه ومضى في اتجاه الطاحونة.

أحيانًا، في لحظات عفوية، كان يلمح وجه والده مُكفهرًا، غائبًا في تنويعات مُربكة من المشاعر. لقد تضاءل الأب في عينيه الآن، تجرَّد من شيء أساسي. بات يمشي بخطى متثاقلة في البيت، أو يجلس في دفء موقدهم الجديد الكبير المصنوع من حديد الزهر،

وإقبال الصغير على حِجره، يُحدق شاردًا في اللهب. وأصبح صوته بطيئًا الآن بطريقة لا يتذكرها عبد الله، وكأن ثقلًا يرزح على كل كلمة ينطقها. أصبح يلوذ بفترات صمت طويلة، واغتمَّ وجهه. لم يعد يحكي الحكايات، لم يحكِ حكايةً واحدة منذ رجع هو وعبدالله من كابول. فكر عبد الله: ربما باع الأب وحيه أيضًا لآل وحدتي.

كل شيء رحل.

اختفى.

لم يبق شيء.

لا شيء يُقال.

إلا كلمات بروانة: **كان يجب أن تكون هي. آسفة يا عبد الله. لم يكن هناك خيار آخر.**

الإصبع التي قُطعت، لإنقاذ اليد.

ركع على الأرض خلف الطاحونة، عند قاعدة البرج الحجري المُتصدع. خلع قفازه وحفر في الأرض. فكر في حاجبيها الكثين، وجبهتها المستديرة الواسعة، وابتسامتها التي تكشف عن أسنان متباعدة. سمع في رأسه رنين ضحكتها وهو يتردد في أرجاء البيت كما اعتادت. تذكر الشِّجار الذي اندلع عندما عادوا من السوق. باري وقد أُصيبت بالذعر، وراحت تصرخ. الخال نبي وهو يحملها ويهرع مُبتعدًا بها. أخذ عبد الله يحفر حتى اصطدمت أصابعه بالمعدن، ثم غاص بيديه إلى الأسفل ورفع علبة الشاي الصفيح من الحفرة، ومسح التراب البارد عن الغطاء.

مؤخرًا، كان يفكر كثيرًا في الحكاية التي حكاها لهما الأب

في الليلة التي سبقت الرحلة إلى كابول، بابا أيوب الفلاح المُسن والديف. كان عبد الله يقف في موضع ما، ويتذكر أن باري كانت تقف هنا. غيابها مثل رائحة تندفع من الأرض تحت قدميه، فتخونه ركبتاه، وينقبض قلبه، ويتوق إلى جرعة من الشراب السحري الذي أعطاه الديف لبابا أيوب حتى ينسى هو الآخر.

لكن لم يكن ثمة نسيان. ظلت باري تحوم، من تلقاء نفسها، على حواف مُخيلة عبد الله أينما ذهب. كانت مثل تراب علق بقميصه. كانت هناك، في نوبات الصمت التي أصبحت متكررة في البيت، نوبات الصمت التي تنبجس بين كلماتهم، باردة وخاوية أحيانًا، وأحيانًا حُبلى بأشياء لا تُقال، مثل سحابة محمَّلة بمطر لا يسقط أبدًا. وفي بعض الليالي كان يحلم أنه في الصحراء ثانية، وحيدًا، مُحاطًا بالجبال، وفي البعيد ومضة واحدة صغيرة من ضوء، تظهر وتختفي، تظهر وتختفي، مثل رسالة.

فتح علبة الشاي. كانت كلها هناك؛ ريشات باري، التي سقطت من ديكة، وبط، وحمامات، وريشة الطاووس أيضًا. رمى الريشة الصفراء في العلبة. يومًا ما، هكذا فكر.

هكذا تمنى.

كانت أيامه في شدباغ معدودة، مثل أيام شوجا. بات يعرف هذا الآن. لم يتبق له شيء هنا. ليست له ديار هنا. سينتظر حتى يمر الشتاء ويستقر دفء الربيع، ثم يستيقظ ذات صباح قبل الفجر ويخرج من الباب. سيختار اتجاهًا ثم يبدأ في المشي. سيمشي لأبعد ما تقوده قدماه عن شدباغ، وإذا تملَّكه اليأس ذات يوم، وهو يمضي عبر حقل مفتوح وشاسع، فسيتوقف في مساره ويغمض

عينيه ويفكر في ريشة الصقر التي عثرت عليها باري في الصحراء. سيتصور الريشة وهي تتحرر من الطائر، وتعلو إلى السحب، على ارتفاع نصف ميل من العالم، تلفُّ وتدور مع التيارات العنيفة، ترفعها هبات الريح العاتية عبر أميال وأميال من الصحراء والجبال، لتهبط أخيرًا، من بين كل الأماكن وعلى خلاف كل الاحتمالات، تحت تلك الصخرة تحديدًا لكي تراها أخته. عندها، سيتعجب، وسيحدوه الأمل أيضًا، لأن مثل هذه الأشياء تحدث. ومع أنه يدرك حقيقة الأمور، سيستجمع شجاعته، ويفتح عينيه، ويمضي.



٣
ربيع ١٩٤٩

تشمها بروانة قبل أن ترفع الغطاء وتراها. لقد لطخت معصومة أردافها حتى فخذيها، ولوثت الملاءات والفراش والأغطية أيضًا. تنظر إليها معصومة من فوق كتفها نظرةً معتذرة وخجولة - ما زال الخجل بعد كل هذا الوقت، كل تلك السنين.

تهمس معصومة:

- آسفة.

تريد بروانة أن تطلق آهة، لكنها تجبر نفسها على ابتسامة واهنة. يتطلب الأمر جهدًا جهيدًا في لحظات كهذه لكي تتذكَّر، لكي لا تحيد ببصرها عن تلك الحقيقة الوحيدة التي لا تتزعزع: هذا هو صنيع يديها، هذه الحالة المزرية. لا شيء مما أصابها مجحف أو غير مستحق. هذا هو ما تستأهله. تتنهَّد، تتفحص البياضات المتسخة، وتجزع من العمل الذي ينتظرها. تقول:

- سأنظفك.

تبدأ معصومة في البكاء من دون صوت، بل ومن دون أن تتغير تعبيرات وجهها. فقط دموع، تفور، وتنساب.

في الخارج، في برد الصباح الباكر، تشعل بروانة نارًا في

حفرة الطبخ. عندما يشتدُّ اللهب، تملأ سطلًا بالمياه من بئر شدباغ العمومية وتضعه ليسخن. تضع كفيها فوق النار. بإمكانها أن ترى طاحونة الهواء من هنا، وجامع القرية حيث علَّمها الملا شكيب هي ومعصومة القراءة عندما كانتا صغيرتين، وبيت الملا شكيب أيضًا، القابع عند سفح خفيف الانحدار. لاحقًا، عندما ترتفع الشمس، سيبدو سقفه مربعًا منتظمًا شديد الاحمرار وسط التراب، بسبب الطماطم التي وضعتها زوجته لتجف في الشمس. تحدق بروانة في نجوم الصباح، الذاوية، الشاحبة، التي تطرف لها بلامبالاة، وتجمع شتات نفسها.

في الداخل، تقلب معصومة على بطنها. تغمس قماشة في الماء وتفرك ردفي معصومة لتنظفهما، فتمسح الفضلات عن ظهرها وعن لحم ساقيها المترهل.

تقول معصومة ووجهها ملتصق بوسادتها:

- لماذا الماء الدافئ؟ لماذا تتعبين نفسك؟ لست مضطرة. لن أعرف الفرق.

تقول بروانة، وهي تلوي وجهها من الرائحة النتنة:

- ربما. لكن أنا سأعرف. الآن، كُفي عن الكلام واتركيني أنتهي من عملي.

من هناك، ينبسط يوم بروانة كالمعتاد، كما ظل الحال طيلة السنوات الأربع منذ وفاة والديهما. تطعم الدجاجات، وتقطع الخشب، وتحمل الدلاء من البئر جيئة وذهابًا، وتعد العجين، وتخبز الخبز في التنور خارج بيتهما الطيني، وتكنس الأرض. وبعد الظهر، تجلس إلى جوار الجدول، بجوار غيرها من نساء القرية،

تغسل الغسيل على الصخور. بعدها، ولأن اليوم يوم جمعة، تزور قبري والديها، وتتلو أدعية قصيرة لكل منهما. وطيلة اليوم، بين هذه الأشغال، تختلق وقتًا لتحرك معصومة، من جنب إلى جنب، تضع وسادة أسفل أحد ردفيها، ثم الآخر.

هذا اليوم، ترى صبور مرَّتين.

تراه مُقرفصًا خارج بيته الطيني الصغير، يروِّح على النار في قدر الطبيخ، وقد ضيَّق عينيه ليتجنَّب الدخان، وابنه عبد الله إلى جواره. ثم تراه لاحقًا، يتحدث إلى رجال آخرين، رجال أصبحوا، مثل صبور، أرباب أُسر خاصة بهم، لكنهم كانوا ذات يوم صبية القرية الذين تشاجر معهم صبور، وطيَّر معهم الطائرات الورقية، وطارد معهم الكلاب، ولعب معهم «الغُمَّيضة». هذه الأيام ينوء صبور بعبء ثقيل، حِمل من المآسي، زوجة ماتت، وطفلين يتيمين، أحدهما رضيع. أصبح الآن يتحدث بصوت مُنهك، مسموع بالكاد. يمشي متثاقلًا في أرجاء القرية مثل نسخة بالية منكمشة من ذاته الأولى.

تراقبه بروانة من بعيد وبشوق يكاد يشل حركتها. تحاول أن تتحاشى عينيه عندما تمر بجواره. فإذا تلاقت نظراتهما عفوًا، يومئ برأسه لها، فيندفع الدم إلى وجهها.

تلك الليلة، حين تتمدد بروانة لتغفو، تكاد لا تستطيع رفع ذراعيها. رأسها يدور من الإرهاق. تتمدد في فراشها، في انتظار النوم.

ثم، في الظلام:

- بروانة؟

- نعم.
- هل تتذكرين تلك المرَّة، ونحن نركب الدراجة معًا؟
- ممممم.
- كم كانت سريعة! ونحن ننزل التل، والكلاب تطاردنا.
- أتذكر.
- كنا نصرخ. وعندما اصطدمنا بذلك الحجر...
تكاد بروانة تسمع أختها تبتسم في الظلام.
- غضبت منا أمنا غضبًا شديدًا، ونبي أيضًا، لقد حطمنا دراجته.
تغمض بروانة عينيها.
- بروانة؟
- نعم.
- هل يمكنك أن تنامي بجانبي الليلة؟
ترفس بروانة لحافها، تقطع الكوخ حتى تصل إلى معصومة، ثم تنسل تحت البطانية إلى جوارها. تريح معصومة خدها على كتف بروانة، وإحدى ذراعيها ترتاح على صدر أختها.
تهمس معصومة:
- أنت تستحقين ما هو أفضل مني.
وترد عليها بروانة همسًا:
- لا تبدئي ذلك من جديد.
تمسِّد شعر معصومة بحركات طويلة صبورة، بالطريقة نفسها التي تحبها معصومة.
تثرثران بكسل لبُرهة بأصوات خافتة عن أمور صغيرة غير مترابطة، وأنفاس إحداهما تدفئ وجه الأخرى. هي دقائق سعيدة

نسبيًّا بالنسبة إلى بروانة. تُذكِّرها بالزمن الذي كانتا فيه صبيتين صغيرتين، متكورتين أنفًا بأنف تحت البطانية، تهمسان بالأسرار والنمائم، تقرقران بلا صوت. سرعان ما تروح معصومة في النوم، ويعلو صوت لسانها وهو يغرغر في حلم ما، وبروانة تنظر من النافذة إلى سماء مُتفحمة. يثب عقلها من فكرة متشظية إلى أخرى، وأخيرًا يسبح إلى صورة رأتها في مجلة قديمة ذات مرَّة لشقيقين مُتجهمين من «سيام»، مُلتصقين من الجذع بشريط سميك من اللحم. مخلوقان مرتبطان ارتباطًا ليس منه فرار، الدم المتكون في نخاع أحدهما يجري في عروق الآخر، اتحادهما أبدي. تشعر بروانة بانقباض، بيأس، وكأن قبضة تُعتصر بداخل صدرها. تسحب نفسها، وتحاول أن تحول مسار أفكارها لصبور مرَّة أخرى، لكنها تجد عقلها ينجرف إلى شائعة كانت قد سمعتها في القرية: أنه يبحث عن زوجة جديدة. تطرد وجهه من رأسها، وتقضم الفكرة الحمقاء.

* * *

بروانة كانت مفاجأة.

كانت معصومة قد خرجت بالفعل، تتلوى بهدوء بين ذراعي القابلة، عندما أطلقت أمهما صرخة وخرجت منها قمة رأس أخرى. مر وصول معصومة مرور الكرام. «لقد ولدت نفسها، تلك الملاك»، هكذا ستقول القابلة فيما بعد. أما مولد بروانة فكان ممتدًّا، عذابًا على الأم، ووبالًا على الطفلة. كان على القابلة أن تحرر بروانة من الحبل الذي لف نفسه حول رقبتها، وكأنما في نوبة قاتلة من قلق الانفصال. في أسوأ لحظات بروانة، عندما يجرفها إعصار احتقار

الذات، تُفكِّر أن الحبل ربما كان على حق، ربما كان يعرف أيهما النصف الأفضل.

كانت معصومة ترضع في مواعيدها، وتنام في الوقت المحدد. لم تكن تبكي إلا إذا احتاجت طعامًا أو تنظيفًا. وفي يقظتها، كانت مرحة، خفيفة الدم، تبتهج لأقل سبب، كومة من القرقرات والزقزقات السعيدة ملفوفة في قماط. وكانت تحب أن تمص لُعبتها.

أما بروانة، فكانت طاغية، وقد مارست على أمها أقصى صلاحيات سُلطتها. أخذ الأب، وقد حيَّره الأداء المُتكلف لتلك الرضيعة، الأخ الأكبر للطفلتين، نبي، وهرب لكي ينام في بيت أخيه. كان الليل بؤسًا من العيار الملحمي بالنسبة إلى أم البنتين، لا تتخلله سوى لحظات قليلة من الراحة المتقطعة. كانت تلاعب بروانة، وتساعدها على المشي طوال الليل كل ليلة. كانت تهدهدها، وتغني لها. كانت تجفل حين تمزع بروانة ثديها المتهيج المنتفخ وتلتصق بحلمتها وكأنما تريد امتصاص الحليب من داخل عظامها. لكن الرضاعة لم تكن ترياقًا؛ فحتى عندما ينتفخ بطن بروانة، لا تكف عن الصراخ والرفرفة بأطرافها، ولا تستجيب لتضرعات أمها.

كانت معصومة تراقب من ركن الغرفة الخاص بها، وقد بدا على وجهها الهم والإحساس بالعجز، وكأنها تشفق على أمها من هذه الورطة.

قالت أمهما لأبيهما ذات يوم:

- نبي لم يكن هكذا. كل طفل مختلف عن الآخر. هذه الطفلة تقتلني.

قال:

- سوف تمر، كما يمر الطقس السيِّئ.

ومرت بالفعل. مغص ربما، أو مرض حميد آخر. لكن الوقت كان قد فات، وكانت بروانة قد تركت بصمتها.

في أصيل أحد الأيام في أواخر الصيف، عندما كانت التوأمان تبلغان عشرة أشهر، اجتمع القرويون في شدباغ بعد حفل زفاف. كانت النساء يعملن بتركيز محموم ليكوِّمن على الصحون أهرامًا من الأرز الأبيض المنفوش المخلوط بفتات من الكركم. رُحن يقطعن الخبز، ويكشطن الأرز المقرمش من قاع القدور، ويمررن أطباقًا من الباذنجان المقلي المغطى باللبن والنعناع الجاف. كان نبي يلعب في الخارج مع بعض الصبية، وكانت أم البنتين جالسة مع جاراتها على بساط مفروش تحت شجرة البلوط الكبيرة في القرية. ومن حين إلى آخر، كانت تُلقي نظرة على ابنتيها وهما نائمتان جنبًا إلى جنب في الظل.

بعد الطعام، وفي وقت الشاي، استيقظت الطفلتان من قيلولتهما. وفجأة، اختطف أحدهم معصومة، وراحت الطفلة تُمرَّر من يد إلى أخرى؛ من ابنة العم إلى الخالة إلى العم. تُداعَب على حِجر هذا، وتُؤرجح على رُكبة ذاك. وراحت الكثير من الأيدي تُدغدغ بطنها الناعم، والكثير من الأنوف تحتك بأنفها، وارتج الجميع من الضحك عندما شدت لحية الملا شكيب عابثة، واندهشوا من سلاستها وحسها الاجتماعي. راحوا يرفعونها ويبدون إعجابهم بخديها المتوردين، وعينيها الزرقاوين كالياقوت، وانحناءة جبهتها الرقيقة التي تُبشر بجمال باهر سوف يظهر عليها بعد سنوات قليلة.

أما بروانة فقد تُركت في حجر أمها. وبينما كانت معصومة على خشبة المسرح، كانت بروانة تُشاهِد بصمت وكأنها مُرتبكة

قليلًا، الوحيدة من الجمهور (الذي لولا ذلك لكان جمهورًا رائعًا) التي لم تفهم سبب كل هذه الضجة. وبين حين وآخر، كانت أمها تنظر إليها، وتمد يدها لتضغط برقة على قدمها الصغيرة، بحركة أشبه بالاعتذار. وعندما أبدى أحدهم ملاحظة أن معصومة نبتت لها اثنتان من الأسنان، قالت أم بروانة بصوت خافت «إن بروانة لديها ثلاث». لكن أحدًا لم يهتم.

عندما كانت البنتان في التاسعة من عمرهما، اجتمعت الأُسرة في منزل أُسرة صبور على الإفطار في أحد أيام رمضان. جلس البالغون على وسائد حول محيط الغرفة، وتعالى الصخب. كان الشاي يدور، ومعه التهاني والنمائم. وراح الشيوخ يداعبون حبات المسابح. وجلست بروانة صامتة، سعيدة أنها تستنشق الهواء نفسه الذي يستنشقه صبور، سعيدة بوجودها في حضرة عينيه الداكنتين شبيهتي عيون البوم. وعلى مدار الأمسية، راحت تختلس النظرات إليه. لمحته وهو يقضم مُكعبًا من السُّكر، وهو يفرك منحدر جبهته الناعم، وهو يضحك من قلبه على شيء قاله أحد أعمامه المُسنين. فإذا رآها تنظر إليه، كما حدث مرَّة أو اثنتين، سارعت بإشاحة بصرها، وقد جمدها الحرج، وبدأت ركبتاها تتخبطان، وجف حلقها حتى لا تعود قادرة على الكلام إلا قليلًا.

فكرت بروانة ساعتها في الكراس المخبَّأ تحت كومة من أشيائها في المنزل. كان صبور دائمًا ما يبتدع قصصًا، حكايات مليئة بالجن والجنيات والعفاريت وغيلان الديف؛ وكثيرًا ما كان أطفال القرية يتجمعون حوله وينصتون إليه في صمت تام وهو يختلق الحكايات لأجلهم. وقبل نحو ستة أشهر، كانت بروانة قد

سمعت صبور يحكي لنبي أنه يأمل أن يكتب قصصه تلك في يوم ما. وبعدها بقليل، وجدت بروانة نفسها في أحد الأسواق في بلدة أخرى، مع أمها، وهناك، عند كشك يبيع الكتب، وقعت عيناها على كراس جميل بصفحات مكشكشة مسطرة وغلاف جلدي سميك بلون بني داكن وحواف مزخرفة. عندما أمسكت به في يدها، كانت تعرف أن أمها لا تستطيع شراءه لها. وهكذا انتظرت بروانة لحظة غابت فيها أنظار صاحب الكشك ودست الكراس بسرعة تحت كنزتها.

لكن في الأشهر الستة التي أعقبت ذلك، لم تجد بروانة الشجاعة لكي تعطي الكراس لصبور. كانت ترتعد خوفًا من أن يضحك أو أن يفهم المغزى من هديتها فيعيدها إليها. وهكذا، كانت ترقد في فراشها كل ليلة، وهي تقبض بيديها على الكراس خفية تحت البطانية، وأناملها تتحسس النقوش على الجلد. وكل ليلة تعد نفسها: «غدًا، غدًا سآخذه إليه».

لاحقًا، في تلك الأمسية، بعد الإفطار، هرع كل الأطفال إلى الخارج ليلعبوا. وتناوبت بروانة، ومعصومة، وصبور، على الأرجوحة التي كان والد صبور قد علَّقها على فرع متين من شجرة البلوط العملاقة. جاء دور بروانة، لكن صبور ظل ينسى دفعها لأنه كان مشغولًا بسرد حكاية أخرى. تلك المرَّة كانت عن شجرة البلوط العملاقة، التي قال إنها تمتلك قوى سحرية. قال إنه إذا كانت لديك أمنية، فعليك أن تركع أمام الشجرة وأن تهمس لها، فإذا وافقت الشجرة على تلبية أمنيتك، فستطرح عشر ورقات بالضبط فوق رأسك.

عندما أبطأت الأرجوحة وكادت أن تتوقف، استدارت بروانة لتطلب من صبور أن يواصل الدفع، لكن الكلمات ماتت في حلقها. كان صبور ومعصومة يتبادلان الابتسام، ورأت بروانة الكراس في يد صبور. كراسها «هي».

قالت معصومة فيما بعد: «**لقد وجدته في البيت. هل كان كراسك؟ سأدفع لك ثمنه بطريقة ما، أعدك. ليس لديك مانع، أليس كذلك؟ أنا فقط فكرت في أنه مناسب جدًّا له. مناسب لقصصه. هل رأيت النظرة على وجهه؟ هل رأيتها يا بروانة؟**»

قالت بروانة إنها لا تمانع، لكنها كانت تتمزق من الداخل. راحت تتصور مرَّة بعد مرَّة كيف كانت أختها وصبور يتبادلان الابتسام، النظرة التي تشاطراها. وكأن بروانة اختفت في غمضة عين مثل جني في واحدة من حكايات صبور، فأصبحا غير مدركين لحضورها. لقد مزق هذا قلبها. تلك الليلة، على فراشها، بكت بصمت.

عندما بلغت هي وأختها الحادية عشرة، كان قد تشكَّل لدى بروانة إدراك مُبكر لسلوك الصبيان الغريب في وجود البنات اللاتي يكنون لهن إعجابًا خفيًّا. رأت ذلك على وجه الخصوص عندما كانت معصومة ترجع من المدرسة إلى البيت. لم تكن المدرسة سوى غرفة خلفية في مسجد القرية، حيث، بالإضافة إلى تعليم تلاوة القرآن وحفظه، قام الملا شكيب بتعليم كل طفل في القرية القراءة والكتابة وحفظ الشعر. كانت شدباغ محظوظة أن يكون لديها حكيم كهذا، هكذا كان الآباء يقولون لبناتهم. في طريق العودة من تلك الدروس، كانت البنتان التوأمان تمران عادة بمجموعة من

الصبية يجلسون فوق جدار. وفيما تمر البنتان، كان هؤلاء الصبية أحيانًا يعاكسونهما، وأحيانًا يرمونهما بالحصى. وكانت بروانة تصرخ فيهم وترد على الحصى بالحجارة، بينما تشدها معصومة من مرفقها، وتطلب منها بصوت هادئ أن تسرع الخُطى، وألَّا تسمح لهم بإثارة غضبها. لكنها لم تكن تفهم. لم تكن بروانة غاضبة لأنهم يرمون الحصى، بل لأنهم يرمونه على معصومة وحدها. كانت بروانة تعرف أنهم يلفتون الأنظار عن طريق الاستفزاز، وكلما كبر استعراضهم دلَّ ذلك على عمق رغبتهم. لقد لاحظت كيف كانت عيونهم ترتد عنها وتُصوَّب على معصومة، بإعجاب يائس، فلا تملك أن تحيد عنها. كانت تعرف أنهم، رغم نكاتهم البذيئة وابتساماتهم الشهوانية، مرتعبون من معصومة.

ثم، ذات يوم، رمى أحدهم حجرًا، لا حصاة. وتدحرج الحجر حتى أقدام الأختين. وعندما التقطته معصومة، راح الأولاد يقرقرون ويتبادلون اللكزات. كان ثمة شريط مطاطي يربط قطعة من الورق ملفوفة حول الحجر. وعندما أصبحتا على مسافة آمنة، فتحت معصومة الورقة، وقرأتا الرسالة معًا:

أقسم إنني مذ رأيت وجهك،
صار العالم كله خدعةً وخيالًا.
تحيَّر البستان فما بات يعرف الورقة من الزهرة،
وتشوَّشت الطيور فما عادت تفرِّق بين البذور
وشراك الصياد.

قصيدة للرومي، من التي كان يُدرِّسها الملا شكيب.

قالت معصومة بضحكة مكتومة:

- إنهم يزدادون ثقافة.

أسفل القصيدة، كان الصبي قد كتب «**أريد أن أتزوجك**». وتحتها خربش تلك الحاشية: «**لديَّ ابن عم من أجل أختك. إنه يناسبها تمامًا. يمكن لهما أن يرعيا في حقل عمي معًا**».

مزَّقت معصومة الرسالة نصفين، وقالت:

- **لا تُلق لهم بالًا يا بروانة. إنهم معاتيه.**

وافقت بروانة قائلة: **مخبولون.**

يا له من جهد هذا الذي بذلته لتلصق ابتسامة على وجهها. كانت الرسالة سيِّئة بما يكفي، لكن ما آلمها حقًّا كان رد معصومة؛ فالصبي لم يحدد بوضوح لمن منهما كانت الرسالة، لكن معصومة افترضت تلقائيًّا أنه يهدي القصيدة إليها، وابن العم لبروانة. للمرَّة الأولى رأت بروانة نفسها بعيني أختها. رأت كيف تنظر إليها أختها نظرة لم تكن تختلف عن نظرة الآخرين. لقد ساءها ما قالته معصومة. تركها حُطامًا.

أضافت معصومة وهي تهز كتفيها وتبتسم:

- **ثم إنني محجوزة.**

* * *

جاء نبي في زيارته الشهرية. إنه قصة النجاح التي تتباهى بها العائلة، بل ربما القرية كلها، بسبب عمله في كابول، ووصوله إلى شدباغ في سيارة صاحب العمل الزرقاء اللامعة الكبيرة التي ثُبتت على مُقدمتها حلية لامعة على شكل رأس نسر. واجتمع الجميع ليشاهدوا وصوله، وراح صبية القرية يتصايحون ويركضون إلى جوار السيارة.

يسأل:

- كيف الأحوال؟

ثلاثتهم داخل الكوخ يتناولون الشاي واللوز. تفكر بروانة أن نبي وسيم للغاية، بوجنتيه المنحوتتين الرقيقتين، وعينيه العسليتين، وسوالفه، والجدار السميك من الشعر الأسود المسحوب إلى الخلف من عند جبهته. يرتدي بدلته الزيتونية المعتادة التي تبدو أكبر منه بقياس أو اثنين. نبي فخور ببدلته، تعرف بروانة ذلك، دائمًا ما يشد كُميها، ويفرد ياقتها، ويضبط ثنية بنطلونه، مع أنه لم يتمكن قَطُّ من التخلص نهائيًّا من أثر رائحة البصل المحترق العالقة به.

تقول معصومة:

- حسنًا، لقد زارتنا بالأمس الملكة «حميراء» لتناول الشاي والبسكويت، وأثنت على ذوقنا الرفيع في اختيار الديكور.

تبتسم لأخيها بمودة، كاشفة عن أسنانها المصفرة، ويضحك نبي، وهو ينظر في فنجانه. قبل أن يعثر على عمل في كابول، كان نبي يساعد بروانة في العناية بأختهما. أو أنه قد جرب ذلك لبعض الوقت، لكنه لم يستطع أن يفعله؛ كان ذلك فوق استطاعته. وكانت كابول بمثابة المهرب لنبي. بروانة تحسد أخاها، لكنها لا تحقد عليه تمامًا، حتى وإن كان ما فعله هروبًا - إنها تعرف أن المبلغ الشهري الذي يمنحه لها يمثل كفَّارة بشكل ما.

كانت معصومة قد مشطت شعرها، وكحلت عينيها بمسحة من الكحل كما تفعل دائمًا في زيارات نبي. تعرف بروانة أنها تفعل ذلك ليس فقط لأجل خاطره، وإنما الأهم لأنه الصلة بينها وبين كابول. في عقل معصومة، هو يربطها بالبهاء والترف، بمدينة من السيارات والأضواء والمطاعم الفاخرة والقصور الملكية، بغض

النظر عن مدى بُعد هذه الصلة. بروانة تتذكر كيف كانت معصومة، قبل زمن طويل، تقول لها إنها فتاة مدينة احتُجزت في قرية.

تسأل معصومة مُداعبة:

- وماذا عنكَ؟ ألم تجد لنفسك زوجة بعد؟

يشيح نبي بيده ويضحك، كما كان يفعل عندما كان والداهم يسألانه السؤال نفسه.

تقول معصومة:

- متى إذن ستجعلني أشاهد كابول ثانية يا أخي؟

كان نبي قد اصطحبهما إلى كابول مرَّة، في السنة الماضية. أخذهما من شدباغ، وقاد السيارة حتى كابول، وراح يتنقل بهما في طول المدينة وعرضها. لقد شاهدا كل الجوامع، ومناطق التسوق، والسينمات، والمطاعم. وقد أشار نبي بإصبعه ليُري معصومة قصر «باغي بالا» ذا القباب، الرابض على تلة تُشرف على المدينة. وفي حدائق «بابور»، رفع معصومة عن المقعد الأمامي للسيارة وحملها بين ذراعيه إلى موقع مقبرة الإمبراطور المغولي. صلوا هناك، ثلاثتهم، في جامع «شاه جهان»، ثم، على حافة البركة ذات البلاط الأزرق، تناولوا الطعام الذي كان نبي قد أعده من أجلهما. كان ذلك، ربما، أسعد يوم في حياة معصومة منذ الحادث، وقد شعرت بروانة لهذا بالامتنان تجاه أخيها الأكبر.

يقول نبي، وهو ينقر بإصبعه على الفنجان:

- قريبًا إن شاء الله.

- هل يمكن من فضلك أن تعدل تلك الوسادة أسفل رُكبتي يا نبي؟ حسنًا، هذا أفضل كثيرًا. شكرًا لك.

تتنهَّد معصومة وتواصل:

- لقد أحببت كابول. لو كان الأمر بيدي لاستيقظت غدًا ومشيت حتى هناك.

يقول نبي:

- ربما يومًا ما.

- ماذا، أن أمشي؟

- لا. كنت أقصد...

يتلعثم قليلًا، ثم يبتسم حين تنفجر معصومة ضاحكة.

في الخارج، يعطي نبي النقود لبروانة. يستند بإحدى كتفيه على الجدار ويُشعل سيجارة. معصومة بالداخل، تأخذ قيلولة ساعة الأصيل.

يقول، وهو يحك الجلد حول أظافره:

- رأيت صبور قبل قليل. شيء فظيع. أخبرني باسم الطفلة. لقد نسيت الآن.

تقول بروانة:

- باري.

يومئ برأسه:

- لم أسأل، لكنه قال لي إنه يرغب في الزواج مرَّة أخرى.

تشيح بروانة بوجهها، محاولة التظاهر بأنها ليست مُهتمة، لكن قلبها يدق في أذنيها. تشعر بشريط من العرق يتكوَّن على جلدها.

- كما قلت، أنا لم أسأله. صبور هو مَن فتح الموضوع. سحبني جانبًا. سحبني جانبًا وأخبرني.

تشك بروانة في أن نبي يعرف ما كانت تكنه لصبور طيلة تلك

السنوات. معصومة توأمها، لكن نبي هو الذي كان يفهمها دائمًا. لا تفهم بروانة لماذا يخبرها أخوها بهذا الخبر. ما الفائدة؟ إن صبور يحتاج إلى امرأة بلا مرساة، امرأة ليست مُقيدة، حرة في أن تكرس نفسها له، لولده، ولابنته الرضيعة. أما هي فوقتها مُستنفَد، محجوز. حياتها بأكملها كذلك.

تقول بروانة:

- أنا واثقة أنه سيعثر على واحدة.

يومئ نبي برأسه:

- سأرجع الشهر المُقبل.

يسحق سيجارته تحت قدمه ويودعها.

عندما تدخل بروانة الكوخ، تُفاجَأ برؤية معصومة مستيقظة.

- ظننتك نائمة.

تسحب معصومة نظرتها إلى النافذة، تطرف ببطء، وتعب.

* * *

عندما كانت الفتاتان في الثالثة عشرة، كانت أمهما ترسلهما أحيانًا إلى الأسواق المزدحمة في البلدات القريبة لقضاء حاجاتها. كانت رائحة المياه المرشوشة للتوِّ تتصاعد من الشارع غير المرصوف. كانتا تسيران في الحارات، تمران بالأكشاك التي تبيع الأراجيل، والشالات الحريرية، والقدور النحاسية، والساعات القديمة. تريان الدجاجات المذبوحة مُعلَّقة من أرجلها، تدور حول نفسها في دوائر صغيرة فوق قطع من لحم الضأن والأبقار.

في كل ممر كانت بروانة ترى عيون الرجال تتقد بالانتباه لدى مرور معصومة. كانت ترى ما يبذلونه من جهد لكي يبدو عليهم

عدم الاهتمام، لكن نظراتهم كانت تتلكأ، ولا تستطيع أن تحيد. فإذا نظرت معصومة في اتجاههم، بدوا مثل المعاتيه، وكأنهم نالوا امتيازًا هائلًا. كانوا يتخيَّلون أنفسهم يقضون لحظة معها. لدى مرورها، كانت العبارات تنقطع في منتصفها، والمدخنون يتوقفون عن سحب الأنفاس. كانت تتسبب في ارتعاش الرُّكب، وانسكاب الشاي من الأقداح.

في بعض الأيام كان ذلك يُشكل ضغطًا كبيرًا على معصومة، وتكاد تشعر بالخجل، فتطلب من بروانة أن تبقى في البيت طوال النهار، تريد ألا ينظر إليها أحد. في تلك الأيام، كانت بروانة تفكر أن أختها، في أعماقها، تفهم على نحو غائم أن جمالها سلاح، بندقية محشوة، ماسورتها مصوبة إلى رأسِها. مع ذلك، ففي أغلب الأيام، كان الاهتمام بها يبدو أنه يُسعدها. في أغلب الأيام، كانت تتلذذ بقدرتها على تشتيت أفكار الرجل بابتسامة واحدة عابرة وإنما إستراتيجية، أن تجعل الألسن تتلعثم وهي تنطق الكلمات.

كان جمالها هذا يخِز العيون.

كانت بروانة، تمشي مُبعثرة إلى جوارها، بصدرها المُسطَّح، وبشرتها الشاحبة، وشعرها الخشن، ووجهها الثقيل الكئيب، ومعصميها الغليظين، وكتفيها الرجوليين. ظلٌ مُثير للشفقة، ممزقة بين الحسد والشوق إلى أن يراها الناس مع معصومة، أن تشاطرها الانتباه، مثل عُشبة تنهل من مياه في طريقها لتسقي زنبقة.

طيلة حياتها، كانت بروانة تتحاشى الوقوف أمام مرآة واحدة مع أختها؛ كان ذلك يطيح بكل أمل لديها، أن ترى وجهها إلى

جوار وجه معصومة، أن ترى بهذا الوضوح ما الذي حُرمت منه. لكن في الخارج، كانت عين كل غريب مرآة. لا مفرَّ.

* * *

تحمل معصومة إلى الخارج. تجلسان على سرير الحبال الذي هيأته بروانة. تتأكد من ترتيب الوسائد بما يسمح لمعصومة أن تتكئ بوضع مُريح على الحائط. الليل هادئ، لا يقطعه إلا صرير الجداجد، ومظلم أيضًا، لا تُضيئه إلا مصابيح قليلة ما زالت ترتعش أضواؤها في النوافذ والضوء الأبيض الرقيق لثلاثة أرباع قمر.

تملأ بروانة إناء الأرجيلة بالمياه. تأخذ رقاقتين متساويتين في الحجم من الأفيون مع قبضة من التنباك وتضع الخليط في حُقِّ الأرجيلة. تُشعل الفحم فوق الشبكة المعدنية وتناول الأرجيلة لأختها. تسحب معصومة نفسًا عميقًا من الخرطوم، ثم تريح ظهرها على الوسائد، وتسأل إن كان بإمكانها أن تريح ساقيها على حِجر بروانة. تنحني بروانة وترفع الساقين المرتخيتين وتريحهما على ساقيها.

عندما تدخن معصومة، ينبسط وجهها، ويرتخي جفناها، ويميل رأسها مُترنحًا إلى أحد الجانبين، ويتلوَّن صوتها بشيء من الخمول والغياب، ويتشكَّل طيف ابتسامة على زاويتي فمها، ليست ابتسامة سعيدة، وإنما عبثية، وبليدة، وراضية. لا تتكلمان كثيرًا عندما تكون معصومة على تلك الحال. تصغي بروانة إلى النسيم، إلى الماء يُقرقر في الأرجيلة. تراقب النجوم والدخان ينجرف من فوقها. الصمت ممتع، ولا تشعر، لا هي ولا معصومة، بضرورة حشوه بكلمات لا ضرورة لها.

حتى تقول معصومة:

- هل تفعلين شيئًا لأجلي؟

تنظر بروانة إليها.

- أريدك أن تأخذيني إلى كابول.

تُخرج معصومة النَّفَس ببطء، يتلوى الدخان، يتموَّج، يتشكَّل في هيئات مختلفة مع كل طرفة عين.

- هل أنت جادة؟

- أريد أن أرى قصر «دار الأمان». لم تسنح لنا الفرصة في المرَّة السابقة. وربما نذهب لزيارة مقبرة «بابور» ثانية.

تنحني بروانة إلى الأمام لتفك شفرة تعبيرات معصومة. تبحث عن إشارة على المعابثة، لكنها لا ترى في ضوء القمر إلا اللمعة الهادئة التي لا تطرف في عيني أختها.

- إنها مسيرة يومين على الأقل، وربما ثلاثة.

- تخيَّلي وجه نبي عندما نُفاجئه على بابه.

- لكننا لا نعرف أين يعيش حتى.

تشيح معصومة بيدها في كسل:

- لقد أخبرنا باسم الحي. سوف نطرق بعض الأبواب ونسأل. ليس الأمر بهذه الصعوبة.

- وكيف سنصل إلى هناك يا معصومة، في حالتك هذه؟

تسحب معصومة خرطوم الأرجيلة من على شفتيها:

- عندما كنت تعملين بالخارج اليوم، جاء الملا شكيب، وتحدثت إليه لوقت طويل. قلت له إننا سنذهب إلى كابول لبضعة

أيام. أنا وأنت فقط. وقد أعطاني البركة في النهاية، وأعطاني بغله أيضًا. وهكذا ترين، كل شيء مُرتب.

تقول بروانة:

- أنت مجنونة.

- حسنًا، هذا ما أريده. إنها أمنيتي.

تريح بروانة ظهرها على الحائط، وتهز رأسها. تتجه نظرتها إلى أعلى داخل الظلمة المبرقشة بالسحاب.

- أكاد أموت من الملل يا بروانة.

تطلع من صدر بروانة تنهيدة وتنظر إلى أختها.

ترفع معصومة الخرطوم إلى شفتيها:

- أرجوك. لا تتخلي عني.

* * *

ذات صباح باكر، عندما كانت الأختان في السابعة عشرة، جلستا على فرع عالٍ من فروع شجرة البلوط، أقدامهما تتأرجح. كانت معصومة قد قالت بهمسة عالية:

- صبور سيطلبني.

- يطلُبك؟

قالتها بروانة من دون أن تفهم، على الأقل ليس على الفور.

ضحكت معصومة واضعةً فمها في كف يدها:

- ليس هو بالطبع. بالطبع لا. والده هو الذي سيطلبني.

الآن فهمت بروانة، وغاص قلبها في قدميها. قالت من خلال شفتين أصابهما الخدر:

- كيف عرفتِ؟

بدأت معصومة تتكلم، الكلمات تنساب من فمها بإيقاع مُهتاج، لكن بروانة لم تسمع شيئًا من ذلك تقريبًا. لقد راحت تتصوَّر زفاف أختها إلى صبور: أطفال في ملابس جديدة، يحملون سلال حناء تفيض بالأزهار، ومن خلفهم العازفون ينفخون في مزامير «الشهاني» ويضربون على طبل «الدهُل». صبور يفتح قبضة معصومة ويضع الحناء في كفها، ثم يربطها بشريط أبيض. تلاوة الأدعية، ومباركة الزواج. تقديم الهدايا. هو وهي يتبادلان النظر تحت طرحة مُطرزة بخيط ذهبي، كل منهما يناول الآخر ملعقة من الشربات و«المليدا».

وهي، بروانة، ستكون هناك بين الضيوف لتشاهد كل هذا، سيكون عليها أن تبتسم، وأن تصفق، وأن تبدو سعيدة، حتى وقلبها ينفطر ويتمزَّق.

هبت ريح عبر الشجرة، فجعلت الفروع حولهما تهتز والأوراق تصطفق. وكان على بروانة أن تتمالك نفسها.

كانت معصومة قد توقفت عن الكلام، وكانت تبتسم، وتعض على شفتها السُّفلى:

- **سألتني كيف عرفت أنه سيتقدم، سأُخبركِ. لا، سأُريكِ.**

استدارت وأعطت ظهرها لبروانة ومدت يدها في جيبها.

ثم جاء الجزء الذي لم تعرف معصومة شيئًا عنه. فبينما كانت أختها تنظر إلى الناحية الأخرى، تبحث في جيبها، ضربت بروانة بكعب قدمها على الفرع، ورفعت جسدها، ثم حطت به. اهتز الفرع. شهقت معصومة، وفقدت توازنها، ورفرف ذراعاها بقوة، ومالت إلى الأمام. رأت بروانة يديها وهما تتحركان. ما فعلتاه لم يكن دفعةً بالضبط، لكن كان ثمة اتصال بين ظهر معصومة وأنامل

بروانة، وكان ثمة لحظة قصيرة من الضغط الخفيف. لكن الأمر لم يدم لأكثر من لحظة قبل أن تمد بروانة يديها لأختها، لطرف قميصها، قبل أن تصرخ معصومة باسم أختها في ذعر، وتصرخ بروانة باسمها. شدت بروانة القميص، وللحظة بدا لها أن العدالة تحققت، وأنها قد أنقذت معصومة، لكن القماش تمزق، وانفلت من قبضتها.

سقطت معصومة من الشجرة، وكأن السَّقطة استمرت إلى الأبد. جسدها يصطدم بالفروع في طريقه إلى الأسفل، فيُفزع الطيور ويُسقط أوراق الشجر. جسدها يدور، ويقفز، ويكسر الفروع الأصغر، حتى يستقبل فرعٌ خفيضٌ سميكٌ، ذلك الفرع الذي عُلقت فيه الأرجوحة، أسفلَ ظهرها بصدمة عالية تثير الجزع. انثنت إلى الأسفل، انثنت نصفين تقريبًا.

بعدها ببضع دقائق، كانت دائرة قد تشكَّلت حولها. نبي، ووالد البنتين يصرخان باسم معصومة، يهزانها لإيقاظها. الوجوه تحدق إلى أسفل. أحدهما أمسك بيدها. كانت ما تزال قابضة على شيء. وعندما فردوا الأصابع، وجدوا عشر وريقات شجر صغيرة، بالضبط، مكرمشة في كف يدها.

* * *

تقول معصومة، وصوتها يرتجف قليلًا:

- يجب أن تفعليها الآن. إذا انتظرتِ حتى الصباح، فستخونك شجاعتك.

حولهما في كل مكان، وراء الوهج الخافت للنار التي كانت بروانة قد أذكتها بالأغصان وهشيم الأعشاب، كان الظلام يبتلع

ذلك البساط الموحش مترامي الأطراف من الرمال والجبال. لما يقرب من يومين كانتا قد سافرتا عبر الأرض القاحلة، متوجهتين إلى كابول. بروانة تسير إلى جوار البغل، ومعصومة مربوطة إلى السرج، وبروانة تمسك بيدها. كانتا قد قطعتا مسيرة شاقة في دروب منحدرة تتلوى وتنزل وتعود لتلتف وتمتد عبر الحروف الجبلية، الأرض تحت أقدامهما مُبرقشة بأعشاب بلون الكركم والصدأ، تقطعها شقوق عنكبوتية طويلة تمتد في كل اتجاه.

تقف بروانة الآن بالقرب من النار، تنظر إلى معصومة، كومة مُمددة مُلفعة على الجانب الآخر من اللهب.

تقول بروانة:

- وماذا عن كابول؟

- نعم، والمفترض أنك الذكية بيننا.

تقول بروانة:

- لا يمكنك أن تطلبي مني أن أفعل ذلك.

- أنا مُتعَبة يا بروانة. إنها ليست حياة تلك التي أعيشها. وجودي ليس سوى عقاب لكلينا.

تقول بروانة، وقد بدأ حلقها ينغلق:

- لنعُد وحسب. لا أستطيع أن أفعل ذلك. لا أستطيع أن أتركِكِ.

الآن تصرخ معصومة:

- أنتِ لا تتركينني. أنا التي أتركك. أنا أُطلق يديك.

تفكر بروانة في تلك الليلة البعيدة، ومعصومة مُعلَّقة في الأرجوحة، وهي تدفعها. كيف كانت تراقب معصومة وهي تمد

ساقيها وتُرجع رأسها إلى الخلف بقدر ما تستطيع مع كل طلعة إلى الأمام، شعرها الطويل يتطاير مثل ملاءات على حبل الغسيل. تتذكَّر كل تلك الدُّمى الصغيرة التي صنعتاها معًا من قش الذرة، وألبستاها فساتين زفاف مصنوعة من مزق القماش.

- أخبريني بأمر يا أختي.

تطرف بروانة لتمنع الدموع التي تشوش رؤيتها الآن وتمسح أنفها بظهر يدها.

- الصبي عبد الله، والطفلة الصغيرة باري. هل تظنين أن بمقدوركِ أن تحبيهما مثل طفليكِ؟

- معصومة!

- هل يمكنك؟

تقول بروانة:

- يمكنني.

- عظيم. تزوجي من صبور إذًا. اعتني بطفليه. وأنجبي أطفالًا لكِ.

- إنه يُحبك أنت، ولا يحبني أنا.

- سوف يُحبك مع الوقت.

تقول بروانة:

- كل ذلك بسببي. إنه خطئي. كل ذلك.

- لا أعرف معنى كلامك، ولا أريد أن أعرف. في هذه اللحظة، هذا هو الشيء الوحيد الذي أريده. الناس سيتفهَّمون يا بروانة. الملا شكيب سيُخبرهم، سيُخبرهم أنه باركني في هذه الفِعلة.

ترفع بروانة وجهها إلى السماء المظلمة.

- أريدكِ أن تكوني سعيدة يا بروانة. أرجوكِ كوني سعيدة. افعلي ذلك من أجلي.

توشك بروانة أن تُخبرها بكل شيء، أن تُخبر معصومة كم هي مُخطئة، وإلى أي حد لم تعرف الأخت التي شاركتها الرحم، وكيف كانت حياة بروانة، لسنوات، اعتذارًا واحدًا طويلًا غير منطوق. ولكن لأي سبب؟ لكي تستريح هي مرَّة أخرى على حساب معصومة؟ تعض على الكلمات. لقد كبدت أختها ما يكفي من الألم.

تقول معصومة:

- أريد أن أُدخِّن الآن.

تبدأ بروانة في الاحتجاج، لكن معصومة تقاطعها. تقول بنبرة حادة وجازمة:

- لقد حان الوقت.

من الحقيبة المُعلَّقة حول رأس السرج، تُخرج بروانة الأرجيلة. وبيدين مرتعشتين، تبدأ في إعداد الخليط المعتاد في حُقِّ الأرجيلة.

تقول معصومة:

- المزيد. ضعي المزيد.

بروانة، بنشيج وخدين مُبللين، تضيف قبصة أخرى، ثم أخرى، ثم المزيد. تُشعل الفحم وتضع الأرجيلة إلى جوار أختها.

تقول معصومة، والوهج البرتقالي للهب يرتعش على وجنتيها، وفي عينيها:

- الآن. إذا كنتِ أحببتني يومًا يا بروانة، إذا كنتِ أختي بحق، امضي في طريقكِ. لا قُبلات. لا وداع. لا تجعليني أتوسل إليك.

تشرع بروانة في قول شيء، لكن معصومة تُصدر صوتًا متألمًا مختنقًا، وتدير رأسها إلى الجهة الأخرى.

ترفع بروانة قدميها ببطء. تمشي إلى البغل وتُحكم تثبيت السرج. تشد لجام الدابة. تدرك فجأة أنها قد لا تعرف كيف تعيش من دون معصومة. لا تعرف إن كانت تعرف. كيف ستتحمل الأيام عندما يصبح غياب معصومة أشد وطأة بكثير مما كان وجودها طيلة الوقت؟ كيف ستتعلم أن تلتف حول حواف الفجوة الهائلة التي كانت تشغلها معصومة ذات يوم.

- تحلي بالشجاعة.

تكاد تسمع معصومة وهي تقول ذلك.

تشد بروانة اللجام، وتُدير البغل إلى الوراء، وتبدأ في المسير.

تمشي، تشق الظلام، فيما تضرب وجهها ريح الليل الباردة. تُبقي وجهها مُنكسًا. لا تستدير سوى مرَّة واحدة، لاحقًا. بعينين دامعتين، ترى نار المخيم بعيدة، خافتة، غبشًا أصفر صغيرًا. تتصور أختها التوأم مُمددة بجوار النار، وحيدة في الظلام. قريبًا، ستخمد النار، وستبرد معصومة. تدفعها غريزتها إلى العودة، لتُغطي أختها ببطانية وتنسل إلى جوارها.

تُجبر بروانة نفسها على الاستدارة، وتستأنف المسير من جديد.

عندها، تسمع شيئًا، صوتًا مكتومًا بعيدًا، مثل النحيب. تتوقف بروانة في طريقها. ترفع رأسها وتنصت ثانية. قلبها يبدأ الضرب في صدرها. تتساءل، مُرتعبة، إن كانت معصومة تنادي عليها، إن كانت غيَّرت رأيها. أو ربما ليس إلا صوت ابن آوى أو ثعلب صحراء يعوي في مكان ما في الظلام. لا تستطيع بروانة التأكد. تظن أنه قد يكون صوت الريح.

«لا تتركيني يا أختي. ارجعي».

الطريقة الوحيدة للتأكد هي أن ترجع من الطريق الذي جاءت منه، وتشرع بروانة في ذلك؛ تستدير وتسير بضع خطوات في اتجاه معصومة، ثم تتوقف. معصومة على حق؛ إذا عادت الآن، فلن تواتيها الشجاعة لأن تفعل ذلك عندما تطلع الشمس، ستخونها شجاعتها وينتهي الحال بأن تبقى إلى جوارها. ستبقى إلى الأبد. هذه هي الفرصة الوحيدة.

تغمض بروانة عينيها. الريح تجعل الوشاح يضرب وجهها.

لا يجب أن يعرف أحد. لن يعرف أحد. سيكون ذلك سرها، سرًّا لن تشاطره إلا مع الجبال. السؤال هو ما إذا كان سرًّا تستطيع التعايش معه، وتعتقد بروانة أنها تعرف الإجابة؛ لقد عاشت مع الأسرار طيلة حياتها.

تسمع النحيب مُجددًا من بعيد.

«**كلهم أحبوكِ يا معصومة.**

ولم يُحبني أحد.

ولماذا يا أختي؟ ماذا جنيتُ؟».

تقف بروانة من دون حراك في الظلام لوقت طويل.

في النهاية، تُحدد خيارها. تستدير، تُطأطئ رأسها، وتمضي في اتجاه أفق لا تستطيع أن تراه. بعدها، لا تلتفت إلى الخلف ثانية. تعرف أنها إن فعلت، ستضعف، ستفقد أي إصرار لديها، لأنها سترى درَّاجة قديمة تنزل مُسرعة على التل، تقفز على الصخور والحصى، والمعدن يصطدم بمؤخرة كلتيهما، وسُحب من التراب تثور مع كل قفزة مفاجئة. هي تجلس على الهيكل، ومعصومة هي الجالسة على المقعد، هي التي تأخذ تلك الانعطافة الحادة بأقصى

سرعة، فتسقط الدراجة في منحدر عميق. لكن بروانة ليست خائفة، إنها تعرف أن أختها لن تتركها تطير من فوق المقود، أنها لن تؤذيها. ينصهر العالم ويتحوَّل إلى دوامة مبهمة من الإثارة، ويضرب وشيش الريح آذانهما، وتنظر بروانة من فوق كتفيها إلى أختها، وتنظر أختها إليها، وتضحكان فيما تطاردهما كلاب مُتشردة.

تواصل بروانة المسير في اتجاه حياتها الجديدة. تواصل المشي، الظلام من حولها مثل رحم الأم، وعندما ينقشع، عندما ترفع رأسها في غبشة الفجر فترى شريطًا من الضوء الشاحب الآتي من الشرق يصطدم بجلمود من الصخر، تشعر أنها ولدت من جديد.

٤

بسم الله الرحمن الرحيم..

أعرف أنني سأكون قد رحلت وأنت تقرأ هذه الرسالة يا سيد «ماركوس»، فعندما أعطيتك إياها طلبت منك ألا تفتحها إلا بعد وفاتي. دعني أقل الآن كم أسعدتني معرفتك على مدار السنوات السبع الماضية يا سيد ماركوس. وأنا أكتب إليك الآن، أفكر بحنين إلى طقسنا السنوي في زراعة الطماطم في الحديقة، وزياراتك الصباحية إلى مقر إقامتي لشرب الشاي والدردشة، ودروس الفارسية والإنجليزية التي كنا نتبادلها ارتجالًا. إنني أشكرك على صداقتك، وعلى اهتمامك، وعلى الجهد الذي بذلته في هذا البلد، وأثق أنك ستنقل امتناني أيضًا إلى زملائك أصحاب القلوب الطيبة، وعلى وجه الخصوص إلى صديقتي الآنسة «أمرا أديموفيتش»، التي تمتلك تلك القدرة الكبيرة على التعاطف، وإلى ابنتها الشجاعة الجميلة، «روشي».

واجب عليَّ القول إن خطابي هذا ليس مُوجهًا إليك فقط، يا سيد ماركوس، وإنما لشخص آخر أيضًا، أتمنى أن يطَّلع عليه، كما سأُوضح لاحقًا. عفوًا، إذًا، إن وجدتني أكرر بعض الأمور التي تعرفها بالفعل. فأنا أدرجها بداعي الضرورة، من أجلها. وكما

سترى، فإن هذا الخطاب يحتوي على بعض الاعترافات يا سيد ماركوس، لكن ثمة أيضًا حسابات براغماتية من وراء هذه الكتابة. ولأجلها، اسمح لي أن أطلب منك المساعدة يا صديقي.

لقد فكرت طويلًا كيف أبدأ هذه القصة. ولم تكن تلك بالمهمة اليسيرة على رجل لا بد أنه تخطَّى العقد السابع من العمر. عمري الدقيق ظل لُغزًا غامضًا بالنسبة إليَّ، كما هو الحال مع الكثير من الأفغان من جيلي. لكنني واثق من تقديري، لأنني أتذكر جيدًا مباراة ملاكمة مع صبور، أحد أصدقائي، الذي أصبح بعد ذلك زوج شقيقتي، في اليوم الذي سمعنا فيه أن «نادر شاه» قد تعرَّض لإطلاق رصاص ولقي مصرعه، وأن ابن نادر شاه، الصغير «ظاهر»، قد اعتلى العرش. كان ذلك في عام ١٩٣٣. وأفترض أنني أستطيع أن أبدأ من هناك، أو من نقطة أخرى، فالقصة مثل قطار متحرك: أيًّا كان المكان الذي ستركب منه، فإنك ستصل إلى وجهتك عاجلًا أم آجلًا. لكنني أفترض أنني يجب أن أبدأ هذه الحكاية بالعنصر الذي يضع نهايتها. نعم، أعتقد أنه من المنطق أن أغلف هذه السيرة، من أولها إلى آخرها، بـ«نيلا وحدتي».

* * *

التقيتها عام ١٩٤٩، العام الذي تزوجت فيه من السيد وحدتي. في ذاك الوقت، كانت قد صارت لي سنتان في العمل مع السيد «سليمان وحدتي»، بعد أن انتقلت إلى كابول من شدباغ - القرية التي ولدت فيها - عام ١٩٤٦، كنت قد عملت لسنة في دار أخرى في الحي نفسه. ظروف رحيلي عن شدباغ ليست مدعاة للفخر يا سيد ماركوس. اعتبرها أول اعترافاتي، إذًا، عندما أقول

إنني أحسست بنفسي مُقيدًا بالحياة التي كانت لي في القرية مع شقيقتيَّ، وكانت إحداهما عاجزة. لا أقول إن ذلك يُبرئني، لكنني كنت شابًّا يا سيد ماركوس، توَّاقًا إلى غزو العالم، متخمًا بالأحلام، حتى وإن كانت أحلامًا متواضعة ومبهمة، وتصورت شبابي ينحسر، وطموحاتي تتضاءل يومًا بعد يوم. لذا غادرت، لأساعد على الإنفاق على شقيقتيَّ، نعم، هذا صحيح. ولكن أيضًا لأهرب.

ولما كنت عاملًا بدوام كامل لدى السيد وحدتي، فقد عشت في داره بدوام كامل أيضًا. في تلكم الأيام، لم يكن البيت يُشبه كثيرًا تلك الحال التي تدعو للرثاء كما وجدته أنت عندما وصلت إلى كابول عام ٢٠٠٢ يا سيد ماركوس. كان مكانًا بهيًّا جميلًا. كان البيت في تلك الأيام يتلألأ بوميض أبيض، وكأنما غُطي بغلالة من الماس. كانت البوابة الأمامية تفتح على طريق واسع معبَّد، وكان المرء يدخل إلى بهو ذي سقف عالٍ، مزين بمزهريات طويلة من الخزف، ومرآة مدورة لها إطار منحوت من خشب الجوز، في المكان نفسه الذي علقتَ فيه لبعض الوقت صورة صديقة طفولتك على الشاطئ، التي التُقطت بكاميرا منزلية الصنع. وكانت الأرضية الرخامية لغرفة المعيشة تلمع، تغطي جزءًا منها سجادة تركمانية. راحت السجادة الآن، كما راحت الأرائك الجلدية، وطاولة القهوة المصنوعة يدويًّا، وعدة الشطرنج المصنوعة من اللازورد، والخزانة العالية من خشب الماهوجني. لم ينجُ سوى القليل من الأثاث الفاخر، وأخشى أنه لم يعد كما كان من قبل.

المرَّة الأولى التي دخلت فيها المطبخ المبلط بالحجر، انفتح فمي على وسعه. فكرت أنه ضخم بما يكفي لإطعام كل قريتي في

شدباغ. كان به موقد بست عيون، وثلاجة، ومحمصة خبز، وعدد كبير من القدور، والقلايات، والسكاكين، والأجهزة المنزلية، طوع أمري. وكانت الحمَّامات الأربعة كلها مُبلطة، وبها مغاسل خزفية دقيقة الصنع. وتلك الفتحات المربعة في منضدة حمامك بالطابق العلوي يا سيد ماركوس؟ كانت ذات مرَّة مليئة بأحجار اللازورد.

ثم كانت هناك الباحة الخلفية. لا بد أن تجلس مرَّة في مكتبك بالطابق العلوي يا سيد ماركوس، وتنظر إلى الحديقة، وتحاول أن تتصورها كما كانت. كان المرء يدخلها عبر شرفة نصف دائرية لها درابزين مكسو بالكروم. والعشب في تلك الأيام كان ناضرًا وأخضر، مُرصعًا بأحواض من الزهور - ياسمين، نسرين، جيرانيوم، تيوليب - وعلى جانبيه صفان من أشجار الفاكهة. كان يمكن للمرء أن يستلقي تحت واحدة من أشجار الكرز يا سيد ماركوس، وأن يغمض عينيه، وينصت إلى النسيم الذي يشق طريقه عبر أوراق الشجر، ويفكر بأنه لا مكان على وجه الأرض أجمل من هذا للعيش.

أما مسكني فكان كوخًا في آخر الباحة. كانت له نافذة، وحوائط نظيفة مدهونة بالأبيض، ويوفر مساحة كافية تفي بالاحتياجات المتواضعة لرجل أعزب. كان عندي فراش، ومكتب، وكرسي، ومساحة كافية أفرد فيها سجادة الصلاة خمس مرَّات في اليوم. كان يناسبني تمامًا ساعتها، وهو يناسبني تمامًا الآن.

كنت أطهو للسيد وحدتي، وهي مهارة اكتسبتها أولًا من مراقبتي لوالدتي الراحلة، ثم لاحقًا من طاهٍ أوزبكي مُسن عمل في تلك الدار التي خدمتُ فيها في كابول لمدة عام كمساعد له.

كما كنت - وكان ذلك مصدرًا لسعادتي - سائق السيد وحدتي. كان يمتلك سيارة «شيفروليه» موديل منتصف الأربعينيات، زرقاء بسقف برونزي، ومقاعد زرقاء من الفينيل، وإطارات من النيكل، سيارة جميلة تجذب الأنظار أينما ذهبت. وقد سمح لي بقيادتها بعد أن أثبتُّ أنني سائق مُتعقِّل وماهر، كما أنه كان من هذا النوع النادر من الرجال الذين لا يستمتعون بقيادة السيارات.

رجاء، لا تظنني أتباهى يا سيد ماركوس، عندما أقول إنني كنت خادمًا جيدًا. فعبر الملاحظة الدقيقة، تعرفت على ما يحبه السيد وحدتي وما لا يحبه، نزواته، ومنغصاته. عرفت عاداته وطقوسه جيدًا. على سبيل المثال، كل صباح بعد الإفطار كان يحب أن يخرج للتنزه. لم يكن يحب المشي وحيدًا، مع ذلك، وهكذا كان ينتظر مني أن أرافقه. كنت أمتثل لتلك الرغبة بالطبع، مع أنني لم أفهم سبب وجودي. كان نادرًا ما يقول لي كلمة في أثناء تلك النزهات، وكان يبدو هائمًا في أفكاره. كان يمشي بنشاط، يداه معقودتان خلف ظهره، يومئ للمارة، وكعب خفه الجلدي الملمَّع جيدًا يُطقطق على الرصيف. ولأن ساقيه الطويلتين كانتا تمشيان في خطى لا أستطيع ملاحقتها، كنت دائمًا أتأخر عنه وأضطر إلى اللحاق به. بقية اليوم، كان يقضي أغلبه في مكتبه بالأعلى، يقرأ أو يلعب الشطرنج مع نفسه. كان يحب الرسم - ولو أنني لا أستطيع أن أشهد على مهارته، على الأقل ليس وقتها، لأنه لم يسبق أن أطلعني على أعماله الفنية - وكنت غالبًا ما أراه في المكتب، بجوار النافذة، أو في الشرفة، حاجباه معقودان في تركيز، وقلمه الفحم ينحني ويدور على صفحة الكراس.

كان يركب معي السيارة كل بضعة أيام، وننطلق في المدينة. يذهب لزيارة والدته مرَّة كل أسبوع. وكانت ثمة اجتماعات عائلية أيضًا. ومع أن السيد وحدتي كان يتجنب أغلبها، فقد كان يحضر بعض المناسبات. وكنت أقود به مرَّة كل شهر إلى متجر للأدوات الفنية، حيث يشتري احتياجاته من أقلام الشمع، والفحم، والمماحي، والبرَّايات، وكراسات الرسم. أحيانًا، كان يحب أن يجلس في المقعد الخلفي لنأخذ جولة فحسب. أقول له: «إلى أين يا صاحب؟»، فيهز كتفيه، فأقول: «حسنًا يا صاحب»، وأدفع ناقل الحركة، وننطلق. كنت أقود في أرجاء المدينة لساعات، دون هدف أو غرض، من حي إلى آخر، بمحاذاة نهر كابول، حتى «بالا حصار»، وأحيانًا نخرج إلى قصر دار الأمان. وفي بعض الأيام، كنت أقود إلى خارج كابول حتى بحيرة «غرغا»، حيث أوقف السيارة إلى جوار ضفاف المياه. أطفئ المحرك، والسيد وحدتي يجلس في سكون في المقعد الخلفي، لا يقول لي كلمة، ويكتفي بإنزال الشباك والنظر إلى الطيور وهي تندفع من شجرة إلى شجرة، وأشعة ضوء الشمس التي تضرب البحيرة ثم تتشظى إلى آلاف الشذرات المتذبذبة على المياه. أنظر إليه في المرآة فينظر إليَّ وكأنه أكثر شخص يحسُّ بالوحدة على وجه الأرض.

مرَّة في كل شهر، كان السيد وحدتي، يتكرَّم ويسمح لي أن أستعير سيارته، فأقودها إلى شدباغ، مسقط رأسي، لأزور شقيقتي بروانة، وزوجها صبور. كلما قدت إلى القرية، كانت تحييني أفواج من الأطفال وهم يتصايحون، ويركضون إلى جوار السيارة، ويخبطون على الرفرف، وينقرون على الشباك. بل إن بعض أولئك

«الأطفال صغار الحجم» كانوا يحاولون التسلق إلى السقف، فأبعدهم خوفًا من أن يخدشوا الطلاء أو يتسببوا في انبعاج الرفرف.

كان صبور يقول لي: «انظر يا نبي، لقد أصبحت من المشاهير».

ولأن طفليه، عبد الله وباري، قد فقدا أمهما (كانت بروانة زوجة أبيهما)، كنت أحاول دائمًا أن أوليهما الاهتمام، خصوصًا الصبي الأكبر، الذي بدا أنه بحاجة ماسَّة إلى ذلك. كنت أعرض عليه أن آخذه وحده في جولات بالسيارة، وإن أصرَّ دائمًا على اصطحاب أخته الصغيرة، فيمسكها بقوة في حجره، ونحن ندور في الطريق حول شدباغ. كنت أسمح له أن يشغِّل المسَّاحات، ويضرب النفير، وعلَّمته كيف يغير إضاءة المصابيح الأمامية، من الخافتة إلى القوية.

وبعد أن يخبو كل الصخب المتعلِّق بالسيارة، كنت أجلس لشرب الشاي مع شقيقتي وصبور، وأحكي لهما عن حياتي في كابول، حريصًا على ألَّا أتكلم كثيرًا عن السيد وحدتي. كنت، في الحقيقة، مُغرمًا به، لأنه كان يُحسن معاملتي، والكلام عنه من وراء ظهره يبدو لي نوعًا من الخيانة. لو كنت موظفًا أقل كتمانًا، لقُلت لهما إن سليمان وحدتي شخص مُحيِّر بالنسبة إليَّ، رجل يبدو أنه راضٍ بأن يعيش بقية أيامه على الثروة التي ورثها، رجل ليست له وظيفة، ولا شغف بأمر محدد، وواضح أنه ليست لديه أي رغبة في أن يترك وراءه شيئًا من نفسه في هذا العالم. لقلت لهم إنه يعيش حياة بلا غرض ولا قصد، مثل تلك الجولات التي بلا هدف التي كنت أصحبه فيها. حياة يعيشها من المقعد الخلفي، يراقبها وهي تذوي. حياة من اللامبالاة.

هذا ما كنت سأقوله، لكنني لم أفعل. وحسنًا أنني لم أفعل، فأيُّ خطأ كنت سأرتكب.

* * *

ذات يوم، دخل السيد وحدتي باحة الدار وهو يلبس بدلة مضلعة أنيقة، بدلة لم أره يرتديها من قبل، وطلب مني أن آخذه إلى حي من أحياء المدينة الراقية. عندما وصلنا، أمرني أن أصفَّ السيارة في الشارع أمام بيت جميل له جدران عالية، وراقبته وهو يضغط على الجرس عند البوابة ويدخل عندما أجابهُ الخادم. كان البيت ضخمًا، أكبر من بيت السيد وحدتي، بل وأجمل: أشجار سرو رشيقة سامقة تزين مدخل السيارات، إلى جانب صف كثيف من شجيرات زهرة لم أتعرف عليها. كانت مساحة الباحة الخلفية على الأقل ضعف مساحة نظيرتها في بيت السيد وحدتي، والجدران تنتصب عالية جدًّا، حتى إن رجلًا يعتلي كتفي آخر لن يستطيع أن يختلس نظرة. كان هذا ثراء من درجة أخرى، هكذا لاحظت.

كان يومًا مُشرقًا من أوائل أيام الصيف، السماء تتألق بضوء الشمس، والهواء الدافئ يهب عبر شبابيك السيارة التي أغلقتها بنفسي. ومع أن وظيفة السائق هي القيادة، فالواقع أنه يقضي جُل وقته في الانتظار: الانتظار أمام المتاجر والمحرك متوقف، الانتظار أمام قاعة زفاف يستمع إلى صوت الموسيقى المكتوم. ولقضاء الوقت في ذاك اليوم، رُحت ألعب بضعة أدوار من الورق. وعندما سئمت من الورق خرجت من السيارة، وخطوت بضع خطوات في اتجاه معين، ثم غيرت وجهتي نحو اتجاه آخر. دلفت إلى السيارة مرَّة أخرى، أفكر في اختلاس إغفاءة قبل عودة السيد وحدتي.

في تلك اللحظة، انفتحت البوابة الأمامية، وخرجت امرأة شابة سوداء الشعر. كانت تضع نظارة وترتدي فستانًا بأكمام قصيرة؛ فستانًا بلون البرتقال اليوسفي لا يصل إلى رُكبتيها. كانت ساقاها عاريتين، وكذلك قدماها. لا أعرف إن كانت لاحظتني جالسًا في السيارة، لكن حتى إن كانت فعلت فلم يبدُ عليها ذلك. استندت بكعب إحدى قدميها على الجدار خلفها، وعندما فعلت ذلك، ارتفع ذيل ثوبها قليلًا فكشف عن جزء من الفخذ أسفله. شعرت بحريق ينتشر بداخلي من وجنتيَّ إلى عنقي.

اسمح لي أن أدلي باعتراف آخر هنا يا سيد ماركوس، اعتراف ذي طبيعة كريهة نوعًا، ويصعب تزويقُه: في ذلك الوقت، لا بد أنني كنت في أواخر العشرينيات، شابًّا يافعًا، في أوج رغباته لرفقة امرأة. وبخلاف الكثير من الرجال الذين نشأت معهم في قريتي - شباب لم يسبق لهم أن رأوا فخذ امرأة ناضجة، وأحد الأسباب التي تدفعهم للزواج هو أن يُتاح لهم، على الأقل، إلقاء نظرة على منظر كهذا - كنت أتمتع ببعض الخبرة؛ فقد سبق لي أن عرفت، وزُرت أحيانًا، مُنشآت في كابول تُلبَّى فيها احتياجات الشاب على نحو ملائم وبسرية تامة. وإنني لا أذكر ذلك إلا لكي أؤكد أنه لا عاهرة وقع عليها نظري أبدًا يمكن أن تُقارَن بهذه المخلوقة الجميلة الرقيقة التي خرجت لتوِّها من البيت الكبير.

مستندة إلى الجدار، أشعلت سيجارة، ودخَّنت من دون استعجال وبرقَّة خلابة، وهي تمسكها بطرفي إصبعيها مُكوِّرةً يدها أمام فمها في كل مرَّة ترفعها إلى شفتيها. أخذت أُراقب بانتباه مفتون. وذكَّرني منظر يدها المثنية من عند رسغها النحيل برسم رأيته ذات مرَّة في

أحد دواوين الشعر فاخرة الطباعة لامرأة طويلة الأهداب ذات شعر داكن مُنساب ممددة إلى جانب عشيقها في الحديقة، تُقدِّم له كأسًا من النبيذ بأصابعها الرقيقة الشاحبة. وفي لحظة معينة، بدا أن شيئًا قد جذب انتباه المرأة في الشارع إلى الاتجاه المعاكس، واستغللت الفرصة القصيرة لكي أهندم شعري بأصابعي سريعًا، حيث كان قد بدأ يتلبد في الحر. وعندما استدارت، تجمدتُ مرَّة أخرى. سحبت بضعة أنفاس أخرى، وسحقت السيجارة في الجدار، ومضت على مهل عائدة إلى الداخل.

وأخيرًا، أصبحت قادرًا على التنفس.

تلك الليلة، استدعاني السيد وحدتي إلى غرفة المعيشة وقال:

- عندي خبر لك يا نبي. سأتزوج.

يبدو أنني قد بالغت في تقدير ولعه بالوحدة في نهاية الأمر.

انتشر خبر الخطبة سريعًا، ومعه انتشرت الشائعات. سمعتها من العمال الذين كانوا يدخلون ويخرجون من بيت السيد وحدتي. وكان «زاهد» أكثرهم ثرثرة، وهو بستاني يأتي ثلاثة أيام في الأسبوع للعناية بالعشب وتقليم الأشجار والشجيرات. شخص سخيف لديه تلك العادة المنفرة؛ إذ يُطرقع لسانه بعد كل جملة يقولها، لسانه الذي كان يستخدمه في نشر الشائعات هنا وهناك كما يرمي قبضات من السماد. كان أحد العمال الذين يقضون حياتهم، مثلي، في العمل في بيوت المنطقة طباخين، وبستانيين، وسعاة. مرَّة أو مرَّتين أسبوعيًّا، بعد انتهاء يوم العمل، كانوا ينحشرون في كوخي لتناول الشاي بعد العشاء. لا أذكر كيف بدأ هذا الطقس، ولكن، فور أن بدأ، عجزت عن إيقافه، محاذرًا أن أظهر بمظهر الوقح غير

المُرحِّب، أو، الأسوأ، أن أبدو كأنني أنظر إلى نفسي بوصفي أرقى من أقراني.

ذات ليلة ونحن نشرب الشاي، أخبر زاهد الرجال الآخرين أن أسرة السيد وحدتي لا توافق على الزيجة بسبب سوء أخلاق زوجته المستقبلية. قال إنه من المعروف في كابول أنها لا تملك «النانج والناموس»، لا تملك الشرف، وأنها رغم كونها لا تزال في العشرين من عمرها فقد «رُكبت في كل أنحاء البلدة»، مثل سيارة السيد وحدتي. والأسوأ من كل ذلك، كما قال، ليس فقط أنها لم تحاول إنكار تلك المزاعم، ولكن أنها كتبت قصائد عنها. وانتشرت همهمة من الاستياء في أرجاء الغرفة عندما قال ذلك. وعلق أحد الرجال بقوله إنها لو كانت في قريته لذبحوها.

عندها وقفت وقلت لهم إنني سمعت ما يكفي، وعنَّفتهم على تداول النمائم مثل مجموعة من الخياطات العجائز، وذكَّرتهم أنه من دون أناس مثل السيد وحدتي لكان أمثالنا ما زالوا في قراهم يجمعون روث الأبقار، وسألتهم: **أين الوفاء؟ أين الاحترام؟**

انقضت لحظة قصيرة من الصمت فكرت خلالها أنني أحدثت أثرًا في هؤلاء المُغفلين، ثم انفجرت ضحكة. قال زاهد إنني أفضَل من يلعق المؤخرات، وربما تكتب ربة البيت المستقبلية قصيدة تُسميها «أنشودة لنبي، عاشق لعق المؤخرات». خرجت ساخطًا من الكوخ بخُطى عنيفة وسط جلبة من القهقهات.

لكنني لم أذهب بعيدًا. لقد نفَّرتني النمائم التي راحوا يتداولونها، ولكنها سحرتني في الوقت نفسه. وعلى الرغم من استعراض استقامتي، وكل كلامي عن الاحتشام والستر، فقد ظللت

حريصًا على الاستماع إلى كلامهم. لم أرغب في أن أفوِّت تفصيلًا واحدًا من التفاصيل الفاضحة.

لم تستمر الخطبة لأكثر من أيام ثم انتهت، لا بحفل كبير بمطربين وراقصين ولهو هنا وهناك، ولكن بزيارة قصيرة إلى أحد الملالي، وشاهدين، وتوقيعين على صفحة من ورق. وبهذا، وبعد أسبوعين من وقوع نظري عليها للمرَّة الأولى، انتقلت السيدة وحدتي إلى البيت.

* * *

اسمح لي بوقفة قصيرة هنا يا سيد ماركوس، لأقول إنني من الآن فصاعدًا سأشير إلى زوجة السيد وحدتي باسم «نيلا». غني عن القول أن تلك أريحية لم يكن مسموحًا لي بها في ذلك الوقت، ولم أكن لأقبلها حتى لو عرضت عليَّ. كنت أشير إليها دائمًا باسم «بيبي صاحب»، بالاحترام المنتظر من جانبي. لكن لأغراض هذا الخطاب، سأتخلى عن آداب اللياقة وأشير إليها كما كنت أفكر فيها طوال الوقت.

كنت أعرف من البداية أن الزيجة ليست سعيدة؛ فنادرًا ما كنت أرى نظرة مَحبة تمر بين الزوجين، أو أسمع كلمة عطف على لسانيهما. كانا شخصين يسكنان البيت، طريقاهما نادرًا ما يتقاطعان.

في الصباحات، كنت أقدم للسيد وحدتي إفطاره المعتاد - قطعة من خبز النان المحمص، نصف كوب من الجوز، شايًا أخضر مع رشة هال وبدون سكر، وبيضة مسلوقة واحدة. كان يحب أن يسيل الصفار عندما ينقر البيضة، وكان عجزي في أول الأمر عن إنجاز هذا التفصيل المحدد قد أصابني بقلق ملحوظ. وفيما كنت

أرافق السيد وحدتي في نزهته الصباحية اليومية، كانت نيلا تظل نائمة، غالبًا حتى الظهيرة أو بعدها، وعندما تستيقظ أكون على أهبة الاستعداد لتقديم الغداء للسيد وحدتي.

طيلة الصباح، وأنا أنجز أشغالي، كنت أتحرَّق شوقًا للحظة التي تدفع فيها نيلا الباب الخارجي الذي يفتح من غرفة المعيشة إلى الشرفة. كنت ألعب ألعابًا في رأسي، أخمن مظهرها في هذا اليوم المحدد. أتساءل: هل سترفع شعرها، أم تعقده على شكل كعكة على مؤخرة عنقها، أم سأراه حرًّا منسابًا على كتفيها؟ هل ستضع نظارة شمسيَّة؟ هل ستقرر انتعال صندل؟ هل ستختار الرداء الحريري الأزرق ذا الحزام أم الرداء الأرجواني ذا الأزرار المستديرة الكبيرة؟

عندما تدخل أخيرًا، كنت أشغل نفسي في الباحة، مُتظاهرًا بأن سقف السيارة بحاجة إلى مسح، أو أجد شجيرة نسرين أسقيها، لكنني كنت أراقب طوال الوقت. أراقبها وهي ترفع النظارة الشمسيَّة، أو وهي تدعك عينيها، أو وهي تخلع الشريط المطاطي من شعرها وترمي برأسها إلى الوراء لتجعل التموجات اللامعة تنساب حرة. وكنت أراقبها وهي تجلس وذقنها متكئ على ركبتيها، تحدق في الباحة، وتسحب أنفاسًا متمهلة من سيجارتها، أو وهي تعقد ساقيها وتهز إحدى قدميها إلى أعلى وأسفل، تلك الإيماءة التي كنت أراها تعبيرًا عن ملل أو قلق أو ربما شقاوة طائشة لا تحرص على كبح جماحها.

كان السيد وحدتي، من حين إلى آخر، يظهر إلى جوارها، لكن ذلك لا يحدث في أغلب الأحيان. كان يقضي معظم أيامه مثلما

اعتاد، يقرأ في مكتبه بالطابق العلوي، أو يرسم رسوماته. وبقي نظامه اليومي من دون تغير كبير بعد أن أصبح متزوجًا. كانت نيلا تكتب في أغلب الأيام، سواء في غرفة المعيشة أو في الشرفة، القلم الرصاص في يدها، والأوراق تتساقط عن حجرها، والسجائر دائمًا. في الليل، كنت أُقدِّم لهما العشاء، وكانا يتناولان الطعام في صمت تام، العيون تنظر في طبق الأرز، والصمت لا يكسره إلا همهمات «أشكرك» ورنين الملعقة والشوكة على أطباق الصيني.

مرَّة أو مرَّتين أسبوعيًّا، كان عليَّ أن أُقِلَّ نيلا عندما تحتاج إلى علبة سجائر، أو مجموعة أقلام جديدة، أو كراس جديد، أو عدة زينة. وحين كان يتسنى لي أن أعرف مُسبقًا أنني سأُقِلُّها، أتأكد من تمشيط شعري وغسل أسناني. أغسل وجهي، وأفرك شريحة من الليمون بين أصابعي لأخلصها من رائحة البصل، وأنفض التراب عن بدلتي، وألمع حذائي. كانت البدلة، ولونها زيتوني، بدلة مستعملة أعطاها لي السيد وحدتي، وكنت آمل أنه لم يخبر نيلا بهذا - مع أنني شككت أنه ربما فعل، ليس خبثًا منه، وإنما لأن الناس في مقام السيد وحدتي غالبًا لا يستطيعون تقدير كيف لأشياء صغيرة وتافهة مثل هذه أن تجلب العار على شخص مثلي. أحيانًا، كنت حتى أعتمر طاقية جلد الحمل التي ورثتها عن والدي. أقف هناك قبالة المرآة، أُميل الطاقية في هذا الاتجاه وذاك على رأسي، وأنا مستغرق تمامًا في محاولة تحسين مظهري من أجلها، حتى إنه لو وقف دبور على أنفي لكان عليه أن يلسعني قبل أن أنتبه لوجوده.

فور أن نخرج إلى الطريق، كنت أبحث عن لفَّات صغيرة نحو وجهتنا، لو أمكن، لفات تطيل الرحلة لدقيقة - أو ربما لدقيقتين،

ولكن ليس أكثر حتى لا يعتريها الشك - ومن ثَمَّ تمد زمن بقائي معها. أقود ويداي تقبضان على العجلة، وعيناي مثبتتان على الطريق. أمارس أقصى درجات ضبط النفس ولا أنظر إليها في المرآة، فلا أفعل ذلك إلا حين تتحدث إليَّ. أشعر بالرضا لمجرد وجودها في المقعد الخلفي، لمجرد استنشاقي روائحها المتعددة - صابونًا غالي الثمن، كِريمًا، عطرًا، لبانًا، دخانَ سجائر. كان ذلك، في أغلب الأيام، كافيًا لتزويد روحي المعنوية بجناحين.

في السيارة دارت أولى محادثاتنا. أولى محادثاتنا «الحقيقية»، أقصد، باستثناء المرَّات العديدة التي طلبَت فيها مني أن أجلب لها شيئًا أو أحمل آخر. كنت أُقلها إلى صيدلية لتشتري دواء، وقالت:

- كيف هي قريتك يا نبي؟ قل لي مرَّة أخرى كيف هي؟

- شدباغ يا بيبي صاحب؟

- شدباغ، نعم. كيف هي؟ أخبرني.

- لا أستطيع أن أقول الكثير يا بيبي صاحب. إنها قرية مثل أي قرية.

- نعم، بالتأكيد فيها شيء مميز.

ظل مظهري هادئًا، لكنني كنت متوقدًا من الداخل، أحاول يائسًا أن أسترجع شيئًا، طرافة مميزة، قد تثير اهتمامها، قد تسليها، لكن من دون فائدة. فما الذي يمكن أن يقوله رجل مثلي، قروي، رجل صغير له حياة صغيرة، لكي يستحوذ على خيال امرأة مثلها؟ قلت:

- العنب فيها ممتاز.

وفور أن نطقت بالكلمات وددت لو أصفع نفسي على وجهي. عنب؟

قالت بصوت خفيض:

- حقًّا؟

- شديد الحلاوة بحق.

- حسنًا.

كنت أموت ألف ميتة من داخلي. شعرت ببلل وقد بدأ يتجمع تحت ذراعيَّ.

قلت، بفم صار جافًّا فجأة:

- هناك نوع معين من العنب، يقولون إنه لا ينمو إلا في شدباغ. شجرة ضعيفة، تعرفين، هشة للغاية، إذا حاولتِ زراعتها في أي مكان آخر، حتى في القرية المجاورة، فسوف تذبل وتموت، سوف تهلك. تموت من الحزن، كما يقول الناس في شدباغ. لكن هذا بالطبع ليس صحيحًا. إنها مسألة تربة ومياه. لكن هذا ما يقولونه يا بيبي صاحب. الحزن.

- هذا لطيف جدًّا يا نبي.

استغللت الفرصة، وألقيت نظرة خاطفة في المرآة، فرأيت أنها كانت تنظر من الشباك، لكنني وجدت أيضًا - وهو ما أراحني كثيرًا - أن زاويتي فمها مقلوبتان إلى أعلى قليلًا، في شبح ابتسامة. الآن وقد تشجعت، سمعت نفسي أقول:

- هل أحكي لك قصة أخرى يا بيبي صاحب؟

- أرجوك.

وطقطقت القداحة، وانجرف الدخان في اتجاهي من المقعد الخلفي.

- حسنًا، لدينا مُلًّا في شدباغ. كل قرية بالطبع لديها ملا، والملا عندنا اسمه الملا شكيب، ولديه قصص لا تنتهي، ولا أستطيع أن أُخبركِ عن عدد القصص التي يعرفها، لكن أحد الأشياء التي كان يقولها لنا دائمًا هو أنك إذا نظرت إلى كفَّي أي مسلم، في أي مكان في العالم، فسترى شيئًا مدهشًا، سترى فيها جميعًا الخطوط نفسها. ومعنى ذلك أن الخطوط على اليد اليُسرى للمسلم ترسم الرقم العربي «واحدًا وثمانين»، والخطوط على اليد اليمنى ترسم الرقم «ثمانية عشر». اطرح الثمانية عشر من الواحد وثمانين فماذا يكون لديك؟ يكون لديك ثلاثة وستون؛ عُمر النبي، عليه الصلاة والسلام، عندما تُوفِّي.

سمعت قهقهة مكتومة من المقعد الخلفي.

- وكان ثمة عابر سبيل، وبالطبع، جلس مع الملا شكيب لتناول الطعام في ذلك المساء، كما هي العادة. وسمع عابر السبيل هذه القصة وفكر فيها، ثم قال: «لكن يا ملا صاحب، مع كل الاحترام، فقد قابلت يهوديًّا ذات مرَّة وأُقسم أن كفيه كانتا تحملان الخطوط نفسها. فكيف تفسر هذا؟» وقال الملا صاحب: «إذًا، فقد كان اليهودي مُسلمًا في قلبه».

ضحكتها الرنانة المفاجئة خلبت لُبي لبقية اليوم. بدا الأمر وكأنها - أستغفر الله العظيم - قد تنزلت عليَّ من السماء نفسها، من جنات النعيم، كما يقول الكتاب، التي تجري من تحتها الأنهار، حيث الظل ممدود، والفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة.

تفهم يا سيد ماركوس أن ما سحرني ليس جمالها وحسب، مع أنه وحده كان يكفي. ولكنني لم ألتق في حياتي بامرأة شابة مثل نيلا. كان كل ما تفعله - طريقة كلامها، مشيتها، لبسها، ابتسامها - بدعة بالنسبة إليَّ. كانت نيلا تتحدى كل أفكاري عن السلوك القويم الذي يجب على النساء اتباعه، وعرفت أن تلك كانت خصلة تُجابَه برفض ساحق من جانب أناس مثل زاهد - وبالطبع صبور أيضًا، وكل رجل في قريتي، وكل النساء - لكن بالنسبة إليَّ كان هذا يضيف شيئًا آخر إلى جاذبيتها وغموضها الهائلين.

وهكذا، ظلت ضحكتها ترن في أذنيَّ وأنا أواصل عملي في ذلك اليوم. وبعدها، عندما جاء بقية العمال لشرب الشاي، رُحت أبتسم، وأكتم وقوقاتهم بالرنين الحلو لضحكتها، وشعرت بالزهو لأن قصتي البارعة قد منحتها لحظة ترويح من خيبة الأمل التي كانت تصبغ زيجتها. كانت امرأة استثنائية. وذهبت إلى الفراش تلك الليلة وأنا أشعر أنني أنا نفسي - ربما - شخص غير عادي. كان ذلك هو الأثر الذي تركته فيَّ.

* * *

سرعان ما أصبحنا نتحادث يوميًّا، أنا ونيلا، عادة قرب الظهيرة عندما كانت تجلس لترتشف القهوة في الشرفة. كنت أتلكأ مُتظاهرًا بأنني أقوم بمهمة أو أخرى، ثم، وأنا أستند إلى جاروف أو أشرب كوبًا من الشاي الأخضر، أتحدث إليها. كنت أشعر بأنني مميز لأن اختيارها وقع عليَّ. لم أكن الخادم الوحيد، في نهاية الأمر؛ وقد ذكرت بالفعل هذا العلجوم معدوم الضمير زاهد، وكانت هناك تلك المرأة من قبائل «الهزَّاره»، ذات الألغاد الثقيلة التي كانت

تأتي مرَّتين أسبوعيًّا لغسل الغسيل. لكنها التفتت إليَّ أنا. كنت أنا الوحيد، على ما أعتقد، بمن في ذلك زوجها، الذي تتخلى معه عن وحدتها؛ غالبًا كانت هي التي تتكلم، وهو ما ناسبني جدًّا. كنت سعيدًا بما يكفي لأن أكون الوعاء الذي تصب فيه قصصها. حكت لي، على سبيل المثال، عن رحلة صيد إلى «جلال أباد» قامت بها مع والدها، وكيف ظلت تراودها، على مدار أسابيع، كوابيس عن غزلان ميتة لها عيون زجاجية. قالت لي إنها ذهبت مع والدتها إلى فرنسا عندما كانت طفلة، قبل الحرب العالمية الثانية. وللوصول إلى هناك، استقلَّت قطارًا وسفينة. وصفت لي كيف أحست أن عجلات القطار تحتكُّ بضلوعها. وتذكرت جيدًا الستائر المُعلَّقة بخطاطيف، والكبائن المنفصلة، والنفخ والهسيس الإيقاعي للمحرك البخاري. حكت لي عن الأسابيع الستة التي قضتها السنة السابقة في الهند مع والدها عندما تمكَّن منها المرض.

وبين حين وآخر، عندما تستدير لتنفض الرماد في صحن، كنت أختلس نظرة سريعة إلى الطلاء الأحمر على أظافر قدميها، إلى اللمعة الذهبية لربلتي ساقيها الحليقتين، لقوس قدمها العالي، ودائمًا لنهديها الممتلئين كاملي الأوصاف. وكنت أتعجب أن هناك رجالًا على سطح هذه الأرض قد لمسوا هذين النهدين وقبَّلوهما وهم يمارسون الحب معها. ما الذي يتبقى لك في الحياة بعد أن تنعم بذلك؟ إلى أين يذهب الرجل بعد أن يقف على قمة العالم؟ كان الأمر يتطلب عزيمة قوية لكي أرد عيني إلى نقطة آمنة عندما تستدير لتواجهني.

ومع ازدياد أريحيتها، بدأت تشكو لي، في أثناء تلك الدردشات

الصباحية، من السيد وحدتي. قالت، ذات يوم، إنها اكتشفت أنه مُتعالٍ، بل ومغرور.

قلت:

- لطالما كان كريمًا جدًّا معي.

أشاحت بإحدى يديها مُستهجنة:

- أرجوك يا نبي. ليس مطلوبًا منك أن تقول هذا.

بتأدُّب، نظرت إلى الأسفل. ما قالته لم يكن خطأً تمامًا؛ فقد كانت لدى السيد وحدتي، على سبيل المثال، عادة تقويم طريقة كلامي بنوع من الاستعلاء يمكن أن يفسر، ربما خطأ، بوصفه غرورًا. أحيانًا كنت أدخل الغرفة، وأضع صحن الحلويات أمامه، وأصب له فنجانًا آخر من الشاي، وأمسح الفتات عن الطاولة، فيتجاهلني كما يتجاهل ذبابة تزحف على الباب، يصيِّرني نكرة من دون حتى أن يرفع عينيه. في النهاية، مع ذلك، لم تكن تلك إلا مماحكة بسيطة، إذ إنني أعرف أناسًا يسكنون في المنطقة نفسها - أناسًا سبق أن عملت لحسابهم - يضربون خدمهم بالعصي والأحزمة.

قالت، وهي تقلب قهوتها بفتور:

- إنه لا يتمتع بأدنى درجة من حس الدعابة أو المغامرة. سليمان رجل مُسن مهموم محبوس في جسد شاب.

أربكتني صراحتها العفوية، وقلت بحذر دبلوماسي:

- صحيح أن السيد وحدتي سعيد بعزلته على نحو خاص.

- ربما عليه أن يعيش مع أمه. ما رأيك يا نبي؟ سوف ينسجمان تمامًا، صدقني.

والدة السيد وحدتي كانت امرأة ثقيلة، أقرب إلى العجرفة، تعيش في جزء آخر من البلدة، رفقة فريق لا غنى عنه من الخدم وكلبيها المحبوبين. وكانت تُدلل هذين الكلبين، وتعاملهما لا كأنداد لخدمها وإنما بوصفهما أعلى مقامًا، وبدرجات عدة. كانا مخلوقين صغيرين، أصلعين، قبيحين، يرتبكان لدى أدنى بادرة، مسكونين بالقلق، وميالين للنباح بأعلى صوت تجزع له النفس. لكم احتقرتهما، فكلما خطوت داخل المنزل قفزا على ساقيَّ وحاولا تسلقهما ببلاهة.

كنت أرى بوضوح أنه في كل مرَّة أصحب نيلا والسيد وحدتي إلى منزل المرأة العجوز، يصبح الجو في المقعد الخلفي مثقلًا بالتوتر، وكنت أعرف من التكشيرة المتألمة على جبهة نيلا أنهما قد تعاركا. أتذكر أن والديَّ عندما كانا يتعاركان، لم يكونا يتوقفان حتى ينتصر أحدهما انتصارًا واضحًا. تلك هي طريقتهما في إنهاء المرارات، أن يعزلاها بحكم نهائي، ويمنعاها من التسرب إلى داخل حياتهما الطبيعية في اليوم التالي. لم يكن الأمر كذلك مع آل وحدتي. معاركهما لم تكن تنتهي وإنما تتشتت، مثل نقطة حبر في طاسة ماء، فتخلِّف وراءها لطخة لا تزول سريعًا.

لم يتطلب الأمر ألعابًا بهلوانيَّة ذهنية لأحدس أن المرأة العجوز لم توافق على الزواج وأن نيلا كانت تعرف.

في محادثاتنا تلك، أنا ونيلا، كان ثمة سؤال يقفز إلى رأسي مرَّة بعد مرَّة: لماذا تزوجت من السيد وحدتي؟ لم أمتلك الشجاعة لطرحه عليها؛ إذ إن ذلك سيُعد تجاوزًا للياقة لا تسمح به طبيعتي. كان بوسعي فقط أن أستخلص أن الزواج - حتى وإن كان تعيسًا

مثل هذا - بالنسبة إلى بعض الناس، وعلى الخصوص النساء، مهرب من تعاسة أكبر وأكبر.

ذات يوم، في خريف عام ١٩٥٠، استدعتني نيلا، وقالت:

- أريدك أن تأخذني إلى شدباغ.

قالت إنها تريد أن تقابل عائلتي، أن ترى من أين جئت. قالت إنني أُقدِّم إليها الطعام، وأقود السيارة التي تقلُّها في أرجاء كابول منذ عام الآن، وهي لا تكاد تعرف شيئًا عني. وقد أربكني طلبها، على أقل تقدير، إذ إن من غير المعتاد بالنسبة لشخص في مكانتها أن يطلب قطع هذه المسافة لرؤية عائلة خادم لديه. في الوقت نفسه، انتعشت آمالي، لأن نيلا اهتمت بي إلى هذه الدرجة، وتوجستُ، حيث تنبأتُ بما سأكون فيه من انزعاج - نعم، وعار أيضًا - حين ترى الفقر الذي ولدتُ فيه.

انطلقنا ذات صباح مُلبد بالغيوم. ارتدت هي حذاء بكعب عالٍ وفستانًا خوخيًّا بلا أكمام، لكنني لم أرَ أن مكانتي تسمح بأن أنصحها بغير ذلك. في الطريق، سألتني عن القرية، عن الناس الذين أعرفهم، أختي وصبور، وأطفالهما.

- أخبرني بأسمائهم.

قلت:

- عبد الله، سيبلغ التاسعة قريبًا. أمه تُوفيت العام الماضي، لذا فإن بروانة أختي هي زوجة أبيه. وشقيقته باري في الثانية من عمرها تقريبًا. بروانة أنجبت طفلًا الشتاء الماضي - كان اسمه عمر - لكنه تُوفِّي بعد أسبوعين.

- ما الذي حدث؟

- الشتاء يا بيبي صاحب. الشتاء ينزل على القرى ويأخذ طفلًا أو اثنين بشكل عشوائي كل سنة. كل ما تأملينه هو أن يغفل عن بيتك.

همهمت قائلة:

- يا إلهي!

قلت:

- الخبر السعيد أن أختي تنتظر طفلًا آخر.

في القرية، استُقبلنا بالحشد المعتاد من الأطفال الحفاة الذين يجرون خلف السيارة، وإن صمت الأطفال وانسحبوا فور أن خرجت نيلا من المقعد الخلفي، ربما خوفًا من أن تُعنفهم، لكن نيلا أظهرت قدرًا كبيرًا من الصبر والطيبة. انحنت إلى أسفل وابتسمت، وتحدثت مع كل منهم، وصافحتهم، وربتت على خدودهم المُلطخة بالأوساخ، وداعبت شعرهم غير المغسول. ولخجلي، تجمَّع الناس لمشاهدتها. كان هناك بيت الله، أحد أصدقاء طفولتي، ينظر من فوق أحد الأسطح، مُقرفصًا إلى جانب إخوته مثل صف من الغربان، كلهم يمضغون تبغ «النَّسْوَر». وكان هناك والده، الملا شكيب بنفسه، وثلاثة رجال بلحى بيضاء يجلسون في ظل جدار، يُقلِّبون حبات مسابحهم في خمول، وعيونهم التي لا يُعرف لها عُمر مثبتة على نيلا وذراعيها العاريتين بنظرة استياء.

قدمتُ نيلا لصبور، وشققنا طريقنا إلى بيته الطيني الصغير هو وبروانة، تتبعنا زمرة من المشاهدين. عند الباب، أصرت نيلا أن تخلع حذاءها، رغم أن صبور أخبرها أن ذلك ليس ضروريًّا. وعندما دخلنا الغرفة، رأيت بروانة تجلس في الزاوية صامتة،

متكومة في هيئة كُرة صلبة. حيَّت نيلا بصوت لا يعلو عن الهمس إلا بقليل.

رفع صبور حاجبيه لعبد الله:

- أحضر الشاي يا ولد.

قالت نيلا وهي تجلس على الأرض إلى جوار بروانة:

- لا، أرجوك. ليس ضروريًّا.

لكن عبد الله كان قد اختفى بالفعل في الغرفة المجاورة، التي كنت أعرف أنها تُستخدم كمطبخ ومنامة له ولباري. كانت ستارة مُغبَّشة من البلاستيك مُسمَّرةً على مدخلها تفصل المطبخ عن الغرفة التي اجتمعنا فيها جميعًا. جلستُ أعبث بمفاتيح السيارة، مُتمنيًا لو أن الفرصة قد سنحت لأن أُحذر أختي قبل الزيارة، لأن أمنحها الوقت اللازم لتنظيف البيت قليلًا. كانت الحوائط الطينية المشققة سوداء من السخام، فيما تعلو الفراش الممزق تحت نيلا طبقاتٌ من التراب، والنافذة الوحيدة في الغرفة مُلطخة بفضلات الذباب.

- هذه سجادة جميلة.

قالتها نيلا بمرح، وهي تمرر أصابعها على السجادة. كانت حمراء فاتحة يتكرر عليها أثر قدم فيل. كانت الشيء الوحيد ذا القيمة مما يقتنيه صبور وبروانة، وسوف تُباع، لاحقًا، في الشتاء نفسه.

قال صبور:

- كانت سجادة أبي.

- سجادة تركمانية؟

- نعم.

- كم أحب وبر الأغنام الذي يستخدمونه. والصنْعة مدهشة.

أومأ صبور برأسه. لم ينظر إليها مُطلقًا حتى وهو يتحدث إليها.

خفقت الستارة البلاستيكية عندما عاد عبد الله بصينية عليها فناجين الشاي ووضعها على الأرض أمام نيلا. صب لها فنجانًا، وجلس معقود الساقين أمامها. حاولت نيلا أن تتحدث معه، أن توجه له بضعة أسئلة بسيطة، لكن عبد الله اكتفى بالإيماء برأسه الحليق، وغمغم إجابة من كلمة أو كلمتين، وأخذ ينظر إليها بحذر. قلت في عقلي إنني سأتحدث إلى الصبي، لكي أُوبخه برقة على سلوكه. سأفعل ذلك بطريقة لطيفة لأنني كنت أحب هذا الصبي، فقد كان جادًّا وكفؤًا بطبيعته.

سألت نيلا بروانة:

- كم شهرًا بقي لتضعي مولودك؟

قالت أختي دون أن ترفع رأسها إنها تنتظر الطفل في الشتاء.

قالت نيلا:

- إنها نعمة. أن تنتظري طفلًا، وأن تربي ابنًا بهذا الأدب.

ابتسمَت لعبد الله، الذي ظل وجهه جامدًا.

غمغمت بروانة بشيء ربما كان **شكرًا لكِ.**

قالت نيلا:

- وهناك طفلة صغيرة أيضًا، على ما أتذكر، باري؟

قال عبد الله بإيجاز:

- نائمة.

- حسنًا. سمعت أنها جميلة.

قال صبور:

- اذهب وأحضر أختك.

تلكأ عبد الله، ونظر إلى والده ثم إلى نيلا، ثم وقف بتردد واضح لكي يحضر أخته.

لو أردت، حتى في تلك الساعة المتأخرة، أن أخفف عن نفسي، لقلت إن الرابطة بين عبد الله وأخته الصغيرة كانت رابطة عادية. لكنها لم تكن كذلك. كانت سرًّا غامضًا. لم يسبق لي أن رأيت أُلفة هكذا بين روحين. في الحقيقة، كان عبد الله أبًا لباري كما كان شقيقًا. وهي رضيعة، عندما تبكي ليلًا، كان هو مَن يقفز من فراشه لكي يلاعبها، كان هو مَن يحمل على عاتقه أن يُغيِّر غياراتها الملوثة، أن يُغطيها، أن يُهدهدها لتعود إلى النوم. لم يكن لصبره معها أيُّ حدود. كان يحملها في أنحاء القرية، يتباهى بها كما لو أنها أكثر جائزة مشتهاة في العالم.

عندما حمل باري التي كانت ما تزال غافية إلى الغرفة، طلبَت نيلا أن تحملها. ناولها عبد الله إياها بنظرة شك نافذة، وكأن إنذارًا غريزيًّا بداخله بدأ يعمل.

- نعم، كم هي جميلة!

قالتها نيلا، وقد فضحت هدهدتُها المرتبكة انعدام خبرتها مع الأطفال الصغار. حدقت باري في نيلا بارتباك، ثم نظرت إلى عبد الله، وشرعت في البكاء. وبسرعة، استعادها من بين يدي نيلا.

قالت نيلا:

- انظروا إلى هاتين العينين! نعم، وهذين الخدين! أليست جميلة يا نبي؟

قلت:

- بلى يا بيبي صاحب.

- واسم على مُسمًّى، باري. وهي بالفعل جميلة كحورية.

راقب عبد الله نيلا، وهي تهز باري بين ذراعيها، وبدأ وجهه يكفهر.

في طريق العودة إلى كابول، جلست نيلا باسترخاء في المقعد الخلفي ورأسها مستند إلى الزجاج. ولفترة طويلة، لم تنطق بكلمة. ثم، فجأة، شرعت في البكاء.

أوقفتُ السيارة على جانب الطريق.

لم تتكلم لوقت طويل. كانت كتفاها تهتزان وهي تنشج مغطيةً وجهها بيديها. وأخيرًا، تمخطت في منديل، وقالت:

- شكرًا يا نبي.

- علامَ يا بيبي صاحب؟

- على أنك أخذتني إلى هناك. من حُسن حظي أنني التقيت أُسرتك.

- من حُسن حظهم، وحظي. لقد شرفتنا.

- ابنة أختك جميلة.

خلعت نظارة الشمس وأخذت تجفف عينيها.

فكرت للحظة ماذا أفعل. في البداية اخترتُ الصمت، لكنها كانت قد بكت في وجودي، وكانت حميمية اللحظة تتطلب كلمات طيبة، فقلت بنعومة:

- سيكون لك طفل قريبًا يا بيبي صاحب، إن شاء الله، سوف يرزقك الله به. فقط اصبري.

- لا أظن ذلك.

- بالطبع سوف يحصل يا بيبي صاحب. أنت ما زلت صغيرة. إذا أراد الله فستكون مشيئته.

- أنت لا تفهم.

قالتها متعبةً. ولم يكن قد سبق لي أن رأيتها مُجهدة هكذا، مُستنفدة إلى هذا الحد.

- راح. أزالوه مني في الهند. أنا فارغة من الداخل.

عندها لم أستطع أن أفكر في شيء يُقال. كنت أتوق شوقًا لأن أنتقل إلى المقعد الخلفي بجوارها وأجذبها إلى ذراعي، أن أُهدهدها بالقُبلات. وقبل أن أنتبه إلى ما أفعله، كنت قد مددت يدي وأخذت يدها. ظننت أنها ستسحبها، لكن إصبعها ضغطت على يدي بامتنان، وجلسنا هناك في السيارة، لا ينظر كل منا إلى الآخر، وإنما إلى السهول من حولنا، صفراء وذابلة من الأفق للأفق، تقطعها مصارف مياه جافة، وتتناثر فيها شجيرات، وأحجار، وجلبة حياة هنا وهناك. مُمسكًا بيد نيلا في يدي، نظرت إلى التلال وأعمدة الكهرباء. وتعقبت عيناي شاحنة تتهادى من بعيد، متبوعة بسحابة من تراب، ووددت لو أجلس هكذا حتى حلول الظلام.

قالت أخيرًا، وهي تفلت يدي:

- خذني إلى المنزل. سأذهب إلى الفراش مُبكرًا الليلة.

- أمركِ يا بيبي صاحب.

تنحنحتُ وحركتُ ناقل الحركة بيد مُرتعشة قليلًا.

* * *

ذهبت إلى غرفة نومها ولم تغادرها لأيام. لم تكن تلك المرَّة

الأولى. أحيانًا، تسحب كرسيًّا إلى نافذة غرفة نومها في الطابق العلوي وتزرع نفسها هناك، تدخن السجائر، وتهز إحدى قدميها، وتحدق عبر النافذة بنظرة خاوية. تمتنع عن الكلام، ولا تغير قميص نومها. لم تكن تستحم أو تغسل أسنانها أو شعرها. تلك المرَّة، امتنعت عن الطعام أيضًا، وهذا التطور تحديدًا أقلق السيد وحدتي بطريقة غير معهودة.

في اليوم الرابع، سمعت طرقًا على البوابة الأمامية. فتحت فوجدت رجلًا طويلًا مُسنًّا في بدلة مكوية بإتقان وخفٍّ لامع. كان فيه شيء مهيب ومُنذرٌ بالشر، في طوله الفارع، في نظرته التي تخترقني، في الطريقة التي كان يمسك بها عصاه اللامعة بكلتا يديه مثل صولجان. لم ينطق بكلمة، لكنني بدأت أستشعر أنه رجل اعتاد على أن تُلبى أوامره.

قال:

- عرفت أن ابنتي ليست على ما يُرام.

إذًا، فقد كان الوالد. لم ألتقه من قبل.

قلت:

- نعم يا صاحب. أخشى أن يكون ذلك صحيحًا.

أزاحني جانبًا وهو يقول:

- إذًا، تنحَّ جانبًا أيها الشاب.

في الحديقة، شغلت نفسي بتقطيع كتلة من الخشب من أجل الموقد. من موقع عملي، حظيت بإطلالة واضحة على نافذة غرفة نوم نيلا. في إطارها كان الوالد مُنحنيًا، يميل على نيلا، وإحدى

يديه تضغط على كتفها. على وجه نيلا ارتسم تعبير ارتباك مثل الذي يظهر على وجوه الناس عندما يفاجئهم صوت عالٍ، كانفجار لعبة نارية، أو انغلاق باب دفعته هبة ريح مفاجئة.

تلك الليلة، تناولَت طعامًا.

بعدها ببضعة أيام، استدعتني نيلا إلى البيت، وقالت إنها ستقيم حفلًا. وقلّما - إن كان هذا قد حدث أصلًا - أقمنا حفلة في البيت عندما كان السيد وحدتي عازبًا. بعدما جاءت نيلا، صارت تُرتب حفلات مرَّتين أو ثلاثًا كل شهر. اليوم السابق على الحفل، أعطتني نيلا تعليمات مُفصلة حول المقبلات والوجبات التي يجب أن أُعدها، وكنت أقود السيارة إلى السوق لشراء اللوازم. ومن أهم تلك اللوازم المشروبات الكحولية، التي لم أكن أجلبها من قبل، فالسيد وحدتي لم يكن يشرب؛ لا لأسباب دينية، وإنما لأنه كان يكره تأثير الخمر فحسب. نيلا، مع ذلك، كانت على معرفة جيدة ببعض المنشآت - «الصيدليات»، كما كانت تُسميها مازحة - حيث يمكن شراء زجاجة من «الذواء» خلسة بما يعادل ضعفي راتبي الشهري. كانت لديَّ مشاعر متضاربة تجاه هذا التدبير على وجه الخصوص، أن ألعب دور تسهيل الفسق، لكن، كالعادة، كان إرضاء نيلا يعلو على كل شيء آخر.

يجب أن تفهم، يا سيد ماركوس، أننا حين نُقيم حفلات في شدباغ، سواء للزفاف أو للاحتفال بالختان، نستخدم منزلين مُنفصلين، واحدًا للنساء، والآخر لنا نحن الرجال. أما في حفلات نيلا، فقد كان الرجال والنساء يختلطون معًا. معظم النساء كن يرتدين، مثل نيلا، فساتين تُظهر كامل الذراعين وجزءًا لا بأس

به من الساقين أيضًا. كن يُدخن، ويشربن أيضًا، كؤوسهن نصف مملوءة بشراب شفاف أو أحمر أو نحاسي، وكن يُطلقن النكات، ويضحكن، ويلمسن بحرية أذرع رجال كنت أعرف أنهم متزوجون من نساء أخريات في الغرفة. كنت أحمل صحونًا صغيرة من «البولاني»، و«اللولا كباب»، منتقلًا من طرف الغرفة العابقة بالدخان إلى الطرف الآخر، ومن إحدى مجموعات الضيوف إلى الأخرى، فيما كانت الموسيقى تصدح من مشغل الأسطوانات. لم تكن الموسيقى أفغانية، وإنما شيء كانت نيلا تُسميه «الجاز»، نوعٌ من الموسيقى عرفت، بعدها بعقود، أنك تحبه أنت أيضًا يا سيد ماركوس. بالنسبة إلى أُذني، كان رنين البيانو العشوائي ونواح الأبواق الغريب خليطًا مُشوشًا غير متناغم. لكن نيلا كانت تحبها، وظللت أسمعها وهي تخبر الضيوف كيف يجب عليهم أن يسمعوا هذا التسجيل أو ذاك. طوال الليل، ظلت تحمل كأسًا تتناول منها أكثر بكثير مما تتناول من الطعام الذي أُقدِّمه.

لقد بذل السيد وحدتي جهدًا محدودًا في العناية بضيوفه. اختلط بهم اختلاطًا رمزيًا، لكنه كان يلجأ إلى أحد الأركان في أغلب الوقت، وعلى وجهه نظرة شاردة، يدوِّر كأسًا من الصودا في يديه، ويبتسم ابتسامة دمثة بفم مُطبق عندما يتكلم معه أحدهم. وكعادته، يستأذن في الانصراف عندما يطلب الضيوف من نيلا أن تتلو عليهم بعض أشعارها.

كان هذا هو الجزء المفضل لديَّ في الأمسية على الإطلاق. عندما تبدأ، كنت أعثر لنفسي دائمًا على مهمة تُبقيني على مقربة. وهناك أقف، مُتجمدًا في مكاني، المنشفة في يدي، مشدودَ الانتباه

لكي أنصت. لم تكن قصائد نيلا تشبه أي شيء نشأتُ عليه. وكما تعرف جيدًا، فنحن الأفغان نحب شعرنا؛ حتى أقل الناس تعليمًا من بيننا يحفظون أبياتًا من «حافظ» و«الخيام» و«سعدي». هل تتذكر يا سيد ماركوس، حين أخبرتني العام الماضي كم تحب الأفغان؟ وسألتك لماذا، فضحكت وقلت: **حتى فنانو الجرافيتي عندكم يكتبون على الجدران أبياتًا للرومي.**

لكن قصائد نيلا كانت تتحدى التقاليد. لم تلتزم بأوزان وقوافٍ محددة، ولم تتطرق إلى الأشياء المعتادة، كالأشجار وزهور الربيع والبلابل. كتبت نيلا عن الحب، وبالحب لا أعني لوعة التصوف كما عند الرومي وحافظ، وإنما الحب الجسدي. كتبت عن عشاق يتهامسون على الوسائد، ويتلامسون. كتبت عن المتعة. لم يسبق لي أن سمعت امرأة تنطق بكلام مثل هذا. كنت أقف هناك، أنصت إلى صوت نيلا المثقل بالدخان وهو ينجرف عبر الصالة، عيناي مغمضتان، وأذناي حمراوان من السخونة، أتخيَّل أنها تقرأ لي، أن العشاق في القصيدة هما **أنا وهي**، حتى تنكسر التعويذة حين يطلب شخص شايًا أو بيضًا مقليًّا، فتناديني نيلا، وأهرع إليها.

تلك الليلة، فاجأتني القصيدةُ التي اختارت قراءتها على حين غرة. كانت عن رجل وزوجته، في قرية، مكلومين بسبب موت رضيعهما الذي فقداه في برد الشتاء. أعجب الضيوف بالقصيدة، بدا ذلك من الإيماءات وهمهمات الاستحسان التي ترددت في أرجاء الغرفة، ومن التصفيق الحماسي عندما رفعت نيلا عينيها عن الصفحة. مع ذلك، فقد شعرتُ ببعض الدهشة، والإحباط، كونها

استغلت نكبة أختي لتسلية الضيوف، ولم أستطع أن أنفض عني الشعور بأن نوعًا غامضًا من الخيانة قد ارتُكب.

بعد الحفل بيومين، قالت نيلا إنها بحاجة إلى حقيبة يد جديدة. كان السيد وحدتي يقرأ الجريدة على الطاولة، بعد أن قدمت إليه غداء مكونًا من شوربة العدس والنان.

سألته نيلا:

- هل تريد أي شيء يا سليمان؟

قال:

- لا يا «عزيز»، أشكركِ.

كنت نادرًا ما أسمعه يخاطبها بأي شيء بخلاف «عزيز»، التي تعني «محبوبتي» أو «عزيزتي»، مع ذلك فكلما قالها بدا لي أن المسافة بين الزوجين تزداد اتساعًا، ولكم كانت هذه الكلمة الحميمية تبدو جافة وهي تخرج من بين شفتي السيد وحدتي.

في الطريق إلى المتجر، قالت نيلا إنها تريد أن تصطحب إحدى صديقاتها، ووصفت لي الطريق إلى البيت. صففت السيارة في الشارع وشاهدتها وهي تدخل منزلًا من طابقين له جدران وردية فاتحة. في البداية، تركت المحرك دائرًا، لكن عندما مرَّت خمس دقائق ولم ترجع نيلا أطفأته. وخيرًا فعلتُ، حيث مرت بعدها ساعتان قبل أن أرى هيئتها النحيلة تنساب على الرصيف في اتجاه السيارة. فتحَت الباب الخلفي، وعندما دخلت شممت منها، تحت عطرها المعهود، رائحة أخرى، تُشبه قليلًا رائحة خشب الأرز وربما أثرًا من الزنجبيل، عبيرًا تذكرت أنني تنفسته في الحفل قبل ليلتين.

قالت نيلا وهي تضع طبقة جديدة من الطلاء على شفتيها:

- لم أجد واحدة تُعجبني.

لمحَت الحيرة على وجهي في المرآة. أنزلت أحمر الشفاه وحدقت فيَّ من تحت أهدابها.

- لقد أخذتني إلى متجرين مختلفين لكنني لم أجد حقيبة على ذوقي.

ثبتت عينيها في عيني عبر المرآة وظلت هكذا لفترة، منتظرة، وفهمت أنا أنني ائتُمنت على سر. كانت تختبر ولائي. طلبت مني أن أختار.

قلت بوهن:

- أظن أنك ربما زرتِ ثلاثة متاجر.

ابتسمت:

- **بارفوا جي بونس كي تو إس مون سول آمي، نبي.**

طرفت بعينيَّ.

- هذا يعني: أحيانًا أفكر أنك صديقي الوحيد.

ابتسمت لي ابتسامة مُشعة، لكنها لم تكن قادرة على رفع معنوياتي المتدنية.

بقية اليوم، أخذت أنجز أشغالي بنصف سرعتي المعتادة، وبجزء من حماسي المعهود. وعندما جاء الرجال لشرب الشاي تلك الليلة، غنى لنا أحدهم، لكن أغنيته فشلت في أن تُسرِّيَ عني. شعرت كأنني أنا الزوج المخدوع. وكنت واثقًا من أن قبضتها التي أحكمتها عليَّ قد تراخت أخيرًا.

في الصباح استيقظتُ، وكانت هناك، تملأ مسكني مرَّة أخرى،

من الأرض إلى السقف، ترشح من مسام الجدران، تشبع الهواء الذي أتنفسه، مثل بخار. لا فائدة يا سيد ماركوس!

* * *

لا أستطيع أن أُخبرك، على وجه الدقة، متى سيطرت عليَّ الفكرة.

ربما في الصباح الخريفي العاصف حين كنت أُقدم الشاي لنيلا، عندما انحنيت وشرعت أقطع لها شريحة من كعك «الروات»، وتعالى من الراديو المستقر على عتبة نافذتها صوت تقرير مفاده أن الشتاء الوشيك لعام ١٩٥٢ قد يُصبح أكثر قسوة من الشتاء السابق. وربما قبل ذلك، في اليوم الذي صحبتها فيه إلى المنزل ذي الجدران الوردية الفاتحة، أو ربما قبلها، في المرَّة التي أمسكت يدها في السيارة بينما كانت تنشج.

أيًّا كانت اللحظة، فبمجرد دخول الفكرة إلى رأسي ما عاد بإمكاني التخلص منها.

دعني أقل، يا سيد ماركوس، إنني مضيت في طريقي بضمير مستريح إلى حد كبير، وبقناعة أن العرض الذي سأُقدِّمه وليد نوايا طيبة ورغبة في فعل الخير. شيء، على الرغم من كونه مؤلمًا على المدى القصير، فإنه سيؤدي على المدى الطويل إلى خير أعظم لجميع الأطراف. مع ذلك، فقد كانت لديَّ أيضًا دوافع أنانية أقل شرفًا، من أهمها: أنني سوف أمنح نيلا شيئًا لا يمكن لرجل آخر - لا زوجها ولا مالك ذاك البيت الوردي الكبير - أن يمنحها إياه.

تحدثت إلى صبور أولًا. ودفاعًا عن نفسي، أقول إنني لو كنت أعرف أن صبور يمكن أن يقبل نقودًا مني، لسعدت بإعطائه إياها

بدلًا من هذا العرض. كنت أعرف أنه بحاجة إلى نقود، إذ كان قد أخبرني بأمر كفاحه من أجل العثور على عمل. كنت سأستدين دفعة مقدمة من راتبي من السيد وحدتي من أجل صبور لكي يرعى عائلته في الشتاء. لكن صبور، مثل الكثيرين من أبناء جلدتي الريفيين، ابتُلي بالكبرياء، وهو ابتلاء لا مهرب منه ولا مفر. لم يكن ليقبل نقودًا مني قَطُّ. عندما تزوَّج من بروانة، رفض تسلُّم حوالات صغيرة كنت أبعثها لها. كان رجلًا وعليه أن ينفق على أسرته بنفسه. ظل يفعل هذا حتى مات ولم يكن قد بلغ الأربعين، إذ تهاوى يومًا وهو يحصد البنجر في أحد الحقول في مكان ما قرب «بغلان»، وسمعت أنه مات وهو ما يزال مُمسكًا بمنجل البنجر في يديه المتقرحتين الداميتين.

لم أكن أبًا، ولذا لا أزعم أنني كنت أفهم المشاورات المعذِّبة التي قادت صبور إلى اتخاذ قراره. كما لم أكن على علم بالمناقشات بين الزوجين وحدتي. بعد أن أطلعتُ نيلا على الفكرة، طلبتُ منها، حين تناقش الأمر مع السيد وحدتي، أن تطرح الفكرة باعتبارها فكرتها وليست فكرتي. كنت أعرف أن السيد وحدتي سيُمانع؛ إذ لم يسبق لي أن لمحت لديه أدنى بادرة من غريزة الأبوة. بل إنني كنت قد ملت للاعتقاد بأن عجز نيلا عن إنجاب الأطفال ربما كان السبب الذي رجَّح قراره بالزواج منها. على أية حال، فقد حرصت على تجنب الأجواء المتوترة بين الاثنين. وعندما تمددت للنوم تلك الليلة، لم أرَ إلا الدموع المفاجئة التي انسابت من عيني نيلا عندما أخبرتها، وكيف أمسكت بكلتا يدي ونظرت إليَّ بامتنان وبشيء - كنت واثقًا من ذلك - أشبه بالحب. لم أفكر إلا في كوني أُقدِّم

إليها هدية لا يملك أن يُقدِّمها إليها رجال يفوقونني مكانةً بكثير. لم أفكر إلا في أنني سلَّمتها نفسي بالكامل، وفي مدى سعادتي لذلك. وفكرت، وتمنيت - عن حماقة بالطبع - أنها قد تبدأ في النظر إليَّ بوصفي أكثر من مجرد خادم مخلص.

عندما أذعن السيد وحدتي أخيرًا - وهو ما لم يفاجئني، حيث كانت نيلا امرأة تتمتع بإرادة هائلة - أخبرتُ صبور، وعرضت أن أوصله هو وباري إلى كابول. لم أفهم أبدًا بشكل كامل لماذا اختار أن ينقل ابنته مشيًا من شدباغ، أو لماذا سمح لعبد الله بالذهاب معهما. ربما كان يتشبث بالوقت الضئيل المتبقي له مع ابنته، أو ربما كان يسعى لأن يجد في مشاق الرحلة نوعًا من التكفير، أو ربما كانت تلك كبرياء صبور، ولم يرد أن يركب في سيارة الرجل الذي سيشتري ابنته. ولكن، في نهاية الأمر، كانوا هناك، ثلاثتهم، يغطيهم التراب، ينتظرون، بحسب الاتفاق، أمام الجامع. وبينما كنت أوصلهم إلى بيت وحدتي، فعلت ما بوسعي لكي أبدو مرحًا من أجل الطفلين، الطفلين اللذين كانا غافلين عن مصيرهما، وعن المشهد الرهيب الذي سيتبدَّى قريبًا.

لا فائدة كبيرة تُرجى من وصف المشهد بتفاصيله يا سيد ماركوس، المشهد الذي تبدَّى بالضبط كما كنت أخشى. لكن بعد كل تلك السنوات، ما زلت أشعر أن قلبي ينقبض كلما استعدت ذكريات هذا المشهد. كيف لا؟ لقد أخذت هذين الطفلين العاجزين، اللذين تجسَّد فيهما الحب في أبسط وأنقى صوره، وفرَّقت بينهما! لن أنسى أبدًا الفورة العاطفية الفجائية: باري مدلاةً على كتفيَّ، وقد استبد بها الذُّعر، تركل بساقيها، وتصرخ: «أبولله! أبولله!»، وأنا

أهرع بها بعيدًا. وعبد الله يصرخ باسمها، محاولًا أن يتملَّص من والده. ونيلا، عيناها مفتوحتان على وسعهما، وفمها مغطى بكلتا يديها، ربما لتكتم صرختها. لكم يثقل الأمر على قلبي. كل هذا الزمن مر يا سيد ماركوس، وما زال يثقل على قلبي.

* * *

كانت باري قد أوشكت على بلوغ الرابعة من عمرها في ذلك الوقت، لكن، على الرغم من سنها الصغيرة، فثمة أشياء في حياتها تحتاج لإعادة التشكيل. قيل لها ألا تناديني بـ«كاكا نبي» بعد الآن، على سبيل المثال، وإنما نبي فحسب. وكانت أخطاؤها تُصحَّح برفق، وأشارك أنا أيضًا في تصحيحها، مرَّة بعد مرَّة، حتى أصبحت تعتقد أن لا قرابة تجمعني بها. أصبحت بالنسبة إليها نبي الطباخ ونبي السائق، وأصبحت نيلا «ماما»، والسيد وحدتي «بابا». وبدأت نيلا في تعليمها الفرنسية، التي كانت لغتها الأم.

الاستقبال البارد الذي استقبل به السيد وحدتي باري لم يستمر طويلًا قبل أن تنزع باري عنه أسلحته، لدهشته، ببكائها القلق وحنينها إلى بيتها. وسرعان ما انضمت إلينا باري في نزهاتنا الصباحية، حيث كان السيد وحدتي يضعها في عربة الأطفال ويدفعها في أرجاء المنطقة ونحن نتجول، أو كان يجلسها على حجره خلف عجلة قيادة السيارة ويبتسم بصبر بينما تضغط هي على البوق. وقد استأجر نجارًا وجعله يصنع سريرًا متحركًا بثلاثة أدراج من أجل باري، وصندوقًا من خشب القيقب لألعابها، وخزانة ملابس صغيرة قصيرة. وأمر بطلاء كل الأثاث في غرفة باري بالأصفر؛ إذ تبين له أنه لونها المفضل. وقد رأيته ذات يوم يجلس معقود

الساقين أمام خزانة الملابس، وباري إلى جواره، يرسم، بمهارة ملحوظة، زرافات وقرودًا ذوات أذيال طويلة على بابيها. ولك أن تتخيَّل، يا سيد ماركوس، كم يكشف هذا الأمر عن دواخله، فعلى مدار تلك السنوات التي رأيته فيها جالسًا ليرسم، كانت تلك المرَّة الأولى التي تقع فيها عيناي بالفعل على عمل من أعماله الفنية.

وإن من آثار مجيء باري أن أصبح آل وحدتي للمرَّة الأولى أشبه بأُسرة حقيقية؛ فبعد أن ارتبطت نيلا وزوجها بحبهما لباري، أصبحا يتناولان طعامهما معًا، وصارا يصطحبان باري إلى متنزه قريب، ويشعران بالرضا وهما يجلسان متجاورين على مقعد ليشاهداها وهي تلعب. وعندما أُقدِّم لهما الشاي ليلًا بعد أن أنظف الطاولة، كنت غالبًا ما أرى واحدًا منهما يقرأ كتاب أطفال لباري وهي مستريحة على حجر أحدهما، هي التي كانت، مع كل يوم يمر، تصبح أكثر نسيانًا لماضيها في شدباغ وللناس هناك.

التبعة الأخرى لوصول باري لم أتوقعها: لقد تراجعتُ إلى خلفية المشهد. تساهل في حكمك عليَّ يا سيد ماركوس، وتذكَّر أنني كنت شابًّا صغيرًا، لكنني أعترف أنني كنت صاحب آمال، حتى وإن كانت حمقاء. لقد كنت الأداة التي جعلت من نيلا أمًّا، في نهاية الأمر. لقد كشفتُ عن سبب تعاستها وجلبت لها الترياق. هل كنتُ أعتقد أننا سنُصبح عاشقين؟ أعتقد أنني لم أكن بهذه الحماقة يا سيد ماركوس، لكن ذلك لن يكون حقيقيًّا تمامًا. إنني أشك أن الحقيقة هي أننا ننتظر، جميعنا، ورغم كل الظروف المستعصية، أن يحدث لنا شيء غير متوقَّع.

ما لم أتنبأ به هو أن أذوي هكذا. فقد استنفدت باري وقت

نيلا: دروس، وألعاب، وغفوات، ونزهات، ومزيد من الألعاب. ولَّت دردشتنا اليومية بلا عودة. حين تلعبان معًا لعبة المكعبات أو تجمعان أجزاء لعبة الصورة المقطعة، كانت نيلا نادرًا ما تلاحظ أنني جلبت لها قهوتها، أنني ما زلت في الغرفة واقفًا، أنتظر. وعندما نتكلم، كان يبدو عليها الشرود، والرغبة الدائمة في إنهاء الحديث. في السيارة، بدت تعبيراتها ساهمة. ولهذا، ومع أنني أشعر بالخجل لذلك، فسوف أعترف أنني كنت أشعر بدرجة من الحقد على ابنة أختي.

وفقًا للاتفاق مع آل وحدتي، لم يكن مسموحًا لأسرة باري بزيارتها. لم يكن مسموحًا لهم بأي اتصال معها على الإطلاق. ذات يوم، بُعيد انتقال باري إلى منزل آل وحدتي، قدت السيارة إلى شدباغ. ذهبت إلى هناك وأنا أحمل هدية صغيرة لكل من عبد الله وابن شقيقتي الصغير، إقبال، الذي كان قد بدأ يحبو وقتها.

قال صبور بحدة:

- لقد سلَّمت هداياك. وحان الوقت لتغادر.

قلت له إنني لا أفهم سبب استقباله البارد، ومعاملته الفظة لي. قال:

- أنت تفهم. ولا تشعرْ بأنك مُضطر لزيارتنا بعد الآن.

كان مُحقًّا، وكنت أفهم. لقد تراكم الجليد بيننا. كانت زيارتي مُرتبكة، ومتوترة، بل ومثيرة للمشاكل. بدا أمرًا غير طبيعي الآن أن نجلس معًا، أن نرتشف الشاي ونثرثر حول الطقس أو محصول العنب لهذه السنة. كنا، أنا وصبور، نصطنع وضعًا اعتياديًا لم يعد موجودًا. وأيًّا كان السبب، فقد كنت أنا، في النهاية، أداة تمزيق هذه

الأسرة. لم يكن صبور يرغب في رؤيتي ثانية وأنا فهمت. أوقفت زياراتي الشهرية، ولم أرَ أيًّا منهم ثانية.

* * *

وفي يوم من أوائل أيام ربيع عام ١٩٥٥، يا سيد ماركوس، تغيرت حياتنا جميعًا في ذلك البيت إلى الأبد. أتذكر أنها كانت تُمطر؛ ليس المطر المزعج الذي يُخرج الضفادع كي تُطلق نقيقها، ولكن الرذاذ المُتردد الذي ظل يتساقط وينقطع طيلة الصباح. أتذكر لأن البستاني، زاهد، كان هناك، على سجيته الكسولة، يتكئ على مجرفة أوراق الشجر ويقول إنه يوم على حساب سوء الأحوال الجوية. كنت بصدد الانسحاب إلى كوخي، ولو كان ذلك لمجرد الابتعاد عن هرائه، عندما سمعت نيلا تصرخ باسمي من داخل البيت.

هرعت عبر الباحة إلى البيت. كان صوتها يأتي من الطابق العلوي، من جهة غرفة النوم الرئيسية.

رأيت نيلا في الزاوية، ظهرها إلى الحائط، كفها مُطبقة على فمها. قالت، بدون أن تُحرك يدها:

- لا أدري ما الذي أصابه!

كان السيد وحدتي يجلس على الفراش، مرتديًا فانلة داخلية، وهو يُصدر أصواتًا حلقية غريبة. كان وجهه شاحبًا ومُنهكًا، وشعره مُشعثًا، وقد حاول مرَّة بعد مرَّة، دون جدوى، أن يحرك ذراعه اليمنى. لاحظت برعب خيطًا من اللعاب يسيل من زاوية فمه.

- افعل شيئًا يا نبي!

كانت باري، ذات الأعوام الستة وقتها، قد دخلت الغرفة، وهرعت لتقف إلى جوار السيد وحدتي، وراحت تشد فانلته:

- بابا؟ بابا؟

نظر إليها، بعينين واسعتين، وفمه ينفتح وينغلق، فأطلقت صرخة.

حملتها بسرعة، ومددت يديَّ بها إلى نيلا، وطلبت منها أن تأخذها إلى غرفة أخرى لأنها لا يجب أن ترى والدها في تلك الحالة. طرفت نيلا، وكأنها ترجع من غيبوبة، ونظرت إليَّ ثم إلى باري قبل أن تمد يديها إليها. ظلت تسألني ما خطب زوجها، وظلت تطلب مني أن أفعل شيئًا.

ناديت على زاهد من الشباك، وللمرَّة الأولى، أثبت هذا الأحمق الذي لا يصلح لشيء، أن له فائدة. ساعدني لكي نلبس السيد وحدتي بنطلون البيجاما. رفعناه عن السرير، وحملناه نزولًا على السلالم، ووضعناه في المقعد الخلفي للسيارة. ركبت نيلا إلى جواره. طلبت من زاهد أن يبقى في المنزل ويعتني بباري. بدأ يحتج، فضربته، بيد مفتوحة، على صدغه بأقصى قوة. قلت له إنه حمار وعليه أن يفعل ما يُقال له.

وبهذا، رجعت بالسيارة إلى الخلف في الممر وانطلقت.

مر أسبوعان كاملان قبل أن نعود بالسيد وحدتي إلى البيت. أعقبت ذلك فوضى شاملة. أفواج من الأقارب توافدت على المنزل. كنت أعد الشاي وأطهو الطعام على مدار الساعة تقريبًا لإطعام هذا العم، وابن العم ذلك، والخالة العجوز تلك. وطوال اليوم كان جرس البوابة الأمامية يرن، والأعقاب تدق على الأرضية

الرخامية لغرفة المعيشة، والهمهمات تتموج في البهو فيما ينسكب الناس إلى داخل المنزل. معظمهم لم أكن رأيته من قبل في المنزل، وفهمت أنهم كانوا يتوافدون لتقديم آيات الاحترام للعقيلة والدة السيد وحدتي أكثر منهم لرؤية الرجل المريض المتقوقع الذي لم تكن بينهم وبينه إلا صلة واهية. وقد جاءت الأم بدورها بالطبع - من دون الكلاب، ولله الحمد. اندفعت مقتحمة المنزل تمسك بمنديل في كل يد لتجفف الدموع عن عينيها الحمراوين، والرشح عن أنفها. زرعت نفسها إلى جوار سريره وراحت تبكي. كما أنها ارتدت الأسود، وهو ما روَّعني، وكأن ابنها قد تُوفِّي بالفعل.

وقد كان الأمر، من ناحية ما، حقيقيًا. على الأقل النسخة القديمة منه؛ فقد تحوَّل نصف وجهه إلى قناع جامد، وكانت ساقاه بلا فائدة تقريبًا، فيما كانت ذراعه اليسرى تتحرك، لكن اليمنى لم تكن أكثر من عظم ولحم مُترهل، وكان حديثه آهات وتأوهات مبحوحة لا يمكن لأحد فك شفرتها.

قال لنا الطبيب إن إحساس السيد وحدتي بالمشاعر لم يتغير بعد السكتة، وإنه يفهم الأشياء جيدًا، لكن ما كان عاجزًا عنه، على الأقل في هذا الوقت، هو التصرف وفقًا لمشاعره وفهمه.

مع ذلك، لم يكن هذا صحيحًا تمامًا. في واقع الأمر، بعد الأسبوع الأول أو ما شابه أصبح يُعبر بشكل واضح عن مشاعره تجاه زوَّاره، بمن فيهم والدته. كان، حتى في مرضه الشديد هذا، مخلوقًا متوحدًا بشكل جوهري، ولم تكن تنفعه شفقتهم، ونظراتهم الكئيبة، وهز رؤوسهم بحسرة عندما تقع أعينهم على الهيئة البائسة التي صار عليها. عندما يدخلون غرفته، كان يشيح بيده اليسرى

السليمة بحركة إبعاد غاضبة. وعندما يتحدثون إليه، كان يُصعِّر لهم خده. وحين يجلسون إلى جانبه، كان يمسك بملاءة السرير ويتأوَّه ويضرب بقبضته على فخذه حتى يغادروا. ولم يكن صرفه لباري أقل إصرارًا، وإن كان أكثر لُطفًا بكثير. كانت تأتي لتلعب بدُماها إلى جانبه، فيرفع رأسه لي متوسلًا، وعيناه تدمعان، وذقنه ترتعش، حتى آخذها خارج الغرفة. لم يحاول الحديث معها لأنه كان يعرف أن كلامه يُزعجها.

جاء الخروج الكبير للزوار ليريح نيلا. فعندما كان الناس يزحمون البيت من الجدار إلى الجدار، تتراجع نيلا مع باري إلى غرفة نومها في الطابق العلوي، وهو ما يثير اشمئزاز الحماة، حيث كانت بلا شك تتوقع - ومَن يلومها؟- أن تبقى نيلا إلى جوار ابنها، على الأقل من أجل المظاهر إن لم يكن لشيء آخر. بالطبع لم تُلق نيلا بالًا للمظاهر أو لما يمكن أن يُقال عنها. وما كان يُقال عنها كثير. أكثر من مرَّة سمعت الحماة تقول متعجبة «أي زوجة هذه؟». كانت تشكو لكل من ينصت إليها أن نيلا بلا قلب، أن لديها فجوة واسعة في روحها. أين هي الآن وزوجها بحاجة إليها؟ أي زوجة تلك التي تتخلى عن زوجها المُحب المُخلص؟

بعض مما قالته المرأة العجوز كان، بالطبع، صحيحًا. في الواقع، كنت أنا مَن يشاهَد معظم الوقت بجانب السيد وحدتي، أنا مَن أعطيه الحبوب، وأنا مَن أُحيي أولئك الذين يدخلون الغرفة، وأنا مَن كان الأطباء يتحدثون معه غالبًا، ومن ثَمَّ كنت أنا، وليس نيلا، مَن يسأله الناس عن حالة السيد وحدتي.

صرفُ السيد وحدتي للزوار أراح نيلا من إحدى المنغصات،

لكنه جلب عليها نوعًا آخر من المنغصات؛ فببقائها في غرفة باري وإغلاق الباب، نأت بنفسها ليس فقط عن الحماة الكريهة، ولكن أيضًا عن الحالة المزرية التي وصل إليها زوجها. أما الآن، فقد صار البيت خاويًا، وصارت تواجه واجبات زوجية لم تكن تناسبها بأي شكل من الأشكال.

لم تستطع أن تقوم بها.

ولم ترغب في القيام بها.

لا أقول إنها كانت قاسية أو مُتبلدة الإحساس. لقد عشت ما يكفي، يا سيد ماركوس، وأحد الأشياء التي تعلَّمتها أنه يحسن بالمرء أن يتمتع بدرجة من الإنسانية والتسامح وهو يحكم على ما يعتمل في قلب شخص آخر. ما أقوله هو إنني دخلت غرفة السيد وحدتي ذات يوم فوجدت نيلا تنشج وهي تضع رأسها على بطنه، وهناك ملعقة ما تزال في يدها، بينما يتقاطر «دال» العدس المهروس من ذقنه على المريلة المربوطة حول رقبته.

قلت بلُطف:

- اتركيها لي يا بيبي صاحب.

أخذت منها الملعقة، ومسحت فمه، وأخذت أُطعمه، لكنه أنَّ، وأغمض عينيه بقوة، وأشاح بوجهه عني.

لم يمر وقت طويل بعدها إلا وأنا أنزل السلم حاملًا حقيبتين، ناولتهما لسائق، فوضعهما في حقيبة السيارة التي يدور محركها ببطء. وساعدتُ باري، التي كانت ترتدي معطفها الأصفر المفضَّل، على الصعود إلى المقعد الخلفي.

سألتني، بابتسامتها التي تكشف عن أسنانها المتباعدة:

- نبي، هل تُحضر بابا وتزورنا في باريس كما قالت ماما؟

قلت لها إنني سأفعل بالتأكيد عندما يتحسَّن والدها. طبعتُ قبلة على كلٍّ من كفيها الصغيرتين، وقلت:

- بيبي باري، أتمنى لك التوفيق. أتمنى لك السعادة.

قابلت نيلا وهي تنزل درجات السلم الأمامي بعينين منتفختين، لطخهما كحل تحديد العيون. كانت في غرفة السيد وحدتي تودعه. سألتها عن حاله فقالت:

- لقد استراح على ما أعتقد.

ثم أضافت:

- أو أن ذلك ما أتمناه.

أغلقت قفل حقيبة يدها وعلَّقتها على كتفها.

- لا تُخبر أحدًا بوجهتي، سيكون هذا أفضل.

وعدتها أنني لن أُخبر أحدًا.

ذكرت أنها ستكتب لي قريبًا، ثم نظرت في عيني مُطولًا، وأظن أنني رأيت في عينيها محبة حقيقية. لمست وجهي بكف يدها.

- أنا سعيدة يا نبي لأنك معه.

ثم اقتربت مني واحتضنتني، خدها على خدي. امتلأ أنفي برائحة شعرها، وعطرها.

قالت وهي تقرِّب فمها من أذني:

- كنت أنت المقصود يا نبي. كنت أنت طوال الوقت. ألم تعرف؟

لم أفهم. وابتعدت هي عني قبل أن أسأل. أسرَعت الخُطى في المدخل، رأسها مُنكس، وكعبا حذائها يدقان على الأسفلت.

انزلقَت إلى المقعد الخلفي للتاكسي بجوار باري، ونظرت إليَّ مرَّة أخرى، ووضعت كفها على الزجاج. كانت كفها، وقد ازداد بياضها وهي تضغط على الزجاج، آخر ما رأيته منها والسيارة تنطلق خارجة إلى الشارع.

راقبتها وهي تمضي، وانتظرت السيارة حتى انعطفت في نهاية الشارع قبل أن أغلق البوابة. ثم استندت عليها وأخذت أبكي مثل طفل.

* * *

بخلاف رغبة السيد وحدتي، ظل بضعة زوار يتقاطرون، على الأقل لبعض الوقت بعدها. وفي النهاية، لم يعد أحد يأتي لرؤيته سوى أمه. كانت تأتي مرَّة كل أسبوع أو نحو ذلك. تطرقع لي بإصبعيها فأسحب لها كرسيًّا، وما إن تغوص فيه إلى جوار فراش ابنها حتى تنطلق في مونولوج من التهجم على شخصية زوجته التي هجرته: عاهرة. كذَّابة. سكيرة. جبانة. يعلم الله إلى أين هربت في أكثر وقت احتاجها فيه زوجها. وكان السيد وحدتي يتحمل هذا الكلام في صمت، وهو ينظر في جمود من فوق كتفها إلى النافذة. ثم يأتي دور التيار اللامتناهي من الأخبار والمستجدات، أغلبها يكاد يكون مؤلمًا جسديًّا في سخافته: ابنة عمته التي تشاجرت مع أخته لأن أخته تجرأت واشترت طاولة القهوة نفسها التي سبق واشترتها هذه. أخبار عمَّن ثُقب إطار سيارته وهو عائد إلى بيته من بغمان الجمعة الماضية. عمَّن غيَّر قصة شعره. وهكذا دواليك. أحيانًا كان السيد وحدتي ينعر بشيء ما، فتستدير أمه ناحيتي.

- أنت. ماذا قال؟

كانت دائمًا تخاطبني بتلك الطريقة، كلماتها حادة وناتئة.

لأنني كنت لا أفارقه تقريبيًا طوال اليوم، فقد استطعت ببطء أن أسبر ما ينطق به من ألغاز. أنحني مقتربًا منه، وما يسمعه الآخرون كأنَّات وهمهمات مبهمة أفسره أنا بأنه يريد أن يشرب، أو يريد وعاء التبول، أو يرجو من أحد أن يقلبه. أصبحت له بمنزلة مترجم بحكم الواقع.

- ابنك يقول إنه يريد أن ينام.

كانت المرأة العجوز تتنهَّد وتقول لا بأس، وإنها يجب أن تغادر على أية حال. تنحني وتقبل جبهته وتعده بأن ترجع له عما قريب. وفور أن أصحبها إلى البوابة الخارجية، حيث ينتظرها سائقها، أعود إلى غرفة السيد وحدتي، وأجلس على كرسي صغير بالقرب من فراشه، ونروح نستمتع بالصمت معًا. أحيانًا كانت أعيننا تلتقي، فيهز رأسه ويبتسم ابتسامة ملوية.

ولما كان العمل الذي قد وُظفت من أجله قد أصبح محدودًا للغاية - لم أعد أقود السيارة إلا لشراء البقالة مرَّة أو مرَّتين أسبوعيًّا، ولم يعد عليَّ أن أطبخ إلا لفردين - لم أرَ معنى فى دفع رواتب لبقية الخدم مقابل أعمال أستطيع إنجازها بنفسي. أفصحت عن ذلك للسيد وحدتي، فأشار بيده. اقتربت منه.

- ستُنهك نفسك.

- لا يا صاحب. سيُسعدني أن أقوم بذلك.

سألني إن كنت متأكدًا، فقلت له إنني متأكد.

ترقرقت عيناه، وانطبقت أصابعه بوهن على رسغي. كان أكثر

من رأيتهم في حياتي صلابة، لكن منذ السكتة صارت أتفه الأشياء تهيجه، وتوتره، وتبكيه.

- نبي. اسمعني.

- نعم يا صاحب.

- ادفع لنفسك أي راتب تريده.

قلت له إننا لسنا بحاجة لمناقشة هذا الموضوع، وطلبت منه أن يستريح.

- لا يهمني كم.

قلت إنني أفكر في عمل حساء «شروة» على الغداء.

- ما رأيك، شروة؟ أنا شخصيًّا أحب أن أتناولها. فكر في الأمر.

وضعت حدًّا للقاءات المسائية مع بقية العمال. لم أعد أهتم برأيهم فيَّ؛ لم أسمح لهم بالدخول إلى بيت السيد وحدتي ليتسلوا على حسابه، وشعرت بمتعة ملحوظة في فصل زاهد، كذلك سرَّحت المرأة «الهزارية» التي كانت تأتي لغسل الملابس. من وقتها فصاعدًا، صرت أغسل الملابس بنفسي وأعلقها على حبل الغسيل لتجف. صرت أرعى الأشجار، وأشذب الشجيرات، وأجز العشب، وأزرع أزهارًا وخضراوات جديدة. قمت بصيانة المنزل، وكنس السجاد، وتلميع الأرضيات، ونفض التراب عن الستائر، وغسل النوافذ. أصلحت الصنابير التي تُسرب المياه، وغيرت المواسير الصدئة.

وذات يوم، كنت في غرفة السيد وحدتي في الطابق العلوي

أنفض شباك العنكبوت عن الأفاريز وهو نائم. كان ذلك في الصيف، والجو جاف والحرارة قاسية. كنت قد رفعت عن السيد وحدتي كل البطاطين والملاءات، وشمَّرت ساقي سروال منامته. فتحت الشبابيك، وكانت المروحة فوَق رأسينا تُطقطق في دورانها، لكنها لم تكن ذات نفع كبير، إذ كان الحر يهجم من كل حدب وصوب.

كان ثمة خزانة كبيرة الحجم في الغرفة، فكرت منذ فترة في تنظيفها، وقررت أخيرًا أن أتصدى لها ذلك اليوم. فتحت الباب المنزلق وبدأت بالبدلات، أنفض التراب عنها واحدة بعد أخرى، مع أنني كنت أعرف أن السيد وحدتي، وأيًّا كانت الظروف، لن يعود إلى ارتداء أيٍّ منها ثانيةً. كانت هناك أكوام من الكتب تجمَّع فوقها التراب، فمسحتها هي الأخرى. نظَّفت أحذيته بقطعة قماش، ورصصتها في صف منتظم. وجدت كرتونة كبيرة تكاد تحتجب عن العيون خلف أذيال معاطف شتوية طويلة متعددة تنسدل عليها. سحبتها ناحيتي وفتحتها. كانت مليئة بكراسات السيد وحدتي القديمة، كراس فوق آخر، كل منها يحمل ذكرى حزينة لحياته الماضية.

أخرجت الكراس العلوي من الكرتونة، وفتحت عشوائيًّا إحدى الصفحات. كادت ركبتاي تخونانني. تصفَّحت الكراس بالكامل. وضعته جانبًا والتقطت آخر، ثم آخر، ثم آخر، ثم آخر بعد ذلك. راحت الصفحات تتقلب أمام عينيَّ، كل منها تعرض أمام وجهي مشهدًا صغيرًا، كل منها تحمل الموضوع نفسه مرسومًا بالفحم. في هذه كنت أمسح الرفرف الأمامي للسيارة كما يظهر المشهد

من كرسي غرفة النوم العلوية. وفي تلك أنحني على مجرفة بجوار الشرفة. كنت أظهر في تلك الصفحات وأنا أربط حذائي، أقطع الحطب، أروي الشجيرات، أصب الشاي من الغلاية، أُصلي، أغفو. وفي تلك كانت السيارة متوقفة على ضفاف بحيرة «غارغا»، وأنا خلف عجلة القيادة، والنافذة مفتوحة، وذراعي مُعلَّقة على الباب الجانبي، وهيئة مُعتمة مرسومة في المقعد الخلفي، والطيور تحوم فوق الرؤوس.

كنت أنت المقصود يا نبي.

كنت أنت طوال الوقت.

ألم تعرف؟

رفعت رأسي إلى السيد وحدتي. كان نائمًا على جنبه نومًا هنيئًا. أعدت الكراسات بحرص إلى الكرتونة، وأغلقت الغطاء، ودفعت الكرتونة إلى الركن أسفل المعاطف الشتوية، ثم غادرت الغرفة، وأغلقت الباب بنعومة حتى لا أوقظه. سرت في الدهليز المعتم، ونزلت السلالم. رأيت نفسي أواصل السير. أخرج في حر ذلك النهار الصيفي، أسير في طريقي قاطعًا المدخل، أدفع البوابة الأمامية، أخرج إلى الشارع، أنعطف عند الناصية، وأواصل المشي، من دون أن أنظر إلى الوراء.

كيف يمكنني أن أبقى الآن؟ هكذا تساءلت. لم أشعر بالتقزز ولا بالإطراء جراء ذلك الاكتشاف يا سيد ماركوس، لكنني شعرت بالارتباك. حاولت أن أتصور بقائي، وأنا أعرف ما أعرفه. هذا الذي وجدته في الكرتونة سيُلقي بظلاله على كل شيء. أمر مثل هذا لا مهرب منه ولا مفر، ولا يمكن إزاحته جانبًا. مع ذلك، فكيف أرحل

وهو في تلك الحالة من العجز؟ لم يكن ذلك ممكنًا، ليس قبل أن أجد شخصًا مناسبًا يتسلَّم واجباتي. كنت مدينًا للسيد وحدتي بهذا القدر على الأقل لأنه طالما كان طيبًا معي، بينما أنا، من جانبي، لعبت من وراء ظهره لأكسب حظوة عند زوجته.

ذهبت إلى غرفة الطعام، وجلست على الطاولة الزجاجية مغمض العينين. لا أستطيع أن أُحدد كم ظللت جالسًا من دون حراك يا سيد ماركوس، لكن في لحظة ما سمعت حركة بالطابق العلوي، ففتحت عيني، ورأيت أن الإضاءة قد تغيرت، فنهضت ووضعت ماء يغلي على النار من أجل الشاي.

* * *

ذات يوم، صعدت إلى غرفته، وأخبرته أن عندي مفاجأة له. كان هذا في أواخر الخمسينيات، قبل وصول التلفزيون إلى كابول بوقت طويل. كنت أنا وهو نقضي وقتنا تلك الأيام في لعب الورق، ثم، مؤخرًا، الشطرنج، الذي علَّمه لي، والذي أظهرت فيه قدرًا من البراعة. كذلك كنا نقضي شطرًا لا بأس به من الوقت في قراءة الدروس. وقد أثبت أنه مُدرس صبور. كان يغمض عينيه وهو ينصت إليَّ وأنا أقرأ، ويهز رأسه بلُطف عندما أُخطئ، ويقول: «مرَّة ثانية». في ذلك الحين، كان كلامه قد تحسَّن مع الوقت بشكل درامي. «اقرأ هذه ثانية يا نبي». كنت مُتعلمًا نوعًا ما عندما وُظِّفت لديه عام ١٩٤٧، والفضل يرجع للملا شكيب، لكن دروس سليمان هي التي جعلتني أتقدَّم بحق في القراءة، وبالتالي في الكتابة. فعل ذلك ليساعدني، بالطبع، لكن كان هناك عنصر ذاتي أيضًا في تلك الدروس؛ حيث أصبح بإمكاني الآن أن أقرأ له ما يحب من الكتب.

كان يستطيع قراءتها بنفسه، بطبيعة الحال، لكن لفترات قصيرة سرعان ما يحل به التعب بعدها.

عندما أكون مُنشغلًا في أعمال البيت ولا أستطيع أن أرافقه، لم يكن يجد الكثير مما يشغل به نفسه. كان يُشغل الأسطوانات، وفي أغلب الأحوال، كان عليه أن يكتفي بالنظر من النافذة، إلى الطيور على أشجارها، وإلى السماء والسحاب، وينصت إلى الأطفال وهم يلعبون في الشارع، وباعة الفواكه وهم يجرون حميرهم، ويصيحون: **الكرز! الكرز الطازج!**

عندما أخبرته بهذه المفاجأة، سألني ما هي. دسست ذراعي تحت رقبته، وقلت له إننا سننزل إلى الطابق الأرضي أولًا. في تلك الأيام، لم أكن أواجه صعوبة في حمله؛ حيث كنت ما أزال يافعًا وقويًّا. رفعته بسهولة، وحملته إلى غرفة المعيشة، حيث أرحته برفق على الأريكة.

قال:

- وبعد؟

ذهبت إلى البهو، وعُدت أدفع أمامي الكرسي المتحرك. على مدار أكثر من عام، ظللت أضغط للحصول على واحد، وكان يرفض بعناد. الآن كنت قد أخذت المبادرة واشتريته على أية حال. وعلى الفور، راح يهز رأسه رافضًا.

قلت:

- هل المشكلة في الجيران؟ هل تشعر بالخجل مما سيقوله الناس؟

طلب مني أن أُعيده إلى أعلى.

قلت:

- حسنًا، أنا شخصيًّا لا أهتم أدنى اهتمام بما يفكر فيه الناس أو يقولونه. إذًا، ما سنفعله اليوم هو أننا سنذهب في نزهة. إنه يوم جميل وسنذهب في نزهة، أنا وأنت، هذا هو الأمر. لأننا إذا لم نخرج من هذا البيت، فسأفقد عقلي، وماذا ستفعل أنت إن أنا جُننت؟ من فضلك يا صاحب، توقف عن البكاء. أنت تبدو كامرأة عجوز.

الآن صار يبكي ويضحك، لكنه لم يكف عن الترديد:

- لا! لا!

حتى وأنا أحمله وأضعه في الكرسي المتحرك، وحتى وأنا أغطيه ببطانية وأدفعه لنخرج من الباب الأمامي.

يحسن هنا أن نذكر أنني في البداية بحثت بالفعل عمَّن يحل محلي. لم أُخبر سليمان بما أفعله؛ ظننت أنه من الأفضل أن أعثر على الشخص المناسب أولًا ثم أُلقي عليه الخبر. جاء عدد من الأشخاص يسألون عن الوظيفة. قابلتهم خارج المنزل حتى لا أُثير شكوك سليمان. لكن البحث تبين أنه أكثر إشكالية مما توقعت. بعض المرشحين بدا واضحًا أنهم من قماشة زاهد - وكنت أشمهم بسهولة نظرًا لخبرتي الطويلة في التعامل مع أمثالهم - وهؤلاء كنت أصرفهم على الفور. البعض الآخر كانوا يفتقرون إلى مهارات الطبخ الضرورية، حيث كان يصعب إرضاء سليمان، كما سبق وذكرت، فيما يتعلَّق بالطعام. أو أنهم كانوا لا يستطيعون قيادة السيارة، وكثير منهم لم يستطيعوا القراءة، وهو ما كان نقصًا خطيرًا الآن بعد أن اعتدت على القراءة لسليمان في الأصائل. كذلك وجدت أن البعض

لا يتميزون بالصبر، وهو عيب آخر خطير عندما يتعلق الأمر برعاية سليمان الذي كان سريع الغضب، ويناكد كالأطفال أحيانًا. وآخرون قررت بالفطرة أنهم يفتقرون إلى الطبع اللازم للمهمة الشاقة التي تنتظرهم.

وهكذا، بعد ثلاثة أعوام، كنت ما أزال في المنزل، ما أزال أقول لنفسي إنني أنوي الرحيل فور الاطمئنان إلى أن مصير سليمان بين يدين أستطيع أن أثق فيهما. بعدها بثلاثة أعوام، كنت ما أزال أغسل جسمه يومًا بعد يوم بقماشة مبللة، وأحلق ذقنه، وأقص أظافره، وأهذب شعره. أناوله طعامه، وأساعده على قضاء حاجته في وعاء التبول، ثم أنظف وراءه، وأغسل ملابسه المتسخة، كما تفعل مع الأطفال. في ذلك الوقت، كنا قد طورنا لغة غير منطوقة، تولدت من العِشرة والاعتياد، وتسربت إلى علاقتنا، بطبيعة الحال، درجة من الأُلفة لم يكن أي منا يتصورها من قبل.

بمجرد أن أقنعته بالموافقة على الكرسي المتحرك، استعدنا الطقس القديم؛ نزهاتنا الصباحية. كنت أدفعه إلى خارج المنزل، فنسير في الشارع ونُلقي التحية على الجيران ونحن نمر بهم. أحدهم كان السيد «بشيري»، وهو شاب تخرج مؤخرًا في جامعة كابول وتوظَّف في وزارة الشؤون الخارجية. وكان قد انتقل هو، وأخوه، وزوجتاهما إلى بيت كبير من طابقين يبعد ثلاثة بيوت عن البيت المواجه لنا. أحيانًا كنا نصادفه وهو يغسل سيارته في الصباح ليذهب إلى عمله، وكنت أتوقف دائمًا لبعض «الدردشة». كنت غالبًا أقود السيارة إلى متنزه «شاري - ناو»، حيث نجلس في ظلال أشجار الدردار، ونراقب حركة المرور: سائقو التاكسي وهم يضربون

بأكفهم على البوق، أجراس الدراجات، نهيق الحمير، المشاة وهم يعبرون من أمام الحافلات في حركات انتحارية. وأصبحنا مشهدًا مألوفًا، أنا وسليمان، في المتنزه وما حوله. وفي طريق العودة، كنا غالبًا ما نتوقف لتبادل المزاح مع باعة المجلات والجزارين، وبضع كلمات مرحة مع رجال شرطة المرور الشباب، ونثرثر مع السائقين المستندين على سياراتهم في انتظار الركاب.

أحيانًا كنت أضعه في المقعد الخلفي للشيفروليه القديمة، وأدس المقعد المتحرك في حقيبة السيارة، وأقود إلى بغمان، حيث أجد دائمًا حقلًا مخضوضرًا جميلًا، وجدولًا فوارًا تظلله الأشجار. كان يجرب يديه في الرسم بعد أن نتناول الغداء، لكن ذلك كان كفاحًا عسيرًا، حيث أثرت السكتة على يده اليمنى التي يرسم بها. مع ذلك، فقد استطاع، باستخدام يده اليسرى، أن يُعيد خلق الأشجار والتلال وباقات الأزهار البرية بفنية أعظم بكثير مما كنت أستطيعه بقدراتي السليمة. وفي النهاية، كان سليمان يتعب ويغفو، وينزلق القلم الرصاص من يده، فأُغطي ساقيه ببطانية، وأرقد على العشب إلى جوار كرسيه، مُنصتًا إلى النسيم وهو يمر بالأشجار، مُحدقًا في السماء، وشرائط السحب تنساب فوق رأسي.

وسواء طال الوقت أم قصر، كنت أجد أفكاري في النهاية تنجرف إلى نيلا، التي كانت بعيدة عني الآن بمسافة قارة كاملة. كنت أتصور اللمعة الناعمة لشعرها، وكيف كانت تهز قدمها، والصندل يضرب كعبها على إيقاع طقطقة سيجارة محترقة. أفكر في انحناءة ظهرها ونهود صدرها. أتحرَّق شوقًا لأن أكون بقربها ثانية، أن تحتويني ابتسامتها، أن أشعر بخفقان قلبي القديم المألوف

حين تلمس يدي. كانت قد وعدت بأن تكتب لي، ومع أن السنين قد مرت ولا شك أنها قد نسيتني، لم أستطع أن أتمدد حينها وأزعم أنني لم أعد أشعر بموجة من التوقع في كل مرَّة نتسلم مراسلات في المنزل.

ذات يوم، في بغمان، كنت جالسًا على العشب، أتمعن في رقعة الشطرنج. كان ذلك بعدها بأعوام، في عام ١٩٦٨، العام الذي تلا عام وفاة والدة سليمان، وأيضًا العام الذي أصبح فيه السيد بشيري وأخوه أبوين، حيث أنجبا صبيين أطلقا عليهما اسمي «إدريس» و«تيمور»، على الترتيب. كنت كثيرًا ما أرى الرضيعين أولاد العمومة في عربتيهما حين تأخذهما الأمَّان للتنزه في أرجاء الحي. في هذا اليوم، بدأنا أنا وسليمان مباراة شطرنج، قبل أن يغفو، وكنت أحاول الآن أن أجد طريقة لتعديل وضعي بعد افتتاحيته الهجومية، عندما قال:

- أخبرني يا نبي، كم عمرك الآن؟

قلت:

- يعني. أنا تجاوزت الأربعين. هذا ما أعرفه.

قال:

- كنت أفكر أنك يجب أن تتزوج، قبل أن تفقد وسامتك. لقد بدأ شعرك في المشيب.

تبادلنا الابتسام. وقلت له:

- أختي معصومة كانت تقول لي الشيء نفسه.

سألني إن كنت أتذكر يوم وظَّفني، عام ١٩٤٧، قبل واحد وعشرين عامًا.

كنت أتذكر، بطبيعة الحال. كنت قبلها أعمل مساعد طباخ في بيت يبعد عدة شوارع عن مسكن وحدتي، ولم أكن سعيدًا في عملي. وعندما سمعت أنه بحاجة إلى طباخ - حيث تزوج طباخه وغادر البيت - توجهت إلى منزله مباشرة في أصيل أحد الأيام، وضغطت على جرس البوابة الأمامية.

قال سليمان:

- كنت طباخًا سيئًا على نحو مُذهل. الآن تفعل الأعاجيب يا نبي، لكن تلك الوجبة الأولى؟ يا ربِّي! وأول مرَّة قدت سيارتي ظننت أنني سأُصاب بالسكتة.

توقف هنا، ثم قهقه، وقد فاجأته تلك النكتة غير المقصودة.

كان هذا أمرًا مفاجئًا جدًّا لي، يا سيد ماركوس، صدمة حقيقية؛ إذ لم يسبق أن اشتكى سليمان شكوى واحدة على مدار تلك الأعوام، سواء من طبخي أو من قيادتي. وسألته:

- ولماذا، إذًا، وظَّفتني؟

أدار وجهه إليَّ:

- لأنك فور أن دخلت، قلت لنفسي إنني لم أرَ في جمالك أحدًا.

خفضت عيني إلى رقعة الشطرنج.

- عرفت عندما التقيتك أننا مختلفان، أنا وأنت، أن ما أردته كان مُستحيلًا. مع ذلك، كانت لدينا نزهاتنا الصباحية، وجولاتنا بالسيارة، ولن أقول إن ذلك كان كافيًا بالنسبة إليَّ، لكنه كان أفضل من ألا أكون معك. تعلمت أن أقنع بوجودي بالقرب منك.

توقف قليلًا، ثم تابع:

- وأظن أنك تفهم شيئًا مما أصفه يا نبي. أعرف أنك تفهم.

لم أستطع أن أرفع عيني لتلتقيا عينيه.

- أريد أن أُخبرك، ولو لمرَّة واحدة، أنني أحببتك منذ زمن طويل طويل يا نبي. أرجوك لا تغضب.

هززت رأسي نافيًا. لدقائق، لم ينبس أحدنا بكلمة.

مرت كالأنفاس بيننا، كلماته التي قالها، الألم الناجم عن حياة مكبوتة، عن سعادة لم تتحقق قَطُّ.

قال:

- وأنا أُخبرك بهذا الآن لكي تفهم لماذا أريدك أن ترحل. ارحل وابحث لنفسك عن زوجة. كوِّن لنفسك أسرة يا نبي، مثل الآخرين. ما زال أمامك وقت.

قلت أخيرًا، بهدف تخفيف التوتر بالمزاح الوقح:

- حسنًا. ربما أفعل ذلك يومًا ما، وساعتها سوف تندم، وكذلك الوغد البائس الذي سيضطر إلى غسل ملابسك.

- أنت تحول كل شيء إلى مزاح.

رحت أراقب خنفساء تزحف ببطء على ورقة شجر خضراء رمادية.

- لا تبقَ من أجلي. هذا ما أقوله يا نبي. لا تبقَ من أجلي.

- أنت تمتدح نفسك.

قال بوهن:

- أنت تمزح ثانية.

لم أقل شيئًا على الرغم من أنه لم يفهم. لم أكن أمزح تلك

المرَّة. لم يعد بقائي من أجله. كان كذلك في البداية. بقيت في أول الأمر لأن سليمان كان بحاجة إليَّ، لأنه كان يعتمد عليَّ اعتمادًا كاملًا. لقد سبق لي أن فررت من إنسان كان بحاجة إليَّ، والندم الذي ما زلت أشعر به سوف آخذه معي إلى القبر. لم يكن بوسعي أن أفعلها ثانية. لكن ببطء، وعلى نحو غير ملحوظ، تغيرت الأسباب التي تدعوني للبقاء. لا أستطيع أن أُخبرك متى أو كيف حدث التغيير يا سيد ماركوس، لكنني كنت حينها أبقى من أجلي أنا. سليمان قال إنني يجب أن أتزوج، لكن الحقيقة هي أنني كنت أنظر إلى حياتي فأدرك أنني أتمتع بما يتزوج الناس من أجله؛ كنت أتمتع بالراحة، والرفقة، وببيت أشعر فيه أنني محبوب، ومطلوب، ومُرحب بي. أما الرغبات الجسدية التي كنت أشعر بها كرجل - وكنت ما أزال أشعر بها، بالطبع، وإن كانت قد أصبحت أقل تكرارًا وأقل إلحاحًا مع تقدمي في العمر - فكان بالإمكان السيطرة عليها، كما شرحت من قبل. أما بالنسبة إلى الأطفال، فعلى الرغم من أنني أحببتهم دائمًا، فلم أشعر قَطُّ بنبض الأبوة يضرب داخل صدري.

قال سليمان:

- إذا أردت أن تظل بغلًا ولا تتزوج، فلديَّ طلب عندك، لكن شريطة أن توافق قبل أن أسأل.

أخبرته أنه لا يستطيع أن يطلب ذلك مني.

- لكنني أطلبه.

رفعت رأسي إليه.

قال:

- تستطيع أن ترفض.

كان يعرفني جيدًا. ابتسم ابتسامة ملوية. قطعت العهد على نفسي، وأفصح هو عن طلبه.

* * *

ماذا أقول لك يا سيد ماركوس عن السنوات التي تلت ذلك؟ أنت تعرف جيدًا تاريخ هذا البلد المنكوب في السنوات الأخيرة. لست بحاجة لأن أستحضر تلك الأيام السوداء. إنني أتعب من مجرد التفكير في كتابتها، وإلى جانب ذلك، فإن معاناة هذا البلد سُجلت بما يكفي بالفعل، وبأقلام أكثر علمًا وبلاغة من قلمي.

أستطيع أن ألخص الأمور في كلمة واحدة: «الحرب». أو، بالأحرى، الحروب. ليست حربًا، ولا اثنتين، وإنما حروب عدة، كبيرة وصغيرة، عادلة وجائرة، حروب تتبدل فيها جماعات من الأبطال والأشرار المفترضين، كل بطل جديد يجعل المرء يشعر بحنين أكبر للشرير القديم. تغيرت الأسماء، وكذا الوجوه، وأنا أبصق عليهم جميعًا لما جلبوه، من الصراعات التافهة، والقناصة، والألغام الأرضية، والهجمات التفجيرية، والصواريخ، والسلب والنهب والاغتصاب والقتل. آه، يكفي هذا! إن المهمة عظيمة جدًّا ومزعجة جدًّا. لقد عشت تلك الأيام بالفعل، وأنوي أن أعيشها من جديد على تلك الصفحات بأكبر اختصار ممكن. الخير الوحيد الذي جاءني من ذلك الزمن هو قدر من الشفاعة بخصوص باري الصغيرة التي لا بد أنها قد كبرت الآن وأصبحت شابة. لقد خفف عن ضميري كونها آمنة، بعيدة عن هذا التقتيل.

الثمانينيات، كما تعرف يا سيد ماركوس، لم تكن شديدة البشاعة في كابول؛ حيث كانت معظم المعارك تدور في الريف. مع

ذلك، كانت حقبة الهجرة، إذ حزمت الكثير من العائلات في حيِّنا أمتعتها وغادرت البلاد إما إلى «باكستان» وإما إلى «إيران»، آملين أن يهاجروا بعد ذلك إلى الغرب. أتذكر بوضوح يوم جاء السيد بشيري ليودعنا. صافحته وتمنيت له الخير. كذلك ودعت ابنه إدريس، الذي كان قد شب وأصبح فتى طويلًا ضامرًا في الرابعة عشرة من عمره بشعر طويل وزغب خفيف فوق شفته. قلت لإدريس إنني سأفتقد كثيرًا رؤيته وابن عمه تيمور وهما يُطيران الطائرات الورقية ويلعبان الكُرة في الشارع. ربما تتذكر أننا التقينا بابني العم بعد ذلك بعدة سنوات، أنا وأنت يا سيد ماركوس، وكانا قد أصبحا رجلين ناضجين، في حفلة أقمتَها في البيت في ربيع ٢٠٠٣.

التسعينيات هي التي شهدت اندلاع المعارك أخيرًا داخل حدود المدينة. سقطت كابول فريسة لرجال بدا أنهم تدحرجوا من بطون أمهاتهم حاملين بنادق الكلاشنكوف في أيديهم يا سيد ماركوس، همج كلهم، لصوص مسلحون يحملون ألقابًا فخيمة منحوها لأنفسهم. وعندما بدأت الصواريخ تنطلق، ظل سليمان في المنزل ورفض المغادرة. راح ينكر بحزم كل المعلومات حول ما يدور خارج جدران منزله. نزع قابس التلفزيون، وتخلى عن الراديو، ولم يعد يقرأ الجرائد، وطلب مني ألا أجلب أيًّا من أخبار القتال إلى المنزل. لم يكن يعرف تقريبًا مَن يحارب مَن، مَن ينتصر، ومَن ينهزم، وكأنما كان يأمل أنه حين يتشبث بتجاهل الحرب، فإن الحرب سوف ترد له الجميل.

لكنها لم ترد الجميل بالطبع. وتحول الشارع الذي نعيش فيه، الذي كان ذات يوم هادئًا لامعًا لا سوء فيه، إلى مسرح للحرب. كانت

الرصاصات تصيب كل منزل، والصواريخ تصفر فوق الرؤوس، وقذائف «الآر بي جي» تسقط هنا وهناك في الشارع، وتفجر حفرًا في الأسفلت. وفي الليل، تتطاير المقذوفات المذنَّبة من كل حدب وصوب حتى الفجر. في بعض الأيام، كنا ننعم باستراحة قصيرة، بضع ساعات من الهدوء، تقطعها فجأة انفجارات نارية، جولات من الطلقات من كل اتجاه، وأناس في الشارع يصرخون.

في تلك الأيام، يا سيد ماركوس، أُصيب البيت بمعظم الضرر الذي شهدتَه عندما رأيتَه للمرَّة الأولى عام ٢٠٠٢. مع التسليم بأن بعضًا منه كان بسبب مرور الزمن والإهمال - فقد تقدمتُ في العمر وصرت رجلًا مُسنًّا في ذلك الوقت ولم تعد لديَّ الموارد الضرورية لرعاية البيت كما كنت أفعل من قبل. كانت الأشجار قد ماتت عندئذ - وقد ظلت لا تُثمر قبلها بأعوام - واصفر العشب، واختفت الأزهار. لكن الحرب لم ترحم البيت الذي كان جميلًا ذات مرَّة. تهشمت النوافذ جراء انفجارات قذائف «الآر بي جي» بالقرب منها، ودمر صاروخ الجدار الشرقي للحديقة وكذا نصف الشرفة، التي شهدت العديد من محادثاتنا أنا ونيلا، وخرَّبت السقفَ قنبلة يدوية، وخلفت الرصاصات ندوبًا على الجدران.

ثم جاء السلب والنهب يا سيد ماركوس. كان رجال الميليشيات يدخلون متى شاؤوا، وينهبون أي شيء يثير خيالهم. لقد استولوا على الأثاث كله: اللوحات، والسجاد التركماني، والتماثيل، والشمعدانات الفضية، والمزهريات الكريستال. اقتلعوا البلاط اللازوردي من رفوف الحمَّام. لقد استيقظت ذات صباح على صوت رجال في البهو، ووجدت عصابة من رجال الميليشيات

الأوزبك ينزعون البساط عن السلم مستخدمين سكاكين معقوفة. وقفت أراقبهم. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ وهل كان يهمهم رجل مُسن آخر يموت بإطلاق رصاصة على رأسه؟

مثل البيت، كنت أنا وسليمان نتداعى بدورنا. أعتم بصري، وصارت ركبتاي تؤلمانني معظم الأيام. سامحني على وقاحتي يا سيد ماركوس، لكن التبول نفسه تحوَّل إلى اختبار لقدرة التحمل. وكما هو متوقع، فقد أصاب الزمن سليمان بأقسى مما أصابني؛ لقد انكمش وأصبح نحيلًا وهشًّا على نحو مُفزع، وكاد أن يموت مرَّتين؛ إحداهما في أثناء أسوأ أيام القتال بين جماعة «أحمد شاه مسعود» وجماعة «قلب الدين حكمتيار»، حين تناثرت الجثث لأيام في الشوارع من دون أن يرفعها أحد. كان سليمان مُصابًا بالالتهاب الرئوي في ذلك الوقت، وقال الطبيب إنه أُصيب به من استنشاق لُعابه هو نفسه. وعلى الرغم من ندرة الأطباء وما وصفوه من أدوية، استطعت أن أُمرِّض سليمان حتى تعافى من موت مؤكد.

ربما بسبب الحبس اليومي وزيادة تقاربنا، كنا نتشاجر كثيرًا تلك الأيام، أنا وسليمان. تشاجرنا كما يتشاجر الأزواج، بعناد، وحدَّة، وعلى أشياء تافهة.

- **لقد طبخت فاصولياء قبل هذا الأسبوع.**

- **لا، لم يحدث.**

- **بل حدث. يوم الاثنين!**

الخلافات حول عدد أدوار الشطرنج التي لعبناها في اليوم السابق. لماذا أضع إناء المياه الخاص به على عتبة النافذة دائمًا، وأنا أعرف أن الشمس ستُدفئه.

- لماذا لم تنادني لآتي لك بإناء التبول يا سليمان؟

- ناديتك، ناديتك مائة مرَّة.

- هل تقول إنني أصم أم كسول؟

- لا حاجة للاختيار، أقول إنك الاثنان.

- كم أنت جريء لتصفني بالكسل وأنت راقد في الفراش طوال اليوم!

وهكذا وهكذا...

كان يهز رأسه من جنب إلى جنب عندما أحاول أن أطعمه. وكنت أتركه وأخرج صافعًا الباب خلفي بقوة. أحيانًا، أعترف، كنت أتعمَّد إصابته بالقلق. كنت أغادر المنزل، وكان هو يصرخ: «إلى أين تذهب؟» ولا أُجيبه. كنت أتظاهر بأنني راحل بلا عودة. بالطبع كنت أكتفي بالنزول إلى الشارع، والمشي قليلًا، والتدخين - عادة جديدة، التدخين، اكتسبتها في وقت متأخر من حياتي - على الرغم من أنني كنت أدخن فقط وأنا غاضب. أحيانًا كنت أظل في الخارج لساعات، فإذا كان قد نكَّد عليَّ بحق، أظل حتى حلول الليل، لكنني أعود دائمًا. أدخل غرفته من دون أن أنطق بكلمة فأقلبه وأنفش وسادته، وكلانا يتحاشى النظر في عيني الآخر، وكلانا مزموم الشفتين، في انتظار تقدمة سلام من الآخر.

أخيرًا، انتهى القتال مع وصول طالبان، أولئك الشباب ذوي الوجوه الحادة، واللحى الداكنة، والعيون المكحلة، والأسواط. لقد سُجل الكثير عن أوجه قسوتهم وتطرفهم هم أيضًا، وهكذا، لا أرى سببًا لتعدادها لك يا سيد ماركوس. لكن يجب أن أقول إن سنواتهم في كابول كانت، لسخرية القدر، فترة استراحة شخصية

بالنسبة إليَّ. كانوا يحتفظون بالجزء الأكبر من احتقارهم وتعصبهم للشباب، وخصوصًا النساء المسكينات. أما أنا، فكنت رجلًا مُسنًّا. وكان التنازل الوحيد الذي أُقدمه لنظامهم هو أن أُطلق لحيتي، وهو ما جنبني، للأمانة، مشقة الحلاقة اليومية.

همس سليمان من فراشه:

- لقد صار الأمر رسميًّا يا نبي! لقد فقدت وسامتك. صرت أشبه بنبي.

في الشارع، كان رجال طالبان يمرون بي كما لو أنني بقرة ترعى. وكنت أساعدهم على ذلك بأن أتخذ تعبيرًا لا مُباليًا صامتًا لكي أتجنب إثارة انتباه لا ضرورة له. أرتعد حين أُفكر كيف كانوا سينظرون إلى نيلا - وماذا كانوا سيفعلون بها. أحيانًا عندما أستدعيها إلى ذهني، وهي تضحك في حفل وتحمل في يدها زجاجة شمبانيا، ذراعاها المكشوفتان، ساقاها الأسطوانيتان الطويلتان، يُهيأ إليَّ أنها من وحي خيالي، كأنها لم تُوجد قَطُّ. كأن شيئًا من ذلك لم يكن حقيقيًّا قَطُّ - ليست هي فقط، بل أنا أيضًا، وباري، وسليمان الشاب صحيح الجسد، وحتى الزمن والبيت الذي كنا نسكن فيه جميعًا.

ثم ذات صباح في صيف عام ٢٠٠٠ دخلت غرفة سليمان حاملًا صينية عليها شاي وخبز طازج. وعلى الفور، عرفت أن أمرًا قد وقع. كانت أنفاسه مُتقطعة، وأصبح تهدُّل وجهه فجأة أكثر وضوحًا بكثير، وعندما حاول أن يتكلم لم تصدر منه إلا أصوات مبحوحة لا تكاد تعلو عن الهمس. وضعت الصينية وهرعت إليه، قائلًا:

- سأحضر طبيبًا يا سليمان. انتظر وحسب. سنجعلك بخير، كما كنت دائمًا.

استدرت لأغادر، لكنه كان يهز رأسه بقوة. أشار بأصابعه إلى يده اليسرى.

انحنيت عليه، وقرَّبت أذني من فمه.

حاول مرَّة بعد أخرى أن يقول شيئًا لكنني لم أستطع أن أتبين أي شيء.

قلت:

- أنا آسف يا سليمان. يجب أن تتركني أذهب وأحضر الطبيب. لن أتأخر.

هز رأسه ثانية، ببطء تلك المرَّة، وسالت الدموع من عينيه المثقلتين بالمياه البيضاء. راح فمه ينفتح وينغلق. أشار برأسه في اتجاه طاولة الفراش. سألته إذا كان فيها شيء يحتاجه. أغمض عينيه وأومأ برأسه.

فتحت الدرج العلوي. لم أرَ إلا حبوبًا، ونظارة القراءة الخاصة به، وزجاجة كولونيا قديمة، ودفتر ملاحظات، وأقلام فحم توقف عن استخدامها قبل سنوات. وأوشكت أن أسأله عما ينبغي أن أبحث عنه، عندما وجدته، مدسوسًا تحت دفتر الملاحظات. ظرفٌ عليه اسمي بخط سليمان المُرتبك، وبداخله ورقة كتب عليها فقرة واحدة. قرأتها.

نظرت إليه، إلى صدغيه الغائرين، خديه المجعدين، عينيه الفارغتين.

أشار ثانية، فانحنيت عليه. أحسست بأنفاسه الباردة، الخشنة، غير المنتظمة على خدي. سمعت صوت لسانه وهو يجاهد داخل حلقه الجاف وهو يلملم نفسه. بطريقة ما، ربما من خلال قوة الإرادة وحدها، استطاع أن يهمس في أذني.

تدفق الهواء من داخلي. أجبرت الكلمات على أن تشق طريقها حول الكتلة التي انحشرت في حلقي:

- لا يا سليمان، أرجوك.

- **لقد وعدتني.**

- ليس الآن. سأُمرِّضك حتى تُشفى. سوف ترى. سنجتاز ذلك مثلما نفعل دائمًا.

- **لقد وعدتني.**

كم ظللت جالسًا هناك إلى جواره؟ كم حاولت أن أتفاوض معه؟ لا أستطيع أن أُخبرك يا سيد ماركوس. أتذكر أنني وقفت آخر الأمر، ودرت حول السرير، وتمددت إلى جواره. قلبته حتى أصبح في مواجهتي. شعرت به خفيفًا مثل حلم. طبعت قُبلة على شفتيه الجافتين المشققتين. وضعت وسادة بين وجهه وصدري ومددت يدي إلى مؤخرة رأسه. ضممته إليَّ ضمّةً طويلة وقوية.

كل ما أتذكره بعد هذا هو بؤبؤا عينيه الجاحظتين.

مشيت إلى النافذة وجلست، وفنجان الشاي الخاص بسليمان ما يزال على الصينية عند قدمي. كان صباحًا مُشمسًا، أتذكر. ستفتح المتاجر قريبًا، إذا لم تكن قد فُتحت بالفعل. صبية صغار يتوجهون إلى المدرسة. التراب بدأ يتصاعد بالفعل. وهرول كلب بكسل في الشارع ترافقه سحابة داكنة من البعوض تدور حول رأسه. راقبت شابين يستقلان دراجة بخارية. كان الراكب في الخلف يرفع شاشة كمبيوتر على إحدى كتفيه، وبطيخة على الكتف الأخرى.

أرحت جبهتي على الزجاج الدافئ.

* * *

كانت الرسالة في درج سليمان وصية ترك لي فيها كل شيء: البيت، وماله، وأغراضه الخاصة، وحتى السيارة، ولو أنها كانت قد بليت منذ وقت طويل. كانت جثتها ما تزال قابعة في الساحة الخلفية على إطارات مسطحة، هيكلًا مُتهدلًا من معدن أبلاه الصدأ.

مرت بي فترة شعرت فيها بالضياع، ولم أعرف ماذا أفعل بنفسي. لقد ظللت أعتني بسليمان لأكثر من نصف قرن. وقد تشكَّل وجودي اليومي وفقًا لاحتياجاته، ولرفقته. الآن صرت حرًّا لكي أفعل ما أريد، لكنني وجدت الحرية خدَّاعة، لأن أكثر شيء أردته قد سُلب مني. يقولون: «اعرف المعنى من وراء حياتك ثم عشها». لكنك، أحيانًا، لا تدرك إلا بعد أن تعيش أن حياتك كان لها معنى بالفعل، معنى ربما لم يخطر ببالك قَطُّ. والآن وقد حققت معنى حياتي، بت أشعر بأنني هائم على وجهي، بلا هدف.

وتبين لي أنني لم أعد بقادر على النوم في المنزل؛ لم يعد بوسعي البقاء فيه أصلًا. فبعد رحيل سليمان، بدا لي كبيرًا جدًّا، وصار كل ركن، كل فجوة وشق في الجدار، يثير ذكريات قديمة. وهكذا، انتقلت إلى كوخي القديم في الركن البعيد من الباحة. استأجرت بعض العمال لتوصيل الكهرباء إلى الكوخ لأستطيع تركيب مصباح للقراءة ومروحة تروح عني في الصيف. أما بالنسبة للمساحة، فلم أكن بحاجة إلى الكثير. لم تكن ممتلكاتي تتجاوز فراشًا، وبعض الملابس، والكرتونة التي تحوي رسومات سليمان. أعرف أن ذلك قد يبدو لك غريبًا يا سيد ماركوس. نعم، كان البيت لي من الناحية القانونية، وقد صار كل ما فيه يخصني، لكنني لم أشعر حقًّا بأنني أمتلك أيًّا من ذلك، وعرفت أنني لن أشعر بذلك أبدًا.

قرأت قدرًا لا بأس به، كتبًا أخذتها من مكتب سليمان القديم. كنت أُعيد كل كتاب بعد الانتهاء منه. زرعت بعض الطماطم، وغصينات صغيرة من النعناع. صرت أخرج في نزهات حول الحي، لكن ركبتيَّ كانتا تؤلماني غالبًا قبل أن أمشي مسافة شارعين، فتجبرانني على العودة. أحيانًا كنت أضع كرسيًّا في الحديقة وأجلس ساكنًا. لم أكن مثل سليمان: العزلة لم تكن تناسبني.

ثم ضغطت أنت على جرس البوابة الأمامية في أحد أيام ٢٠٠٢.

في ذلك الوقت، كان تحالف الشمال قد طرد طالبان، وكان الأمريكان قد جاؤوا إلى أفغانستان، وصار الآلاف من موظفي الإغاثة يتوافدون على كابول من جميع أرجاء العالم لبناء العيادات والمدارس، لإصلاح الطرق وقنوات الري، لجلب الغذاء والمأوى والوظائف.

كان المترجم الذي يرافقك شابًّا أفغانيًّا، يرتدي سترة قرمزية فاتحة ونظارة شمس. سألني عن مالك البيت. وقد تبادلتما نظرات سريعة عندما أخبرتُ المترجم أنه يتحدث إلى المالك. ابتسم ابتسامة مُتكلفة وقال:

- لا يا كاكا، المالك.

ودعوتكما لتناول الشاي.

بعد ذلك دار الحوار، في الجزء المتبقي من الشرفة وحول فناجين الشاي الأخضر، باللغة الفارسية - وقد تعلمت، كما تعرف يا سيد ماركوس، بعض الإنجليزية في السنوات السبع التالية بفضل توجيهك وكرمك. من خلال المترجم، قلت إنك من «تينوس»،

وهي جزيرة في اليونان. إنك جراح، أحد أفراد الطاقم الطبي الذي جاء إلى كابول لإجراء جراحات للأطفال الذين أصيبوا في وجوههم. قلت إنك وزملاءك بحاجة إلى مقر للإقامة، **بيت ضيافة**، كما يُطلقون عليه هذه الأيام.

سألتني كم أطلب لإيجار البيت.

قلت:

- لا شيء.

ما زلت أتذكر كيف طرفت بعينيك بعد أن ترجم لك الشاب ذو السترة القرمزية. كررت سؤالك، وأنت تعتقد أنني ربما أسأت الفهم.

انزاح المترجم إلى حافة الكرسي، وانحنى ليقترب مني. تحدث كمن يكشف سرًّا خطيرًا. سألني إن كان عقلي قد تشوَّش، إن كانت لديَّ أدنى فكرة عن الإيجار الذي يمكن أن تدفعه مجموعتك، هل لديَّ أدني فكرة عن أسعار الإيجارات السارية الآن في كابول؟ قال إنني أجلس على منجم ذهب.

طلبت منه أن يخلع نظارة الشمس وهو يتحدث إلى شخص يكبره سنًّا، ثم وجهته إلى أن يقوم بعمله، وهو الترجمة، وليس إسداء النصح، واستدرت إليك وعرضت، من بين أسبابي العديدة، السبب الذي لم يكن شخصيًّا. قلت:

- لقد تركتم بلادكم، أصدقاءكم، أُسركم، وجئتم إلى هذه المدينة المنكوبة لتساعدوا وطني وأبناء جلدتي، فكيف آخذ منكم مالًا؟

رفع المترجم الشاب، الذي لم أره معك بعدها، يديه إلى أعلى

وتضاحك في جزع. لقد تغيَّر هذا البلد. لم يكن الحال هكذا على الدوام يا سيد ماركوس.

أحيانًا في الليل، أتمدد وحدي في ظلام مسكني وأرى أضواء تتلألأ في البيت الكبير. أراقبك أنت وأصدقاءك - وخصوصًا الآنسة «أمرا أديموفيتش» الشجاعة، ذات القلب الذي أُقدره أشد تقدير - في الشرفة أو في الباحة، تتناولون الطعام من الأطباق، تدخنون السجائر، تشربون نبيذكم. ويمكنني أن أسمع الموسيقى أيضًا، وأحيانًا تكون موسيقى «الجاز»، التي تُذكرني بنيلا.

لقد ماتت، هذا ما أعرفه. عرفت ذلك من الآنسة «أمرا». كنت قد حكيت لها عن آل وحدتي، وقلت لها إن نيلا شاعرة. العام الماضي، عثَرت على مطبوعة فرنسية على الكمبيوتر. كانوا قد نشروا على الإنترنت أنطولوجيا لأفضل ما نشروه في السنوات الأربعين الماضية، وكان من بينها مقالة عن نيلا، ورد فيها أنها قد تُوفيت عام ١٩٧٤. فكرت في عقم كل تلك السنوات، حيث كان يحدوني الأمل أن أتلقَّى خطابًا من امرأة ماتت بالفعل قبل زمن طويل. لم أُفاجأ كثيرًا حين عرفت أنها أنهت حياتها بنفسها. صرت أعرف الآن أن بعض الناس يشعرون بالتعاسة كما يشعر آخرون بالحب: خفية، وبقوة، ومن دون ملاذ.

دعني أنتهِ من هذا الأمر يا سيد ماركوس.

لقد اقترب يومي. يزداد وهني يومًا بعد يوم، ولن أعيش طويلًا، وأحمد الله على ذلك. شكرًا لك كذلك يا سيد ماركوس، ليس فقط على صداقتك، وعلى أخذي بعضًا من وقتك لزيارتي كل يوم والجلوس معي لشرب الشاي، وحكاياتك عن والدتك في «تينوس»

وصديقة طفولتك «ثاليا»، ولكن أيضًا على تعاطفك مع شعبي، والخدمة التي تُقدمها للأطفال هنا، وهي خدمة لا تُقدَّر بثمن.

شكرًا كذلك على الإصلاحات التي تقوم بها في أرجاء المنزل. لقد قضيت الجزء الأكبر من حياتي فيه، إنه بمنزلة وطن لي، وأنا متأكد أنني عما قريب سألفظ تحت سقفه آخر أنفاسي. لقد كنت شاهدًا على انهياره بفزع وقلب يتمزق، لكن رؤيته وهو يُدهن من جديد جلبت لي فرحة عظيمة، أن أرى سور الحديقة يُرمم، والنوافذ تُستبدل، والشرفة، حيث قضيت ساعات لا تُعد من السعادة، يُعاد بناؤها. أشكرك يا صديقي على الأشجار التي زرعتها، وعلى الأزهار التي تتفتح من جديد في الحديقة. فإذا كنت أنا قد ساعدت بشكل ما في الخدمات التي قدمتها للناس في تلك المدينة، فإن ما تكرَّمت أنت بفعله من أجل هذا البيت أراه يُمثل تعويضًا أكثر من كافٍ بالنسبة إليَّ.

مع ذلك، ومع أن هذا قد يُظهرني بصورة الطماع، فسأسمح لنفسي أن أطلب منك شيئين: واحدًا لي، والآخر لشخص آخر. الأول أن تدفنني في مقبرة «عاشقان وعارفان»، هنا في كابول. أنا واثق أنك تعرفها. ادخل من المدخل الرئيسي وامض في اتجاه الطرف الشمالي، فإذا بحثت قليلًا فسوف تجد قبر سليمان وحدتي. اعثر لي على قطعة أرض مجاورة وادفني هناك. هذا هو كل ما أطلبه لنفسي.

الثاني هو أن تحاول العثور على ابنة أختي باري بعد رحيلي. إذا كانت ما تزال على قيد الحياة، فربما لن يكون ذلك شديد الصعوبة - الإنترنت أداة عجيبة. في هذا الظرف، وإلى جانب

هذا الخطاب، ستجد وصيتي، التي أترك لها فيها البيت، والسيارة، وأغراضي القليلة. أسألك أن تُعطيها هذا الخطاب والوصية. وأرجوك أن تخبرها، أخبرها أنني لا أستطيع أن أعرف التبعات التي أعقبت فِعلتي. أخبرها أنني لا أجد سلواي إلا في الأمل، الأمل أن تكون، حيثما هي الآن، قد وجدت من السلام، والإنصاف، والحب، والسعادة، بقدر ما يسمح به هذا العالم.

أشكرك يا سيد ماركوس. وليحرسك الله.

صديقك دائمًا،

نبي.

٥
ربيع ٢٠٠٣

كانت المُمرِّضة، واسمها «أمرا أديموفيتش»، قد حذَّرت إدريس وتيمور. كانت قد سحبتهما جانبًا وقالت:

- إذا أظهرتما أي رد فعل، ولو ضئيلًا، فستنزعج منكما، وسأطردكما.

يجلسان في آخر ممر طويل، شاحب الإضاءة، في جناح الرجال بمستشفى «وزير أكبر خان». قالت «أمرا» إن القريب الوحيد للفتاة الباقي على قيد الحياة - أو الوحيد الذي كان يزورها - هو خالها، وإذا وُضعت في جناح النساء فلن يُسمح له بزيارتها. لذا وضعها الطاقم في جناح الرجال، ليس في غرفة - فليس من التهذيب أن تسكن فتاة مع رجال غرباء في غرفة واحدة - ولكن هنا، في آخر الممر، في أرض محايدة لا تخص رجلًا ولا امرأة.

يقول تيمور:

- وأنا الذي كنت أظن أن طالبان قد غادرت البلدة!

تجيبه «أمرا»:

- إنه جنون، أليس كذلك؟

ثم تُطلق ضحكة مُتحيرة.

عندما عاد إدريس إلى كابول قبل أسبوع، اكتشف أن نبرة السخط المرح تلك منتشرة بين موظفي الإغاثة الأجانب، الذين كان عليهم أن يبحروا عبر متاعب وصعاب الثقافة الأفغانية. إنه يشعر على نحو غامض بقدر من الإهانة لاستحقاقه هذا الاستهزاء المرح، هذه الرخصة للتعالي، مع أنه لا يبدو أن السكان المحليين يلاحظون ذلك، أو، إذا لاحظوه، فلا يرون فيه تحقيرًا، لذا يفكر أن عليه بدوره، ربما، ألا يُلقي بالًا للأمر.

يقول تيمور:

- لكنهم يسمحون لكِ بالتواجد هنا. وها أنت تروحين وتجيئين.

ترفع «أمرا» أحد حاجبيها:

- أنا لستُ محسوبة. أنا لستُ أفغانية. لذا فأنا لستُ امرأة حقيقية. ألا تعرف هذا؟

يبتسم تيمور، دون أن يأخذ ذلك على محمل التوبيخ.

- «أمرا»، هل هو اسم بولندي؟

- بوسني. غير مسموح بالانفعالات. هذا مستشفى وليس حديقة حيوان. هل تعدني؟

يقول تيمور:

- أعدك.

يرمق إدريس المُمرِّضة، قلقًا من أن يكون هذا الرد الساخر، المستهتر وغير الضروري، قد أشعرها بالإهانة، لكن يبدو أن تيمور قد نجح في الاختبار. إدريس يحسد ابن عمه على تلك المقدرة. فلطالما لاحظ طباع تيمور الخشنة، وافتقاره إلى الخيال والقدرة

على التمييز. يعرف أن تيمور يخدع زوجته والضرائب. في الولايات المتحدة، يمتلك تيمور شركة رهن عقاري، وإدريس متأكد تمامًا أنه غارق حتى أذنيه في نوع أو آخر من الاحتيال. لكن تيمور موهوب في العلاقات الاجتماعية، وقادر على الخروج من كل المشكلات بما يملكه من حس الدعابة، ونبرة المودة الواضحة، وسيماء البراءة المضلِّلة التي تحبب فيه من يقابلهم. كذلك، فإن المظهر الحسن لا يضر - الجسد مفتول العضلات، العينان الخضراوان، الابتسامة ذات الغمازتين. يعتقد إدريس أن تيمور رجل ناضج يتمتع بمزايا الأطفال.

تقول «أمرا»:

- حسنًا. لا بأس.

تسحب الملاءة التي ثُبتت بمسامير إلى السقف لتُستخدم كستارة مؤقتة، وتُدخلهما.

تبدو الفتاة - روشي، كما نادتها «أمرا»، كتصغير لـ«روشانا» - في التاسعة، أو العاشرة ربما. تجلس على سرير ذي إطار مصنوع من الصلب، ظهرها للحائط، وركبتاها مضمومتان إلى صدرها. ينكس إدريس بصره على الفور. يبتلع شهقة قبل أن تفلت منه. وكما هو متوقع، فإن هذا النوع من كبح النفس يتجاوز قدرة تيمور الذي يُطرقع بلسانه ويقول:

- أوه! أوه! أوه!

يكررها، ويكررها في همسات عالية متألمة. ينظر إدريس إلى تيمور فلا يفاجئه أن يرى دمعات ثقيلة تتلألأ في عينيه بأداء مسرحي.

تختلج الفتاة وتصدر آهة.

تقول «أمرا» بحدة:

- حسنًا، انتهى الأمر، سنخرج الآن.

في الخارج، على درجات السلم الأمامية المتداعية، تسحب المُمرِّضة علبة سجائر مارلبورو حمراء، من الجيب العلوي لمريلتها الزرقاء الشاحبة. يتناول تيمور، الذي كانت دموعه قد تبخرت بالسرعة نفسها التي تكونت بها، سيجارة، ويشعل سيجارته وسيجارتها. يشعر إدريس بالغثيان، بدوخة. لقد جف حلقه. يخشى أن يتقيأ ويفضح نفسه، ويؤكد نظرة «أمرا» إليه، إليهما معًا، أبناء المنفى الأثرياء المندهشين يعودون إلى الديار ليحدقوا ببلاهة في المجزرة بعد رحيل «البُعبع».

توقع إدريس أن توبخهما «أمرا»، أو توبخ تيمور على الأقل، لكن تصرفاتها كان فيها دلال أكثر من التعنيف. إنه تأثير تيمور على النساء.

تقول بدلال:

- إذًا، ماذا تقول لنفسك يا تيمور؟

في الولايات المتحدة، ينادى تيمور بـ«تيم». غيَّر اسمه بعد ١١ سبتمبر ويدعي أنه قد ضاعف أعماله تقريبًا منذ ذلك الوقت. كان قد قال لإدريس إن التخلص من هذين الحرفين أفاده في مساره المهني أكثر مما قد تفيده درجة جامعية يحصل عليها - لو كان قد ذهب إلى الجامعة، وهو ما لم يفعله؛ فإدريس هو الخريج الجامعي في عائلة بشيري. لكن الآن منذ وصولهما إلى كابول، ظل إدريس يسمعه وهو يُقدم نفسه طوال الوقت باسم «تيمور». إنها ازدواجية لا تؤذي أحدًا، بل وضرورية، لكنها تُثير الغيظ.

يقول تيمور:

- آسف بشأن ما حدث في الداخل.

- ربما أُعاقبك.

- على رسلك يا عزيزتي.

تحول «أمرا» أنظارها إلى إدريس.

- هو راعي بقر إذًا. وأنت، أنت شخص هادئ وحسَّاس، أنت - ما هي اللفظة المناسبة؟ - **انطوائي**.

يقول تيمور:

- إنه طبيب.

- حقًّا؟ لا بد أنها صدمة بالنسبة إليك إذًا. هذا المستشفى.

يقول إدريس:

- ما الذي أصابها؟ ما الذي أصاب روشي؟ مَن فعل بها هذا؟

ينقبض وجه «أمرا». تتحدث بعزم أُمومي:

- أنا أحارب من أجلها. أحارب الحكومة، وبيروقراطية المستشفى، وجراحي الأعصاب أبناء الحرام. في كل خطوة، أحارب من أجلها ولن أتوقف. ليس لها أحد.

يقول إدريس:

- ظننت أن لها خالًا.

تنفض رماد سيجارتها:

- ابن حرام هو الآخر. إذًا، ما الذي أتى بكما إلى هنا يا أولاد؟

ينطلق تيمور في الكلام. الخطوط العريضة لما يقوله صحيحة تقريبًا. إنهما ابنا عمومة، هربت أُسرتاهما بعد اجتياح السوفييت، وقد قضيا عامًا في باكستان قبل الاستقرار في «كاليفورنيا» في أوائل

الثمانينيات، وتلك هي أول مرَّة يرجعان فيها منذ نحو عشرين عامًا. لكنه يضيف بعد ذلك أنهما عادا من أجل «إعادة الصلة»، من أجل أن «يتعلَّما»، و«يشهدا» على تبعات كل تلك السنين من الحرب والدمار. يقول إنهما يرغبان في العودة إلى الولايات المتحدة، لكي يعرِّفا الناس بالوضع، ويجمعا المال، من أجل «رد الجميل».

- نريد أن نرد الجميل.

يقولها، وهو ينطق العبارة المبتذلة بجدية بالغة حتى إنها أشعرت إدريس بالحرج.

لا يكشف تيمور بالطبع عن السبب الحقيقي الذي عادا من أجله إلى كابول، وهو استعادة العقار الذي كان يخص والديهما، البيت الذي عاش فيه هو وإدريس السنوات الأربع عشرة الأولى من حياتهما. قيمة العقار ترتفع إلى عنان السماء الآن بعد أن حط على كابول آلاف من موظفي الإغاثة الأجانب الذين يحتاجون إلى مكان يعيشون فيه. كانوا هناك في وقت سابق من اليوم، في البيت، الذي تستوطنه الآن مجموعة أوباش من جنود تحالف الشمال يبدو عليهم الإنهاك. ولدى مغادرتهما، كانا قد التقيا برجل في منتصف العُمر يعيش على بعد ثلاثة منازل على الجانب الآخر من الشارع، جراح تجميل يوناني اسمه «ماركوس فارفاريس». كان قد دعاهما لتناول الغداء، وعرض أن يصحبهما في جولة في مستشفى «وزير أكبر خان»، حيث تمتلك المنظمة غير الحكومية التي يعمل لحسابها مقرًّا لها. كذلك دعاهما إلى حفل تلك الليلة. وقد عرفا بأمر الفتاة لدى وصولهما إلى المستشفى - بعد أن سمعا اثنين من

المُمرِّضين يتحدثان عنها على السلم الخارجي - بعدها لكز تيمور إدريس وقال:

- **يجب أن نُلقي نظرة عليها يا أخ.**

تبدو «أمرا» وقد ملت من قصة تيمور. ترمي سيجارتها بعيدًا، وتُحكم الشريط المطاطي الذي يربط شعرها الأشقر المتموج في كعكة فوق رأسها.

- حسنًا. أراكما في الحفلة الليلة يا أولاد.

* * *

والد تيمور، عم إدريس، هو مَن أرسلهما إلى كابول. وقد كان منزل عائلة بشيري قد انتقل من يد إلى يد عدة مرَّات على مدار العقدين الأخيرين من الحرب، واستعادة الملكية سوف تستغرق وقتًا ومالًا. فالآلاف من قضايا النزاع على الملكية مكدسة بالفعل في محاكم البلاد. وقد أخبرهما والد تيمور أنه سيكون عليهما «المناورة» في دهاليز البيروقراطية الأفغانية المشهورة ببطئها وإرهاقها - وهي كلمة مُخففة لعبارة «دس المظاريف في الأيدي المناسبة».

قال تيمور، وكأن الأمر محل جدل:

- سيكون ذلك من اختصاصي.

كان والد إدريس قد تُوفِّي قبل تسع سنوات بعد صراع طويل مع السرطان. مات في فراشه، وإلى جواره زوجته، وابنتاه، وإدريس. يوم وفاته، توافد حشد غفير على المنزل - أعمام وأخوال، عمات وخالات، أولاد عمومة وخؤولة، أصدقاء وأصحاب - جالسين على الأرائك، على كراسي طاولة الطعام، وعندما انشغلت تلك

الكراسي، على الأرض، والسلالم. اجتمعت النساء في قاعة الطعام والمطبخ. أعددن إبريقًا بعد إبريقٍ من الشاي. وكان على إدريس، بوصفه الولد الوحيد، أن يُوقِّع على كل الأوراق - أوراق خاصة بطبيب الصحة، الذي وصل لإعلان الوفاة، وأوراق للشباب المهذبين من مكتب الدفن، الذين جاؤوا بنقالة لرفع جثمان الأب.

ظل تيمور واقفًا إلى جواره. ساعد إدريس في الرد على الاتصالات الهاتفية، واستقبل أمواجًا من البشر جاؤوا لتقديم التعازي، وطلب الأرز ولحم الحمل من مطعم كباب أفغاني يديره «عبد الله»، صديق تيمور، والذي كان يغيظه ويناديه «العم إيب». راح تيمور يصفُّ السيارات للمُسنين من الضيوف عندما بدأت تمطر. اتصل بأحد معارفه في إحدى محطات التلفزيون الأفغانية المحلية. بخلاف إدريس، كان تيمور واسع الاتصالات في المجتمع الأفغاني؛ وقد أخبر إدريس ذات مرَّة أن لديه أكثر من ثلاثمائة اسم ورقم على هاتفه المحمول. رتب لإذاعة إعلان في التلفزيون الأفغاني في الليلة نفسها.

في ظهيرة ذلك اليوم، أوصل تيمور بسيارته إدريس إلى مكتب الدفن في «هايوورد». كان المطر ينهمر ساعتها، والمرور بطيئًا في الطريق رقم ٦٨٠ المتجه شمالًا.

قال تيمور بصوت أجش وهو ينزل من مخرج «مِشِن»:

- والدك من سادة الناس يا أخي، وهو من المدرسة القديمة.

فيما ظل يمسح الدموع بكف يده التي لا يقود بها.

أومأ إدريس مُتجهمًا. طيلة حياته لم يستطع أن يبكي في وجود آخرين، في المناسبات التي تستدعي ذلك مثل الجنازات. كان يرى

ذلك كأنه إعاقة طفيفة، مثل عمى الألوان. مع ذلك، شعر على نحو مُرتبك - وغير عقلاني كما بدا له - بالاستياء تجاه تيمور لمساعيه من أجل سرقة الأضواء في البيت بكل هذا الذهاب والمجيء والنشيج الدراماتيكي، كما لو كان المتوفَّى والده هو.

اصطحبهما الموظفون إلى غرفة هادئة، خافتة الإضاءة، ذات أثاث داكن الألوان. حيَّاهما رجل يرتدي سترة سوداء ويفرق شعره من المنتصف. كانت رائحته أشبه بالقهوة غالية الثمن. قدَّم تعازيه لإدريس بنبرة احترافية، وطلب منه أن يُوقِّع على استمارة طلب تصريح الدفن. سأله عن عدد نسخ تصريح الدفن الذي تريده الأسرة. وعندما تم توقيع كل الاستمارات، وضع أمام إدريس بلباقة منشورًا يحمل اسم «قائمة الأسعار العمومية».

تنحنح مدير مكتب الدفن:

- بالطبع تلك الأسعار لا تسري على والدك إذا كان عضوًا في أحد الجوامع الأفغانية في مِشِن؛ فلدينا شراكة معهم. سيدفعون مقابل المدفن، والخدمات. سيغطون كل النفقات.

قال إدريس، وهو يمسح المنشور بعينيه:

- ليست لديَّ فكرة إن كان عضوًا أم لا.

يعرف أن والده كان رجلًا متدينًا، ولكن بينه وبين نفسه، ونادرًا ما صلى الجمعة.

- هل أنتظر قليلًا؟ يمكنك الاتصال بالجامع.

قال تيمور:

- لا يا رجل. لا حاجة لذلك. لم يكن عضوًا.

- هل أنت متأكد؟

- نعم، أتذكر محادثة دارت بيننا.

قال مدير مكتب الدفن:

- حسنًا.

في الخارج، دخنا معًا سيجارة بجوار السيارة الرياضية متعددة الأغراض، وكانت الأمطار قد توقفت.

قال إدريس:

- سرقة علنية.

بصق تيمور في بركة داكنة من ماء الأمطار.

- لكن يجب أن تعترف أن «بيزنس» الموت «بيزنس» مُستقر. الحاجة إليه لا تنقطع. اللعنة، إنه أفضل من تجارة السيارات.

في ذلك الوقت، كان تيمور شريكًا في شركة لبيع السيارات المستعملة. كانت الشركة في حالة انهيار، حتى دخل تيمور في الشراكة مع أحد أصدقائه. وفي أقل من عامين، حولها إلى مؤسسة رابحة. **رجل عصامي**، هكذا كان يحب والد إدريس أن يقول عن ابن أخيه. في ذلك الوقت كان إدريس يكسب أجر العبيد وهو يُنهي سنته الثانية من عمله كطبيب مقيم في كلية الطب بجامعة كاليفورنيا في ديفيس. وكانت زوجته، «نهيل»، التي تزوَّجها قبل عام، تعمل ثلاثين ساعة في الأسبوع سكرتيرة في مؤسسة قانونية بينما تدرس لدخول امتحان القبول في كلية الحقوق.

قال إدريس:

- إنه قرض. أنت تفهم ذلك يا تيمور. سوف أرده إليك.

- لا تقلق يا أخي. كما تريد.

لم تكن تلك المرَّة الأولى أو الأخيرة التي يمد فيها تيمور يد العون لإدريس. عندما تزوج إدريس، أعطاه تيمور سيارة «فورد إكسبلورر» جديدة كهدية زفاف. وقد وقَّع تيمور كضامن عندما اشترى إدريس ونهيل شقة صغيرة في ديفيس. وفي نطاق العائلة، كان الولد المفضَّل لدى كل أعمامه بلا منافسة. ولو احتاج إدريس لإجراء «مكالمة تلفونية واحدة» في اليوم فسوف يتصل بتيمور بكل تأكيد.

مع ذلك.

اكتشف إدريس، على سبيل المثال، أن كل الأسرة تعرف أمر توقيعه كضامن له. لقد أخبرهم تيمور. وفي حفل الزفاف، طلب تيمور من المُغني أن يُوقف الموسيقى، وأن يُعلن الخبر، وتم تقديم مفتاح السيارة «الإكسبلورر» لإدريس ونهيل باحتفاء عظيم - على صينية، ليس أقل من ذلك - أمام الجمهور المُنتبه، ولمعت أضواء آلات التصوير. هذا ما كان يتوجس منه إدريس: البهرجة، والتباهي، والتظاهر الذي لا يستحي، والتبجح. لم يكن يُحب أن يُفكر في ابن عمه بهذا الشكل، وهو الذي كان قريبًا له مثل أخ، لكن تيمور بدا له وكأنه يكتب بنفسه ملفه الصحفي، وراودته الشكوك أن كَرمه هذا كان جزءًا محسوبًا من شخصية معقدة التركيب.

وقد وقعت مشاحنة خفيفة بين إدريس ونهيل بشأنه ذات ليلة وهما يغيران ملاءات السرير.

قالت:

- **كل الناس يريدون أن يكونوا محبوبين. ألست كذلك؟**

- **بلى، لكنني لن أدفع مالًا من أجل الحصول على هذا الامتياز.**

أخبرته أنه ليس عادلًا، وناكرٌ للجميل، بعد كل ما فعله تيمور من أجلهما.

- أنت لا تفهمين يا نهيل. كل ما أقوله أنه من الجلافة أن تلصقي أفعالك الخيِّرة على لوحة الإعلانات. أنا أتكلم عن فعل الخير في صمت، والحرص على حفظ الكرامة. ليس الخير مجرد توقيع شيكات أمام الناس.

قالت نهيل وهي تشد الملاءة من يده:

- حسنًا، ولكن طريقته تُحقق نجاحًا كبيرًا يا حبيبي.

***

يقول تيمور، وهو يتطلع إلى المنزل:

- يا رجل، أنا أتذكر هذا المكان. ذكِّرني باسم صاحبه؟

يقول إدريس:

- اسمه كذا وحدتي، على ما أتذكر. نسيت اسمه الأول.

يفكر في المرَّات التي لا تُحصى التي لعبا فيها هنا وهما طفلان في الشارع أمام تلك البوابة، والآن فقط، بعد عقود، يدخلان منها للمرَّة الأولى.

يغمغم تيمور:

- تصاريف القدر.

إنه بيت عادي من طابقين، لو كان في الحي الذي يسكنه إدريس في «سان هوزيه» لأثار سخط اتحاد ملاك البيوت، لكنه، بمعايير كابول، يُعد عقارًا فاخرًا، بأسوار عالية، وبوابة حديدية، ومدخل واسع للسيارات. وبينما يقاد هو وتيمور إلى الداخل بصحبة حارس مسلح، يلاحظ إدريس أن البيت، مثل أشياء كثيرة رآها في

كابول، ينعم بقبس من رونق الماضي رغم الخراب الذي حل به - والذي يتضح بصورة جلية: آثار رصاصات وشقوق مُتعرجة في الجدران الملوثة بالسخام، طوب مكشوف خلف بقع كبيرة من الدهان الساقط، شجيرات ميتة في مدخل السيارات، أشجار جرداء في الحديقة، عشب أصفر. أكثر من نصف الشرفة التي تطل على الباحة الخلفية لم يعد له وجود. لكن أيضًا مثل الكثير من الأشياء في كابول، ثمة دليل على ميلاد يتجدد على نحو بطيء ومتردد. لقد بدأ شخص ما في إعادة دهان المنزل، وزرع شجيرات أزهار في الحديقة، واستُبدل جزء من الجدار الشرقي للحديقة، وإن كان ذلك قد تمَّ بصورة غير متقنة. ثمة سلم يستند على أحد جدران البيت في مواجهة الشارع، ما يدعو إدريس إلى الاعتقاد بأن عمليات ترميم تجري في السطح، كما يبدو أن عملية ترميم الجزء المفقود من الشرفة قد بدأت.

يلتقيان بماركوس في البهو. لديه شعر رمادي خفيف وعينان زرقاوان شاحبتان. يرتدي عباءة أفغانية رمادية وكوفية مُقسَّمة إلى مربعات بيضاء وسوداء تلتف بأناقة حول عنقه. يصحبهما إلى الغرفة الصاخبة العابقة بالدخان.

- عندي شاي، ونبيذ، وبيرة. أو ربما تفضلان شيئًا أثقل؟

يقول تيمور:

- أنت تشير وأنا أصب.

- حسنًا، تُعجبني. هناك، بجانب الستيريو. الثلج آمن بالمناسبة، مجهز من المياه المعدنية.

- بارك الله فيك.

يصبح تيمور على سجيته في مثل هذه التجمعات، ولا يستطيع إدريس إلا أن يعجب بتصرفاته التلقائية، وفكاهاته السلسة، والجاذبية الكامنة فيه. يتبع تيمور إلى البار، الذي يصب مشروبين لهما من زجاجة بلون الياقوت.

الضيوف، وهم نحو عشرين شخصًا، يجلسون على وسائد صُفَّت حول الغرفة. الأرضية مغطاة بسجادة أفغانية عنابية اللون. الديكور بسيط، وينم عن حسن الذوق، حتى إن إدريس فكر فيه كضرب من «أناقة المغتربين». أغنية «لنينا سيمون» تصدح بنعومة. الجميع يشربون، والجميع تقريبًا يدخنون، يتكلمون عن الحرب الجديدة في العراق، وكيف ستنعكس على أفغانستان. التلفزيون في الركن يعرض قناة «سي إن إن إنترناشيونال»، والصوت مكتوم. بغداد في التصوير الليلي، في غمرة «الصدمة» و«الذهول»، لا تني تلتمع في ومضات خضراء.

وبينما يحملان في يديهما كأسين من الفودكا والثلج، انضم إليهما ماركوس واثنان من الشبان الألمان بوجهين جادين، يعملان لحساب برنامج الغذاء العالمي. مثل الكثير من موظفي الإغاثة ممن قابلهم في كابول، يجدهما إدريس - بقدر ما - مهولين، أحكم الحكماء، لا شيء يدهشهما.

يقول لماركوس:

- بيت لطيف.

- قل هذا للمالك.

يقطع ماركوس الغرفة ويعود بصحبة رجل مُسن نحيل. للرجل شعر كثيف خالط بياضه سواده، مسرح إلى الخلف من عند

جبهته. له لحية خفيفة، وخدان غائران يُنبئان عن فم يكاد يخلو من الأسنان. يرتدي بدلة رثة، واسعة، زيتونية اللون ربما كانت رائجة في الخمسينيات. يبتسم ماركوس للرجل المُسن بمودة واضحة.

يسأل تيمور، وفجأة يتذكر إدريس بدوره:

- نبي جان؟

يبتسم الرجل المُسن في حياء.

- سامحاني. هل التقينا من قبل؟

يقول تيمور بالفارسية:

- أنا تيمور بشيري. أسرتي كانت تسكن على بُعد بضعة بيوت منكم.

يهمس الرجل المسن:

- نعم، يا ربي. تيمور جان؟ وأنت، لا بد أنك إدريس جان؟

يومئ إدريس ويرد ابتسامته.

يُعانقهما نبي. يُقبلهما على الخدود، وهو ما يزال يبتسم، ويتمعن فيهما غير مُصدِّق. يتذكر إدريس نبي وهو يدفع مخدومه، السيد وحدتي، على كرسي متحرك ذهابًا وإيابًا في الشارع. أحيانًا يوقف الكرسي على الرصيف، ويأخذ الرجلان يراقبانه هو وتيمور وهما يلعبان الكُرة الطائرة مع أطفال الجيران.

يقول ماركوس، وهو يضع ذراعه على كتف نبي:

- نبي جان يعيش في هذا البيت منذ ١٩٤٧.

يقول تيمور:

- إذًا أنت «تملك» هذا المكان الآن.

يبتسم نبي لنظرة الدهشة في وجه تيمور:

- لقد خدمت السيد وحدتي هنا منذ عام ١٩٤٧ وحتى عام ٢٠٠٠، عندما تُوفِّي. ومن كرمه أوصى لي بالبيت، نعم.

يقول تيمور بارتياب:

- أعطاك البيت؟

يومئ نبي:

- نعم.

- لا بد أنك كنت طباخًا رائعًا.

- وأنت، إذا سمحت لي، كنت طفلًا شقيًّا، كما أتذكر.

يقهقه تيمور:

- لم أهتم قَطُّ بالطريق القويم يا نبي جان. أترك ذلك لابن عمي هنا.

يوجه ماركوس كلامه إلى إدريس، وهو يدوِّر كأس النبيذ بين يديه:

- نيلا وحدتي، زوجة المالك السابق، كانت شاعرة، وقد امتلكت قدرًا من الشهرة، كما تبين. هل سمعتما عنها؟

يهز إدريس رأسه:

- كل ما أعرفه أنها كانت قد غادرت البلاد بالفعل وقت ولادتي.

يقول أحد الألمانيين، «توماس»:

- عاشت في باريس مع ابنتها. تُوفيت عام ١٩٧٤. انتحرت، على ما أعتقد. كانت لديها مشاكل مع الكحول، أو، على الأقل، هذا ما قرأته. أحدهم أعطاني ترجمة ألمانية لأحد دواوينها الأولى قبل سنة أو سنتين، وفي الحقيقة وجدته جيدًا جدًّا، مُنشغلًا بالجنس على نحو مُدهش، فيما أتذكَّر.

يومئ إدريس، وهو يشعر مُجددًا بقدر من النقص هذه المرَّة، لأن أجنبيًّا يعلمه بأمر فنانة أفغانية. على بُعد خطوتين منهما، يستطيع أن يسمع تيمور وقد دخل في مناقشة حامية مع نبي حول أسعار الإيجار. بالفارسية بالطبع.

إنه يقول للرجل المُسن:

- هل لديك أي فكرة كم يمكن أن تطلب إيجارًا لبيت مثل هذا يا نبي جان؟

يقول نبي وهو يومئ برأسه ويضحك:

- نعم. أنا على علم بأسعار الإيجار في المدينة.

- تستطيع أن تمتص دماء هؤلاء الناس.

- لكن...

- وتتركهم يقيمون هنا بالمجان؟

- لقد جاؤوا لمساعدة بلدنا يا تيمور جان. تركوا أوطانهم وجاؤوا هنا. لا يبدو لي صائبًا أن «أمتص دماءهم» كما تقول.

يطلق تيمور آهة، يتجرع بقية مشروبه:

- حسنًا. إما أنك تكره المال، يا صديقي العجوز، وإما أنك رجل أفضل مني بكثير.

تدخل «أمرا» إلى الغرفة، ترتدي رداء أفغانيًّا أزرق بلون الزفير على بنطلون جينز حائل اللون. تهتف:

- نبي جان.

يُبدي نبي قدرًا من الارتباك عندما تُقبِّله على خده وتحيطه بإحدى ذراعيها. تقول لمن حولهما:

- أنا أحب هذا الرجل، وأحب أن أُعانقه.

ثم تقولها بالفارسية لنبي. يهز رأسه إلى الخلف والأمام ويضحك، ويتورد وجهه قليلًا.

يقول تيمور:

- ماذا لو تعانقينني أنا أيضًا؟

تنقر «أمرا» على صدره:

- هذا الولد مشكلة كبيرة.

تتبادل القُبلات مع ماركوس على الطريقة الأفغانية، ثلاث مرَّات على الخد، والأمر نفسه مع الألمانيين.

يرمي ماركوس بذراعه حول وسطها:

- «أمرا أديموفيتش»، أكثر امرأة تعمل بجد في كابول. لا تتجرأ وتُغضب هذه الفتاة. كما أنها تستطيع أن تقضي عليك في سباق للشراب.

يقول تيمور، وهو يمد يده إلى زجاجة على البار من خلفه:

- هيا نُجرِّب.

يستأذن الرجل المُسن، نبي، في الانصراف.

على مدار الساعة التالية أو نحو ذلك، يختلط إدريس بالحضور، أو يحاول. ومع تناقص مستوى المشروبات في الزجاجات، تعلو الحوارات صوتًا. يسمع إدريس كلامًا بالألمانية، والفرنسية، وما يبدو أنه اليونانية. يُعد لنفسه كأس فودكا أخرى، يتبعه ببيرة دافئة. في إحدى المجموعات، يستجمع شجاعته ويُلقي إحدى نكات «الملا عمر» التي تعلَّمها بالفارسية في كاليفورنيا. لكنها تفقد معناها وقد تُرجمت إلى الإنجليزية، كما أن إلقاءه مُضطرب. لا تحدث أثرًا.

يمضي في طريقه، وينصت إلى محادثة حول حانة أيرلندية سوف تُفتح في كابول. ثمة توافق عام على أنها لن تستمر.

يدور حول الغرفة، وفي يده علبة البيرة الدافئة. لم يكن على طبيعته مُطلقًا في مثل هذه التجمعات. يحاول أن يشغل نفسه بتفحص الديكور. ثمة ملصقات لتماثيل «بوذا» في باميان، للعبة «البزكشي»، لمرفأ في جزيرة يونانية تدعى «تينوس». لم يسبق له أن سمع بتينوس. تقع عيناه على صورة فوتوغرافية داخل إطار في البهو، بالأبيض والأسود، مشوشة قليلًا، وكأنما التقطت بكاميرا مصنوعة منزليًّا. الصورة لفتاة صغيرة لها شعر أسود، ظهرها للعدسة. إنها على الشاطئ، تجلس على صخرة، تواجه البحر. الركن الأيسر من أسفل الصورة يبدو وكأنه قد احترق.

العشاء ساق حَمَل مع الروزماري مطمور فيها فصوص ثوم صغيرة. ثمة سلطة جبن الماعز، وباستا بصلصة «البيستو». يغرف إدريس بعض السلطة، يتناولها بلا حماس في ركن الغرفة. يرى تيمور جالسًا مع شابتين هولنديتين جذابتين. يحاول أن يجذب انتباههما، يفكر إدريس. تنطلق ضحكات، وتلمس إحدى الشابتين ركبة تيمور.

يحمل إدريس كأس النبيذ إلى الشرفة، ويجلس على مقعد خشبي مستطيل. حل الليل، ولم تعد الشرفة مضاءة إلا بمصباحين يتدليان من السقف. من هنا، يستطيع أن يتبين الشكل العام لمسكن ما في آخر الحديقة، وفي عطفة من الجانب الأيمن للحديقة، صورة ظلِّية لسيارة - كبيرة وطويلة وقديمة - أمريكية على الأغلب، كما يبدو من انحناءاتها. طراز الأربعينيات، وربما أوائل الخمسينيات -

لا يستطيع إدريس أن يرى جيدًا - كما أنه لم يكن من عشاق السيارات قَطُّ. إنه متأكد أن تيمور سيعرف، سينفتح في الكلام عن الطراز، والسنة، وسعة المحرك، وكل المميزات. يبدو أن السيارة متوقفة على أربعة إطارات مسطحة. يُطلق أحد كلاب الحي نباحًا مُتقطعًا. وفي الداخل، كان أحدهم قد أدار «سي دي» لـ«ليونارد كوهين».

- هادئ وحساس.

تجلس «أمرا» بجواره، والثلج يصلصل في كأسها، قدماها حافيتان:

- ابن عمك راعي بقر، إنه نجم الحفلة.

- ليست مفاجأة.

- إنه وسيم جدًّا. أهو متزوج؟

- ولديه ثلاثة أطفال.

- مع الأسف. يجب أن أتأدب إذًا.

- أنا متأكد أنه سيُحبط لسماع ذلك.

تقول:

- أنا عندي قواعد. أنت لا تحبه كثيرًا.

يخبرها إدريس، بصدق، أن تيمور هو بمنزلة الأخ له.

- لكنه يجعلك تشعر بالحرج.

نعم، لقد جعله تيمور يشعر بالحرج. لقد تصرف مثل نموذج «للأمريكي - الأفغاني» القبيح، هكذا يفكر إدريس. يروح ويجيء في المدينة التي مزقتها الحرب وكأنه ينتمي إلى هذا المكان، يخبط على ظهر المحليين بمودة كبيرة ويدعوهم «أخي، أختي، عمي»،

حريصًا على الاستعراض وهو يعطي نقودًا للشحاذين من حزمة نقود يدعوها «حزمة البقشيش»، ممازحًا النساء العجائز اللاتي يدعوهن «أمي»، ومحرضًا إياهن على سرد حكاياتهن أمام مسجل الفيديو وهو يرسم على وجهه تعبيرًا بائسًا، متظاهرًا بأنه واحد منهم، وكأنه عاش هنا طوال حياته، وكأنه لم يكن يرفع الأثقال في صالة «جولد» للألعاب الرياضية في سان هوزيه، لتمرين عضلات الصدر والبطن، وقتما كان هؤلاء الناس يتعرضون للقصف، والقتل، والاغتصاب. إنه نفاق كريه. وما يُدهش إدريس أنه لا أحد يبدو عليه الانتباه لذلك.

يقول إدريس:

- ما قاله لكِ ليس صحيحًا. لقد جئنا إلى هنا لاستعادة البيت الذي يخص والدينا. هذا هو كل شيء. لا شيء آخر.

تُصدر «أمرا» صوتًا وهي تُقهقه:

- أعرف بالطبع. هل تظن أنني خُدعت؟ لقد تعاملت مع أمراء الحرب ورجال طالبان في هذا البلد. رأيت كل شيء. لا شيء يمكن أن يُدهشني. لا شيء، ولا أحد، يمكن أن يخدعني.

- أتصور أن ذلك صحيح.

تقول:

- أنت صادق. على الأقل أنت صادق.

- أنا فقط أعتقد أن أولئك الناس، بعد كل ما مروا به، يستحقون أن نحترمهم. وإذ أقول «نحن»، فأنا أقصد أناسًا مثلي ومثل تيمور. المحظوظون، الناس الذين لم يكونوا هنا عندما حوَّلت الانفجارات هذا المكان إلى جحيم. نحن لسنا مثل هؤلاء الناس، ولا يجب

أن نتظاهر بأننا مثلهم. القصص التي حكاها هؤلاء الناس، ليس لنا الحق فيها.. إن كلامي مشوش.

- مشوش؟

- أقصد أنني لا أقول كلامًا مفهومًا.

- لا، أنا أفهمك. أنت تقول إن تلك القصص، هي هدية يعطونها لكما.

- هدية، نعم.

يرتشفان المزيد من النبيذ. يتكلمان لبعض الوقت. بالنسبة إلى إدريس تلك هي المرَّة الأولى التي يُجري فيها حوارًا صادقًا منذ وصوله إلى كابول، حوارًا خاليًا من السخرية المبطنة، الاتهام المضمر الذي ظل يشعر به من جانب المحليين، والمسؤولين الحكوميين، وموظفي وكالات الإغاثة. يسألها عن عملها، وتخبره أنها خدمت في «كوسوفو» مع الأمم المتحدة، وفي «رواندا» بعد المذبحة العرقية، وفي «كولومبيا»، و«بوروندي» أيضًا. عملت مع الأطفال العاملين بالدعارة في «كمبوديا». وهي في كابول منذ عام تقريبًا، فترتها الثالثة، تلك المرَّة مع منظمة غير حكومية صغيرة، تعمل في المستشفى وتدير عيادة متنقلة في أيام الاثنين. تزوجت مرَّتين، وطُلقت مرَّتين، وليس لها أولاد. يجد إدريس صعوبة في تحديد عُمر «أمرا»، وإن كانت ربما أصغر مما تبدو. ثمة لمحة خابية من الجمال، شبق وحشي، خلف الأسنان المصفرَّة، والانتفاخات تحت عينيها من أثر الإجهاد. يعتقد إدريس أنه في غضون أربع أو خمس سنوات ستكون تلك اللمحة الباقية قد اختفت بدورها.

ثم تقول:

- تريد أن تعرف ماذا حدث لروشي؟

يقول:

- لستِ مضطرة لإخباري.

- تظنني سكرانة؟

- هل أنت سكرانة؟

تقول:

- قليلًا. لكنك رجل صادق.

تنقر على كتفه بلُطف، وبقدر من الدلال:

- أنت تريد أن تعرف الأسباب الصحيحة. أما بالنسبة إلى الأفغان الآخرين مثلك، أقصد الأفغان القادمين من الغرب، فهي - كما تقول - تفريجة.

- فُرجة.

- نعم.

- مثل أفلام «البورنو».

- لكن يبدو أنك شخص طيب.

يقول:

- إذا أخبرتني، فسأعتبرها هدية.

وهكذا، تُخبره.

كانت روشي تعيش مع والديها، وأختين، وأخيها الصغير في قرية عند ثلث الطريق بين كابول و«باغرام». وفي يوم جمعة من الشهر الماضي، جاء عمها، وهو الأخ الأكبر لأبيها، لزيارتهم. على مدار عام تقريبًا، كان ثمة نزاع بين والد روشي وبين العم حول المنزل الذي تقيم فيه روشي مع أسرتها، وهو المنزل الذي يشعر

العم أنه الأحق به، فهو الأخ الأكبر، لكن أباه كان قد أوصى به للأخ الأصغر، الذي يحبه أكثر. مع ذلك، ففي يوم زيارته سار كل شيء على ما يرام. قال إنه يريد أن يُنهي الخلاف بينهما.

استعدادًا لذلك، كانت والدة روشي قد ذبحت دجاجتين، وأعدت قدرًا كبيرًا من الأرز بالزبيب، واشترت رُمانًا طازجًا من السوق. عندما وصل العم، تبادل القبلات والأحضان مع والد روشي، الذي عانق أخاه بقوة، حتى إن قدميه ارتفعتا من فوق السجادة. بكت والدة روشي وقد أحست بانقشاع الغُمة. جلست العائلة لتناول الطعام، وتناول الجميع طبقًا ثانيًا، وثالثًا. ثم أخذوا يأكلون الرُّمان. وبعد ذلك، جاء الشاي الأخضر وحلوى «طوفي» صغيرة. عندها استأذن العم في استخدام الحمَّام.

عندما عاد، كانت في يده بلطة.

أوضحت «أمرا»:

– من النوع المستخدم في قطع الأشجار.

أول من هاجمهم العمُّ كان والد روشي.

– قالت لي روشي إن والدها لم يعرف أصلًا ما الذي حدث. لم يرَ شيئًا.

ضربة واحدة على العنق، من الخلف. تقريبًا قطعت رأسه. ثم جاء الدور على والدة روشي. روشي رأت والدتها تحاول أن تدافع عن نفسها، لكن بعض ضربات صُوِّبت إلى الوجه والصدر فسقطت بلا حراك. في ذلك الوقت كان الأطفال يصرخون ويركضون، وطاردهم العم. رأت روشي إحدى أختيها تركض في اتجاه الردهة، لكن العم جذبها من شعرها وأسقطها على الأرض. الأخت

الأخرى استطاعت الخروج إلى الردهة، لكن العم طاردها، وسمعته روشي وهو يكسر باب غرفة النوم بقدمه، وسمعت الصرخات، ثم كان الصمت.

- وهكذا، قررت روشي أن تهرب مع الأخ الأصغر، فانطلقا خارج المنزل، وركضا حتى الباب الأمامي، لكنه كان مُغلقًا. العم، هو مَن فعلها بالطبع.

ركضا في اتجاه الحوش، بدافع من الذعر واليأس، ناسيين غالبًا أنه لا بوابة في الحوش، ولا وسيلة للخروج، والجدران عالية لا يمكنهما تسلقها. عندما اندفع العم قادمًا من المنزل واتجه ناحيتهما، رأت روشي أخاها الصغير، الذي كان في الخامسة، يرمي نفسه في التنور، الذي كانت أمه تخبز فيه الخبز قبل ساعة واحدة. سمعته روشي وهو يصرخ وسط النيران، وكانت تتعثر وتسقط. انقلبت على ظهرها في الوقت المناسب لترى سماء زرقاء وبلطة تهوي. ثم لا شيء.

تتوقف «أمرا». في الداخل، يغني «ليونارد كوهين» في حفلة حية أغنية «هو باي فاير» (مَن يموت بالنار).

حتى لو استطاع إدريس الكلام، وهو ما لا ينطبق عليه في هذه اللحظة، لما عرف ماذا يقول. ربما كان ليقول شيئًا، تعبيرًا عقيمًا عن الغضب، لو كانت تلك فعلة من أفعال طالبان، أو القاعدة، أو أحد قادة المجاهدين المصابين بجنون العظمة. لكن اللوم في هذه الحادثة لا يمكن إلقاؤه على حكمتيار، ولا على الملا عمر، ولا على «بن لادن»، ولا على «بوش» وحربه على الإرهاب. إن السبب العادي والدنيوي تمامًا وراء المذبحة يجعلها بشكل ما أكثر بشاعة،

وأكثر إثارة للاكتئاب. وتقفز إلى عقله كلمة «شنعاء»، ويتشبث بها إدريس. هكذا يسميها الناس. «مذبحة شنعاء». «جريمة شنعاء». كما لو كانت هناك جريمة جذابة وفاتنة.

يفكر في الفتاة، روشي، وهي في المستشفى، متكورة على نفسها بجوار الحائط، وأصابع قدميها معقودة، والنظرة الطفولية على وجهها، والشرخ في قمة رأسها الحليق، تنزُّ منه كتلة بحجم قبضة اليد من أنسجة المخ الرقراقة، التي تعلو رأسها مثل عقدة العمامة على رأس رجل من السيخ.

أخيرًا يسأل:

- هل قصت عليكِ تلك القصة بنفسها؟

تومئ «أمرا» بقوة.

- هي تتذكر جيدًا جدًّا. كل تفصيل. تستطيع أن تقول لك كل تفصيل. أتمنى لو تستطيع النسيان من أجل الكوابيس.

- والأخ، ماذا حدث له؟

- حروق شديدة جدًّا.

- والخال؟

تهز «أمرا» كتفيها، وتقول:

- يقولون لي احترسي. في مهنتي، يقولون احترسي، كوني محترفة. ليست فكرة جيدة أن تتورطي. لكن أنا وروشي...

تتوقف الموسيقى فجأة. انقطاع آخر في الكهرباء. للحظات يعم ظلام دامس، باستثناء ضوء القمر. يسمع آهات الناس داخل المنزل، وتشتعل مصابيح «الهالوجين» فجأة.

تقول «أمرا»، من دون أن ترفع رأسها:

- أنا أحارب من أجلها. أنا لا أتوقف.

* * *

في اليوم التالي، يتجه تيمور مع الألمانيين إلى بلدة «استالف»، المعروفة بصناعة الفخار.

- يجب أن تأتي.

يقول إدريس:

- سأبقى لأقرأ.

- تستطيع أن تقرأ في سان هوزيه يا أخ.

- أحتاج إلى الراحة. ربما شربت أكثر من اللازم ليلة أمس.

بعد أن يلتقط الألمانيان تيمور بسيارتهما، يستلقي إدريس في الفراش لبرهة، محدقًا في ملصق دعائي حال لونه من زمن الستينيات مُعلَّق على الجدار، أربعة سواح شقر مبتسمين يتنزهون على الأقدام على ضفاف بحيرة «بند أمير»، أثر من آثار طفولته هنا في كابول قبل الحروب، قبل انفصام الروابط. بُعيد الظهيرة، يذهب في نزهة. في مطعم صغير يتناول الكباب على الغداء. يصعب الاستمتاع بالطعام وسط كل تلك الوجوه الصغيرة المغطاة بالأوساخ التي تُحدق فيه عبر الزجاج، تراقبه وهو يأكل. إنه شعور غامر ومتعِب. يعترف إدريس لنفسه أن تيمور أفضل منه في هذه الأمور؛ تيمور يحول الموقف إلى لعبة، مثل شاويش أمامه مجندون، يُصفِّر ويجعل الأطفال الشحاذين يصطفون، يخرج بعض الأوراق النقدية من «حزمة البقشيش». وبينما هو يناولهم النقود، واحدًا بعد آخر،

يضرب بعقبه في الأرض ويؤدي التحية. الأطفال يحبون ذلك. يردون له التحية. ينادونه كاكا. وأحيانًا يتسلقون ساقيه.

بعد الغداء، يستقل إدريس سيارة تاكسي ويطلب من السائق توصيله إلى المستشفى.

يقول:

- لكن توقف في أحد الأسواق أولًا.

* * *

حاملًا كرتونة، يمشي في الردهة، مارًّا بجدران مُرصعة برسوم الجرافيتي، غرف تحل فيها ستائر بلاستيكية محل الأبواب، رجل مُسن يجرجر قدميه الحافيتين وعلى عينه عصابة، مرضى راقدون في غرف تختنق من الحر، بلا مصابيح، ورائحة أجساد حمضية تملأ المكان. في نهاية الردهة، يتوقف أمام ستارة قبل أن يفتحها. يشعر برقَّة في قلبه عندما يرى الفتاة جالسة على حافة السرير. «أمرا» راكعة أمامها، تغسل أسنانها الصغيرة.

ثمة رجل جالس على الجانب الآخر من السرير، هزيل، ببشرة لفحتها الشمس، ولحية كثة وشعثاء، وشعر داكن حليق وشائك. عندما يدخل إدريس، يُسارع الرجل إلى الوقوف، يضع إحدى يديه على صدره، وينحني. يندهش إدريس مجددًا من السهولة التي يستطيع المحليون بها تمييز أنه أفغاني مُغترب، كيف تمنحه رائحة النقود والسُّلطة مزية لا يستحقها في هذه المدينة. يقول الرجل لإدريس إنه خال روشي.

تقول «أمرا»، وهي تغطس فرشاة الأسنان في سلطانية ماء:

- لقد عُدتَ.

- أتمنى ألا يكون في الأمر مشكلة.

تقول:

- مُطلقًا.

يتنحنح إدريس:

- سلام يا روشي.

تنظر الفتاة إلى «أمرا» طلبًا للإذن. صوتها ليس إلا همسًا عاليًا مترددًا.

- سلام.

- أحضرت لكِ هدية.

يضع إدريس الكرتونة ويفتحها. تنبض عينا روشي بالحياة عندما يخرج جهاز تلفزيون وجهاز فيديو. يُريها الأفلام الأربعة التي اشتراها. معظم الأشرطة في المتجر كانت لأفلام هندية، أو أفلام «أكشن»، أو أفلام «كاراتيه» من بطولة «جيت لي»، و«جان كلود فان دام»، وكل أفلام «ستيفن سيجال». لكنه استطاع أن يعثر على أفلام «إيه تي، وبيب» (الطفل)، و«توي ستوري» (متجر الألعاب)، و«ذا آيرون جاينت» (العملاق الحديدي). كان قد شاهدها جميعًا مع ولديه في أمريكا.

بالفارسية، تسأل «أمرا» روشي عن الفيلم الذي تريد مشاهدته. تختار روشي «ذا آيرون جاينت».

يقول إدريس:

- ستُحبين هذا الفيلم.

لا يستطيع أن ينظر إليها مباشرة. تظل نظرته تنزلق ناحية

الركام الذي يتوج رأسها، الكتلة اللامعة من أنسجة المخ، الشبكة المتقاطعة من الأوردة والشعيرات الدموية.

ليس ثمة مصدر كهرباء في نهاية هذه الردهة، وتظل «أمرا» تبحث حتى تجد وصلة، لكن عندما يضع إدريس القابس، وتظهر الصورة، ينفرج فم روشي عن ابتسامة. في ابتسامتها الصغيرة، يرى إدريس كم كان ما يعرفه عن العالم قليلًا، حتى وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، لا يعرف الكثير عن وحشيته، وقسوته، وشراسته.

عندما تستأذن «أمرا» للذهاب لرؤية بقية المرضى، يتخذ إدريس مقعدًا إلى جوار روشي ويشاهد الفيلم معها. يظل الخال صامتًا، وجودًا مغيَّبًا في الغرفة. في منتصف الفيلم، تنقطع الكهرباء. تبدأ روشي في البكاء، وينحني الخال من على كرسيه ويقبض على يدها بخشونة. يهمس لها بكلمات قليلة سريعة ومقتضبة بلغة «الباشتو»، التي لا يتحدث بها إدريس. تجفل روشي وتحاول أن تتراجع. ينظر إدريس إلى يدها الصغيرة، الضائعة في قبضة الخال القوية بعُقَد أصابعها البيضاء.

يضع إدريس معطفه:

- سأعود غدًا يا روشي، ويمكن أن نشاهد فيلمًا آخر إذا أحببت. هل تريدين ذلك؟

تتكور روشي على نفسها تحت الأغطية. ينظر إدريس إلى الخال، يتصور ما كان تيمور سيفعله مع هذا الرجل - تيمور، الذي، على عكسه، لا يستطيع مقاومة المشاعر السهلة. سيقول: «اتركني معه وحدنا لعشر دقائق».

يتبعه الخال إلى الخارج. على السلم، يفاجئ إدريس بقوله:

- أنا الضحية الحقيقية هنا يا صاحب.

يبدو أنه رأى النظرة على وجه إدريس لأنه يُصحح كلامه ويقول:

- بالطبع هي الضحية. لكن، أقصد، أنا ضحية أيضًا. تستطيع أن ترى ذلك بالطبع، فأنت أفغاني. لكن هؤلاء الأجانب، لا يفهمون.

يقول إدريس:

- يجب أن أذهب.

- أنا مجرد «مزدور»، عامل بسيط. أكسب دولارًا أو اثنين ربما في اليوم الجيد يا صاحب. وعندي بالفعل خمسة أطفال، أحدهم أعمى. ثم يأتي هذا.

يتنهَّد، ويتابع:

- أقول لنفسي أحيانًا - وليسامحني الله - ربما كان الأفضل أن يجعل الله روشي... يعني، أنت تفهم. ربما كان ذلك أفضل. لأنني أسألك يا صاحب، مَن سيتزوجها الآن؟ لن تجد زوجًا أبدًا. ومَن سيعتني بها إذًا؟ سيكون عليَّ أن أعتني بها، سيكون عليَّ أن أفعل ذلك إلى النهاية.

يعرف إدريس أنه وقع في الفخ. يمد يده إلى حافظة نقوده.

- أي شيء تقدر عليه يا صاحب. ليس من أجلي، بل من أجل روشي.

يناوله إدريس ورقتين. يطرف الخال، ويرفع عينيه عن النقود. يشرع في القول:

- مائتي...

ثم يطبق فمه وكأنه يخشى أن ينبه إدريس إلى غلطة لم يقصدها.

يقول إدريس، وهو ينزل السلم:

- اشترِ لها حذاء جيدًا.

يصيح الخال من خلفه:

- بارك الله فيك يا صاحب. أنت رجل طيب. أنت رجل طيب وكريم.

* * *

يعاود إدريس الزيارة في اليوم التالي، وفي اليوم الذي يليه. وسرعان ما يتحول الأمر إلى عادة، ويجد نفسه إلى جوار روشي كل يوم. أصبح يعرف الموظفين بالاسم، والمُمرِّضين الذكور الذين يعملون في الطابق الأرضي، والبواب، والحراس عند بوابة المستشفى، الذين يبدو عليهم الإنهاك وسوء التغذية. يحافظ على سرية الزيارات بقدر الإمكان. في اتصالاته الهاتفية العابرة للبحار، لم يُخبر نهيل بأمر روشي. كذلك لا يريد أن يخبر تيمور إلى أين يذهب، ولماذا لا يرافقه في الرحلة إلى باغمان، أو إلى الاجتماع مع أحد المسؤولين بوزارة الداخلية. لكن تيمور يعرف على أية حال.

يقول:

- خير لك. إنه أمر لطيف ما تفعله.

يتوقف قليلًا قبل أن يُضيف:

- مع ذلك، انتبه لخُطاك.

- تعني أن أتوقف عن الزيارات.

- سوف نغادر في غضون أسبوع يا أخي. وأنت لا تريد أن تجعلها ترتبط بك كثيرًا.

يومئ إدريس. يتساءل إن لم يكن تيمور يشعر ببعض الغيرة بسبب العلاقة مع روشي، وربما ببعض الحقد. ربما يكون إدريس قد سلبه فرصة رائعة للعب دور البطل. تيمور، خارجًا بالتصوير البطيء من مبنى يحترق، وهو يحمل طفلة، والحشود تنفجر بالهتاف. إدريس مُصمم على ألا يجعل تيمور يستخدم روشي في استعراض كهذا.

مع ذلك، فتيمور مُحق؛ سيعودان إلى الديار في غضون أسبوع، وقد بدأت روشي تناديه كاكا إدريس. وعندما يصل متأخرًا، يجدها مضطربة. تلف ذراعيها حول وسطه، وتجتاح وجهها موجة من الارتياح. صارت زياراته هي أكثر ما تتطلع إليه، هكذا أخبرته. أحيانًا تقبض على يده بكلتا يديها وهما يشاهدان فيلمًا. عندما يكون بعيدًا عنها، يفكر كثيرًا في الشعرات الصفراء الشاحبة على ذراعيها، وعينيها العسليتين الضيقتين، وقدميها الجميلتين، وخديها المدورين، كيف تستند بذقنها على يديها وهو يقرأ لها أحد كتب الأطفال التي يشتريها من مكتبة بالقرب من مدرسة «الليسيه» الفرنسية. في بضع مرَّات، سمح لنفسه أن يتخيَّل لوهلة كيف سيكون الأمر لو أخذها معه إلى الولايات المتحدة، كيف ستسير الأمور بينها وبين ولديه، «زابي» و«ليمار»، في الديار. العام الماضي، كان قد تكلم مع نهيل بشأن إمكانية إنجاب طفل ثالث.

- والآن ماذا؟

تقولها «أمرا» في اليوم السابق على رحيله.

في وقت سابق من هذا اليوم، كانت روشي قد أعطت إدريس صورة، رسمًا بالقلم الرصاص على ورقة من أوراق المستشفى

المخصصة لملفات المرضى، يُظهر شخصين متلاصقين يشاهدان التلفزيون. وقد أشار إلى الشخص ذي الشعر الطويل:

- هذه أنتِ؟

- وهذا أنتَ يا كاكا إدريس.

- كان لكِ من قبل شعر طويل إذًا؟

- كانت أختي تمشطه كل ليلة. كانت تعرف كيف تمشطه من غير أن تؤلمني.

- لا بد أنها كانت أختًا طيبة.

- عندما يطول ثانية، تستطيع أن تمشطه.

- أعتقد أنني سأحب ذلك.

- لا تذهب يا كاكا. لا تتركني.

يقول لـ«أمرا»:

- إنها فتاة رائعة.

وهي كذلك. مهذبة، ومتواضعة أيضًا. يفكر بقدر من الذنب في زابي وليمار هناك في سان هوزيه، اللذين طالما أعلنا كرههما لاسميهما الأفغانيين، اللذين يتحولان بسرعة إلى طاغيتين صغيرين، إلى طفلين أمريكيين مُتعجرفين كان قد أقسم هو ونهيل أنهما لن يستطيعا تربيتهما.

تقول «أمرا»:

- إنها صلبة.

- نعم.

تستند «أمرا» على الحائط. يهرع اثنان من المُمرِّضين أمامهما،

وهما يدفعان نقالة، عليها يرقد صبي صغير رأسه مربوط بضمادة مشرَّبة بالدماء وثمة جرح مفتوح في فخذه.

تقول «أمرا»:

- الأفغان الآخرون من أمريكا، أو من أوروبا، يأتون ويلتقطون صورة لها، يصورونها بالفيديو، يقدمون إليها الوعود، ثم يعودون إلى ديارهم ويعرضون الصور لأُسرهم، كما لو كانت حيوانًا في حديقة. أسمح لهم لأنني أفكر أنهم قد يساعدون، لكنهم ينسون. لا أسمع منهم أبدًا، لذا أسألك: والآن ماذا؟

تنظر إليه بتردد.

- لدينا عيادة جراحة مخ وأعصاب في مجموعتنا، سوف أتكلم مع الرئيسة، وسوف نُرتب لنقلها إلى كاليفورنيا وإجراء جراحة لها.

- نعم، ولكن النقود؟

- سوف نحصل على التمويل، وإذا ساءت الأمور جدًّا، فسأدفع أنا.

- مِن محفظتك؟

يقول ضاحكًا:

- التعبير هو «من جيبك»، لكن، نعم.

- يجب أن نحصل على تصريح من الخال.

- إذا ظهر ثانية.

لم يظهر أثر للخال، ولم يسمع أحد عنه منذ اليوم الذي أعطاه فيه إدريس المائتي دولار.

تبتسم له «أمرا». لم يسبق له أن فعل أي شيء مثل هذا. ثمة شيء منعش، مُسكر، بل ومُسبب للنشوة، في أن يُلقي بنفسه بتهور

في هذا الالتزام والوعد. يشعر بدفقة نشاط تكاد تخطف أنفاسه. ولدهشته، تحرق الدموع عينيه.

تقول:

- **هْفالا**، شكرًا لك.

تقف على أطراف أصابعها وتطبع قُبلة على خده.

* * *

- لقد خرقتُ إحدى الفتاتين الهولنديتين، من الحفلة.

يقول تيمور.

يرفع إدريس رأسه عن النافذة. كان ينظر مُتعجبًا إلى القمم البنية الناعمة لجبال «هندوكُش» المتلاصقة بعيدًا في الأسفل. يستدير لينظر إلى تيمور في الكرسي المحاذي للممر.

- ذات الشعر البني، ابتلعتُ نصف قرص «فيتامين في» وركبتها حتى أذان الفجر.

- يا ربي. ألن تنضج أبدًا؟

يقولها إدريس، مغتاظًا من أن تيمور قد أثقله ثانية بعبء معرفة سلوكه المشين، خيانته لزوجته، تصرفاته المنحلة القبيحة.

يبتسم تيمور مُغتبطًا بنفسه:

- تذكر يا ابن العم، ما يحدث في كابول...

- أرجوك لا تُكمل العبارة.

يضحك تيمور.

في مكان ما في مؤخرة الطائرة، ثمة حفلة صغيرة. أحدهم يغني بالباشتو، وأحدهم ينقر على صحن من الفوم كما لو كان «آلة طمبور».

يغمغم تيمور:

- لا أُصدق أننا صادفنا نبي العجوز. يا ربي.

يلتقط إدريس القرص المنوم الذي كان قد ادخره في جيب صديريته ويبتلعه بلا ماء.

يقول تيمور، وهو يعقد ذراعيه ويغمض عينيه:

- إذًا، سوف أرجع الشهر المقبل، وربما أضطر للمجيء مرَّتين أخريين بعدها، لكن كل شيء سيكون على ما يُرام.

- هل تثق في هذا المدعو «فاروق»؟

- اللعنة. لا. لهذا سوف أرجع ثانية.

فاروق هو المحامي الذي استأجره تيمور، وهو متخصص في مساعدة الأفغان الذين يعيشون في المنفى على استعادة عقاراتهم التي فقدوها في كابول. يستطرد تيمور في الحديث عن الأوراق التي سيُقدمها فاروق، والقاضي الذي يتمنون أن يرأس الإجراءات، وهو ابن عم من الدرجة الثانية لزوجة فاروق. يريح إدريس صدغه مجددًا على النافذة، وينتظر أن يحقق القرص مفعوله.

يقول تيمور بهدوء:

- إدريس.

- نعم.

- أمور بائسة تلك التي رأيناها هناك، أليس كذلك؟

«**يا لها من بصيرة مُدهشة تلك التي تتمتع بها يا أخي**». يقول إدريس:

- نعم.

- ألف مأساة في الميل المربع يا رجل!

بعد برهة، يبدأ رأس إدريس في الطنين، وبصره في التشوش. وهو ينجرف إلى النوم، يفكر في وداعه لروشي، وهو يمسك أصابعها، ويقول إنهما سيتقابلان ثانية، ونشيجها الخافت، الصامت تقريبًا، وهي تضع رأسها على بطنه.

* * *

في الطريق إلى المنزل من مطار «سان فرانسيسكو»، يتذكر إدريس بحنينٍ الفوضى المجنونة للمرور في كابول. كم هي غريبة الآن قيادة السيارة «الليكزوس» في اتجاه الجنوب على الطريق رقم ١٠١ المنتظم، الخالي من الحفر، اللافتات التي تعين السائقين طوال الوقت على الطريق السريع، الجميع مهذبون، يستخدمون الإشارات الضوئية، يفسحون الطريق. يبتسم لذكرى كل سائقي التاكسي المتهورين الذين ركب معهم هو وتيمور، وأمّناهم على حياتيهما.

في الكرسي المجاور، نهيل لا تتوقف عن الأسئلة: هل كابول آمنة؟ كيف كان الطعام؟ هل أصابه مرض؟ هل التقط صورًا أو لقطات فيديو لكل شيء؟ يفعل ما بوسعه. يصف لها المدارس التي دمرها القصف، والمشردين الذين يعيشون في مبانٍ بلا أسقف، والشحاذين، والوحل، والكهرباء كثيرة الانقطاع. لكن ذلك يبدو مثل وصف الموسيقى، لا يستطيع أن يمنحها الحياة. كابول تضج بالحياة، تفاصيل مذهلة - صالة ألعاب كمال الأجسام وسط الأنقاض، على سبيل المثال، صورة لـ«شوارزينجر» على النافذة. تلك التفاصيل تفلت منه الآن، ووصفه يبدو له عموميًّا، بلا طعم، مثل قصة عادية من قصص وكالة «أسوشييتد برس» الإخبارية.

في المقعد الخلفي، يجاريه الولدان وينصتان لبرهة، أو على الأقل يتظاهران بذلك. يستطيع إدريس أن يشعر بضجرهما. ثم يطلب زابي، وهو في العاشرة، من نهيل أن تقوم بتشغيل الفيلم. ويحاول ليمار، وهو أكبر بسنتين، أن ينصت لفترة أطول قليلًا، لكن سرعان ما يسمع إدريس طنين سباق السيارات من جهاز ألعاب «نينتندو دي إس».

توبخهما نهيل:

- ما الحكاية يا أولاد؟ والدكما عاد لتوِّه من كابول، ألا تشعران بالفضول؟ أليست لديكما أسئلة؟

يقول إدريس:

- لا بأس، اتركيهما.

لكنه يشعر بالضيق من عدم اهتمامهما، جهلهما اللامبالي باليانصيب الجيني العشوائي الذي أنعم عليهما بحياتهما المتميزة. يشعر بصدع ينشقُّ بينه وبين أسرته، حتى نهيل، التي تدور معظم أسئلتها عن رحلته حول المطاعم وغياب السباكة داخل البيوت. الآن، ينظر إليهم متهِمًا بالطريقة نفسها التي كان المحليون ينظرون بها إليه عندما وصل إلى كابول للمرَّة الأولى.

يقول:

- سأموت من الجوع.

تقول نهيل:

- فيمَ تفكر؟ سوشي، طعام إيطالي؟ ثمة مطعم للأغذية الجاهزة هناك بجوار أوكريدج.

يقول:

- لنتناول طعامًا أفغانيًّا.

يتوجهون إلى مطعم «كباب إيب» في الجانب الشرقي من سان هوزيه بالقرب من سوق الخردة القديمة، «بيريسًّا»، يملكه رجل في أوائل الستينيات، له شعر رمادي، وشارب أشبه بمقود الدراجة، ويدان باديتا القوة، يُدعى عبد الله. إنه أحد المرضى الذين يترددون على إدريس، وزوجته كذلك. يلوح عبد الله من خلف الخزانة عندما يدخل إدريس وأسرته المطعم. مطعم «كباب إيب» هو بيزنس عائلي صغير، ليس به سوى ثماني طاولات؛ بمفارش من الفينيل غالبًا ما تكون لزجة، قوائم طعامه مُغلفة بالبلاستيك، على جدرانه ملصقات لأفغانستان، وبداخله ماكينة صودا قديمة، و«ثلاجة للعرض» في الزاوية. عبد الله يُحيي الضيوف، ويدير الخزانة، وينظف. وزوجته، «سلطانة»، في الخلف؛ هي المسؤولة عن العمل السحري. يستطيع إدريس أن يراها الآن في المطبخ، مُنحنية على شيء ما، وشعرها محشور أسفل طاقية شبكية، وعيناها ضيقتان في مواجهة البخار. كانت قد تزوجت من عبد الله في باكستان في أواخر السبعينيات، هكذا أخبرا إدريس، بعد احتلال الشيوعيين للوطن. مُنحوا حق اللجوء إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٢، العام الذي ولدت فيه ابنتهما، باري.

هي التي تأخذ طلباتهم الآن. باري ودودة ومهذبة، ورثت عن أمها البشرة الفاتحة، وفي عينيها لمعة الصلابة الانفعالية نفسها. وهي أيضًا لها جسد غير متناسق على نحو غريب؛ نحيل ورشيق من أعلى لكنه ممتلئ من أسفل الوسط بكفلين عريضين، وفخذين غليظتين، وكعبين كبيرين. الآن ترتدي إحدى تنُّوراتها الفضفاضة المعتادة.

يطلب إدريس ونهيل لحم الحمل مع الأرز البني والبولاني. يختار الولدان «كباب تشابلي»، أقرب شيء يجدونه في القائمة للحم الهمبرجر. وفيما ينتظرون طعامهم، يقول زابي لإدريس إن فريق كُرة القدم الذي يلعب فيه كجناح أيمن قد وصل إلى المباراة النهائية، والمباراة يوم الأحد. ويقول ليمار إن لديه حفلًا سيعزف فيه على الجيتار يوم السبت.

يسأل إدريس بخمول، وهو يشعر ببوادر الاضطراب المميز للرحلات الجوية الطويلة:

- ماذا ستعزف؟

- «بينت إت بلاك» (ادهنها بالأسود).

- رائع.

تقول نهيل بنبرة توبيخ حذر:

- لست متأكدة أنك تمرَّنت بما يكفي.

يُسقط ليمار المنديل الورقي الذي كان يجدله:

- ماما! حقًّا؟ ألا ترين ما الذي أعاني منه كل يوم؟ عندي أشياء كثيرة جدًّا يجب أن أنتهي منها.

في منتصف الوجبة، يأتي إليهم عبد الله ليُلقي التحية، ماسحًا يديه في المريلة المربوطة حول وسطه. يسألهم إن كان الطعام أعجبهم، وإن كانوا يريدون شيئًا آخر.

يخبره إدريس أنه عاد هو وتيمور لتوِّهما من كابول.

يسأل عبد الله:

- ماذا يفعل تيمور جان الآن؟

- لا شيء مفيدًا كالعادة.

يبتسم عبد الله. يعرف إدريس كم هو مُغرم بتيمور.

- وكيف حال بيزنس الكباب؟

يتنهَّد عبد الله:

- دكتور بشيري، لو أردت أن أدعو على أحدهم فسأقول «اللهم أعطه مطعمًا».

يتبادلون ضحكات قصيرة مع عبد الله.

لاحقًا، وهم يغادرون المطعم ويستقلون سيارة الدفع الرباعي، يقول ليمار:

- بابا، هل يُعطى الطعام مجانًا للجميع؟

يقول إدريس:

- بالطبع لا.

- لماذا إذًا لم يأخذ منك نقودًا؟

- لأننا أفغان، ولأنني طبيبه.

يقول إدريس. ما ذكره صحيح جزئيًّا. أما السبب الأهم، فيما يظن، فهو أنه ابن عم تيمور، وتيمور هو الذي أقرض عبد الله قبل سنوات المال اللازم ليفتح المطعم.

في البيت، يندهش إدريس أولًا عندما يرى السجاجيد وقد نُزعت من غرفة الأسرة والبهو، وصارت المسامير والألواح الخشبية على السلم عارية. ثم يتذكر أنهم كانوا يُجددون البيت، ويستبدلون المفروشات بالأرضيات الخشبية - ألواح عريضة من خشب الكرز بلون أسماه مقاول الأرضيات «لون الإبريق النحاسي». صُنفرت أبواب الخزانة في المطبخ، وثمة فتحة واسعة في المكان الذي كان يسكنه الميكروويف. تُخبره نهيل أنها ستعمل نصف دوام

يوم الاثنين حتى تستطيع أن تُقابل عُمال الأرضية و«جيسون» في الصباح.

- جيسون؟

ثم يتذكر، «جيسون سبير»، الذي سيُركِّب السينما المنزلية.

- سيأتي ليأخذ المقاسات. لقد أحضر إلينا بالفعل سماعات «الصب ووفر» و«البروجكتور» بسعر مخفَّض، وسيرسل ثلاثة رجال لبدء التركيب يوم الأربعاء.

يومئ إدريس. كانت السينما المنزلية فكرته، شيء طالما أراده، لكنه الآن يشعر بالحرج منه، يشعر بأنه منفصل عن كل هذا: جيسون سبير، والخزانات الجديدة، والأرضيات بلون الإبريق النحاسي، وأحذية الأطفال الرياضية عالية الرقبة بسعر ١٦٠ دولارًا، وملاءات السرير المصنوعة من قماش الشانيل في غرفته، والحماس الذي انتابه هو ونهيل في السعي وراء تلك الأشياء. لكم يرى ثمار طموحاته تافهة الآن. تُذكِّره فقط بالتباين القاسي بين حياته وبين ما رآه في كابول.

- ما الأمر يا حبيبي؟

يقول:

- اضطراب الرحلات الجوية الطويلة. أريد أن أغفو.

يوم السبت، يحضر عزف الجيتار، ويوم الأحد يحضر أغلب مباراة زابي. في الشوط الثاني كان عليه أن يتسلل إلى موقف السيارات، ينام لنصف ساعة. من حُسن حظه أن زابي لم يلاحظ. ليلة الأحد، يأتي بعض الجيران لتناول العشاء، وتدور بينهم صور رحلة إدريس وهم جالسون بأدب، خلال الساعة التي يستغرقها

فيديو عن كابول تصر نهيل، على عكس رغبة إدريس، على عرضه لهم. على العشاء، يسألون إدريس عن رحلته، عن آرائه في الموقف في أفغانستان. يرتشف «الموهيتو» ويرد بإجابات مقتضبة.

تقول «سنثيا»:

- لا أستطيع أن أتخيَّل الوضع هناك.

سنثيا مُدربة لتمارين «البيلاتس» في صالة الألعاب الرياضية التي تتمرن فيها نهيل.

- كابول...

يبحث إدريس عن الكلمات المناسبة:

- ألف مأساة في الميل المربع.

- لا بد أن الذهاب إلى هناك كان صدمة حضارية؟

- نعم، كان كذلك.

لا يقول إدريس إن الصدمة الحضارية الحقيقية كانت في عودته.

في النهاية، ينعطف الحوار إلى سلسلة سرقات البريد التي شهدها الحي.

مُتمددًا في فراشه تلك الليلة، يقول إدريس:

- هل تعتقدين أننا يجب أن نملك كل هذا؟

ترد نهيل:

- كل هذا؟

يستطيع أن يراها في المرآة، تغسل أسنانها عند المغسلة.

- كل هذا؟ هذه الأغراض؟

تقول:

- لا، لسنا بحاجة إليها، إذا كان هذا ما تقصده.

تبصق في المغسلة، وتتمضمض.

- ألا تظنين أن ذلك كثير جدًّا، كل هذه الأشياء؟

- لقد عملنا بجد يا إدريس. هل تتذكر اختبارات القبول في كلية الطب، اختبارات القبول في كلية الحقوق، ثم كلية الطب، وكلية الحقوق، وسنوات العمل كطبيب مقيم؟ إنها أشياء لم يُعطها لنا أحد. ليس لدينا ما نعتذر عنه.

- بثمن السينما المنزلية كان يمكننا أن نبني مدرسة في أفغانستان.

تدخل غرفة النوم وتجلس على الفراش لتنزع عدساتها اللاصقة. لديها «بروفايل» هو الأجمل. إنه يحب الطريقة التي تغطس بها جبهتها بالكاد حيث يبدأ أنفها، وعظام خديها القوية، وعنقها الرشيق.

تقول، وهي تستدير إليه وتطرف بقايا قطرة العين:

- إذن، افِعل الاثنين. لا أرى سببًا يمنعك من ذلك.

قبل بضع سنوات، كان إدريس قد اكتشف أن نهيل تتكفل بطفل كولومبي اسمه «ميجيل». لم تكن قد أخبرته بأمره من قبل، ولما كانت مسؤولة عن البريد الذي يصل إليهما وعن تدبير المصروفات، ظل إدريس لسنوات جاهلًا بالأمر، حتى رآها ذات يوم تقرأ خطابًا من ميجيل. كان الخطاب قد تُرجم من الإسبانية عن طريق إحدى الراهبات. ثمة صورة أيضًا، لصبي طويل مفتول العضلات، يقف أمام كوخ من القش، يحتضن كُرة قدم، لا شيء

خلفه إلا أبقار عجفاء وتلال خضراء. كانت نهيل قد بدأت التكفل بميجيل عندما كانت في كلية الحقوق. لإحدى عشرة سنة الآن ظلت تذهب شيكات نهيل وتأتي صور ميجيل وخطاباته الشاكرة المترجَمة بيد راهبة.

تخلع خواتمها.

- إذًا ما الأمر؟ هل قابلت أحد الناجين من الكوارث فشعرت بالذنب؟

- كل ما في الأمر أنني أرى الأمور بشكل مختلف قليلًا الآن.

- حسنًا. استغل الوضع إذًا. لكن توقف عن الغوص في التأملات.

يحرمه اضطراب الرحلات الجوية الطويلة من النوم تلك الليلة. يقرأ لبعض الوقت، يشاهد جزءًا من حلقة معادة من مسلسل «الجناح الغربي» في الطابق السفلي، ثم ينتهي به الأمر على الكمبيوتر في غرفة الضيوف التي حوَّلتها نهيل إلى غرفة مكتب. يجد رسالة من «أمرا». تتمنى أن يكون قد عاد بسلام إلى داره، وأن تكون أسرته بخير. كتبت إليه تخبره بأن المطر قد بدأ ينهمر «بغضب» في كابول ، وأن الشوارع مليئة بالأوحال التي تصل إلى الكعبين، وقد تسببت الأمطار في فيضان، وقامت الحكومة بإجلاء نحو مائتي أسرة عن طريق «الهليكوبتر» في «شومالي»، شمالي كابول. تشددت الإجراءات الأمنية بسبب تأييد كابول لحرب بوش على العراق والهجمات الانتقامية المتوقعة من القاعدة. وكانت تقول في آخر سطور رسالتها: «هل تكلَّمت مع رئيستك بعد؟».

دونت «أمرا» أسفل رسالتها فقرة قصيرة من روشي، تقول فيها:

سلام يا كاكا إدريس،

إن شاء الله تكون قد وصلت بالسلامة إلى أمريكا. أنا متأكدة أن أسرتك سعيدة برؤيتك. أُفكر كل يوم فيك. كل يوم أشاهد الأفلام التي أحضرتها لي. كلها تعجبني. يحزنني أنك لست هنا لتشاهدها معي. أنا بخير و«أمرا جان» تعتني بي جيدًا. من فضلك بلِّغ سلامي لأسرتك. إن شاء الله نلتقي قريبًا في كاليفورنيا.

خالص الاحترام،

روشانا

يرد على رسالة «أمرا» شاكرًا، ويخبرها عن أسفه لأمر الفيضان، مُتمنيًا أن تهدأ الأمطار، ويخبرها كذلك أنه سيناقش أمر روشي مع رئيسته هذا الأسبوع. وفي الأسفل يكتب:

سلام يا روشي جان،

شكرًا على رسالتك الرقيقة. وقد أسعدني جدًّا أن أسمع منكِ. أنا أيضًا أفكر فيكِ كثيرًا. لقد حكيتُ لأسرتي كل شيء عنك وهم مُتشوِّقون جدًّا لمقابلتك، وخصوصًا ولديَّ، زابي جان وليمار جان، يسألانني الكثير من الأسئلة عنكِ. كلنا ننتظر وصولكِ. أرسل لك حبي.

كاكا إدريس

يُسجل خروجه، ويذهب للنوم.

* * *

يوم الاثنين، تستقبله كومة من الرسائل الهاتفية عندما يدخل مكتبه. تتساقط طلبات إعادة صرف الدواء من إحدى السلال، في انتظار موافقته. لديه أكثر من مائة وستين رسالة بريد إلكتروني عليه أن يُغربلها، وبريده الصوتي ممتلئ. يسير وفق جدوله على الكمبيوتر، ويفزعه أن يرى ذلك العدد الضخم من حجوزات الكشف - «مواعيد محشورة»، كما يُسميها الأطباء - مكدسة داخل جدول مواعيده على مدار الأسبوع. الأسوأ من ذلك أن من بينها موعدًا مع السيدة «راسموسين» الرهيبة بعد ظهر اليوم، وهي امرأة مُزعجة وعدوانية على نحو خاص، تعاني منذ سنوات من أعراض غامضة لا تستجيب إلى علاج. فكرة مواجهة حالة التطلب العدوانية عندها تجعله يتفصد عرقًا. وأخيرًا، كانت إحدى رسائل البريد الصوتي من رئيسته، «جوان شايفر»، تخبره فيها أن مريضًا كان قد شخَّص حالته بأنها التهاب رئوي قبيل سفره إلى كابول تبين أنه يعاني، بدلًا من ذلك، من احتقان في عضلة القلب. وسوف تُستخدم تلك الحالة الأسبوع المُقبل في مؤتمر تقييم أداء زملاء المهنة، وهو مؤتمر فيديو شهري تشاهده كل المستشفيات، تُعرض خلاله أخطاء الأطباء، من دون الكشف عن هوياتهم، لتوضيح بعض الدروس المستفادة. لكن إدريس يعرف أن السرية لا تدوم طويلًا؛ إذ سيعرف نصف مَن في القاعة على الأقل مَن هو المذنب.

يشعر ببوادر صداع.

يتأخر عن جدوله ذاك الصباح بدرجة يُرثى لها. يدخل مريض بالربو من دون موعد، يحتاج إلى علاجات تنفسية ومراقبة دقيقة لقياسات قوة الزفير ودرجة تشبع الأكسجين. مسؤول تنفيذي في

منتصف العمر، رآه إدريس آخر مرَّة قبل ثلاث سنوات، يدخل بحالة متطورة من احتشاء عضلة القلب الأمامية. لا يستطيع إدريس أن يبدأ الغداء قبل الثانية عشرة والنصف. في قاعة الاجتماعات حيث يتناول الأطباء طعامهم، يتناول هو قضمات سريعة من ساندويتش ديك رومي وهو يحاول ملاحقة الرسائل. يجيب عن الأسئلة نفسها من الزملاء: هل كانت كابول آمنة؟ كيف يرى الأفغان الوجود الأمريكي؟ يرد ردودًا موجزة ومبتسرة، وعقله مشغول بالسيدة راسموسين، وبالرسائل الصوتية التي تحتاج إلى رد، وبطلبات إعادة صرف الدواء التي عليه إقرارها، وبالمواعيد الثلاثة المحشورة في جدوله لبعد الظهر، وبمؤتمر تقييم الأداء المرتقب، وبالمقاولين الذين ينشرون ويثقبون ويدقون المسامير في منزله. فجأة بدأ يشعر أن الحديث عن أفغانستان - وهو مذهول كيف حدث ذلك بهذه السرعة وبشكل غير محسوس - أشبه بالحديث عن فيلم مُستنزِف للمشاعر شاهده أخيرًا، وقد بدأت آثاره تخبو.

تبين أنه أحد أكثر الأسابيع مشقة في مساره المهني. ومع أنه كان ينوي التحدث إلى جوان شايفر بشأن روشي، إلا أنه لم يجد الوقت لذلك. يسيطر عليه مزاج عكر طيلة الأسبوع. إنه مُقصِّر مع الولدين في المنزل، مُنزعج من العمال الذين يتدفقون دخولًا وخروجًا من منزله ومن كل تلك الضوضاء. لم يستعد نظام نومه الطبيعي بعد. يتلقى رسالتي بريد إلكتروني أخريين من «أمرا»، تخبره بتطورات الأوضاع في كابول: لقد أُعيد افتتاح مستشفى «رابعة بلخي» للنساء. مجلس وزراء كرزاي سيسمح لشبكات

«الكيبل» التلفزيونية ببث البرامج، مُتحديًا المتشددين الإسلاميين الذين يعارضون الأمر. وفي حاشية في نهاية الرسالة الثانية، تقول إن روشي أصبحت منطوية منذ رحيله، وتسأل ثانية إن كان قد تحدث إلى رئيسته. يبتعد عن لوحة المفاتيح. يعود إليها لاحقًا، خجِلًا لأن رسالة «أمرا» قد أزعجته لتلك الدرجة، وكيف راودته رغبة، للحظة واحدة، أن يجيب عليها بحروف كبيرة: «سأفعل ذلك في الوقت المناسب».

* * *

– أتمنى ألا يكون الأمر قد أزعجك.

تجلس جوان شايفر وراء مكتبها، يداها متشابكتان على حجرها. إنها امرأة تتمتع بطاقة مرحة، لها وجه ممتلئ، وشعر أبيض خشن. تُحدق فيه من فوق نظارة القراءة الرابضة فوق جسر أنفها.

– أنت تفهم أن الهدف لم يكن الطعن فيك.

يقول إدريس:

– نعم، بالطبع. أفهم.

– ولا تبتئس. يمكن أن يحدث ذلك لأي منا. أحيانًا يصعب التفريق في الأشعة السينية بين احتقان عضلة القلب وبين الربو.

– شكرًا يا جوان.

ينهض لكي يخرج، ويتوقف عند الباب:

– نعم. هناك شيء كنت أريد مناقشته معك.

– حسنًا. حسنًا. اجلس.

يجلس ثانية. يُخبرها بأمر روشي، يصف لها الإصابة، ونقص الموارد في مستشفى «وزير أكبر خان». يُسر إليها بالوعد الذي قطعه

لـ«أمرا» وروشي. الآن وقد تكلم في الأمر بصوت عالٍ، يشعر بثقل هذا الوعد بطريقة لم يشعر بها في كابول، وهو يقف في الردهة مع «أمرا»، عندما قبّلته على خده. ينزعج عندما يكتشف أنه يشعر بما يشبه الندم الذي يصيب الزبائن أحيانًا بعد شراء سلعة ما.

تقول جوان وهي تهز رأسها:

- يا ربي يا إدريس. إنني أُحييك على ذلك. يا للبشاعة. تلك الطفلة المسكينة، لا أستطيع أن أتخيَّل.

يقول:

- أعرف.

يسأل إن كان يمكن للمجموعة أن تُغطي الإجراء، أو «الإجراءات»، بشكل أدق، فغالبًا سيحتاج الأمر إلى أكثر من إجراء.

تتنهَّد جوان، وتقول:

- أتمنى ذلك. لكن، في الحقيقة، أشك أن مجلس الإدارة سيوافق على ذلك يا إدريس. أشك كثيرًا جدًّا. أنت تعرف أننا نخسر منذ خمس سنوات، وسوف تكون هناك مسائل قانونية أيضًا، مسائل معقدة.

تنتظره أن يُجادل، ربما تستعد لذلك، لكنه لا يُجادل.

يقول:

- أنا مُتفهم.

- عليك أن تعثر على مجموعة تعمل في المجال الإنساني وتقوم بهذه الأمور، أليس كذلك؟ سوف يحتاج الأمر إلى بعض الجهد، ولكن...

- سوف أبحث. شكرًا لكِ جوان.

ينهض ثانية، مُندهشًا من شعوره بأنه صار أكثر خفة، وكأن ردها قد منحه الراحة.

* * *

تستغرق السينما المنزلية شهرًا آخر قبل تركيبها، لكنها أُعجوبة: الصورة، المنطلقة من بروجكتور مُعلَّق بالسقف، حادة الوضوح، والحركات على الشاشة قياس ١٠٢ بوصة سلسة على نحو مُدهش. نظام الصوت المحيط ذو السماعات السبع، ونظام التحكم الصوتي عن طريق الرسوم البيانية، ومعدات منع ارتداد الصوت التي وضعوها في الأركان الأربعة، فعلت الأعاجيب في ضبط الصوت. الولدان يشاهدان فيلم «قراصنة الكاريبي»، فرحين بالتكنولوجيا، جالسين على جانبيه، يأكلان من دلو بوشار بالحجم العائلي على حجره، يناماان قبل مشهد المعركة النهائية المُطوَّل.

يقول إدريس لنهيل:

- سأضعهما في الفراش.

يرفع واحدًا، ثم الآخر. الولدان يشبان، جسداهما النحيلان يستطيلان بسرعة مُلفتة. وهو يُحكم الغطاء على كل منهما في الفراش، يدرك أن ولديه سيُحطمان قلبه يومًا ما. في غضون عام، أو عامين على الأكثر، سوف يستبدلانه. سيصبح الولدان مولعين بأشياء أخرى، بأناس آخرين، وسيشعران بالحرج منه ومن نهيل. يفكر إدريس فيهما بشعور بالحنين عندما كانا صغيرين وعاجزين، ومعتمدين تمامًا عليه. يتذكر كيف كان زابي يرتعب من فتحات المصارف في الشوارع عندما كان صغيرًا، فيدور حولها في دوائر واسعة خرقاء. ذات مرَّة، وهم يشاهدون فيلمًا قديمًا، سأل ليمار إدريس إن كان قد عاش في ذلك الوقت الذي كان فيه العالم

بالأبيض والأسود. تجلب الذكرى ابتسامة، فيطبع قُبلة على خدي ابنيه.

يجلس مُسترخيًا في الظلام، ينظر إلى ليمار وهو نائم. لقد تسرَّع في الحكم على ولديه، يرى ذلك الآن، ولم يكن عادلًا. كما كان قاسيًا أيضًا في حكمه على نفسه؛ إنه ليس مجرمًا، كل ما يمتلكه كافح من أجله. في التسعينيات، بينما كان نصف مَن يعرفهم من الشباب يخرجون للمرح ومطاردة النساء، كان يظل مدفونًا في مكتبه، يُجرجر نفسه عبر ممرات المستشفى في الثانية صباحًا، مُتخليًّا عن التسلية، والراحة، والنوم. كان قد خصص عشرينياته للطب، ودفع ما ترتَّب عليه، فلماذا يشعر بالاستياء؟ هذه هي أسرته، وهذه هي حياته.

في الشهر الماضي، أصبحت روشي بالنسبة إليه شيئًا مُجردًا، مثل شخصية في مسرحية. تقطَّعت خيوط علاقتهما، وتآكلت الحميمية غير المتوقعة التي تعثَّر بها في المستشفى، بشكل حاد وعلى عَجَل، وأصبحت شيئًا فاترًا. فقدت التجربة قوتها. يدرك حقيقة الإصرار الشديد الذي كان قد استولى عليه. لقد كان وهمًا، سرابًا. لقد وقع تحت تأثير شيء أشبه بالمخدرات. الآن، تبدو المسافة بينه وبين الفتاة شاسعة. تبدو لا نهائية، لا يمكن اجتيازها، كما يبدو وعده لها مُضللًا، خطأ مُتهورًا، إساءة تقدير فظيعة لقدراته وإرادته وشخصيته، شيئًا من الأفضل أن يُنسى. إنه غير قادر على ذلك. لا، بل إن الأمر بسيط: في الأسبوعين الأخيرين، كان قد تلقَّى ثلاث رسائل إلكترونية أخرى من «أمرا». قرأ الأولى ولم يرد، ومسح الأخريين من دون قراءة.

* * *

الطابور في المكتبة بطول اثني عشر أو ثلاثة عشر شخصًا. يمتد من المنصة المرتجلة إلى رف المجلات. تمرر امرأة طويلة عريضة الوجه وريقات لاصقة صفراء للواقفين في الطابور ليكتبوا عليها أسماءهم وأي رسائل شخصية يريدون كتابتها على الكتاب. في حين تقف إحدى البائعات على رأس الطابور لمساعدة الناس في فتح الكتاب على صفحة العنوان.

إدريس بالقرب من أول الطابور، يمسك بنسخة في يده. المرأة أمامه، في الخمسينيات ولها شعر أشقر قصير، تستدير إليه وتقول:

- هل قرأته؟

يقول:

- لا.

- ستقرأه لمناقشته في نادي الكتاب الشهر المُقبل. إنه دوري في الاختيار.

- نعم.

تعبس وتضع كف يدها على صدرها:

- أتمنى أن يقرأه الناس. إنه قصة مؤثرة، ومُلهمة جدًّا. أراهن أنهم سيحولونها إلى فيلم.

ما قاله لها كان حقيقيًّا؛ لم يقرأ الكتاب، بل ويشك في أنه سيقرأه. لا يظن أن لديه الشجاعة لرؤية نفسه مُجددًا على صفحاته. لكن آخرين سيقرأونه، وعندما يحدث ذلك، سيفتضح أمره، سيعرف الناس: نهيل، وابناه، وزملاؤه. مجرد التفكير في الأمر يُشعره بالدوار.

يفتح الكتاب ثانية، يُقلب صفحات الشكر، ويلقي نظرة على

المعلومات عن المؤلف المشارك، الذي قام بعملية الكتابة نفسها. ينظر ثانية إلى الصورة على طية غلاف الكتاب. لا أثر لإصابة. إذا كانت لديها ندبة، ولا بد أنها كذلك، فإن الشعر الأسود المتموج الطويل يخفيها. روشي ترتدي بلوزة مطرزة بخرز ذهبي اللون، ودلّاية عليها لفظ الجلالة، ودبوس أذن لازوردي. تستند على شجرة، تنظر إلى الكاميرا مباشرة، وتبتسم. يفكر كيف كانت ترسمه بطريقة طفولية. **لا تذهب. لا ترحل يا كاكا.** لا يلحظ في هذه المرأة الشابة ولو مسحة من المخلوقة الصغيرة المرتعشة التي رآها خلف ستارة قبل ست سنوات.

يُلقي إدريس نظرة على صفحة الإهداء:

إلى الملاكَيْن في حياتي: أمي «أمرا»، وكاكا تيمور.

أنتما سبب نجاتي. وأنا مدينة لكما بكل شيء.

يتحرك الطابور. تحظى المرأة ذات الشعر الأشقر القصير بتوقيع على نُسختها. تتنحى جانبًا، ويتقدم إدريس بقلب مُتلعثم. ترفع روشي بصرها. إنها ترتدي شالًا أفغانيًّا على بلوزة طويلة الأكمام بلون القرع، وقرطًا بيضاويًّا صغيرًا. عيناها أدكن مما يتذكر، وجسدها امتلأ بالثنيات الأنثوية. تنظر إليه من دون أن تطرف، وعلى الرغم من كونها لا تبدي إشارة على أنها قد تعرفت عليه، وعلى الرغم من ابتسامتها المؤدبة، يبدو على ملامحها نوع من الانبساط، والانعزال، والمرح، والمكر، والوداعة. يسحقه ذلك، وفجأة تجف في حلقه كل الكلمات التي كان قد حضَّرها - بل وكتبها، وتمرن عليها في رأسه وهو في الطريق إلى هنا. لا يستطيع أن يدفع نفسه

لقول أي شيء. كل ما يسعه أن يفعله هو أن يقف هناك، فيبدو أحمق على نحو غامض.

تتنحنح البائعة:

- سيدي، إذا أعطيتني كتابك فسأفتحه على صفحة العنوان وستوقعه روشي من أجلك.

الكتاب. ينظر إدريس إلى أسفل. يدرك أنه قابض عليه بقوة بين يديه. لم يأتِ إلى هنا لتوقيع الكتاب، بالطبع. كان ذلك ليُعد وقاحة - وقاحة بشعة - بعد كل ما حدث. مع ذلك، يجد نفسه يمد يده بالكتاب، تقلب البائعة الصفحات حتى تصل إلى الصفحة المطلوبة، تخربش يد روشي بشيء تحت العنوان. لم تتبق أمامه الآن إلا ثوان يقول فيها أي شيء، ليس لأن ذلك الشيء قد يُلطف من فِعلته التي لا تُبرر، ولكن لأنه يفكر أنه مدين لها بهذا. لكن عندما تعيد إليه البائعة الكتاب، لا يتمكن من استدعاء الكلمات. يتمنى الآن ولو جزءًا ضئيلًا من شجاعة تيمور. ينظر إلى روشي ثانية. إنها الآن تنظر من فوق كتفه، إلى الشخص التالي في الطابور.

- أنا...

يشرع في قول شيء ما.

تقول البائعة:

- الآن، يجب أن يتحرك الطابور يا سيدي.

يُطأطئ رأسه ويترك الصف.

كان قد صف سيارته في الموقف خلف المكتبة. يشعر أن الطريق إلى سيارته أطول طريق في حياته. يفتح باب السيارة،

ويتوقف قبل الدخول. وبيدين لم تتوقفا عن الارتعاش، يفتح الكتاب ثانية. الخربشة ليست توقيعًا؛ لقد كتبت له جملتين بالإنجليزية.

يُغلق الكتاب، وعينيه أيضًا. يقول لنفسه إن عليه أن يشعر بالراحة، لكن جزءًا منه يتمنى شيئًا آخر. ربما لو كانت قد عبست في وجهه، أو قالت شيئًا طفوليًّا مليئًا بالاحتقار والحقد، أو انفجرت من الضغينة، لكان ذلك أفضل. بدلًا من ذلك، تصرِفه بابتسامة دبلوماسية صافية. وهذه الملاحظة: «لا تقلق. لن تجد نفسك فيه». تصرف كريم، أو ربما، على نحو أكثر دقة، تصرف فيه شفقة. يجب أن يشعر بالراحة، لكن الملاحظة تؤلمه، يشعر بضربتها، مثل بلطة في رأسه.

ثمة مقعد طويل بالقرب منه، تحت شجرة دردار. يتوجه إليه ويترك عليه الكتاب. يعود إلى السيارة ويجلس خلف عجلة القيادة. ويمر بعض الوقت قبل أن يثق في قدرته على إدارة المفتاح والمضي في طريقه.



٦
فبراير ١٩٧٤

كلمة المحرر،

باراالاكس، العدد ٨٤ (شتاء ١٩٧٤)، صفحة ٥

أعزائي القراء:

قبل خمسة أعوام، عندما بدأنا أعدادنا الفصلية التي ننشر فيها مقابلات مع شعراء لا يحظون بشهرة واسعة، لم يكن في مقدورنا أن نتنبأ بالشعبية التي سوف يحققونها. كثيرون منكم طلبوا المزيد، بل إن خطاباتكم الحماسية، في واقع الأمر، مهدت الطريق أمام تلك الأعداد لكي تُصبح تقليدًا سنويًّا هنا في «بارالاكس». كذلك، أصبحت الصور القلمية الآن هي القصص الصحفية المفضَّلة لدى فريقنا من الكُتاب. ولقد أدت العروض التي قدمناها إلى اكتشاف، أو إعادة اكتشاف، بعض الشعراء ذوي القيمة، والتقدير المتأخر لأعمالهم.

مع ذلك، فمما يدعو إلى الأسف أن ثمة ظلالًا تخيم فوق العدد الحالي. فالفنانة التي نُقدِّمها في هذا

الفصل هي نيلا وحدتي، وهي شاعرة أفغانية أجرى معها المقابلة «إتيان بوستوليه» في الشتاء الماضي في بلدة «كوربوفوا» بالقرب من باريس. وقد منحت مدام وحدتي للسيد بوستوليه، ونحن واثقون أنكم سوف تشاطروننا الرأي، واحدة من أكثر المقابلات التي نشرناها كشفًا وأعظمها صدقًا على نحو مُذهل. وقد علمنا بمزيد من الأسى بخبر موتها المبكر بعد فترة وجيزة من إجراء تلك المقابلة. لسوف يفتقدها مجتمع الشعراء، ولسوف تحيا في ابنتها.

التوقيت خارق للعادة. تتزامن رنة انفتاح باب المصعد بالضبط مع انطلاق الهاتف في الرنين. تتمكن باري من سماع الرنين لأنه يأتي من داخل شقة «جوليان»، وهي على رأس الردهة الضيقة شاحبة الإضاءة ومن ثَمَّ الأقرب إلى المصعد. بالحدس، تعرف مَن المتصل. تعرف من النظرة على وجه جوليان.

يقول جوليان، الذي كان قد دخل إلى المصعد بالفعل:

- اتركيه يرن.

من خلفه تظهر المرأة الفظة ذات الوجه الأحمر ساكنة الطابق العلوي. ترمق باري في نفاد صبر. يُسميها جوليان «لا شيفر»، بسبب شعر ذقنها الأشبه بالماعز.

يقول:

- هيا يا باري. نحن متأخرون أصلًا.

كان قد حجز في السابعة مساء في مطعم جديد في الدائرة السادسة عشرة، مطعم كثُر الكلام عن أطباقه: دجاج «البوليه بريزيه»،

وطبق «السول كاردينال»، وكبد العجل بصلصة النبيذ. سيقابلان «كريستيان» و«أوريلي»، الصديقين القديمين لجوليان - من أيام الدراسة، وليس التدريس. ويُفترض أن يلتقوا أولًا في السادسة والنصف لتناول المقبلات، والساعة الآن الخامسة والرُّبع. عليهما أن يسيرا حتى محطة المترو، ثم يركبا إلى «موبيت»، ثم يسيرا مسافة ست نواصٍ حتى يصلا إلى المطعم.

الهاتف لا يتوقف عن الرنين.

المرأة الماعز تسعل.

جوليان يقول، بحسم أكبر الآن:

- باري؟

تقول باري:

- إنها ماما على الأغلب.

- نعم، أعرف.

تفكر باري، بصورة غير منطقية، أن والدتها - بنزعتها التي لا تنتهي نحو الدراما - قد اختارت تلك اللحظة على وجه الخصوص للاتصال لكي تضطرها إلى هذا الاختيار تحديدًا: أن تدخل إلى المصعد مع جوليان أو أن ترد على اتصالها.

تقول:

- ربما يكون أمرًا مُهمًّا.

يتنهَّد جوليان.

بينما يغلق باب المصعد من خلفه، يستند على حائط الردهة. يدس يده عميقًا في جيبي معطف المطر الذي يرتديه، فيبدو للحظة مثل إحدى شخصيات فيلم بوليسي مأخوذ عن رواية لـ«ميلفِل».

تقول باري:

- لن أستغرق أكثر من دقيقة.

يرميها جوليان بنظرة مُتشككة.

شقة جوليان صغيرة. ست خطوات سريعة وتصل إلى الصالة، تمر بالمطبخ، وتجلس على حافة السرير، تمد يدها إلى الهاتف على المنضدة التي يوضع عليها المصباح، وهي الوحيدة الموجودة في الغرفة. مع ذلك، فالمنظر بديع من هنا. إنها تمطر الآن، لكن في أيام الصحو تستطيع أن تنظر من النافذة الشرقية فترى الجزء الأكبر من الدائرتين التاسعة عشرة والعشرين.

ترفع السماعة وتقول:

- نعم، ألو؟

يُجيبها صوت رجل:

- مساء الخير. هل أنت آنسة باري وحدتي؟

- مَن المُتصل؟

- هل أنت ابنة مدام نيلا وحدتي؟

- نعم.

- اسمي الدكتور «دولونيه»، وأتصل بخصوص والدتك.

تُغمض باري عينيها. تشعر بومضة ذنب سريعة قبل أن يجتاحها الجزع المعتاد. لقد ردت على مكالمات مثل هذه من قبل، أصبحت الآن تفوق الحصر، منذ كانت مراهقة، حقًّا، بل وقبل ذلك - ذات مرَّة، في الصف الخامس، كانت في منتصف امتحان للجغرافيا، واضطر المُدرس إلى المقاطعة، واصطحبها إلى الردهة في الخارج، وشرح لها ما قد حدث بصوت جاد. باري معتادة على

هذه المكالمات، لكن التكرار لم يؤد بها إلى عدم الاكتراث؛ فمع كل مكالمة تفكر: «تلك المرَّة، تلك هي المرَّة»، وفي كل مرَّة تضع السماعة وتهرع إلى والدتها. سبق أن قال جوليان لباري إنها إذا قطعت «العرض» المتمثل في اهتمامها، فربما ينقطع «الطلب» عليه بالتبعية.

يقول الدكتور دولونيه:

- لقد وقع لها حادث.

تقف باري إلى جوار النافذة، وتنصت فيما يشرح لها الدكتور. تلف سلك التلفون حول إصبعها ثم تفرده وهو يحكي قصة زيارة والدتها للمستشفى، والجرح في الجبهة، والغُرز، والحقن الوقائي من التيتانوس، والعلاج اللاحق بالـ«بيروكسايد»، والمضادات الحيوية الموضعية، والضمادات. ومضة في عقل باري تجعلها تتذكر حين كانت في العاشرة، عندما عادت إلى المنزل ذات يوم من المدرسة فوجدت خمسة وعشرين فرنكًا ورسالة مكتوبة بخط اليد على طاولة المطبخ:

ذهبت إلى الألزاس مع مارك. تتذكرينه. سأرجع بعد يومين. كوني فتاة طيبة. (لا تسهري!).

أحبك.

ماما.

ظلت باري واقفة في المطبخ ترتعش، عيناها تغرورقان، تقول لنفسها إن يومين ليسا أمرًا خطيرًا، ليس فترة طويلة.

يسألها الدكتور سؤالًا.

- عفوًا؟

- كنت أقول هل ستأتين لاصطحابها إلى المنزل يا آنسة؟ الإصابة ليست خطيرة، أنت تفهمين، لكن ربما يحسن بها ألا تعود إلى المنزل وحدها. أو بإمكانك أن تتصلي لها بسيارة أجرة.

- لا. لا حاجة لذلك. سأكون هناك بعد نصف ساعة.

تجلس على السرير. سينزعج جوليان، بل وغالبًا سيشعر بالحرج أيضًا أمام كريستيان وأوريلي، اللذين يبدو أن رأيهما فيه يهمه كثيرًا. لا تريد باري أن تخرج إلى الردهة وتواجه جوليان. لا تريد أن تذهب إلى «كوربوفوا» وتواجه أمها أيضًا. ما تريد أن تفعله هو أن تتمدد، تصغي للريح وهي ترمي بحبات المطر إلى الزجاج حتى تروح في النوم.

تشعل سيجارة، ولا ترد على جوليان عندما يدخل الغرفة من خلفها ويقول:

- لن تأتي، أليس كذلك؟

* * *

مُجتزأ من «طائر أفغانستان المُغرِّد».

مقابلة مع نيلا وحدتي أجراها إتيان بوستوليه.

بارالاكس، العدد ٨٤ (شتاء ١٩٧٤)، صفحة ٣٣

بوستوليه: إذًا، ما أفهمه أنك، في الواقع، نصف أفغانية، نصف فرنسية؟

وحدتي: أمي كانت فرنسية، نعم. كانت باريسية.

بوستوليه: لكنها قابلت والدك في كابول. لقد ولدتِ هناك؟

وحدتي: نعم، تقابلا هناك عام ١٩٢٧، في

عشاء رسمي في القصر الملكي. كانت أمي بصحبة والدها - جدي - الذي كان قد أُرسل إلى كابول ليستشيره الملك «أمان الله» في إصلاحاته. هل تعرفه، أمان الله؟

نجلس في غرفة المعيشة في شقة نيلا وحدتي الصغيرة في الطابق الثلاثين من بناية سكنية في بلدة كوربوفوا، إلى الشمال الشرقي من باريس مباشرة. الغرفة صغيرة، وإضاءتها ضعيفة، وأثاثها قليل: كنبة مكسوة بلون الزعفران، طاولة قهوة، رفَّا كتب طويلان. تجلس وظهرها للنافذة التي كانت قد فتحتها لتهوية الدخان الناتج عن السجائر التي تشعلها بلا انقطاع.

نيلا وحدتي تحدد عمرها بأربعة وأربعين عامًا. وهي امرأة جذابة على نحو مدهش، ربما جاوزت ذروة جمالها لكن، مع ذلك، لم تتجاوزها كثيرًا. في عينيها ذكاء ودلال، ولها نظرة ثاقبة يشعر المرء أنها تقيِّمه، وتختبره، وتسحره، وتتلاعب به في آن. أظن أن عينيها ما تزالان أداة غواية رهيبة. لا تضع زينة على وجهها باستثناء أحمر شفاه، انحرفت لطخة منه قليلًا عن حدود فمها. تربط رأسها بمنديل، وترتدي بلوزة قرمزية حال لونها على بنطلون جينز، لا جوارب، ولا حذاء. ومع أن الوقت لم يتجاوز الحادية عشرة صباحًا، فإنها تصب النبيذ من زجاجة «شاردونيه» لم

تحرص على تبريدها. تلطفت وعرضت عليَّ كأسًا، ورفضتُ.

وحدتي: كان أفضل ملك من ملوكهم.

وجدتها ملاحظة شيقة بسبب اختيارها للضمير.

بوستوليه: ملوكهم؟ ألا تعتبرين نفسك أفغانية؟

وحدتي: لنقل إنني خلَّصت نفسي من نصفي الأكثر إزعاجًا.

بوستوليه: أشعر بالفضول لمعرفة السبب.

وحدتي: لو أنه نجح، أقصد الملك أمان الله، لكان من الممكن أن أجيب عن سؤالك بصورة مختلفة.

طلبت منها أن توضح.

وحدتي: تعرف، استيقظ الملك ذات صباح، وأعلن خطته لتحويل البلاد - ولو استدعى الأمر بعض الرفس والصراخ - إلى بلد جديد أكثر استنارة. قال: أقسم بالله! لا حجاب بعد اليوم. تخيَّل يا مسيو بوستوليه، امرأة في أفغانستان توقَف بسبب ارتدائها «البرقع»! عندما ظهرت زوجته، الملكة «ثريا»، بوجه مكشوف على الملأ؟ «واعجباه!» انتفخت رئات الملالي بشهقات تكفي لدفع الآلاف من مناطيد «هندِنبرج». وقال: لا تعدد زوجات بعد اليوم، تعرف أن هذا بلد اعتاد فيه الملوك على امتلاك جحافل من المحظيات ولا تقع أعينهم أبدًا على معظم

الأطفال الذين ينجبونهم في لحظة طيش. لقد أعلن أنه من الآن فصاعدًا لن يُسمح لرجل بإجبار امرأة على الزواج، ولا تسعير للعرائس، نساء أفغانستان الشجاعات، بعد اليوم، ولا زواج أطفال، وأكثر من ذلك: كلكم يجب أن تذهبوا إلى المدرسة.

بوستوليه: كان صاحب رؤية، إذًا.

وحدتي: أو أحمق. لطالما وجدت الخط بينهما رفيعًا على نحو خطير.

بوستوليه: ماذا حدث له؟

وحدتي: الإجابة مزعجة كما هي متوقعة يا مسيو بوستوليه. الجهاد بالطبع. لقد أعلن الملالي وزعماء القبائل عليه الجهاد. تصور ألف قبضة تنطلق نحو السماء. كان الملك قد زلزل الأرض، كما ترى، لكنه كان محاطًا بالمتعصبين، وأنت تعرف جيدًا ماذا يحدث عندما يرتجف قاع المحيط يا مسيو بوستوليه. تسونامي من المتمردين الملتحين انقضوا على الملك المسكين وحملوه، وهو يرفرف بذراعيه عاجزًا، وألقوه إلى الخارج على سواحل الهند، ثم إيطاليا، وأخيرًا سويسرا، حيث راح يزحف خارجًا من أوحاله، ومات في المنفى شيخًا كبيرًا ومخذولًا.

بوستوليه: والبلد الذي نتج عن ذلك؟ أعتقد أنه لم يكن يناسبك كثيرًا.

وحدتي: العكس هو الصحيح.

بوستوليه: وهذا هو سبب انتقالك إلى فرنسا عام ١٩٥٥.

وحدتي: لقد انتقلت إلى فرنسا لأنني أردت أن أنقذ ابنتي من حياة بعينها لا مفر منها.

بوستوليه: أي حياة تلك؟

وحدتي: لم أرد لها أن تتحول، بخلاف رغبتها وطبيعتها، إلى واحدة من أولئك النساء الكادحات البائسات اللاتي يجبرن على السير في طريق من العبودية الصاغرة يمتد طيلة حياتهن، ويعشن في خوف دامٍ من إظهار، أو قول، أو فعل الشيء الخطأ. النساء اللّاتي ينلن إعجاب البعض في الغرب - هنا في فرنسا على سبيل المثال - ويتحولن إلى بطلات بسبب حياتهن الشاقة، ينلن الإعجاب عن بُعد من جانب أناس لا يستطيعون تحمل ولو يوم واحد مما يعشن. نساء يرين رغباتهن تخمد وأحلامهن تُنبذ، ومع ذلك - وهذا هو أسوأ ما في الأمر يا مسيو بوستوليه - إذا قابلتهن، ابتسمن في وجهك، وتظاهرن بأنهن لا يعانين من أي هموم، وكأنما يخضن غمار حياة محتومة. لكنك تتمعن فيهن فترى النظرة العاجزة، واليأس، وكيف يكذِّب ذلك كل ما يتظاهرن به من انشراح النفس. إنه أمر بائس يا مسيو بوستوليه. لم أُرد ذلك لابنتي.

بوستوليه: أظنها تفهم كل هذا؟

تشعل سيجارة أخرى.

وحدتي: الأطفال لا يشبُّون أبدًا كما تأمل بالضبط يا مسيو بوستوليه.

* * *

في غرفة الطوارئ، تطلب مُمرِّضة سيئة الطباع من باري أن تنتظر بجوار مكتب التسجيل، بالقرب من حامل رفوف متحرك مملوء بحافظات الأوراق واستمارات بيانات المرضى. تندهش باري أن هناك من يضيعون شبابهم طوعًا وهم يتدربون على وظيفة تنتهي بهم إلى مكان مثل هذا. ما زالت لا تفهم هذا الأمر. إنها تحتقر المستشفيات، وتكره رؤية الناس في أسوأ حالاتهم، ورائحة المرض، وصرير النقالات، والممرات التي يعلقون على جدرانها لوحات باهتة، وأجهزة النداء الآلي المثبتة في الأسقف ولا تتوقف عن النداء.

يتبين أن الدكتور دولونيه أصغر مما توقعت باري. له أنف دقيق، وفم ضيق، وشعر أشقر مُتموِّج في موجات صغيرة. يخرج بها من غرفة الطوارئ، عبر باب مزدوج متأرجح، إلى الصالة الرئيسية.

يقول في صوت واثق:

- عندما وصلت والدتك، كانت في حالة سُكر. لا يبدو أنك تفاجأت.

- لم أتفاجأ.

- هذا ما حدث أيضًا مع عدد من المُمرِّضين. يقولون إنها زبونة دائمة هنا. أنا شخصيًّا حديث عهد هنا، بالطبع، ولم يسبق لي الشرف.

- إلى أي درجة كان الوضع سيئًا؟

يقول:

- كانت مُشاكسة جدًّا. ويمكنني القول إنها كانت تتصرف على نحو مسرحي.

تبادلا ابتسامة.

- هل ستكون على ما يرام؟

يقول الدكتور دولونيه:

- نعم، على المدى القصير. لكن يجب أن أوصي، وأؤكد على ذلك، أن تقلل من الشراب. لقد كانت محظوظة هذه المرَّة، لكن مَن يعرف المرَّة التالية...

تومئ باري برأسها.

- أين هي؟

يقودها إلى آخر غرفة الطوارئ وحول الزاوية:

- السرير رقم ثلاثة. سأعود بعد قليل مع تصريح الخروج.

تشكره باري وتمضي في طريقها إلى سرير أمها.

- تحياتي، ماما.

تبتسم ماما بتعب. شعرها مُشعث، وتضع جوربين غير متطابقين. لقد لفوا جبهتها بالضمادات، وثمة سائل شفاف يتقاطر في محقن وريدي متصل بذراعها اليسرى. ترتدي عباءة مستشفيات بطريقة عكسية ولم تربط أربطتها جيدًا. كانت العباءة مفتوحة قليلًا من الأمام، وتستطيع باري أن ترى جزءًا من الخط الرأسي الداكن السميك لندبة الولادة القيصرية القديمة في بطن ماما. كانت قد سألت ماما قبل بضع سنوات لماذا لا تحمل الندبة الأفقية

الاعتيادية، فشرحت لها أن الأطباء أعطوها سببًا فنيًّا ما وقتها لكنها لم تعد تتذكره، قالت:

- المهم أنهم أخرجوكِ.

تهمهم ماما:

- لقد أفسدتُ أُمسيتك.

- الحوادث تقع. لقد جئت لأصحبك إلى البيت.

- يمكنني أن أنام لأسبوع كامل.

يسقط جفناها، لكنها تواصل الكلام بطريقة بطيئة متلكئة:

- كنت جالسة أشاهد التلفزيون، وشعرت بالجوع، فذهبت إلى المطبخ لآتي ببعض الخبز والمربى. انزلقت. لا أعرف كيف ولا على أي شيء، لكن رأسي ارتطم بمقبض باب الفرن وأنا أسقط. أظن أنني قد أغمي عليَّ لدقيقة أو اثنتين. اجلسي يا باري، أنت تحجبين الرؤية عني.

تجلس باري.

- الطبيب قال إنكِ كنت تشربين.

تفتح ماما إحدى عينيها. اعتيادها على الأطباء لا يفوقه إلا كراهيتها لهم.

- هذا الصبي؟ هل قال هذا؟ **لو بيتي سالو** (هذا النذل الصغير). وماذا يعرف هو؟ ما زال لبن أمه يفوح من أنفاسه.

- كلما كلمتك في هذا الأمر، تقلبينها مزاحًا.

- أنا مُتعبَة يا باري. يمكنك أن تعنفيني في وقت آخر. الكرباج موجود يمكنك استعماله فيما بعد.

الآن تسقط في النوم. تشخر، بصورة غير جذابة، كما تفعل فقط بعد أن تفرط في الشراب.

تجلس باري على كرسي صغير بجانب الفراش، تنتظر الدكتور دولونيه، وهي تتصور جوليان على طاولة خافتة الإضاءة، وبيده قائمة الطعام، يشرح الأزمة لكريستيان وأوريلي وهم يمسكون بكؤوس نبيذ «البوردو» الطويلة. لقد عرض عليها أن يرافقها إلى المستشفى، لكن بلا حماس. مجرَّد مجاملة. وعلى أية حال، فإن مجيئه إلى هنا فكرة سيئة. ومع ذلك، ورغم أن الدكتور دولونيه ظنَّ أنه رأى أداء مسرحيًّا قبل قليل... وبغضِّ النظر عن عدم رغبتها في مجيء جوليان معها إلى المستشفى، فقد كانت تتمنى لو أنه لم يذهب إلى العشاء من دونها. ما زالت تشعر بقدر من الاندهاش لأنه ذهب. كان يمكن أن يشرح الأمر لكريستيان وأوريلي. كان بإمكانهم اختيار ليلة أخرى، تغيير الحجز. لكن جوليان ذهب. لم يكن مجرد تصرف مستهتر. لا. كان هناك شيء خبيث في هذه الخطوة، مُتعمَّد، جارح. لقد أدركت باري منذ بعض الوقت أن لديه القدرة على ذلك، لكنها أصبحت تتساءل في الآونة الأخيرة ما إذا كان يستمتع بهذا.

في غرفة طوارئ لا تختلف كثيرًا عن هذه الغرفة التقت ماما بجوليان للمرَّة الأولى. كان ذلك قبل عشرة أعوام، سنة ١٩٦٣، عندما كانت باري في الرابعة عشرة. كان قد أوصل بسيارته زميلًا له مُصابًا بصداع نصفي، وقد جاءت هي بباري، المريضة في ذلك الوقت، وقد التوى كاحلها بقوة في أثناء تمرين الجمباز في المدرسة. كانت باري ممددة في عباءة عندما دفع جوليان كرسيه

إلى الغرفة وبدأ حديثًا مع ماما. لا تستطيع باري أن تتذكر الآن ما الذي دار بينهما، لكنها تتذكر جوليان وهو يقول:

- باري... مثل باريس؟

وجاء الرد المُعتاد من ماما:

- لا، من دون حرف الـ«إس». إنه يعني «حورية» بالفارسية.

قابلتاه على العشاء في ليلة ممطرة في وقت لاحق من ذاك الأسبوع في مطعم صغير متفرع من «بوليفار سان جيرمان». قبل نزولهما، كانت ماما قد بدأت عرضًا مطولًا من التردد بشأن ما يجب أن ترتديه، واستقرت في النهاية على فستان أزرق باهت، بخصر ضيق، وقفاز سهرة، وحذاء بكعب عال ومقدمة حادة. ومع ذلك، حين استقلا المصعد، قالت لباري:

- هل أبدو في هذه الملابس مُفرطة في التأنق، على طريقة «جاكلين كنيدي»؟ ما رأيك؟

قبل العشاء دخنوا، ثلاثتهم، وطلبت ماما وجوليان البيرة في أكواب مثلجة كبيرة الحجم. أنهيا الجولة الأولى، وطلب جوليان جولة أخرى، ثم ثالثة. كان جوليان، في قميصه الأبيض، وربطة عنقه، وسترته المسائية المربعات، يتصرف بدماثة ورزانة تنم عن رجل من أصل طيب. كان يبتسم ببساطة ويضحك من دون جهد. وكانت لديه وخطة شيب عند صدغيه، لم تلاحظها باري في الإضاءة الخافتة لغرفة الطوارئ، وقدَّرت أنه يماثل ماما في العمر تقريبًا. كان مُطلعًا اطلاعًا جيدًا على الأحداث، وقضى بعض الوقت في الكلام عن «فيتو ديجول» ضد دخول إنجلترا في السوق المشتركة. ولدهشة باري، فقد جعل جوليان الحديث حول الأمر

شيقًا. ولم يفصح، إلا بعد أن سألته ماما، عن كونه قد بدأ تدريس الاقتصاد في السوربون.

- أستاذ جامعي؟ شيء مُبهر.

قال:

- حسنًا، ليس كثيرًا. يجب أن تحضري ذات مرَّة. عندها ستشفين سريعًا من تلك الفكرة.

- ربما أحضر.

كانت باري ترى أن ماما قد ثملت بالفعل.

- ربما أتسلل وأحضر ذات يوم، وأشاهد الإثارة.

- إثارة؟ تذكَّري أنني أُدرِّس نظرية الاقتصاد يا نيلا. إذا جئتِ، فإنك ستعرفين شيئًا واحدًا، هو أن طلابي يسخرون مني.

- أشك في ذلك.

باري أيضًا كانت تشك في ذلك. خمنت أن عددًا كبيرًا من الطالبات عند جوليان كُن يرغبن في النوم معه. على العشاء، كانت حريصة ألا تُضبط وهي تنظر إليه. بدا لها وجهه وكأنه خرج لتوه من أحد أفلام هوليوود الكلاسيكية، وجهٌ خُلق ليصور بالأبيض والأسود، يتقطع عليه الضوء المنسل من فتحات الستائر الفينيسية، وإلى جانبه يتصاعد متلويًّا خيط من دخان سيجارة. سقطت خصلة شعر مقوسة على جبهته، بلطف بالغ - لطف زائد عن الحد، ربما. وإذ كانت، في واقع الأمر، تتأرجح هناك من دون حساب، فقد لاحظت باري أنه لم يشغل باله بإرجاعها إلى مكانها.

سأل ماما عن المكتبة الصغيرة التي كانت تمتلكها وتُديرها.

كانت على الضفة الأخرى من نهر السين، على الجانب الآخر من «بون داركول».

- هل لديكِ كتب عن موسيقى الجاز؟

قالت ماما:

- نعم، بالتأكيد.

تعالى صوت المطر في الخارج، وصار المطعم أكثر صخبًا. وفيما كان النادل يأتي لهم بكرات الجبن وأسياخ لحم الخنزير، جرت بين ماما وجوليان مناقشة مطولة حول «بَد باويل»، و«سوني ستيت»، و«ديزي جيلسبي»، والمُغني المفضَّل لدى جوليان، «تشارلي باركر». قالت ماما لجوليان إنها تحب أكثر أساليب الساحل الغربي التي يُمثلها «تشيت بيكر» و«مايلز ديفيز»، هل استمع إلى أغنية «كايند أوف بلو». دهشت باري حين رأت أن ماما تحب الجاز بهذا القدر، وأنها مطلعة بهذا القدر على هذا العدد من الموسيقيين. لقد صُدمت، وليس للمرَّة الأولى، بشعور مزدوج، إعجاب طفولي بماما وشعور مُربك بأنها لا تعرف أمها حقًّا على نحو كامل. ما لم يدهشها كان غواية ماما السلسة والصريحة لجوليان. كانت تلك لعبتها، حيث لم تجد قَطُّ مشكلة في اجتذاب انتباه الرجال. كانت تستحوذ عليهم.

راحت باري تراقب ماما وهي تُدندن بمرح، تُقهقه على نِكات جوليان، تميل برأسها وتدوِّر بشرود خصلة من شعرها. تعجبت ثانية كيف كانت ماما شابة وجميلة - ماما، التي كانت أكبر منها بعشرين عامًا فقط. شعرها الداكن الطويل، وصدرها الممتلئ، وعيناها المبهرتان، ووجه يشرق ببريق مهيب من ملامح ملوكية

كلاسيكية. تعجبت باري من الشبه الضئيل بينها وبين ماما، بعينيها الشاحبتين الجديتين، وأنفها الطويل، وابتسامتها التي تكشف عن أسنان متباعدة، ونهديها الصغيرين. إن كانت تتمتع بأي جمال، فقد كان من النوع الاعتيادي المتواضع. حين تكون باري بصحبة أمها تتذكر دائمًا أن هيئتها نُسجت من قماش عادي. في بعض الأوقات، كانت ماما نفسها هي التي تُذكِّرها بذلك، مع أن تلك التذكرة تتخفى دائمًا في حصان طروادة جُبل من إطراء ومديح.

كانت تقول:

- أنت محظوظة يا باري، لن يكون عليك أن تبذلي جهدًا كبيرًا لكي يأخذك الرجال على محمل الجد. سوف ينتبهون إليك. الجمال الزائد يفسد الأمور.

وكانت تواصل ضاحكة:

- حقًّا، صدقيني. لا أقول إنني أتكلم عن خبرة. بالطبع لا. لكنها مجرد ملاحظات.

- هل تقولين إنني لست جميلة؟

- أقول إنك لست بحاجة إلى ذلك، ثم إنك حسناء، وهذا يكفي ويزيد. **جو تاسير ما شيري** (أنا متأكدة يا حبيبتي). بل هو أفضل.

كانت باري تعتقد أنها لا تشبه والدها كثيرًا أيضًا. لقد كان رجلًا طويلًا بوجه جاد، وجبهة عالية، وذقن ضيق، وشفتين رفيعتين. كانت تحتفظ ببضع صور له في غرفتها من أيام طفولتها في منزل كابول. كان قد سقط مريضًا في ١٩٥٥- وهو الوقت الذي انتقلت فيه هي وماما إلى باريس - ومات بعدها بقليل. أحيانًا

كانت تجد نفسها تحدق في واحدة من صوره القديمة، وخصوصًا صورة بالأبيض والأسود لهما معًا، هي ووالدها، يقفان أمام سيارة أمريكية قديمة. كان هو يستند على مقدمة السيارة وهي بين ذراعيه، وكلاهما يبتسمان. تتذكر حين جلست معه مرَّة وهو يرسم لها زرافات وقرودًا ذوات أذيال طويلة على بابي خزانة الملابس. لقد تركها تُلوِّن أحد القرود، وهو يمسك بيدها، ويوجه ضربات الفرشاة بأناة.

رؤية باري لوجه والدها في تلك الصور حرَّكت فيها إحساسًا قديمًا، شعورًا ظل يراودها لا تتذكر منذ متى. إن حياتها تفتقر إلى شيء ما، أو شخص ما، أساسي لوجودها. أحيانًا يكون الأمر غامضًا، مثل رسالة أُرسلت عبر طرق جانبية مُظلمة ومسافات شاسعة، إشارة ضعيفة على مؤشر محطات الراديو، بعيدة، متذبذبة. في أحيان أخرى تشعر بهذا الغياب واضحًا، قريبًا جدًّا لدرجة تجعل قلبها ينقبض. مثلًا: قبل عامين في مدينة «بروفينس» عندما رأت شجرة بلوط هائلة أمام بيت المزرعة. ومرَّة أخرى في «جاردان دي تويليري» عندما شاهدت أمًّا شابة تسحب ابنها في عربة أطفال صغيرة حمراء من إنتاج «راديو فلاير». لم تفهم باري. قرأت قصة ذات مرَّة عن رجل تركي في منتصف العمر كان قد سقط فجأة في اكتئاب عميق عندما أُصيب توأمه، الذي لم يعرف قَطُّ بوجوده، بأزمة قلبية قاتلة وهو يتنزه في زورق في غابة الأمازون المطيرة. هذا أقرب شيء توصل إليه أي إنسان للتعبير عما كانت تشعر به.

وقد تحدثت إلى ماما ذات مرَّة عن هذا الأمر.

قالت ماما:

- حسنًا. الأمر ليس غامضًا إلى هذه الدرجة، حبيبتي. أنت تفتقدين والدك. لقد رحل عن حياتك. أمر طبيعي أن تشعري مثل هذا الشعور. وهذه هي كل المسألة. تعالي. أعطي قُبلة لماما.

كانت إجابة أمها معقولة جدًّا، لكنها غير مُرضية. فباري تؤمن حقًّا أنها ستشعر باكتمال أكبر لو كان والدها قد ظل على قيد الحياة، لو كان هنا معها. لكنها أيضًا تذكرت أنها كانت تشعر بهذه المشاعر حتى وهي طفلة، تعيش مع والديها في بيت كبير في كابول.

بُعيد أن انتهوا من تناول طعامهم، استأذنت ماما للذهاب إلى حمَّام المطعم، وظلت باري وحيدة لبضع دقائق مع جوليان. تكلما عن فيلم كانت باري قد شاهدته الأسبوع السابق، تلعب فيه «جان مورو» دور مُقامرة، وتكلَّما عن المدرسة والموسيقى أيضًا. عندما تتكلم، كان هو يريح مرفقيه على الطاولة ويميل قليلًا في اتجاهها، مُنصتًا باهتمام كبير، وعلى وجهه ابتسامة وتكشيرة في آن، من دون أن يرفع عينيه عنها. قالت باري لنفسها إنه استعراض، إنه يتظاهر وحسب. تصرف أنيق، شيء ابتدعه من أجل النساء، شيء اختار أن يفعله الآن من وحي اللحظة، أن يتلاعب بها قليلًا ويُسلي نفسه على حسابها. مع ذلك، وتحت نظراته التي لا تحيد، لم تستطع أن تمنع نبضها من التسارع وبطنها من الانقباض. وجدت نفسها تتحدث بنبرة سخيفة، مُتثاقفة على نحو مُتصنع، نبرة لا تُشبه الطريقة التي تتحدث بها في المعتاد. كانت تعرف أنها تفعل ذلك، ولم تستطع أن تتوقف.

أخبرها بأنه كان متزوجًا من قبل، زواجًا قصيرًا.

- حقًّا؟

- قبل بضعة أعوام. عندما كنت في الثلاثين. كنت أعيش وقتها في «ليون».

كان قد تزوج امرأة أكبر منه سنًّا، ولم يستمر الزواج بسبب نزوعها الشديد إلى تملُّكه. لم يكشف جوليان هذا الأمر عندما كانت ماما ما تزال على الطاولة. قال:

- كانت علاقة جسدية، في الحقيقة. **سيتيه كومبليتيمو سيكسويل**. كانت تريد أن تتملَّكني.

كان ينظر إليها وهو يقول ذلك ويبتسم شبه ابتسامة فتَّاكة، وهو يقيس ردة فعلها بحرص. أشعلت باري سيجارة وتصنعت اللامبالاة، على طريقة «بريجيت باردو»، وكأنما كان هذا ما يقوله لها الرجال طوال الوقت. لكن، من داخلها، كانت ترتعد. كانت تعرف أن ثمة خيانة صغيرة قد ارتُكبت على الطاولة، فعلًا غير مشروع نوعًا ما، ليس مأمونًا تمامًا، ولكنه مُثير على نحو لا يُنكر. عندما عادت ماما، وقد ضبطت تسريحة شعرها ووضعت طبقة جديدة من طلاء الشفاه، انقطعت لحظتهما المسروقة، وشعرت باري باستياء لفترة زمنية قصيرة من أمها على تلك المقاطعة، ثم عادت على الفور وندمت على ذلك الشعور.

رأته ثانية بعد أسبوع أو نحو ذلك. كان الوقت صباحًا، وكانت متوجهة إلى غرفة ماما حاملة قدحًا من القهوة. وجدته جالسًا على طرف سرير ماما، يحرك برغيّ ساعة يده. لم تكن تعرف أنه قد بات عندهم تلك الليلة. رأته من الصالة، عبر فتحة الباب. وقفت مكانها، مُثبتة إلى الأرض، والقدح في يدها، تشعر بمذاق في فمها وكأنها قد مصَّت كتلة من الطين الجاف، وراقبته: بشرة ظهره

الصافية، وكرشه الصغيرة، والجزء المظلم بين ساقيه وقد احتجب جزئيًّا خلف كرمشة الملاءات. شبك ساعته حول معصمه، وتناول سيجارة من على طاولة الفراش، وأشعلها، ثم التفت إليها بنظرة عابرة وكأنما كان يعرف أنها هناك طيلة الوقت. منحها ابتسامة بفم مُطبق. ثم قالت ماما شيئًا من أسفل «الدُّش»، واستدارت باري على عقبيها. كانت أعجوبة أنها لم تحرق نفسها بالقهوة.

استمرت ماما وجوليان عاشقين لنحو ستة أشهر. كانا يذهبان إلى السينما كثيرًا، إلى المتاحف، ومعارض الفن الصغيرة التي تعرض أعمالًا لرسامين مغمورين مكافحين بأسماء أجنبية. وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع، استقلا السيارة إلى شاطئ في «أركاشون»، بالقرب من «بوردو»، وعادا بوجهين مُسمرَّين وحقيبة من النبيذ الأحمر. كان جوليان يصحبها إلى فعاليات الكلية في الجامعة، وكانت ماما تدعوه لقراءات المؤلفين في المكتبة. في البداية كانت باري ترافقهما - طلب منها جوليان ذلك، وهو ما أسعد ماما فيما يبدو - لكنها سرعان ما بدأت تختلق الأعذار لتبقى في المنزل. لم تكن لتذهب. لم تستطع. كان أمرًا لا يُحتمل. تقول إنها مُرهقة جدًّا، أو إنها مُعتلة، أو إنها ستذهب إلى منزل صديقتها «كوليت» للمُذاكرة. كانت كوليت، صديقتها منذ الصف الثاني، فتاة نحيلة جدًّا يبدو عليها الوهن، بشعر طويل خفيف، وأنف مثل منقار الغراب. وكانت تحب أن تصدم الناس وتقول أشياء شنيعة وفاضحة.

قالت كوليت:

- أُراهن أنه مُحبَط، لأنك لم تخرجي معهما.

- إذا كان مُحبطًا، فهو لا يُصرِّح بذلك.

- لن يُصرِّح، أليس كذلك؟ وأمك، ما رأيها؟

- رأيها في ماذا؟

قالتها باري، مع أنها كانت تعرف، بالطبع. كانت تعرف وتريد أن تسمع الكلمة تُقال.

- في ماذا؟

كانت نبرة كوليت ماكرة ومُنفعلة.

- في أنه يُرافقها لكي يصل إليكِ. في أنه يريدكِ أنت.

قالت باري مُضطربة:

- هذا مُقزز!

- أو ربما يريدكما معًا. ربما يُحب الجماعية في الفراش. في تلك الحالة، قد أطلب منكِ أن تذكريني عنده بالخير.

- أنت مُقززة يا كوليت.

أحيانًا عندما تخرج ماما مع جوليان، تقوم باري بخلع ملابسها في الصالة وتنظر إلى نفسها في المرآة الطويلة. كانت تجد عيوبًا في جسدها. ترى أنه طويل جدًّا جدًّا، ويفتقر إلى الثنيات جدًّا، و... وظيفي جدًّا. لم ترث شيئًا من انحناءات أمها الخلابة. أحيانًا كانت تمشي هكذا، عارية، إلى غرفة أمها وتتمدد على السرير حيث تعرف أن ماما وجوليان يُمارسان الحب. تتمدد باري هناك عارية تمامًا بعينين مُغمضتين، وقلب يدق، تتنعم في طيشها، ويسري شيء مثل الطنين في صدرها، وفي بطنها، وإلى أسفل أكثر وأكثر.

وانتهى الأمر بالطبع. انتهى أمر ماما وجوليان. استراحت باري لكنها لم تُفاجأ. كان الرجال يخذلون ماما دائمًا في النهاية. يتبين

دائمًا أنهم لا يرقُون إطلاقًا إلى المثال الذي رفعتهم إليه. وما بدأ بفيض من الشغف ينتهي دائمًا باتهامات موجزة، وبكلمات شنيعة، وبنوبات من الغضب والبكاء، وآنية تتطاير وانهيار. دراما كبيرة. لم تكن ماما قادرة لا على بدء أي علاقة ولا على إنهائها من دون تطرف.

ثم تأتي الفترة المتوقعة، حيث تميل ماما فجأة إلى العُزلة. تبقى في السرير، مرتدية معطف مطر قديمًا على منامتها، وجودًا مُنهكًا وكئيبًا لا يبتسم في الشقة. أدركت باري أن عليها تركها لحالها، إذ كانت محاولاتها للمواساة والرفقة غير مُرحَّب بها. فذلك المزاج يستمر لأسابيع. ومع جوليان، استمر أطول كثيرًا.

الآن تقول ماما:

- بئس الحظ.

تجلس في الفراش، ما تزال في عباءة المستشفى. كان الدكتور دولونيه قد سلَّم باري تصريح الخروج، والمُمرِّضة تنزع المحقن الوريدي عن ذراع ماما.

- ما الأمر؟

- تذكرت الآن. لديَّ مقابلة بعد يومين.

- مقابلة؟

- موضوع لمجلة شعر.

- هذا أمر رائع يا ماما.

تُشير إلى الغُرز في جبينها:

- سوف ينشرون صورة مع الموضوع.

تقول باري:

- أنا متأكدة أنك ستجدين طريقة أنيقة لإخفائها.

تتنهَّد ماما، وتشيح ببصرها. عندما تنزع المُمرِّضة الإبرة من ذراعها، تجفل ماما وتصيح في المرأة بكلمة خبيثة وغير مُستحقة.

* * *

مجتزأ من «طائر أفغانستان المُغرِّد».

مقابلة مع نيلا وحدتي، أجراها إتيان بوستوليه.

بارالاكس، العدد ٨٤ (شتاء ١٩٧٤)، صفحة ٣٦

أنظر حولي في أرجاء الغرفة ثانية فتلفت انتباهي صورة فوتوغرافية داخل إطار على أحد رفوف الكتب. إنها صورة لفتاة صغيرة تقرفص في حقل من الشجيرات البرية، مُنغمسة تمامًا في التقاط شيء ما، نوع من الثمار البرية. إنها ترتدي معطفًا أصفر فاتحًا، مُزررًا إلى العنق، يتباين لونه مع السماء المكفهرة بلونها الرمادي الداكن في الأعلى. في الخلفية، ثمة منزل ريفي حجري بستائر خشبية مُغلقة وقرميد خشبي مُتهالك. أسألها عن الصورة.

وحدتي: ابنتي باري، مثل اسم العاصمة الفرنسية ولكن بدون «إس» في آخر الكلمة، إنها تعني «حورية». هذه الصورة من رحلة قمنا بها إلى «نورماندي»، نحن الاثنتين. كان ذلك في عام ١٩٥٧ على ما أظن. كانت في الثامنة من عمرها غالبًا.

بوستوليه: هل تعيش في باريس؟

وحدتي: إنها تدرس الرياضيات في السوربون.

بوستوليه: لا بد أنك فخورة بها.

تبتسم وتهز كتفيها.

بوستوليه: أنا مُندهش قليلًا من اختيارها لهذا المسار، بينما كرَّست أنت نفسك للفن.

وحدتي: لا أعرف من أين تأتي بهذه المقدرة. كل تلك التراكيب والنظريات المُستعصية على الفهم. أظن أنها غير مُستعصية عليها. عن نفسي، لا أكاد أحفظ جدول الضرب.

بوستوليه: ربما كانت تلك طريقتها في التمرد. أعتقد أنكِ أنت نفسكِ تعرفين شيئًا أو اثنين عن التمرد.

وحدتي: نعم، لكنني فعلت ذلك بالطريقة الصحيحة. كنت أشرب وأُدخن وأتخذ عُشاقًا. مَن ذا الذي يتمرد بالرياضيات؟!

تضحك.

وحدتي: ثم إنها ستكون مضرب المثل للمُتمرد الذي ليست له قضية. لقد منحتُها كل حرية تتخيَّلها. لم تحتج ابنتي إلى أي شيء. لا ينقصها شيء. إنها تعيش مع رجل، وهو أكبر منها بعض الشيء، شديد الجاذبية، مُثقف، مُسلٍّ، فائق النرجسية بالطبع؛ لديه «أنا» بحجم بولندا.

بوستوليه: أنت لا توافقين.

وحدتي: سواء وافقت أو لم أوافق لا يهم. نحن في فرنسا يا مسيو بوستوليه، لا في أفغانستان. لا يعيش الشباب ولا يموتون بختم الموافقة الأبوية.

بوستوليه: إذًا، ليس لابنتك روابط بأفغانستان؟

وحدتي: لقد غادرنا عندما كانت في السادسة. ذكرياتها عن حياتها هناك محدودة.

بوستوليه: لكن ذلك ليس حالكِ، بالتأكيد؟

أسألها أن تحكي لي عن بواكير حياتها.

تستأذن، وتغادر الغرفة للحظات. عندما تعود، تناولني صورة قديمة مكرمشة بالأبيض والأسود. رجل تبدو عليه القسوة، قوي البنية، يضع نظارة، شعره لامع ومُمشط ومفروق فرقًا نموذجيًّا. يجلس خلف مكتب، يقرأ كتابًا. إنه يرتدي بدلة ذات طيَّة مزدوجة، وصديريًّا بصفين من الأزرار، وقميصًا أبيض عالي الرقبة وربطة عنق.

وحدتي: أبي. ١٩٢٠. عام مولدي.

بوستوليه: يبدو مُميزًا جدًّا.

وحدتي: كان ينتمي إلى أرستقراطية البشتون في كابول، تعلَّم تعليمًا عاليًا، أخلاقه لا تشوبها شائبة، اجتماعي على نحو لائق، حكَّاء عظيم أيضًا. على الأقل على الملأ.

بوستوليه: وفي البيت؟

وحدتي: هل تريد أن تُخمن يا مسيو بوستوليه؟

أتناول الصورة وأنظر إليها ثانية.

بوستوليه: سأقول إنه انعزالي، وجاد، وعنيد.

وحدتي: أنا أُصر حقًّا على أن تتناول كأسًا معي. أنا أكره - لا، أنا أحتقر - أن أشرب بمفردي.

تصب كأسًا من «الشاردونيه». أتناول رشفة من قبيل التهذيب.

وحدتي: كانت يدا والدي باردتين، بغض النظر عن الطقس. كانت يداه باردتين على الدوام، يرتدي بدلة دائمًا، أيضًا بغض النظر عن الطقس. بدلة مُفصلة على مقاسه بدقة، بطيَّات حادة. وقبعة «فيدورا» أيضًا. وحذاء مطرزًا، بالطبع، بدرجتين لونيتين. أعتقد أنه كان وسيمًا، وإن بطريقة وقور، وأيضًا - وهو ما لم أفهمه إلا بعدها بوقت طويل - بطريقة مُتصنعة، سخيفة نوعًا، مُتشبهة بالأوروبيين - تكملها بالطبع مباريات بولينج العشب والبولو كل أسبوع، والزوجة الفرنسية المُشتهاة، كل ذلك يرفع حظوته لدى الملك التقدمي الشاب.

تقرض أحد أظافرها ولا تقول شيئًا لبرهة. أقلب الشريط في مسجلي.

وحدتي: كان أبي ينام في غرفته، وأنا وماما في غرفتنا. معظم الأيام، كان يتناول الغداء في الخارج مع وزراء الملك ومستشاريه، أو يخرج لركوب الخيل، أو لعب البولو، أو الصيد. كان يعشق الصيد.

بوستوليه: إذًا لم تكوني ترينه قريبًا. كان الحاضر الغائب.

وحدتي: ليس تمامًا. كان يحرص كل يومين على أن يقضي معي بضع دقائق. يدخل غرفتي ويجلس على سريري، وكانت تلك بمنزلة إشارة لي لكي أصعد إلى حِجره. يلاعبني على رُكبتيه لبعض الوقت، من دون أن نتكلم، وفي النهاية كان يقول «حسنًا، ماذا نفعل الآن يا نيلا؟». أحيانًا كان يسمح لي بأن أسحب المنديل من جيب صديريته ويتركني أطويه. بالطبع كنت فقط أكوِّره وأحشره في جيبه، ويتصنَّع هو تعبير دهشة تهكميًّا، وهو ما كنت أجده مُضحكًا جدًّا. ونظل نفعل هذا حتى يمل، وهو ما لا يستغرق وقتًا طويلًا. ثم يربت على شعري بيديه الباردتين ويقول «بابا يجب أن يمضي الآن، يا غزالتي. انزلي».

تُعيد الصورة الفوتوغرافية إلى الغرفة الأخرى ثم تعود، تُخرج علبة سجائر جديدة من أحد الأدراج وتُشعل سيجارة منها.

وحدتي: كان هذا هو الاسم الذي يُدللني به، وكنت أحبه. أتقافز في أرجاء الحديقة - كانت لنا حديقة كبيرة جدًّا - وأنا أنشد «أنا غزالة بابا! أنا غزالة بابا!». ولم أُدرك إلا بعد وقت طويل كم كان هذا التدليل مشؤومًا.

بوستوليه: عفوًا؟

تبتسم.

وحدتي: كان بابا يصطاد الغزلان يا مسيو بوستوليه.

***

كان يمكنهما أن يقطعا الشوارع القليلة إلى شقة ماما سيرًا على الأقدام، لكن الأمطار كانت تهطل بغزارة. في التاكسي، تجلس ماما متكورة على نفسها في المقعد الخلفي، مغطاة بمعطف باري الواقي من المطر، تحدق من النافذة من دون أن تنطق بكلمة. تبدو مُسنة في عيني باري في تلك اللحظة، أكبر بكثير من أعوامها الأربعة والأربعين. مُسنة وهشة ونحيلة.

لم تدخل باري شقة ماما منذ فترة. عندما تدير المفتاح وتدخلان، ترى منضدة المطبخ وقد تبعثرت عليها أكواب نبيذ مُتسخة، وأكياس مفتوحة من رقائق البطاطا، وباستا غير مطهوة، وصحون بها فتات طعام، من الصعب تحديد هويَّته، تحوَّل إلى أشياء متحجرة في تلك الصحون. ثمة كيس ورقي مكدس بزجاجات النبيذ الفارغة موضوع على الطاولة، قريب من الحافة ويوشك على السقوط. ترى باري جرائد على الأرض، إحداها تشرَّبت الدم النازف في وقت سابق من اليوم، وعليها فردة جورب صوفي وردي. يؤلم باري أن ترى أمها تعيش في مكان على تلك الحالة، وتشعر بالذنب أيضًا. وقد يكون هذا هو التأثير المطلوب، مع الوضع في الحسبان ما تعرفه عن ماما. ثم تنزعج من تفكيرها في هذا. إنها من نوعية الأفكار التي قد ترد ببال جوليان. **إنها تريدك**

أن تشعري بالاستياء. كان قد قالها لها عدة مرَّات على مدار السنة الأخيرة. **تريدك أن تشعري بالاستياء.** عندما قالها للمرَّة الأولى، شعرت باري بالراحة، بأن هناك مَن يفهمها. شعرت بالامتنان له لأنه قام بتوصيف ما عجزت، أو أحجمت، عن توصيفه. ظنت أنها وجدت حليفًا. لكن، هذه الأيام، أصبحت تتساءل. أصبحت تلتقط في كلماته بريقًا من وضاعة. غيابًا مُزعجًا للتعاطف.

تتناثر على أرضية غرفة النوم قطع من الملابس، وشرائط التسجيل، والكتب، والمزيد من الجرائد. على عتبة النافذة ثمة كوب نصف ممتلئ بمياه اصفرت من أعقاب السجائر التي تطفو فيها. بيدها، تطيح بالكتب والمجلات القديمة عن الفراش وتساعد ماما على الدخول أسفل البطانيات.

ترنو ماما إليها، وظهر يدها يستند على جبهتها المربوطة. تجعلها تلك الوضعية أشبه بممثلة في فيلم صامت على وشك الإغماء.

- هل ستصبحين على ما يرام يا ماما؟

تقول:

- لا أظن.

لا يبدو من نبرتها أنها تستجدي الاهتمام. تقول ماما تلك الكلمات بصوت محايد مُضجَر. تخرج الكلمات منها مُتعبة، وصادقة، وحاسمة.

- أنت تخيفينني يا ماما.

- هل ستغادرين الآن؟

- تريدينني أن أبقى؟

- نعم.
- إذن سأبقى.
- أطفئي النور.
- ماما؟
- نعم.
- هل تتناولين حبوبك؟ هل توقفت؟ أظنك توقفت. أنا قلقة.
- لا تبدئي هذه السيرة. أطفئي النور.

تُطفئ باري النور. تجلس على حافة السرير وتراقب أمها وهي تروح في النوم. ثم تتوجه إلى المطبخ لتبدأ مهمة التنظيف المهيبة. تجد قفازًا وتبدأ بالصحون. تغسل أكوابًا تنبعث منها رائحة حليب تحمَّض منذ زمن، وأقداحًا تكلَّست على جدرانها بقايا حبوب قديمة، وصحونًا بها بقايا طعام اختلطت بها رُقع من الفطريات الخضراء ذات القوام القطني. تتذكر المرَّة الأولى التي غسلت فيها الصحون في شقة جوليان في الصباح الذي تلا الليلة الأولى التي ناما فيها معًا. كان جوليان قد أعد لهما أومليت. كيف تلذذت بهذا العمل المنزلي البسيط؛ غسيل الصحون في مغسلته، وهو يشغل أغنية لـ«جين بيركين» على جهاز الأسطوانات.

كانت قد أعادت صلتها به في العام الماضي، في ١٩٧٣، للمرَّة الأولى بعد ما يقرب من عقد كامل. كانت قد صادفته في مسيرة أمام السفارة الكندية، احتجاج طلابي على اصطياد الفقمات. لم ترغب باري في الذهاب، كما كان لديها بحث عن «الدوال جزئية الشكل» عليها أن تُنهيه، لكن كوليت أصرَّت. كانتا تعيشان معًا في تلك الفترة، وهو ترتيب كان يثبت يومًا بعد يوم إزعاجه

لكلتيهما. في تلك الفترة كانت كوليت تُدخن الحشيشة، وتربط رأسها بعصابات، وترتدي أردية أرجوانية فضفاضة عليها طيور وأقحوانات، وتأتي إلى المنزل بفتية لهم مظهر أشعث وشعور طويلة يأكلون طعام باري ويعزفون على الجيتار بشكل سيِّئ. كانت كوليت تدور في الشوارع طوال الوقت، تصرخ، تدين القسوة ضد الحيوانات، والعنصرية، والعبودية، والتجارب النووية الفرنسية في المحيط الهادئ. ثمة همهمة دائمة لا تنقطع في الشقة، أناس لا تعرفهم باري يلفون ويدورون دخولًا وخروجًا. وعندما تصبحان وحدهما، كانت باري تشعر بتوتر جديد بينهما، غطرسة من جانب كوليت، واستنكار صامت من جانبها.

- إنهم يكذبون.

قالتها كوليت بحماسة.

- يقولون إن أساليبهم إنسانية. إنسانية! هل رأيت ماذا يستخدمون لضربها على الرؤوس؟ عصا «الهاكابيك» ذات الرؤوس الحديدية المُدببة؟ في نصف الحالات لا تكون تلك الحيوانات المسكينة قد ماتت بعد، وأولاد الحرام هؤلاء يغرسون خطاطيفهم فيها ويرفعونها إلى المركب. يسلخونها حية يا باري. حية!

الطريقة التي قالت بها كوليت تلك العبارة الأخيرة، الطريقة التي أكدت بها عليها، جعلت باري ترغب في الاعتذار. علامَ؟ لم تكن متأكدة، لكنها كانت تعرف أن وجودها بالقرب من كوليت، في تلك الأيام، بكل ما توجهه من لوم وكل نوبات غضبها، يستنزف الهواء من صدرها.

لم يظهر أكثر من ثلاثين شخصًا تقريبًا. سرت شائعة أن

بريجيت باردو ستظهر، لكن تبيَّن أنها هكذا، مجرد شائعة. أُصيبت كوليت بالإحباط من الحضور القليل، ودار جدال مُحتدم بينها وبين شاب شاحب نحيل يضع نظارة اسمه «إريك»، فهمت باري أنه كان مسؤولًا عن تنظيم المسيرة. يا لإريك المسكين! أشفقت باري عليه. وأخذت كوليت زمام القيادة وهي ما تزال تتميَّز غيظًا. شقت باري طريقها بصعوبة في اتجاه المؤخرة، بالقرب من فتاة ذات صدر مُسطح كانت تهتف ببعض الشعارات بنوع من الابتهاج المتوتر. أبقت باري عينيها على الرصيف وحاولت بقدر الإمكان أن لا تظهر للعيان.

عند ناصية أحد الشوارع، نقر رجل على كتفها:

- يبدو أنك تتحرَّقين شوقًا لمن يُنقذك.

كان يرتدي سترة من التويد على سويتر، وبنطلون جينز، ووشاحًا من الصوف. شعره كان أطول، وقد تقدَّم في السن قليلًا، لكن بطريقة أنيقة، بطريقة قد تجدها بعض النساء في سنه غير عادلة بل ومثيرة للسخط. لا يزال رشيقًا وفي كامل لياقته، تجعيدتان عند رُكني العينين، مساحة أكبر قليلًا من المشيب عند الصدغين، وعلى وجهه مسحة خفيفة من الإجهاد.

قالت:

- هذا صحيح.

تبادلا قُبلات على الخدين، وعندما سألها إذا كانت تريد أن تتناول القهوة معه، وافقت.

- صديقتك تبدو غاضبة. غاضبة على نحو قاتل.

نظرت باري خلفها، ورأت كوليت تقف مع إريك، ما تزال

تهتف وتلوح بقبضتها أيضًا، عبثًا، وهي تحدق فيهما. كتمت باري ضحكة - إذ كان ذلك سيتسبب في ضرر يستعصي على الإصلاح. هزَّت كتفيها مُعتذرة وانسلت مُبتعدة.

ذهبا إلى مقهى صغير وجلسا إلى طاولة بجوار النافذة. طلب لكل منهما قهوة وكاسترد وملفيه. راقبته باري وهو يتحدث إلى الساقي بنبرة سُلطوية لطيفة تذكَّرتها جيدًا وشعرت في أحشائها بالخفقان نفسه الذي كانت تشعر به وهي فتاة صغيرة عندما كان يأتي لاصطحاب ماما. وانتبهت فجأة لنفسها، لأظافرها المقضومة، ووجهها الخالي من المساحيق، وشعرها الخفيف المُنساب في تموجات - كانت تتمنى الآن لو أنها جففته بعد الاستحمام، لكنها تأخرت، وكوليت كانت تروح وتجيء مثل حيوان في قفص.

قال جوليان، وهو يُشعل سيجارتها:

- لم أكن أعرف أنك من عُشاق الاحتجاجات.

- لستُ كذلك. كان ذلك شعورًا بالذنب أكثر منه قناعة.

- الذنب؟ تجاه صيد الفقمات؟

- تجاه كوليت.

- حسنًا، حسنًا. تعرفين أنها تُشعرني ببعض الخوف؟

- كلنا كذلك.

ضحكا. مد يده عبر الطاولة ولمس وشاحها. أنزل يده:

- سيكون ابتذالًا أن أقول إنكِ أصبحت امرأة ناضجة، لذا فلن أقولها. لكنكِ تبدين فاتنة يا باري.

أمسكت طية معطفها وقالت:

- ماذا؟ في هذا المعطف الذي يُشبه معطف المفتش كلوسو؟

كانت كوليت قد قالت لها إن تلك عادة غبية، هذا التهريج والتقليل من شأن نفسها الذي تلجأ إليه لتُخفي توترها في رفقة الرجال الذين تنجذب إليهم. خصوصًا عندما يلاطفونها. وقد حسدت ماما، ليس للمرَّة الأولى ولن تكون الأخيرة، على ثقتها الطبيعية بنفسها.

قالت:

- بعد ذلك ستقول إنني اسم على مُسمَّى.

- لا لا. رجاء. هذا بديهي جدًّا. ملاطفة النساء فن، ألا تعرفين؟

- لا أعرف، لكنني متأكدة أنك تعرف.

أحضر لهما الساقي المخبوزات والقهوة. ركزت باري على يدي الساقي وهما ترتبان الفنجانين والصحون على الطاولة، وعلى كفيها هي، والعرق يتلألأ عليهما. لقد عرفت أربعة عُشاق فقط طيلة حياتها - تعرف أنه رقم متواضع بكل تأكيد مقارنةً بماما عندما كانت في عمرها، بل وحتى بكوليت. كانت حذرة بشكل زائد، حسَّاسة بشكل زائد، مُتصالحة ومُتكيفة بشكل زائد، إجمالًا كانت أكثر ثباتًا وأقل إنهاكًا من ماما أو كوليت. لكن تلك لم تكن الصفات التي تجتذب الرجال أفواجًا. ولم تعشق أيًّا منهم - وإن كانت قد كذبت على واحد وقالت إنها تعشقه - لكن خلف كل منهم كانت تفكر في جوليان، فيه وفي وجهه الجميل، الذي يبدو مُضاءً بإضاءته الخاصة.

وهما يأكلان، تكلم عن عمله. قال إنه ترك التدريس منذ بعض الوقت. عمل في قسم إدارة الدين والأوضاع المالية المستدامة في

صندوق النقد الدولي لبضعة أعوام. وأفضل ما في ذلك كان السفر، كما قال.

- إلى أين؟

- الأردن، العراق. ثم قضيت سنتين أكتب كتابًا عن الاقتصادات غير الرسمية.

- هل نشرته؟

ابتسم:

- يقولون. أنا أعمل لحساب مؤسسة استشارات خاصة الآن هنا في باريس.

قالت باري:

- أريد أن أُسافر أنا أيضًا. كوليت تقول دائمًا إننا يجب أن نذهب إلى أفغانستان.

- أظنني أعرف لماذا تريد «هي» أن تذهب إلى هناك.

- حسنًا، لقد ظللت أفكر في الأمر. أقصد العودة إلى هناك. لا تهمني الحشيشة، لكنني أريد حقًّا أن أتجول في أرجاء البلاد، أن أرى المكان الذي ولدت فيه. ربما أعثر على البيت القديم الذي عشت فيه مع أمي وأبي.

- لم أُدرك أن لديكِ هذه الدوافع.

- عندي فضول. أقصد، لا أتذكر سوى أشياء قليلة جدًّا.

- أظنكِ قلتِ شيئًا ذات مرَّة عن طباخ العائلة.

شعرت باري بإطراء داخلي لأنه يتذكَّر شيئًا كانت قد أخبرته به قبل سنوات طويلة. وهذا يعني أنه لا بد قد فكر فيها في تلك الفترة البينية، لا بد أنها خطرت على باله.

- نعم، اسمه نبي. كان السائق أيضًا. يقود سيارة أبي، سيارة أمريكية كبيرة، زرقاء بسقف برونزي. أتذكر أنها كانت تحمل رأس نسر على مُقدمتها.

لاحقًا، سألها، وأخبرته، عن دراساتها وتركيزها على المتغيرات المُعقدة. أنصت إليها كما لم تفعل ماما قَطُّ - ماما التي كانت تبدو ضجرة من الموضوع ومُندهشة من حماسة باري له. لم تستطع ماما أن تتظاهر حتى بالاهتمام. تُلقي نكاتًا مرحة تسخر فيها، على السطح، من جهلها. تقول وهي تبتسم: **حسنًا، حسنًا، رأسي! رأسي! رأسي يدور مثل النحلة! سأعقد معك صفقة يا باري. سأصب لنا بعض الشاي وأنت تعودين إلى الكوكب، هل توافقين؟** ثم تُقهقه، وتُجاريها باري في مرحها، لكنها كانت تشعر بأن لتلك النِّكات حوافَّ حادة، وانتقادًا خفيًّا، وإشارة مضمرة على أن معارفها تبدو في عين أمها نخبوية، وأن سعيها وراء تلك المعارف طيش. والمصيبة أن يأتي ذلك من شاعرة، هكذا فكرت باري، وإن لم تكن لتخبر أمها بذلك قَطُّ.

سأل جوليان ما الذي تراه في الرياضيات، وأجابت بأنها تراها مريحة.

قال:

- ربما أختار كلمة «شاقَّة» كصفة أكثر ملاءمة.

- وهي كذلك أيضًا.

قالت إن ثمة راحة في ديمومة الحقائق الرياضية، في الافتقار إلى العشوائية وغياب الغموض، في معرفة أن الإجابات قد تكون

مراوغة، لكنها موجودة. إنها هناك، على بُعد بضع خربشات من الطبشورة.

قال:

– وبمعنى آخر، هي لا تُشبه الحياة؛ أسئلة الحياة إما ليس لها إجابات، وإما أن لها إجابات مُشوَّشة.

– هل أنا شفَّافة إلى هذا الحد؟

ضحكت وأخفت وجهها بمنديل.

– أبدو مثل بلهاء.

أزاح المنديل بيده وقال:

– إطلاقًا. إطلاقًا.

– مثل طُلابك. لا بد أنني أُذكرك بطُلابك.

سألها مزيدًا من الأسئلة، رأت باري من خلالها أنه يعرف على نحو عملي النظرية التحليلية للأعداد، وأنه، ولو على نحو عابر، على دراية بـ«كارل غوس» و«بيرنارد ريمان». تحدثا حتى حلول الظلام. شربا قهوة، ثم بيرة، وهو ما قادهما إلى النبيذ. ثم، عندما لم يعد تأخير الأمر لأكثر من ذلك مُجديًا، مال جوليان قليلًا وقال بنبرة مُهذبة وبمقتضى الواجب:

– أخبريني، كيف حال نيلا؟

نفخت باري خديها وتركت الهواء يخرج ببطء.

أومأ جوليان بتفهُّم.

قالت باري:

– ربما تفقد المكتبة.

- يؤسفني سماع ذلك.

- ظلت الأعمال تتراجع لسنوات. ربما تضطر إلى إغلاقها قريبًا. ستكون تلك ضربة لها، ضربة قوية، وإن كانت لن تعترف بذلك.

- هل تكتب؟

- لم تعد تفعل منذ مدة.

غيَّر الموضوع سريعًا، وهو ما أراح باري. لم تكن تريد التحدث عن ماما ومعاقرتها الشراب والكفاح لجعلها تتناول حبوبها. تذكرت باري كل النظرات المُرتبكة، كل اللحظات التي وجدت فيها نفسها بمفردها مع جوليان، حين كانت ماما ترتدي ملابسها في الغرفة المجاورة، وجوليان ينظر إلى باري وهي تحاول أن تفكر في شيء تقوله. لا بد أن ماما شعرت بالأمر. هل لهذا السبب أنهت علاقتها بجوليان؟ إذا كان ذلك هو بالفعل ما حصل، فإن باري تشك في أنها فعلت ذلك كعاشقة غيور وليس كأُم تحرص على حماية ابنتها.

بعدها ببضعة أسابيع، طلب جوليان من باري أن تنتقل للعيش معه. كان يعيش في شقة صغيرة على الضفة الغربية في الدائرة السابعة. وافقت باري. كان جفاء كوليت اللاذع في ذلك الوقت يخلق في الشقة جوًّا لا يُحتمل.

تتذكر باري أول يوم أحد مع جوليان في شقته. كانا يسترخيان على الأريكة، متلاصقين. كانت باري في حالة منعشة ما بين اليقظة والنوم، وجوليان يشرب الشاي، وساقاه الطويلتان تستندان إلى طاولة القهوة. كان يقرأ مقال رأي في الصفحة الأخيرة من الصحيفة، فيما «جاك بريل» يصدح من مُشغل الأسطوانات. وبين

حين وآخر، كانت باري تحرك رأسها على صدره، وينحني جوليان ويطبع قُبلة صغيرة على عينها، أو أذنها، أو أنفها.

- يجب أن نُخبر ماما.

شعرت به يتوتر. طوى جريدته، وخلع نظارة القراءة ووضعها على ذراع الأريكة.

- يجب أن تعرف.

قال:

- أظن ذلك.

- تظن ذلك؟

- لا، بالطبع، أنت مُحقة. يجب أن تتصلي بها. لكن كوني حريصة؛ لا تطلبي منها الإذن أو المباركة، فلن تحصلي على أي منهما، فقط أخبريها بالأمر، وتأكدي أنها تفهم أنه ليس موضوعًا للتفاوض.

- يسهل عليك أن تقول ذلك.

- حسنًا، ربما. مع ذلك، تذكري أن نيلا امرأة ذات طبع انتقامي. آسف لقول هذا، لكن هذا هو السبب في انتهاء علاقتنا. إنها تحب الانتقام على نحو مُذهل. لذا فأنا أعرف، لن يكون الأمر سهلًا عليها.

تنهَّدت باري وأغمضت عينيها. الفكرة جعلت معدتها تنقبض.

ربت جوليان على ظهرها بكف يده:

- لا تكوني شديدة الحساسية.

اتصلت بها باري في اليوم التالي. كانت ماما تعرف بالفعل.

- مَن أخبركِ؟

- كوليت.

بالطبع، هكذا قالت باري لنفسها.

- كنت سأُخبركِ.

- أعرف. وها أنت تُخبرينني. شيء كهذا لا يمكن أن يخبَّأ.

- هل أنت غاضبة؟

- وهل يهم ذلك؟

كانت باري تقف بجوار النافذة، وبإصبعها تتحسس بشرود الإطار الأزرق لمنفضة سجائر جوليان القديمة المُتهالكة. أغمضت عينيها:

- لا يا ماما. لا يهم.

- حسنًا، أتمنى لو أستطيع أن أقول إن ذلك لم يؤلمني.

- لم أقصد.

- أظن أن هذا أمرٌ محل جدل كبير.

- لماذا أرغب في إيذائك يا ماما؟

ضحكت ماما بصوت عميق قبيح:

- أحيانًا أنظر إليكِ فلا أرى فيكِ نفسي. بالطبع لا أرى نفسي. أظن أن ذلك ليس مُفاجئًا، في نهاية الأمر. لا أعرف أي نوع من الناس أنتِ يا باري. لا أعرف مَن أنتِ، وما أنتِ قادرة عليه، بطبيعتك التي تسري في دمك. أنت غريبة عليَّ.

قالت باري:

- لا أفهم ماذا يعني ذلك.

لكن أمها كانت قد وضعت السماعة.

* * *

مجتزأ من «طائر أفغانستان المُغرِّد».
مقابلة مع نيلا وحدتي، أجراها إتيان بوستوليه.
بارالاكس، العدد ٨٤ (شتاء ١٩٧٤)، صفحة ٣٨

بوستوليه: هل تعلَّمت الفرنسية هنا؟

وحدتي: أمي علَّمتني في كابول عندما كنت صغيرة. لم تكن تتحدث معي إلا بالفرنسية. كانت لدينا دروس كل يوم. كان أمرًا عسيرًا عليَّ عندما تركَت كابول.

بوستوليه: إلى فرنسا؟

وحدتي: نعم. تطلَّق والداي عام ١٩٣٩ وأنا في العاشرة. وكنت الطفلة الوحيدة لأبي. لم يكن مطروحًا أصلًا أن يتركني أذهب معها. لذا بقيت، وغادرت هي إلى باريس لتعيش مع أختها، «أغنيس». حاول أبي أن يُخفف من إحساس الفقد عليَّ بأن يشغلني بالمُدرسين الخصوصيين ودروس ركوب الخيل ودروس الفن، لكن لا شيء يحل محل الأم.

بوستوليه: ماذا حدث لها؟

وحدتي: يا إلهي، ماتت. عندما جاء النازيون إلى باريس، لم يقتلوها، وإنما قتلوا أغنيس. أما أمي فقد ماتت من الالتهاب الرئوي. لم يُخبرني أبي حتى حرر الحلفاء باريس، لكنني ساعتها كنت قد عرفت. لقد عرفت وحسب.

بوستوليه: لا بد أنه كان أمرًا صعبًا عليكِ.

وحدتي: كان مُدمرًا. لقد أحببت أمي، وخططت لأن أعيش معها في فرنسا بعد الحرب.

بوستوليه: أفترض أن ذلك يعني أن الأمور لم تكن تسير على ما يُرام بينكِ وبين والدكِ.

وحدتي: كانت هناك توترات بيننا، وكنا نتعارك كثيرًا، وكان ذلك أمرًا جديدًا عليه. لم يكن معتادًا على أن يخالف أحد كلامه، وخصوصًا النساء. كنا نتشاجر حول ماذا أرتدي، وإلى أين أذهب، وماذا أقول، وكيف أقوله، وإلى مَن أقوله. كنت قد أصبحت جريئة ومغامِرة، بينما أصبح هو أكثر تزمتًا وخشونة من الناحية العاطفية. أصبحنا خصمين طبيعيين.

تُقهقه، وتحكم عقدة منديل الرأس من الخلف.

وحدتي: ثم بدأت أقع في الحب. غالبًا، على نحو يائس، ولرُعب أبي، مع النوع الخطأ من الرجال: ابن الخادم مرَّة، ومرَّة أخرى موظف بسيط كان يقوم ببعض الأشغال لحساب أبي. عواطف طائشة، مُشاكسة، كلها محكوم عليها بالفشل منذ البداية. كنت أرتب مواعيد مختلسة وأنسل من البيت، وبالطبع، كان أحدهم يُخبر أبي أنني شوهدت في الشوارع في مكان ما. يُخبرونه أنني أمرح - دائمًا ما يصوغونها بهذا الشكل - «أمرح». أو يقولون إنني «أتنزه». ويكون على أبي أن يُرسل مَن يبحث

عني ويُعيدني، فيحبسني لأيام. كان يقف على الجانب الآخر من الباب ويقول: «إنك تجلبين لي المهانة. لماذا تجلبين لي المهانة لهذه الدرجة؟ ماذا أفعل معك؟». وأحيانًا كان يجيب عن هذا السؤال بحزامه، أو بقبضته المضمومة. كان يُطاردني في أرجاء الغرفة. أعتقد أنه ظن نفسه قادرًا على إرهابي لكي أخضع له. كتبت كثيرًا في تلك الفترة، قصائد طويلة فضائحية تقطر بأشواق المراهقة. أخشى أنها كانت ميلودرامية ومُتكلفة بعض الشيء أيضًا: طيور محبوسة في أقفاص، وعشاق مُكبَّلون بالأغلال، هذا النوع من الأشياء. لست فخورة بها.

أشعر أن التواضع الزائف ليس من شيمها، ومن ثَمَّ لا يسعني إلا أن أفترض أن ذلك هو حكمها الصادق على تلك الكتابات المبكرة. فإذا كان ذلك صحيحًا، فهو حكم غير مُتسامح على نحو قاسٍ؛ فقصائدها من تلك الفترة مُذهلة في واقع الأمر، حتى في الترجمة، وخصوصًا مع معرفة أنها كتبتها في هذه السن الصغيرة. إنها قصائد مؤثرة، غنية بالخيال، والعاطفة، والبصيرة، والرشاقة الكاشفة. تتحدث بجمال عن الوحدة والأحزان التي لا حصر لها. تروي إحباطاتها، صعود وهبوط الحب الشاب بكل بريقه ووعوده ومكائده. وثمة دائمًا إحساس فائق برهاب الأماكن الضيقة، بالآفاق المنكمشة،

ودائمًا إحساس بالصِراع ضد طغيان الظروف - الذي يُصوَّر غالبًا في هيئة ذَكَر مشؤوم لا يُسمى أبدًا، يُطل برأسه. كناية ليست شديدة الغموض عن أبيها، كما يمكن للمرء أن يفهم. أقول لها هذا.

بوستوليه: كما أنك تُحررين تلك القصائد من الإيقاع، والقافية، والوزن، وهي، كما أفهم، أجزاء لا تتجزأ من الشعر الفارسي الكلاسيكي. تستخدمين الخيال المُنساب انسيابًا حرًّا، وترفعين من شأن التفاصيل العادية والعشوائية. كان هذا ريادة كما أفهم. فهل يصح القول إنك لو وُلدت في بلد أكثر ثراء - لنقل إيران - لكان يُنظر إليك الآن، على وجه مؤكد تقريبًا، كرائدة من رواد الأدب؟

تبتسم بامتعاض.

وحدتي: تخيَّل.

بوستوليه: مع ذلك، فأنا ما زلت مصدومًا بما قلتِه قبل قليل عن كونكِ لستِ فخورة بتلك القصائد. فهل تشعرين بالرضا عن أي من أعمالك؟

وحدتي: هذا سؤال شائك. أعتقد أنني سأرد بالإيجاب، فقط إن استطعت عزلها عن العملية الإبداعية نفسها.

بوستوليه: تقصدين عزل الغاية عن الوسيلة؟

وحدتي: أنا أنظر إلى العملية الإبداعية بوصفها عملية لصوصية بالضرورة. احفر أسفل أي نص

جميل، يا مسيو بوستوليه، وستجد جميع أنواع الانحطاط. إن الإبداع يعني تخريب حيوات الآخرين، تحويلهم إلى مُشاركين مُكرهين وغافلين. إنك تسرق رغباتهم، وأحلامهم، وتستولي على نقائصهم، وعلى معاناتهم. إنك تأخذ ما لا يخصك، وتفعل ذلك بوعي.

بوستوليه: وأنتِ كنتِ ماهرة جدًّا في هذا الأمر.

وحدتي: لم أكن أفعل ذلك من أجل فكرة عالية وسامية عن الفن، وإنما لأنه لم يكن أمامي خيار آخر. كان الدافع شديد القوة. لو لم أستسلم له، لفقدت عقلي. أنت تسألني إن كنت فخورة. يصعب عليَّ أن أتباهى بشيء حصلت عليه من سبيل أعرف أنه موضع جدل من الناحية الأخلاقية، وهكذا أترك قرار الفخر أو عدم الفخر للآخرين.

تتجرع كأس النبيذ ثم تملؤها بما تبقّى في الزجاجة.

وحدتي: مع ذلك، فما أستطيع أن أقوله لك، إن أحدًا لم يكن يفخر بي في كابول. لم يعتبرني أحد في كابول رائدة لأي شيء سوى الذوق الفاسد، والتهتك، وانعدام الأخلاق. ولم يكن أبي أقلهم في ذلك. كان يقول إن كتاباتي هي خواطر مُشتتة لعاهرة. كان يستخدم تلك اللفظة تحديدًا، وكان يقول إنني سأُدمر اسم العائلة نهائيًّا. إنني قد خنته.

وظل يسألني لماذا يصعب عليَّ إلى تلك الدرجة أن أكون محترمة.

بوستوليه: وكيف كنت تردين؟

وحدتي: كنت أقول له إنني غير معنية بفكرته عن الاحترام. أقول له إنني لا أرغب في أن أربط بنفسي الطوق حول رقبتي.

بوستوليه: أفترض أن ذلك كان يزيده استياء.

وحدتي: بطبيعة الحال.

أتردد قبل أن أقول العبارة التالية.

بوستوليه: لكنني أتفهَّم غضبه.

ترفع أحد حاجبيها.

بوستوليه: لقد كان ذا نزعة أبويَّة تسلطية، أليس كذلك؟ وكنتِ أنت تُمثلين تحديًا مباشرًا لكل ما يعرفه، كل ما يعتز به؛ إذ تسعين، عبر حياتك وكتابتك على حد سواء، من أجل انتزاع مساحات جديدة للنساء، من أجل أن تُصبح للنساء كلمة في أوضاعهن، حتى تُصبح لهن هوية ذاتية تتمتع بالمشروعية. لقد كنت تتحدين الاحتكار الذي ظل في أيدي رجال مثله لأزمنة طويلة. كنت تقولين ما لا يُقال، بل ويمكن أن نقول إنكِ كنت تقومين بثورة صغيرة، ثورة امرأة واحدة.

وحدتي: في ذلك الوقت، كنت أظن أنني أكتب عن الجنس.

بوستوليه: لكن هذا جزء من الموضوع، أليس كذلك؟

أتصفح ملاحظاتي، وأذكر لها بعض القصائد الإيروتيكية الفاضحة - «أشواك»، «لا شيء سوى الانتظار»، «الوسادة». وأعترف لها كذلك أن تلك ليست من بين قصائدي المفضَّلة. أقول إنها تفتقر إلى تعدد المستويات، وإلى الغموض. تُقرأ وكأنما صِيغت فقط لتُحدث صدمة وفضائحية. تتراءى لي بطابعها النقدي، بإثارتها للجدل، بوصفها إدانات للدور الذي يلعبه الرجل الأفغاني.

وحدتي: حسنًا، لقد كنت غاضبة بالفعل، كنت غاضبة من ضرورة حمايتي من الجنس، من ضرورة حمايتي من جسدي. لأنني امرأة. والنساء، ألا تعرف ذلك، غير ناضجات عاطفيًّا، وأخلاقيًّا، وعقليًّا، ولا يستطعن التحكم بذواتهن، لعلك تعرف، أنهن فريسة سهلة للغواية الجسدية، أنهن كائنات «فوق - جنسيات» يجب أن يُقيدن وإلا قفزن إلى الفراش مع كل أحمد وكل محمود.

بوستوليه: لكنكِ - سامحيني - كنت تفعلين ذلك، أليس كذلك؟

وحدتي: فقط كاحتجاج على تلك الفكرة نفسها.

ضحكتها مُبهجة، مليئة بالشقاوة والمكر والذكاء. تسألني إن كنت أريد أن أتغدَّى. تقول

إن ابنتها أعادت ملء ثلاجتها مؤخرًا وتتجه لإعداد ما تبين أنه ساندويتش «جامبون فيميه» ممتاز. تُعد ساندويتشًا واحدًا. أما هي فتفتح زجاجة نبيذ جديدة، وتُشعل سيجارة أخرى، ثم تجلس.

وحدتي: هل توافقني، لأغراض هذه المحادثة، أنه يجب علينا أن نظل على وفاق يا مسيو بوستوليه؟

أُخبرها بموافقتي.

وحدتي: إذًا، أسد لي خدمتين: تناول الساندويتش، وتوقَّف عن النظر إلى كأسي.

غني عن القول أن ذلك قد قمع بصورة استباقية أي فكرة كان يمكن أن تراودني لسؤالها عن الشَّراب.

بوستوليه: وماذا حدث بعد ذلك؟

وحدتي: سقطت مريضة عام ١٩٤٨، عندما كنت في التاسعة عشرة تقريبًا. كانت حالتي خطيرة، ولن أستطرد في ذلك. اصطحبني والدي إلى دلهي للعلاج. ظل معي ستة أسابيع بينما كان الأطباء يقومون على رعايتي. قيل لي إنني كان يمكن أن أموت. ربما كان يجب أن أموت. أحيانًا يكون الموت هو النَّقلة المهنية للشاعر صغير السنِّ. عندما عُدنا، كنت ضعيفة ومُنطوية، ولم يكن هناك مجال للكتابة، ولم تعد لديَّ رغبة في الأكل أو الحديث أو الترفيه. كنت عازفة عن الزيارات، وأريد فقط أن أسدل الستائر وأنام طوال اليوم، كل يوم. وهو ما

فعلته في أغلب الأوقات. وأخيرًا، غادرت الفراش، وتابعت نظامي اليومي، وأقصد بذلك الأساسيات القاهرة التي يقوم بها الإنسان من أجلِ الحفاظ على صحته وعلى الحد الأدنى من التحضُّر. لكنني شعرت بالتضاؤل، وكأنني قد تركت ورائي في الهند جزءًا حيويًّا مني.

بوستوليه: هل كان والدكِ قلِقًا عليكِ؟

وحدتي: العكس هو الصحيح. لقد شجعه ذلك. ظن أن مواجهتي للموت قد أنضجتني وخلَّصتني من الانفلات. لم يفهم أنني كنت أشعر بالضياع. لقد قرأت، يا مسيو بوستوليه، أنك إذا دُفنت أسفل انهيار ثلجي ورقدت تحت كل تلك الثلوج، فلن تستطيع أن تعرف أعلاك من أسفلك. تريد أن تحفر لتُخرج نفسك لكنك تسلك الطريق الخطأ، وتدفن نفسك بنفسك حتى الهلاك. كان هذا هو شعوري: ضالة، وعالقة في الارتباك، وفاقدة لبوصلتي، ومكتئبة أيضًا على نحو لا يُوصف. وفي تلك الحالة، تكون هشًّا. والأرجح أن ذلك هو السبب الذي جعلني أوافق في العام التالي، عام ١٩٤٩، عندما طلب سليمان وحدتي يدي من والدي.

بوستوليه: كنتِ في العشرين.

وحدتي: ولم يكن هو كذلك.

تعرض عليَّ ساندويتشًا آخر، أرفضه، وكوبًا

من القهوة، أقبله. وفيما تضع الماء ليغلي، تسألني إذا كنت مُتزوجًا. أُخبرها أنني لست مُتزوجًا، وأنني أشك في كوني سأفعلها. تنظر إليَّ من فوق كتفها، تتلكأ نظرتها، وتبتسم.

وحدتي: نعم. أستطيع أن أحدس دائمًا.

بوستوليه: مفاجأة!

وحدتي: ربما هي الحادثة.

تشير إلى منديل رأسها.

وحدتي: هذا ليس «تجمُّلًا»، فلقد انزلقتُ وسقطتُ قبل يومين، وفُتحت جبهتي. مع ذلك، كان لا بد أن أعرف، أقصد أن أعرف بأمرك. من خبرتي، فإن قليلًا من الرجال الذين يفهمون النساء كما يبدو في حالتك، لا يريدون أن يقيموا معهن أية علاقة.

تناولني القهوة، وتُشعل سيجارة، وتجلس.

وحدتي: لديَّ نظرية عن الزواج، يا مسيو بوستوليه. وهي أنك ستعرف دائمًا في غضون أسبوعين تقريبًا إذا كان الأمر سينجح أم لا. إنه لأمر مُذهل؛ كيف يظل الكثير من الناس مُكبلين لأعوام، بل ولعقود، في حالة مطولة ومتبادلة من خداع الذات والأمل الزائف عندما تكون الإجابة جلية أمامهم، وحقيقية، في هذين الأسبوعين الأولين؟ بالنسبة إليَّ، لم أكن بحاجة لهذا الوقت أصلًا. كان زوجي رجلًا لطيفًا، لكنه كان جادًّا، ومُتعاليًا، ومُضجرًا بشكل زائد عن الحد. كذلك، كان واقعًا في غرام السائق.

بوستوليه: لا بد أن تلك كانت صدمة.

وحدتي: حسنًا، لقد تسبب في تعظيم حجم الحبكة التقليدية المعتادة.

تبتسم بقدر من الحزن.

وحدتي: شعرت بالحزن من أجله، أكثر من أي شيء؛ لم يكن في وسعه أن يختار توقيتًا أسوأ أو مكانًا أسوأ ليُولد هكذا. لقد مات بالسكتة الدماغية عندما كانت ابنتنا في السادسة. في ذلك الوقت، كان في وسعي أن أظل في كابول. كان عندي البيت وثروة زوجي. هناك البستاني والسائق سالف الذكر. كنت سأعيش حياة مريحة، لكنني حزمت حقائبي وأخذت باري، وانتقلنا إلى فرنسا.

بوستوليه: وهو ما فعلتِه من أجل صالحها، كما ذكرتِ من قبل.

وحدتي: كل ما فعلتُه، يا مسيو بوستوليه، فعلتُه من أجل ابنتي. لا يعني ذلك أنها تفهم، أو تُقدِّر، أبعاد ما فعلتُه لأجلها. أحيانًا تكون لا مُبالية بطريقة تحبس الأنفاس. لو عرفت الحياة التي كانت ستُجبر على تحمُّلها ما...

بوستوليه: هل تُمثل ابنتك إحباطًا لكِ؟

وحدتي: مسيو بوستوليه، أعتقد أنها عقابي!

* * *

ذات يوم من أيام ١٩٧٥، تعود باري إلى شقتها الجديدة فتجد حزمة صغيرة على سريرها. مر عام على اليوم الذي أخرجت فيه

أمها من غرفة الطوارئ وتسعة أشهر منذ هجرِها لجوليان. تعيش باري الآن مع طالبة تمريض تُدعى «زاهية»، وهي شابة جزائرية بشعر بُني مُتموج وعينين خضراوين. إنها فتاة كُفء، تتمتع بشخصية مرحة ووديعة، وكانت حياتهما معًا سهلة، على الرغم من أن زاهية مخطوبة الآن لصديقها، «سامي»، وستنتقل للإقامة معه في نهاية الفصل الدراسي.

ثمة ورقة مطوية إلى جوار الحزمة:

هذه لأجلك. سأبيت عند سامي. أراكِ غدًا.

قبلاتي.

زاهية

تُمزِّق باري غلاف الحزمة. في الداخل ثمة مجلة مُلصق عليها رسالة أخرى، وهذه مكتوبة بخط مألوف، بكتابة رقيقة شبه أنثوية:

أُرسلت هذه إلى نيلا ثم إلى الزوجين اللذين يعيشان في شقة كوليت القديمة، والآن مُرِّرت إليَّ. يجدر بكِ تحديث العنوان. اقرئيها على مسؤوليتك. لم تكن الأمور على ما يُرام بالنسبة لأي منا، مع الأسف.

جوليان

تُسقط باري المجلة على السرير، وتُعد لنفسها سلطة إسبانية وبعض «الكسكسي». ترتدي بيجامتها وتأكل أمام التلفزيون، تلفزيون أبيض وأسود صغير مُستأجَر. بشرود، تشاهد صورًا للاجئين من جنوب فيتنام يُنقلون بالطائرات إلى غوام. تُفكر في كوليت، التي شاركت في مسيرات احتجاجية مناهضة للحرب

الأمريكية في فيتنام. كوليت، التي جلبت إكليلًا من زهور الداليا والأقحوان في تأبين ماما، التي عانقت باري وقبّلتها، التي قرأت واحدة من قصائد ماما فوق المنصة قراءة جميلة.

لم يحضر جوليان المراسم. اتصل وقال، بصوت خفيض، إنه لا يحب مناسبات التأبين، ويجدها مُثيرة للاكتئاب.

وردت عليه باري:

- **ومَن لا يجدها كذلك؟**

- **أظن من الأفضل أن أظل بعيدًا.**

- **افعل ما يحلو لك.**

هكذا أجابته باري، وهي تفكر: لكن الغياب لن يُبرئك، مثلما لن يُبرئني الحضور. لن يُبرئنا من تهورنا، ولامبالاتنا. يا إلهي.

كانت باري قد وضعت السماعة وقد أدركت أن علاقتها الغرامية مع جوليان كانت بمنزلة الدَّفعة الأخيرة لماما. وضعت السماعة وهي تعرف أن الندم، الندم الرهيب، سيظل يصفعها، ما بقيت حية، في لحظات عشوائية، سيأخذها على حين غرة، وأنها ستتألم به حتى العظام، ستخوض صراعًا معه، الآن وفي قادم الأيام، وسيكون بمنزلة صنبور يقطر في مؤخرة رأسها.

تأخذ حمَّامًا بعد العشاء، وتستعرض بعض الملاحظات استعدادًا لامتحان وشيك. تُشاهد التلفزيون مرَّة أخرى، وتغسل الصحون وتجففها، وتكنس أرضية المطبخ. لكن لا فائدة. لا تستطيع أن تصرف ذهنها عن الأمر. المجلة موجودة على السرير، تناديها مثل طنين خافت.

بعد ذلك، ترتدي معطف مطر فوق بيجامتها، وتخرج للتجول

في «بوليفار دي لا شابيل»، بضعة شوارع إلى الجنوب من الشقة. الهواء بارد، وقطرات المطر ترتطم بالرصيف وواجهات عرض المتاجر، لكن الشقة لا تستطيع أن تحتوي اضطرابها الآن. تحتاج إلى الهواء البارد الرطب، إلى الفضاء المفتوح.

تتذكر باري أنها عندما كانت صغيرة لم تكف عن طرح الأسئلة: **هل عندي أولاد عم وخال في كابول يا ماما؟ هل عندي عمات وخالات وأعمام وأخوال؟ والأجداد، هل عندي جَد وجَدة؟ لماذا لا يزوروننا؟ هل يمكن أن نكتب لهم رسائل؟ من فضلك، هل يمكن أن نزورهم؟**

كانت معظم أسئلتها تتمحور حول والدها: **ماذا كان لونه المُفضَّل يا ماما؟ أخبريني يا ماما، هل كان سبَّاحًا ماهرًا؟ هل كان يعرف الكثير من النِّكات؟** تتذكره يُطاردها ذات مرَّة في الغرفة، يُقلِّبها على سجادة، يُدغدغ أصابع قدميها وبطنها. تتذكر رائحة صابون اللافندر الخاص به، ولمعة جبهته العالية، وأصابعه الطويلة، وأزرار أكمامه البيضاوية اللازوردية، وطيات بنطلون بدلته. تستطيع أن ترى ذرات الغبار التي أثاراها معًا وهما يركضان على السجادة.

الشيء الذي طالما أرادته باري من أمها هو صمغ يلصق أجزاءها معًا، فتات ذاكرتها المتناثرة، لتحولها إلى سردية متماسكة. لكن ماما لم تكن تتحدث كثيرًا. كانت تحجز تفاصيل حياتها وحياتهما معًا في كابول. ظلت تحتفظ بباري بمنأى عن ماضيهما المشترك، وأخيرًا، توقفت باري عن السؤال.

والآن يتبين أن ماما كانت قد أخبرت هذا الصحفي، هذا الإتيان بوستوليه، بأمور عن نفسها وحياتها أكثر مما أخبرت ابنتها نفسها.

ولكن، أفعلت ذلك حقًّا؟

قرأت باري الموضوع ثلاث مرَّات وهي في شقتها. ولا تعرف ماذا تفكر، ماذا تعتقد. الكثير من هذه الأمور لها وقع زائف، وأجزاء منها تبدو محاكاة ساخرة. ميلودراما صارخة، لجميلات مُكبلات وقصص غرام بنهايات حزينة، والجور المتفشي، كلها مروية بروحيَّة متحمسة وطريقة تحبس الأنفاس.

تسير باري غربًا، في اتجاه «بيجال»، بخطى سريعة، يداها مدسوستان في جيبي معطفها. الظلام يحل بسرعة، ووابل المطر الذي يصفع وجهها يزداد كثافة وثباتًا، يجعل الشبابيك تهتز، ويلطِّخ كشافات السيارات. لا تحمل باري ذكرى لمقابلة الرجل، الجد، والد ماما، فقط رأت الصورة الوحيدة له وهو يقرأ على مكتبه، لكنها تشك في كونه الشرير الذي يبرم شاربه كما صورته ماما. تفكر باري في أنها ترى ما وراء هذه القصة. لديها أفكارها الخاصة. في نسختها، تراه رجلًا مُحقًّا في قلقه على مصلحة الابنة الغارقة في الشقاء، والنازعة إلى تدمير ذاتها، التي لا تستطيع أن تمنع نفسها من تحويل حياتها إلى فوضى عارمة. إنه رجل يعاني من المذلة والعدوان المتكرر على كرامته، ولكنه ما يزال يقف إلى جوار ابنته، يأخذها إلى الهند عندما تمرض، ويبقى إلى جوارها ستة أسابيع. وفي هذا الخصوص، ما الذي كانت تعاني منه ماما حقًّا؟ ماذا فعلوا بها في الهند؟ تتساءل باري وهي تُفكر في الندبة الطولية في منطقة الحوض - كانت باري قد سألت، وأخبرتها زاهية أن فتحات العمليات القيصرية تجرى أفقيًا.

ثم ما قالته ماما للصحفي بشأن زوجها، والد باري: هل كان

فِرية؟ هل كان صحيحًا أنه أُغرم بنبي، السائق؟ وإذا كان الحال كذلك، فلماذا تفصح عن شيء كهذا الآن بعد كل هذا الزمن إلا لتُسبب إرباكًا، وإهانة، وألمًا ربما؟ وإن كان الحال كذلك، فلِمَن؟

أما بالنسبة إلى نفسها، فلا تندهش باري من المعاملة المنفرة التي ادخرتها لها ماما - ليس بعد موضوع جوليان - وكذا لم تندهش من انتقائية ماما، وحكايتها المعقمة عن أُمومتها.

أكاذيب؟

ومع ذلك...

كانت ماما كاتبة موهوبة. لقد قرأت باري كل كلمة كتبتها بالفرنسية، وكل قصيدة ترجمتها من الفارسية كذلك. قوة كتابتها وجمالها تستعصي على الإنكار. لكن إذا كانت القصة التي أدلت بها ماما عن حياتها في المقابلة كذبة، فمن أين إذًا جاء الخيال الوارد في أعمالها؟ أين كان ينبوع الكلمات التي تتسم بالأمانة والجمال والقسوة والحزن؟ أتراها كانت مجرد محتالة موهوبة في الاحتيال؟ ساحرة، قلمُها عصاها، قادرة على تحريك الجمهور باستحضار مشاعر لم تعرفها بنفسها قَطُّ؟ وهل هذا ممكن أصلًا؟

لا تعرف باري - لا تعرف. وهذا، ربما، قد يكون مراد ماما الحقيقي، أن تُقلقل الأرض تحت قدمي باري، أن تُزلزلها وتُحطمها، أن تُحولها إلى غريبة عن نفسها، أن تُغذي الشكَّ في عقلها، شكًّا في كل ما ظنت باري أنها تعرفه عن حياتها، أن تجعلها تشعر بالضياع وكأنها تهيم ليلًا في الصحراء، محاطة بالظلام والمجهول، والحقيقة مراوغة، مثل بصيص ضوء واحد ضئيل في البعيد، يرتعش فيومض ويختفي، ولا يكف عن الحركة، عن التراجع إلى الوراء.

تفكر باري أن تلك قد تكون طريقة ماما في الانتقام. ليس فقط بسبب جوليان، وإنما لأن باري طالما كانت تُمثل لها إحباطًا. باري، التي ربما كان يُفترض بها أن تضع حدًّا لكل الشراب، والرجال، والسنوات المُهدرة في توجيه طعنات يائسة للسعادة. كل الطرق المسدودة التي سلكتها ثم تخلَّت عنها. كل ضربة من سوط الإحباط تترك أمها أكثر خرابًا، أكثر انحرافًا عن السبيل، وتترك السعادة أكثر مخادَعة. تفكر باري: **ماذا كنت أنا يا ماما؟ ماذا كان من المفترض أن أكون، وقد نمَوْت في رحمك - بافتراض أنني حُملت في رحمك أصلًا؟ بذرة أمل؟ تذكرة اشتريتِها لتنقلك من الجانب المظلم؟ رقعة لذلك الثقب الذي كنت تحملينه في قلبك؟ إذا كان الحال كذلك، فأنا لم أكن كافية إذًا. لم أكن قريبة من الكفاية. لم أكن بلسمًا لألمك، وإنما طريقًا آخر مسدودًا، عبئًا آخر، ولا بد أنك قد رأيت ذلك مبكرًا. لا بد أنك أدركت الأمر. ولكن ماذا كان بوسعك أن تفعلي؟ لم يكن بوسعك أن تذهبي إلى محل الرهونات وتبيعيني.**

ربما كانت تلك المقابلة ضحكة ماما الأخيرة.

تتوقف باري أسفل مظلة حانة لتختبئ من المطر على بُعد بضعة شوارع غربي المستشفى الذي تأخذ زاهية فيه جزءًا من تدريبها. تُشعل سيجارة. تُفكر أنه يجدر بها الاتصال بكوليت. لم يتكلما سوى مرَّة واحدة أو مرَّتين منذ التأبين. في صغرهما كانتا تمضغان ملء فميهما من اللبان حتى يوجعهما الفكان، وكانتا تجلسان أمام مرآة الزينة الخاصة بماما وتمشط كل منهما شعر الأخرى، تعقصه إلى أعلى وتشبكه. ترى باري امرأة عجوزًا على الجانب الآخر من

الشارع، تضع غطاء رأس بلاستيكيًّا واقيًا من المطر، تسير بمشقة على الرصيف يتبعها كلب تيريير صغير برونزي اللون. وكما حدث مرَّات من قبل، تنفصل عصفة صغيرة من الكتلة الضبابية التي تُشكل ذكريات باري، وتتخذ ببطء شكل كلب. ليس دمية صغيرة مثل ذلك الذي يتبع المرأة العجوز، وإنما مخلوق كبير ذو هيئة مُزرية، كثيف الشعر، وقذر، وأبتر الذيل والأذنين. لا تعرف باري يقينًا إن كانت تلك، في واقع الأمر، ذكرى أم شبحًا أم شيئًا آخر. كانت قد سألت ماما ذات مرَّة إن كانوا قد امتلكوا كلبًا ذات يوم في كابول وقالت ماما:

- **أنت تعرفين أنني لا أُحب الكلاب، فهي لا تحترم نفسها. تركلينها فلا تتوقف عن محبتك. إنه أمر مُثير للاكتئاب.**

وشيء آخر قالته ماما:

- **أنا لا أرى نفسي فيكِ. أنا لا أعرف مَن تكونين.**

ترمي باري سيجارتها، وتُقرر أنها ستتصل بكوليت. تُرتب معها لقاء في مكان ما لتناول الشاي. ترى كيف تسير أمورها. مَن تقابل. تذهبان معًا للتحديق في واجهات المحلات، كما كانتا تفعلان. ترى إن كانت صديقتها القديمة ما تزال مُستعدة للقيام بتلك الرحلة إلى أفغانستان.

***

تلتقي باري فعلًا بكوليت. تتقابلان في بار معروف ذي تصميم مغربي: ستائر بنفسجية، ووسائد برتقالية في كل مكان، وعازف عود بشعر مُتموِّج على مسرح صغير. لم تأتِ كوليت بمفردها؛ اصطحبت معها أحد الشباب، اسمه «إريك لاكومب»، يُدرِّس

الدراما للصفين السابع والثامن في مدرسة في الدائرة الثامنة عشرة. يقول لباري إنه قد التقاها من قبل، قبل بضع سنوات، في احتجاج طلابي مناهض لصيد الفقمات. في البداية لا تتذكره باري، ثم تتذكر أنه كان الشخص الذي أثار غضب كوليت كثيرًا بسبب الحضور الضعيف، الشخص الذي لكزته في صدره. يجلسون على الأرض، فوق وسائد منفوشة بلون المانجو، ويطلبون مشروبات. في البداية، يراود باري انطباع أن كوليت وإريك مرتبطان، لكن كوليت لا تني تمدح إريك، وسرعان ما تفهم باري أنه قد جيء به من أجلها. الارتباك الذي يستولي عليها عادة في مثل تلك المواقف ينعكس في - ويتخفف بفضل - اضطراب إريك الملحوظ نفسه. احمرار خديه وارتعاش يديه اعتذارًا وحرجًا، أمر تجده باري مُسليًا، بل ومُحببًا. وهم يتناولون الخبز وسلطة الزيتون الأسود، تختلس باري نظرات إليه: لا يمكن وصفه بالوسيم، شعره طويل وخفيف ومربوط بشريط مطاطي عند أسفل عنقه، لديه يدان صغيرتان وبشرة شاحبة، أنفه ضيق للغاية، وجبهته بارزة جدًّا، والذقن لا يكاد يُرى، لكن عينيه تشرقان عندما يبتسم، ولديه عادة اختتام كل جملة بابتسامة جاهزة تُشبه علامة استفهام سعيدة. ومع أن وجهه لا يفتن باري مثلما كان وجه جوليان، فهو وجه يحمل قدرًا أكبر كثيرًا من الطِّيبة، ويُمثل، كما ستعرف باري بعد قليل، سفيرًا خارجيًّا لصفات مُقيمة في داخل إريك: الانتباه والإصغاء للآخرين، والتسامح، والتواضع الملازم لشخصيته.

يتزوجان في يوم بارد في ربيع عام ١٩٧٧، بعد بضعة أشهر من تنصيب «جيمي كارتر» رئيسًا للولايات المتحدة. ويُصر إريك،

خلافًا لرغبة والديه، على حفل مدني صغير، لا يحضره أحد إلا هما وكوليت كشاهدة. يقول إن الزواج الرسمي إسراف لا يطيقانه. يعرض والده، وهو مصرفي ثري، التكفُّل بالنفقات، فإريك، في نهاية الأمر، ابنه الوحيد. يعرض هذا كهدية، ثم كقرض، لكن إريك يرفض. ومع أنه لا يقولها صريحة، تعرف باري أنه يريد أن يعفيها من حرج إقامة حفل تكون فيه بمفردها، بلا عائلة تجلس على كراسي الممر، ولا أحد يُسلمها إليه، ولا أحد يذرف عليها دموع السعادة.

عندما تُخبره بخططها للذهاب إلى أفغانستان، يتفهَّم رغبتها التي لم يكن جوليان ليتفهمها قَطُّ، وأيضًا بطريقة لم يسبق أن اعترفت بها لنفسها.

يقول:

- أنت تعتقدين أنك مُتبناة.

- هل ستذهب معي؟

يُقرران السفر ذلك الصيف، عندما تنتهي الدراسة بالنسبة إلى إريك، ويصبح بوسع باري أخذ فسحة قصيرة من بحثها لنيل الدكتوراه. يُسجل إريك اسميهما في دروس لتعلم الفارسية مع مُدرس عثر عليه عن طريق والدة واحد من تلاميذه. غالبًا ما تجده باري على الأريكة واضعًا سماعات على رأسه، وجهاز الكاسيت على صدره، وعيناه مغمضتان في تركيز وهو يهمهم باللهجة الثقيلة: «شكرًا» و«أهلًا» و«كيف حالك»، بالفارسية.

قبل أسابيع قليلة من حلول الصيف، وحين كان إريك يستعلم عن أسعار تذاكر الطيران والإقامة، تكتشف باري أنها حُبلى.

يقول إريك:

- ما زال بإمكاننا الذهاب. يُستحسن أن نذهب.

لكن باري هي التي تُقرر عدم الذهاب، وتقول:

- سيكون فعلًا غير مسؤول.

يعيشان في ستوديو بتدفئة لا تعمل بصورة جيدة، وسباكة تُسرب المياه، ومن دون أجهزة تكييف، وتشكيلة متنوعة من قطع أثاث تخلَّص منها أصحابها.

تقول:

- ليس هذا مكانًا يصلح لطفل.

يبدأ إريك وظيفة جانبية كمُدرس بيانو، ويظل مُستمتعًا بها قبل أن يضع أنظاره على المسرح، وبوصول «إيزابيل» - إيزابيل الجميلة، ذات البشرة الفاتحة، والعينين بلون السُّكر المعقود - يكونان قد انتقلا إلى شقة صغيرة مُكونة من غرفتي نوم لا تبعد عن «جاردان دو لوكسمبورج»، تلك المرَّة بمساعدة مالية من والد إريك، يقبلانها شريطة اعتبارها قرضًا.

تأخذ باري ثلاثة أشهر إجازة. تقضي أيامها مع إيزابيل. تشعر بالخفة في صحبة إيزابيل. تشعر بهالة حولها كلما تدير إيزابيل عينيها نحوها. وعندما يعود إريك من المدرسة إلى المنزل في المساء، فإن أول ما يفعله هو أن يخلع معطفه ويضع حقيبته عند الباب ثم يتهاوى على الأريكة ويمد ذراعيه ويحرك أصابعه:

- ناوليها لي يا باري. ناوليها لي.

وفيما يلاعب إيزابيل على صدره ويهزها، تسرد باري على مسامعه كل أخبار اليوم - قدر الحليب الذي شربته إيزابيل، كم

غفوة أخذت، ماذا شاهدا معًا على التلفزيون، الألعاب المنعشة التي لعباها، الأصوات الجديدة التي تُخرجها. ولا يمل إريك أبدًا من سماع ذلك.

لقد أجَّلا الذهاب إلى أفغانستان. الحقيقة أن باري لم تعد تشعر بحاجة مُلحة للبحث عن إجابات وجذور؛ بسبب إريك وصحبته المريحة الباعثة على الاستقرار، وبسبب إيزابيل، التي جعلت الأرض أكثر صلابةً تحت قدمي باري - حتى وإن كانت تلك الأرض ما تزال مليئة بالحفر والمناطق العمياء، كل الأسئلة التي لا إجابة لها، كل الأشياء التي لم تُفصح عنها ماما، كلها ما زالت هناك. كل ما في الأمر أن باري لم تعد توَّاقة للإجابات مثلما كانت من قبل.

أما الشعور القديم الذي طالما كانت تشعر به - أن ثمة غيابًا في حياتها لشيء أو شخص أساسي - فقد خبا. ما يزال ذلك الشعور يراودها بين حين وآخر، أحيانًا بقوة تتملكها على حين غرة، لكن بمعدل أقل من ذي قبل. لم تشعر باري بهذا الرضا قَطُّ، ولم تشعر بنفسها مسكونة بالسعادة إلى هذه الدرجة.

في ١٩٨١، عندما بلغت إيزابيل الثالثة من عمرها، كان على باري، الحُبلى في «ألان» منذ بضعة أشهر، أن تذهب إلى ميونيخ لحضور مؤتمر. ستعرض ورقة شاركت في تأليفها حول استخدام وحدات القياس خارج نظرية الأعداد، وخصوصًا في الطوبولوجيا والفيزياء النظرية. يُستقبل عرضها بصورة جيدة، وبعدها تخرج باري مع بعض الأكاديميين الآخرين إلى بار صاخب لشرب البيرة وتناول البسكويت المملح وسجق «الفايسفورست». تعود إلى غرفة الفندق

قبل منتصف الليل، ثملة قليلًا، وتذهب إلى الفراش من دون أن تُغير ملابسها أو تغسل وجهها. يُوقظها الهاتف في الساعة الثانية والنصف صباحًا. إنه إريك، يتصل بها من باريس، قائلًا:

- إيزابيل. إنها مُصابة بحمى. لثتاها انتفختا واحمرتا فجأة. تنزفان كثيرًا لدى أقلِّ لمسة. لا أكاد أرى أسنانها يا باري. لا أعرف ماذا أفعل. قرأت في مكان ما أن ذلك قد يكون...

تريده أن يسكت. تريد أن تخبره أن يخرس، إنها لا تستطيع أن تتحمل سماع ذلك، لكن الوقت كان قد فات. تسمع الكلمة: «لوكيميا» (سرطان الدم)، أو ربما يقول «ليمفوما» (سرطان الغدد الليمفاوية)، وهل هناك فرق على أية حال؟ تجلس باري على حافة السرير، تجلس مثل حجر، رأسها ينبض، جلدها يتصبَّب عرقًا. تستشيط غضبًا من إريك لأنه زرع شيئًا رهيبًا مثل هذا في عقلها في منتصف الليل وهي على بُعد سبعمائة كيلومتر ولا تستطيع فعل شيء. تستشيط غضبًا من نفسها لغبائها، وقد عرَّضت نفسها هكذا، طوعًا، لحياة كاملة من القلق والأمل. كان ذلك جنونًا. مجرد خبل. إيمان لا أساس له، أحمق شديد الحماقة، أنه على الرغم من كل الاعتبارات، فإن العالم الذي لا تتحكم فيه لن يسلبك الشيء الوحيد الذي لا تطيق فقدانه. إيمان بأن العالم لن يُدمرك. تقول همسًا: **لا أستطيع تحمُّل هذا. لا أستطيع**. في تلك اللحظة، لا تستطيع التفكير في شيء أكثر طيشًا وعبثًا من أن يُنجب المرء طفلًا بمحض اختياره.

كذلك، فإن جزءًا منها - تفكر: **ساعدني يا رب. ليُسامحني الله على هذا** - منها يستشيط غضبًا من إيزابيل التي تفعل ذلك بها، التي تجعلها تعاني هذه المعاناة.

- إريك. إريك! اسكت. سأعاود الاتصال بك. يجب أن أضع السماعة الآن.

تُفرغ حقيبتها على السرير، تجد المفكرة كستنائية اللون التي تحتفظ فيها بأرقام التلفونات. تطلب مكالمة لليون. كوليت تعيش في ليون الآن مع زوجها، «ديدييه»، حيث فتحت وكالة سفريات صغيرة. ديدييه يدرس الطب، وهو مَن يرد على المكالمة.

يقول:

- تعرفين أنني أدرس الطب النفسي يا باري، أليس كذلك؟

- أعرف. أعرف. لقد فكرت فقط.

يسألها بعض الأسئلة: هل فقدت إيزابيل بعضًا من وزنها؟ تعرق في الليل، كدمات غير اعتيادية، إجهاد، حمى مزمنة؟

في النهاية، يقول إن إريك يجب أن يأخذها إلى طبيب في الصباح. لكن، إذا كان يتذكر على نحو صحيح من تدريبه العام في كلية الطب، فإن ذلك يبدو له أنه التهاب في اللثّة.

تقبض باري على السماعة بقوة، حتى يؤلمها رسغها. تقول بصبر:

- أرجوك يا ديدييه.

- حسنًا. آسف. ما أقصده أنه يبدو لي مثل الأعراض الأولى لقرحة الزكام.

- قرحة زكام؟

ثم يضيف أجمل كلمات سمعتها باري في حياتها:

- أظنها ستكون على ما يُرام.

لم تلتقِ باري بديدييه سوى مرَّتين: واحدة قبل زواجه من

كوليت، وواحدة بعد الزفاف مباشرة. لكن في تلك اللحظة، تشعر أنها تُحبه بحق. تقول له ذلك، وهي تبكي على الهاتف. تقول له إنها تُحبه، وتُكررها عدة مرَّات، فيضحك ويتمنى لها ليلة سعيدة. تتصل باري بإريك، الذي سيصحب إيزابيل في الصباح لرؤية الدكتور بيران. بعدها، تستلقي باري في الفراش وهي تشعر بطنين في أذنيها. تنظر إلى ضوء الشارع الذي يتسلل من فتحات الستائر الخشبية الخضراء الباهتة. تتذكر حين حُجزت في المستشفى بعد إصابتها بالالتهاب الرئوي، عندما كانت في الثامنة، وماما ترفض العودة إلى البيت، وتُصر على النوم في الكرسي المجاور لسريرها، وتشعر هي بصلة قربى جديدة، غير متوقعة، ومتأخرة، مع أمها. لقد اشتاقت إليها مرَّات كثيرة على مدار السنوات القليلة الماضية: في زفافها، بالطبع، وعند ولادة إيزابيل، وفي لحظات متنوعة وأوقات متباعدة. لكن ليس بهذه القوة الآن وفي هذه الليلة الرهيبة والعجيبة في غرفة الفندق في ميونيخ.

بعد عودتها إلى باريس في اليوم التالي، تقول لإريك إن عليهما ألا ينجبا ثانية بعد ألان، لأن ذلك سيزيد من احتمالات تمزق قلبها.

عام ١٩٨٥، وإيزابيل في السابعة، وألان في الرابعة، وتييري الصغير في الثانية، تقبل باري عرضًا بالتدريس في جامعة متميزة في باريس. ولبعض الوقت، تُصبح هدفًا لبعض المشاحنات والتفاهات الأكاديمية - الأمر الذي لا يُفاجئها، حيث أصبحت، وهي في السادسة والثلاثين، أصغر أستاذة في القسم، وواحدة من امرأتين فقط تحملان هذه الدرجة. تتحمل الأمر كما لم تتحمل ماما، وما كانت لتتحمل أبدًا، في رأيها. لا تُداهن ولا تتزلف، وتمتنع عن

الدخول في مهاترات أو كتابة شكاوى. ستظل دائمًا لديها شكوكها. لكن مع انهيار جدار برلين، كانت الجدران قد انهارت في حياتها الأكاديمية، وحققت نصرًا بطيئًا على معظم زملائها بتصرفاتها الحكيمة وحسها الاجتماعي الأخَّاذ. تعقد صداقات في قسمها - وفي غيره من الأقسام أيضًا - وتحضر فعاليات الجامعة، ومناسبات جمع التبرعات، وتجمعات الشراب وحفلات العشاء من حين إلى آخر. يصحبها إريك في تلك الأمسيات، وكنوع من المزاح المتفق عليه بينهما، يصر على وضع ربطة العنق الصوفية نفسها والسُّترة القطيفة نفسها التي لها رقعتان عند المرفقين. يتجول في أرجاء القاعة المزدحمة، مُتذوقًا المشهيات، مُرتشفًا النبيذ، بهيئة مُرتبكة على نحو بشوش، ومن وقت إلى آخر يكون على باري أن تنقض وتنقذه من مجموعة من مدرسي الرياضيات قبل أن يبدأ بالإدلاء بدلوه في المعادلات الرياضيَّة الخاصة بالأشكال ذات الأبعاد الثلاثية والمعادلات التي تضمُّ مجهولين أو أكثر.

وحتمًا، تجد باري في تلك الحفلات مَن يسألها عن رأيها في التطورات التي تجري في أفغانستان. في إحدى الأُمسيات، يسألها أستاذ زائر يُدعى شاتيلار، وقد لعبت الخمر برأسه قليلًا، عن رأيها حول ما سيحدث في أفغانستان عندما يغادر السوفييت.

- هل سيحقق قومكِ السلام، يا مدام بروفيسور؟

تقول:

- لا أعرف. عمليًّا، أنا أفغانية بالاسم فقط.

يقول:

- لكن، مع ذلك، لا بد أن لديكِ وجهة نظر بهذا الخصوص.

تبتسم، محاولةً أن تصد حالة عدم الاكتفاء التي تزحف دائمًا مع تلك الاستفسارات.

- فقط ما أقرأه في «لوموند»، مثلك.

- لكنكِ نشأتِ هناك، أليس كذلك؟

- لقد غادرتُ وأنا صغيرة. هل رأيت زوجي؟ إنه الرجل ذو الرُّقعتين على المرفقين.

ما تقوله صحيح. إنها لا تُتابع الأخبار، تقرأ في الصحف عن الحرب، الغرب يُسلح المجاهدين، لكن أفغانستان أصبحت بعيدةً عن دائرة اهتماماتها. لديها الكثير مما يشغلها في البيت، الذي صار الآن منزلًا جميلًا من أربع غرف نوم في «غيانكور»، يبعد حوالي عشرين كيلومترًا عن وسط باريس. إنهم يعيشون فوق تلة صغيرة بالقرب من مُتنزه به مماشي وبِرك. إريك يكتب مسرحيات الآن إضافة إلى التدريس. وإحدى مسرحياته، وهي مهزلة سياسية خفيفة، سوف تُنتج في الخريف في مسرح صغير بالقرب من «أوتيل دو فيل» في باريس، وقد كُلِّف بالفعل بكتابة مسرحية أخرى.

لقد شبَّت إيزابيل، وأصبحت مراهقة هادئة الطباع، لكن ذكية ومتأملة. تواظب على كتابة يومياتها، وتقرأ رواية كل أسبوع. تُحب «سنياد أوكونور». لديها أصابع جميلة طويلة، وتأخذ دروس «تشيللو». بعد بضعة أسابيع، سوف تلعب مقطوعة «شانسون تريست» (أغنية حزينة) لـ«تشايكوفسكي» في حفل موسيقي. كانت متحفظة في البداية على اختيار التشيللو، واضطُرت باري إلى أخذ بضعة دروس معها كنوع من التضامن، لكن تبين أن ذلك ليس ضروريًّا ولا مُستطاعًا. ليس ضروريًّا لأن إيزابيل سرعان ما تعلَّقت

بالآلة من تلقاء نفسها، وليس مُستطاعًا لأن آلة التشيللو سببت الألم ليدي باري. مر عام الآن، وباري تستيقظ كل صباح بتصلب في يديها ورسغيها لا يرتخي إلا بعد نصف ساعة، وأحيانًا ساعة. كان إريك قد توقف عن الضغط عليها لترى طبيبًا، لكنه يُصر الآن قائلًا:

- أنتِ ما زلت في الثالثة والأربعين يا باري. هذا ليس طبيعيًّا.

وتأخذ باري موعدًا.

ألان، الابن الأوسط، يتمتع بسحر فيه خُبث ومكر. إنه مهووس بفنون الدفاع عن النفس. وُلد قبل الأوان، وما يزال صغير الحجم بالنسبة لصبي في العاشرة، لكن ما ينقصه في البنية يعوضه وأكثر بالحماسة والنباهة. خصومه يُخدعون دائمًا بهيكله الضعيف وساقيه النحيلتين، يبخسونه حقه. كثيرًا ما تمددت باري وإريك في الفراش ليلًا وأبديا تعجبهما من عزيمته الهائلة وطاقته الوحشية. لا تشعر باري بالقلق، لا على إيزابيل ولا على ألان.

مَن يُقلقها هو تيبري. تيبري، وعلى نحو أزلي غامض ربما، يشعر أنه جاء على غير توقُّع، من غير قصد، ودون دعوة. تيبري ميَّال إلى الصمت الجارح والنظرات الضيقة، إلى الضجيج والمراوغة كلما طلبت أمه منه شيئًا. إنه يتحدَّاها بلا سبب آخر، فيما يبدو لباري، سوى التحدي نفسه. في بعض الأيام، يتجمع الغمام فوق رأسه. وتعرف باري. تستطيع، تقريبًا، أن ترى هذا الغمام يتجمع وينتفخ حتى ينفلق أخيرًا، سافحًا إعصارًا من غضب مصحوب بارتعاش في الخدين، وضرب القدمين على الأرض، وهو ما يخيف باري وتطرف له عينا إريك وهو يبتسم ببؤس. تعرف باري بشكل غريزي أن تيبري سوف يشكّل لها، مثل آلام مفاصلها، همًّا مدى الحياة.

كثيرًا ما تتساءل: أي نوع من الجدات كانت ستكون ماما؟ خصوصًا مع تييري؟ وبالحدس تفكر باري أن ماما كانت ستكون مفيدة معه. ربما كانت سترى شيئًا منها فيه - لا شيئًا بيولوجيًّا، بالطبع، فقد أصبحت باري واثقة من هذا الأمر منذ فترة. الأطفال يعرفون بأمر ماما. وإيزابيل، على وجه الخصوص، ينتابها الفضول. وقد قرأت الكثير من قصائدها.

تقول:

- أتمنى لو قابلتها.

تقول باري:

- تبدو كتابتها فاتنة.

- أظننا كنا سنُصبح صديقتين رائعتين، أنا وهي. هل تعتقدين ذلك؟ كنا سنقرأ الكتب نفسها. وكنت سألعب لها التشيللو.

تقول باري:

- حسنًا، كانت ستُحب ذلك. أنا واثقة من هذا على الأقل.

لم تكن باري قد أخبرت أطفالها بأمر الانتحار. ربما يعرفون ذات يوم، وعلى الأرجح لن يعرفوا. لكنهم لن يعرفوا منها. لن تزرع تلك البذرة في عقولهم؛ أن ثمة أمًّا قادرة على هجر أطفالها، على أن تقول لهم «أنتم لستم كفاية». بالنسبة إلى باري، طالما كان الأطفال وإريك ما تتمناه في هذا العالم، وسوف يظلون هكذا دائمًا.

في صيف ١٩٩٤، يصحب باري وإريك الأطفال إلى «مايوركا». كوليت، من خلال وكالة سفرياتها التي تزدهر هذه الأيام، تُرتب لهم الإجازة. يلتقيان بكوليت وديدييه في مايوركا، ويقيمون معًا لمدة أسبوعين في منزل مُستأجَر على الشاطئ.

كوليت وديديه لم يُنجبا أطفالًا، ليس بسبب سوء حظ بيولوجي، وإنما لأنهما لا يريدان أطفالًا. إنه توقيت رائع بالنسبة إلى باري؛ فالتهاب المفاصل الروماتيزمي كان تحت السيطرة في ذلك الوقت. تتناول جرعة أسبوعية من «الميثوتريكسيت»، يتقبَّله جسمها بصورة جيدة. لحُسن الحظ، لم تكن بحاجة لتناول أيٍّ نوعٍ من الكورتيزون في الآونة الأخيرة متجنبةً ما يسببه من أرق.

تقول لكوليت:

- ناهيكِ عن زيادة الوزن، فأنا أعرف أنه سيكون عليَّ ارتداء زي سباحة في إسبانيا.

تضحك، وتواصل:

- يا لحُب المظاهر.

يقضون أيامهم وهم يتجولون في الجزيرة، ينتقلون بالسيارة إلى الساحل الشمالي الغربي بجوار جبال «سيرا دي ترامونتانا»، ويتوقفون للتنزه على الأقدام بجوار بساتين الزيتون وفي غابة الصنوبر. يتناولون «البورتشيللا»، وطبقًا رائعًا من سمك القاروص يُدعى «لوبينا»، وباذنجان ويخنة كوسا تُدعى «تومبيت». يرفض تييري أن يأكل أي شيء، وفي كل مطعم تضطر باري إلى أن تطلب من الشيف إعداد طبق سباغيتي بصلصة طماطم عادية، بلا لحم، ولا جُبن. وبناء على رغبة إيزابيل - كانت قد اكتشفت الأوبرا مؤخرًا - يحضرون في إحدى الليالي عرض «توسكا» لـ«جياكومو بوتشيني». ولتحمُّل الوضع تتبادل كوليت وباري الشرب خلسةً من قنينة فضية من الفودكا الرخيصة. في منتصف الفصل الثاني، تكون

الخمر قد لعبت برأسيهما، فتضحكان ضحكًا مكتومًا مثل بنات المدارس في الجزء الذي يلعب فيه الممثل دور «سكاربيا».

ذات يوم، تأخذ باري وكوليت وإيزابيل وتييري الغداء معهم ويذهبون إلى الشاطئ؛ كان ديدييه وألان وإريك قد غادروا في الصباح لنزهة على الأقدام بمحاذاة خليج «سوبيه». في الطريق إلى الشاطئ يتوجهون إلى أحد المتاجر لشراء زي سباحة كان قد لفت انتباه إيزابيل. وهم يدخلون المتجر، تلمح باري انعكاسًا لصورتها في اللوح الزجاجي. عادة، وخصوصًا في الآونة الأخيرة، عندما تمر من أمام مرآة تجري بشكل آلي عملية عقلية تُجهزها لتحية ذاتها الأكبر سنًّا. تُدخلها في منطقة معزولة، تخفف الصدمة. لكن تلك المرَّة، في واجهة العرض تلك، أُخذت على حين غرة، ووجدت نفسها أمام حقيقة لم ينفع معها خداع الذات. ترى امرأة في منتصف العمر في بلوزة فضفاضة باهتة وتنورة شاطئ لا تُخفي كثيرًا من ثنيات جلدها المتهدلة فوق ركبتيها. تنعكس الشمس على المشيب في شعرها. وعلى الرغم من الخط الأسود الذي يُزين رموشها، وأحمر الشفاه الذي يُحدد شفتيها، فقد كان وجهها الآن من النوع الذي يراه العابرون فيشيحون بأبصارهم عنه، كما يشيحون بأبصارهم عن لافتة من لافتات الشوارع أو رقم صندوق بريدي. إنها لحظة قصيرة، لا تستمر بالكاد سوى ثانية، لكنها تكفي لأن تلمح فيها ذاتُها الوهمية حقيقةَ المرأة التي تبادلها النظر من واجهة المتجر. إنه شعور كاسح. وتفكر وهي تتبع إيزابيل إلى داخل المتجر: هكذا يكون التقدُّم في السِّن، تلك اللحظات العشوائية القاسية التي تقبض عليك في أقل لحظات توقعك.

لاحقًا، عندما يرجعون من الشاطئ إلى البيت المُستأجَر، يجدون الرجال هناك.

يقول ألان:

- بابا يتقدم في العمر.

من خلف النضد، يقلب إريك، الذي يُعد دورقًا من «السانغاريا»، عينيه ويهز كتفيه بلُطف.

- فكرت أنه سيكون عليَّ أن أحملك يا بابا.

- انتظر عامًا واحدًا. سنرجع العام المُقبل، ونتسابق حول الجزيرة، يا رفيق.

لا يعودون أبدًا إلى مايوركا. بعد أسبوع من عودتهم إلى باريس، يُصاب إريك بأزمة قلبية. يحدث ذلك بينما كان يتحدث في العمل إلى أحد فنيي الإضاءة. يتجاوز الأزمة، لكنه سوف يُصاب بأزمتين أخريين على مدار الأعوام الثلاثة التالية، آخرها ستكون قاتلة. وهكذا، تجد باري نفسها أرملة، مثل أمها، وهي في الثامنة والأربعين.

* * *

ذات يوم، في بواكير ربيع ٢٠١٠، تستقبل باري مكالمة هاتفية دولية. المكالمة ليست مفاجأة. الحقيقة أن باري ظلت تستعد لها طوال الصباح. قبل المكالمة، تتأكد باري أنها بمفردها في المنزل، وهو ما يعني مطالبة إيزابيل بالخروج قبل موعدها المعتاد. إيزابيل وزوجها، «ألبرت»، يعيشان شمالي «إيل سان دونيه» مباشرة، على بُعد بضعة شوارع من شقة باري المكوَّنة من غرفة نوم واحدة. تأتي إيزابيل لزيارة باري في الصباح يومًا بعد يوم، بعد أن توصل

أطفالها إلى المدرسة. تُحضر لباري خبز «الباجيت»، وبعض الفاكهة الطازجة. باري ليست حبيسة الكرسي المتحرك بعد، وهو المصير الذي ظلت تُعد نفسها له. ومع أن مرضها أجبرها على التقاعد المبكر في العام السابق، فإنها ما تزال قادرة بشكل كامل على الذهاب إلى السوق بمفردها، والخروج للتنزه يوميًّا. لكن المشكلة أن اليدين - اليدين الملتويتين القبيحتين - تخذلانها أكثر من أي شيء. في الأيام السيئة تشعر بأن فيهما شظايا من البلور تخشخش حول المفاصل. تضع باري قفازًا، كلما خرجت، لتُبقي يديها دافئتين، لكن السبب الأهم هو خجلها منهما، من عقد الأصابع الناتئة، الأصابع قبيحة المنظر التي تحمل ما يُسميه الأطباء «تشوهات رقبة البجعة»، الخنصر السفلية المثنية دائمًا.

تقول لكوليت:

- يا للغرور وحب التفاخر.

هذا الصباح، أحضرت لها إيزابيل بعض التين، وبضع قطع من الصابون، ومعجون أسنان، وعلبة بلاستيكية من إنتاج «تابَرْوير» مليئة بشوربة كريمة البندق. يُفكر ألبرت في أن يقترحها كطبق جديد على أصحاب المطعم الذي يعمل فيه مساعدًا لكبير الطباخين. وبينما تفرغ إيزابيل الأكياس، تحكي لباري عن وظيفتها الجديدة؛ إنها تؤلف الآن مقطوعات موسيقية لبرامج تلفزيونية، وإعلانات، وتأمل أن تعمل في أحد الأفلام قريبًا. تقول إنها ستبدأ في تأليف موسيقى لمسلسل قصير يُصوَّر حاليًّا في مدريد.

تسألها باري:

- هل ستذهبين إلى هناك؟ إلى مدريد؟

- لا. الميزانية صغيرة جدًّا. لن يُغطوا نفقات سفري.

- أمر مؤسف. كان يمكنِ أن تقيمي مع ألان.

- يا إلهي! هل تتخيَّلين يا ماما؟ ألان المسكين. إنه لا يكاد يجد مساحة يمد فيها قدميه!

ألان مستشار مالي، يعيش في شقة صغيرة في مدريد مع زوجته، «آنا»، وأطفالهما الأربعة، يُرسل إلى باري بانتظام صورًا ولقطات فيديو قصيرة لأطفاله بالبريد الإلكتروني.

تسأل باري إن كانت إيزابيل قد سمعت من تييري، وتقول إيزابيل إنها لم تسمع منه. تييري في إفريقيا، في الجزء الشرقي من تشاد، حيث يعمل في أحد المخيمات مع لاجئين من دارفور. تعرف باري هذا الأمر لأن تييري على اتصال متقطع مع إيزابيل. إنها الوحيدة التي تتحدث معه. هكذا تعرف باري الخطوط العريضة لحياة ابنها - مثلًا، أنه قضى بعض الوقت في فيتنام، أو أنه قد تزوَّج من امرأة فيتنامية ذات مرَّة، زيجة قصيرة، عندما كان في العشرين.

تضع إيزابيل قدرًا من الماء ليغلي على النار وتُخرج فنجانين من الخزانة.

- ليس اليوم، يا إيزابيل. الحقيقة، يجب أن أطلب منكِ الخروج.

تنظر إليها إيزابيل نظرة مكلومة، وتُوبخ باري نفسها على عدم صياغة العبارة على نحو أفضل. لطالما كانت إيزابيل رقيقة الطبع.

- ما قصدت قوله هو أنني أنتظر مكالمة هاتفية وأحتاج إلى بعض الخصوصية.

- مكالمة؟ ممن؟

تقول باري:
- سأُخبرك لاحقًا.
تعقد إيزابيل ذراعيها وتبتسم:
- هل وجدتِ عشيقًا يا ماما؟
- عشيق! هل أنت عمياء؟ هل نظرت إليَّ مؤخرًا أصلًا؟
- لا شيء يعيبك.
- يجب أن تخرجي. سأشرح لكِ فيما بعد. أعدكِ.
- حسنًا، حسنًا.
تُعلق إيزابيل حقيبتها على كتفها، وتتناول معطفها ومفاتيحها:
- لكنني أقول لكِ إنك نجحت في إثارة فضولي.

الرجل الذي يتصل في التاسعة والنصف صباحًا يُدعى «ماركوس فارفاريس». كان قد تواصل مع باري عبر حسابها على الفيسبوك بهذه الرسالة، المكتوبة بالإنجليزية: **هل أنت ابنة الشاعرة نيلا وحدتي؟ إذا كنت كذلك، فأود كثيرًا أن أتحدث معكِ حول شيء سيُثير اهتمامك.**

كانت باري قد بحثت في شبكة الإنترنت عن اسمه، ووجدت أنه جراح تجميل يعمل في منظمة غير ربحية في كابول. الآن، على الهاتف، يُحييها بالفارسية، ويواصل الحديث بالفارسية حتى تقاطعه باري:
- مسيو فارفاريس، عفوًا، هل يُمكنك التحدث بالإنجليزية؟
- نعم، بالطبع. عفوًا. افترضت أن... مع أن ذلك، بالطبع، منطقي، فقد غادرتِ عندما كنتِ صغيرة جدًّا، أليس كذلك؟
- بلى.

- أنا شخصيًّا تعلَّمت الفارسية هنا، وأزعم أنني أستطيع التعامل بها إلى حد ما. إنني أعيش هنا منذ عام ٢٠٠٢، بعد فترة قصيرة من رحيل طالبان. كانت تلك أيامًا مُثيرة للتفاؤل. نعم، كان الجميع مُستعدين لإعادة البناء والديموقراطية وهذه الأشياء. الآن صارت القصة مختلفة. حقًّا أننا نستعد لانتخابات رئاسية، لكن تلك قصة أخرى. يؤسفني أنها كذلك.

تنصت باري بصبر، بينما يلف ماركوس فارفاريس ويدور حول التحديات اللوجستية التي تواجه الانتخابات في أفغانستان، التي يقول إن «كارزاي» سيفوز بها، ثم حول غزوات طالبان المُقلقة في الشمال، واعتداءات الإسلاميين المتزايدة على وسائل الإعلام، وملاحظة جانبية أو اثنتين حول الزيادة السكانية في كابول، ثم حول تكلفة الإعمار، وأخيرًا، قبل أن يعود إلى الموضوع، يقول:

- إنني أعيش في هذا البيت منذ سنين، وأعلم أنكِ قد عشتِ في البيت نفسه.

- عفوًا؟

- كان هذا بيت والدكِ. هذا ما فهمته من مجريات الأمور، على أية حال.

- هل لي أن أسأل: مَن قال لك ذلك؟

- المالك. اسمه نبي. كان اسمه نبي، للدقة. فقد تُوفِّي مؤخرًا، مع الأسف. هل تتذكرينه؟

يستحضر الاسم عند باري وجهًا شابًّا وسيمًا، سوالف، كتلةً منتصبةً من الشعر الداكن الكثيف الممشط إلى الخلف.

- نعم. هذا هو اسمه، على الأغلب. كان طباخًا في منزلنا، وسائقًا أيضًا.

- نعم، كان الاثنين. لقد عاش هنا، في هذا البيت، منذ عام ١٩٤٧. اثنان وستون عامًا. أمر لا يُصدَّق! لكن، كما قلتُ، فقد توفِّيَ الشهر الماضي. كنت مُعجبًا به كثيرًا، والجميع كانوا كذلك.

- نعم.

يقول ماركوس فارفاريس:

- أعطاني نبي رسالة. كان يُفترض بي ألا أقرأها إلا بعد موته. وعندما مات، طلبت من زميل أفغاني أن يُترجمها إلى الإنجليزية. هذه الرسالة، هي أكثر من رسالة. خطاب، على وجه الدقة، وخطاب لافت أيضًا. يقول نبي فيها بعض الأشياء. وقد بحثت عنكِ لأن بعضها يتعلَّق بكِ، وأيضًا لأنه طلب مني فيها بشكل مباشر أن أعثر عليكِ وأن أُعطيكِ هذا الخطاب. استغرقت بعض الوقت في البحث، لكنني استطعت العثور عليكِ، بفضل الإنترنت.

يُطلق ضحكة قصيرة.

ثمة رغبةٌ لدى باري أن تضع السماعة. بالحدس، لا تشك في صحة المعلومات، أيًّا كانت، التي قد خطَّها هذا الرجل المُسن - هذا الشخص القادم من ماضيها البعيد - على الورق، في النصف الآخر من العالم. لقد عرفت منذ زمن طويل أن ماما كذبت عليها بشأن طفولتها، لكن حتى وإن كانت الأرض التي قامت عليها حياتها قد شُرخت بكذبة، فما زرعته باري من وقتها في تلك الأرض حقيقي ومتين وراسخ كشجرة بلوط عملاقة: إريك، وأطفالها، وأحفادها، ومسارها المهني، وكوليت. فما الفائدة؟ بعد كل هذا الزمن، ما الفائدة؟ ربما من الأفضل أن تضع السماعة.

لكنها لا تضع السماعة. قلبها يخفق وكفَّاها تتعرقان، وتقول:

- ماذا... ماذا يقول في تلك الرسالة، في هذا الخطاب؟

- حسنًا، يقول أشياء من بينها أنه خالكِ.

- خالي؟!

- شقيق زوجة أبيكِ، على وجه التحديد. وهناك المزيد. يقول أشياء أخرى أيضًا.

- مسيو فارفاريس، هل هي معك؟ تلك الرسالة، أو الخطاب، أو الترجمة؟ هل هي معك الآن؟

- نعم.

- هل يُمكنك أن تقرأها؟

- تقصدين الآن؟

- إذا كان لديك وقت. أستطيع أن أتصل أنا بك، وأدفع تكلفة المكالمة.

- لا ضرورة لذلك، لا. لكن هل أنت متأكدة؟

تقول:

- نعم. أنا متأكدة يا مسيو فارفاريس.

يقرأ. يقرأ لها الخطاب كله. يستغرق الأمر بعض الوقت، وعندما ينتهي، تشكره، وتخبره أنها ستتصل به قريبًا.

بعد أن تضع السماعة، تشغِّل آلة القهوة لتُعد لها فنجانًا وتتجه إلى النافذة. من هناك، ينكشف المنظر المألوف أمامها - الممر الضيق المرصوف بالحصى في الأسفل، والصيدلية القريبة، وركن الفلافل عند الناصية، والمطعم الذي تديره عائلة من إقليم الباسك.

ترتجف يدا باري. شيء مُفزع يحدث لها. شيء لافت بحق. تتذكَّر صورة فأس تضرب التربة وفجأة يقبق نفط أسود كثيف على

السطح. هذا ما يحدث لها، ذكريات تتلقى ضربة من فوق، تصعد من الأعماق. تحدق من نافذتها في اتجاه المطعم، لكن ما تراه ليس النادل النحيل تحت المظلة، والملاءة السوداء مربوطة حول وسطه وهو يمسح إحدى الطاولات، وإنما عربة حمراء صغيرة تُحدث إحدى عجلاتها صريرًا وهي تتقدم إلى الأمام تحت سماء من سحاب يتشكَّل، تتدحرج على حواف المرتفعات وفوق مجارٍ مائية جافة، صعودًا وهبوطًا على التلال البرتقالية المصفرَّة التي تلوح ثم تتلاشى. ترى تشابكات من أشجار الفاكهة في البساتين، النسيم الذي يُداعب أوراقها، وصفوفًا من كرمات العنب تربط بين بيوت صغيرة ذات أسطح مُسطحة. ترى حبال غسيل ونساء يقرفصن بجوار الجدول، وحبال أرجوحة تَصرُّ أسفل شجرة ضخمة، وكلبًا كبيرًا، يختبئ من إساءات أولاد القرية، ورجلًا بأنف مثل منقار الصقر يحفر قناة، العرق يلصق قميصه بظهره، وامرأة مُنقّبة مُنحنية على نار للطبخ.

لكن ثمة شيئًا آخر أيضًا على حافة كل ذلك، في إطار ما تراه، وهذا ما يجذبها أكثر من أي شيء. ترى ظلًّا مراوغًا، شبحًا، ناعمًا وصلبًا في الوقت نفسه، نعومة يد تمسك يدها، صلابة رُكبتين أراحت عليهما خدها ذات يوم. تبحث عن هذا الوجه، لكنه يتملَّص منها، يتفلَّت، كلما أدارت وجهها في اتجاهه. تشعر باري بثقب ينفتح في داخلها. لقد كان في حياتها، طيلة حياتها، غيابٌ هائل. طالما كانت تعرف ذلك، بطريقة ما.

- أخ.

تقولها دون أن تعي أنها تتكلَّم، دون أن تعي أنها تبكي.

وفجأة يتردد على لسانها مقطعٌ من أغنية فارسية:

أعرف جنية صغيرة حزينة

عصفت بها الريح في ليلة ليلاء

ثمة بيتٌ آخر، سابقٌ على هذا ربما، هي متأكدة منه، لكنه يُراوغها أيضًا.

تجلس باري. عليها أن تجلس. لا تظن أن في مقدورها الوقوف في تلك اللحظة. تنتظر القهوة أن تجهز وتُفكر أنها ستشرب فنجانًا، ثم ربما سيجارة، ثم ستذهب إلى غرفة المعيشة لتتصل بكوليت في ليون، لترى إن كانت صديقتها القديمة يمكن أن ترتب لها رحلة إلى كابول.

لكن باري الآن تجلس، وتغمض عينيها، فيما تبدأ آلة القهوة في القرقرة، وتتراءى لها من خلف أجفانها تلال ناعمة، وسماء عالية وزرقاء، والشمس تغرب خلف طاحونة هواء، ودائمًا، دائمًا، سلاسل غائمة من الجبال تتلاشى وتتلاشى في الأفق.

٧
صيف ٢٠٠٩

- والدك رجل عظيم.

رفع «عادل» رأسه. كانت المُدرِّسة، «ملالاي»، هي التي انحنت وهمست بتلك الكلمات في أذنه. امرأة ممتلئة، في منتصف العمر، تضع على كتفيها شالًا بنفسجيًّا مُطرزًا، وكانت تبتسم له الآن بعينين مُغمضتين.

- وأنت ولد محظوظ.

رد عليها هامسًا:

- أعرف.

قالت:

- أمر طيِّب.

كانا واقفين على السلالم الأمامية لمدرسة البنات الجديدة في البلدة، بناية مستطيلة الشكل مدهونة بالأخضر الفاتح ولها سقف مسطح ونوافذ واسعة، بينما كان والد عادل، أو «بابا جان» كما يناديه، يتلو دعاء قصيرًا متبوعًا بخطبة حماسية، وقد تجمَّع أمامهما في قيظ الظهيرة اللاهب حشد كبير من الأطفال، وأولياء الأمور،

والمُسنين، يضيقون عيونهم في الشمس، نحو مائة أو ما يقرب من سكان البلدة الصغيرة، «شدباغي - ناو»، «شدباغ الجديدة».

قال والد عادل، وسبابته الغليظة مرفوعة في اتجاه السماء:

- أفغانستان هي أمنا كلنا.

انعكست الشمس على إطار خاتمه ذي الفص العقيق.

- لكنها أم مريضة، وقد عانت لزمن طويل. الآن، صحيح أن الأم تحتاج إلى أولادها لكي تتعافى. نعم، لكنها تحتاج إلى بناتها أيضًا - بالقدر نفسه، إن لم يكن أكثر!

أثار ذلك تصفيقًا عاليًا ونداءات عدة وصيحات استحسان. عاين عادل الوجوه في الحشد. كانت مفتونة وهي تتطلع إلى والده. بابا جان، بحاجبيه الأسودين الكثين ولحيته الطويلة، وهو يقف طويلًا وقويًا وعريضًا أعلى منهم جميعًا، كتفاه عريضتان بما يكفي تقريبًا لسدِّ باب المدرسة من خلفه.

تابع والده خطبته، والتقت عينا عادل بعيني «كبير»، أحد الحارسين الشخصيين لبابا جان اللذين كانا يقفان بطريقة مهيبة على الجانب الآخر من بابا جان، ممسكين ببندقيتي كلاشنكوف. كان عادل يرى الحشد مُنعكسًا في نظارة كبير الشمسية من طراز «الطيار». كان كبير قصيرًا، رفيعًا، يكاد يكون ضعيفًا، ويرتدي بدلات بألوان مبهرجة - أرجواني، فيروزي، برتقالي - لكن بابا جان كان يقول إنه صقر، وإن مَن يبخسه حقه يقع في خطأ سيدفع ثمنه.

اختتم بابا كلمته وهو يمد ذراعيه الطويلتين الغليظتين إلى الأمام في إشارة ترحيب واضحة:

- لذا أقول لكُنَّ هذا، يا بنات أفغانستان الصغيرات. أمامكن الآن مهمة جادة؛ أن تتعلمن، أن تكدحن، للتميز في دراستكن، ليفخر بكن لا آباؤكن وأمهاتكن فحسب بل الأم التي تجمعنا جميعًا. إن مستقبلها بين أيديكن، لا يديَّ. إنني أُطالبكن ألا تفكرن في هذه المدرسة كهدية مني لكنَّ. إنها مجرد مبنى تسكنه الهدية «الحقيقية»، ألا وهي أنتن. أنتن الهدية، يا أخواتي الصغيرات، ليس فقط لي ولأهالي «شدباغي - ناو»، ولكن، الأهم من ذلك، لأفغانستان نفسها! بارك الله فيكن.

انطلق التصفيق مرَّة أخرى. وراح عدد من الحضور يهتفون:

- بارك الله فيك يا قائد صاحب!

رفع بابا جان قبضته، وابتسم ابتسامة واسعة، وكادت عينا عادل تدمعان من الفخر.

ناولت المُدرِّسة ملالاي بابا جان مقصًّا. كان شريط أحمر قد رُبط أمام مدخل غرفة الدرس. اقترب الحشد أكثر لتسنح لهم إطلالة أفضل، وأشار كبير لبعض الناس أن يتراجعوا، ودفع اثنين منهم في الصدر. ارتفعت الأيادي من الحشد، ترفع الهواتف المحمولة لتسجيل لقطات فيديو لقص الشريط. تناول بابا جان المقص، وتوقف، واستدار إلى عادل وقال:

- هاك يا بُني، لك هذا الشرف.

ناول المقص لعادل.

طرف عادل بعينيه:

- أنا؟

قال بابا جان وهو يغمز له:

- تقدَّم.

قص عادل الشريط، وانفجر تصفيق طويل. سمع عادل طقطقات بضع كاميرات، وأصواتًا تهتف:

- الله أكبر.

بعدها، وقف بابا جان عند المدخل، بينما راحت الطالبات يقفن طابورًا ويدخلن غرفة الدرس واحدة تلو أخرى. كُن فتيات صغيرات، أعمارهن بين الثامنة والخامسة عشرة، كلهن يضعن حجابًا أبيض، ويرتدين زيًّا موحدًا مُضلعًا بالأسود والرمادي كان بابا قد أعطاه لهن. أخذ عادل يُراقب فيما تتقدم كل طالبة بخجل وتُقدِّم نفسها لبابا جان وهي في طريقها إلى الداخل. وراح بابا جان يبتسم بود، ويربت على رؤوسهن، وينطق بكلمة تشجيع أو اثنتين:

- أتمنى لك النجاح يا بيبي مريم. اجتهدي في المذاكرة يا بيبي حُميرة. اجعلينا نفخر بكِ يا بيبي إلهام.

لاحقًا، بجوار «اللاندكروزر» السوداء، وقف عادل إلى جوار والده، وقد أخذ يتعرق من الحرارة، يراقبه وهو يصافح أهل البلدة. كان بابا جان يُداعب مسبحة في يده الحرة وينصت بصبر، وقد مال قليلًا إلى الأمام، وجبهته عابسة، مُومئًا، مُنتبهًا لكل شخص، رجلًا أو امرأةً، يأتيه ليشكره، أو يدعو له، أو يُحييه، والكثير منهم يستغلون الفرصة ليطلبوا معروفًا: أمٌّ يحتاج ابنها المريض إلى زيارة جراح في كابول، رجل يحتاج إلى قرض ليفتح ورشة لتصليح الأحذية، ميكانيكي يطلب أدوات جديدة.

- يا قائد صاحب، إذا استطعت أن تجد في قلبك...

- ليس لديَّ من ألجأ إليه غيرك، يا قائد صاحب.

لم يسبق أن سمع عادل أي شخص خارج نطاق أسرته الصغيرة يخاطب بابا جان بأي شيء بخلاف «قائد صاحب»، إلى الآن، وحتى بعد زمن طويل من جلاء الروس، حيث لم يكن بابا جان قد أطلق طلقة بندقية واحدة منذ عقد أو أكثر من الزمان. في بيتهم، ثمة صور مُؤطرة لأيام جهاد بابا جان مُعلَّقة في كل مكان على جدران غرفة المعيشة. كان عادل قد حفظ في ذاكرته كلًّا من تلك الصور: والده يستند على مقدمة سيارة جيب قديمة مُغبَّرة، مُقرفصًا على برج دبابة مُتفحمة، مُتخذًا وضعية التصوير بفخر مع رجاله، حزام الذخيرة مُعلَّق على صدره، بجانب مروحية كانوا قد أسقطوها. هنا صورة يرتدي فيها صديرية ويُعلق على كتفه حمالة طلقات، جبينه مضغوط على أرض الصحراء في سجدة صلاة. كان والد عادل أكثر نحولًا في تلكم الأيام، ودائمًا لم يكن في خلفية تلك الصور أي شيء سوى الجبال والرمال.

أُصيب بابا جان بطلق ناري مرَّتين من جانب الروس في أثناء المعركة. كان قد أرى جراحه لعادل، واحدًا أسفل الجانب الأيسر من القفص الصدري مباشرة - وقد قال إن هذا الجرح كلَّفه طحاله - وواحدًا على بعد مسافة بطول الإبهام من سُرته. قال إنه، بالنظر إلى الظروف، كان محظوظًا؛ إذ كان له أصدقاء فقدوا أذرعًا، وسيقانًا، وعيونًا، وأصدقاء احترقت وجوههم. قال بابا جان إنهم فعلوا ذلك من أجل بلادهم. تضحية. أنت تُضحي بأطرافك، أو بصرك - أو حتى حياتك - وتفعل ذلك عن طيب خاطر. قال إن الجهاد يُكسبك دائمًا حقوقًا ومميزات لأن الله يرى أن أولئك الذين يضحُّون أكثر من غيرهم جديرون، كذلك، بحصد أجور أكبر.

«في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة»، هكذا قالها بابا وهو يشير بإصبعه الغليظة إلى أسفل أولًا، ثم إلى أعلى.

تمنى عادل، وهو ينظر إلى الصور، لو كان موجودًا ليُجاهد إلى جوار والده في تلك الأيام المليئة بالمغامرات. كان يُحب أن يتخيَّل نفسه مع بابا جان يُطلقان النار على مروحيات الروس معًا، ويفجران الدبابات، ويتفاديان نيران البنادق، ويعيشان في الجبال، وينامان في الكهوف. أب وابنه، بطلا حرب.

كانت هناك أيضًا صورة كبيرة مُؤطرة لبابا جان يبتسم إلى جوار الرئيس كرزاي في «أرك»، القصر الرئاسي في كابول. هذه الصورة حديثة نوعًا، التقطت في أثناء احتفال صغير تسلَّم فيه بابا جان جائزة على عمله الإنساني في «شدباغي - ناو». كانت جائزة استحقها بابا جان عن جدارة، إذ كانت مدرسة البنات الجديدة مجرد مشروع من مشروعاته. كان عادل يعرف أن نساء البلدة يمتن في أثناء الولادة. لكن الحال لم تعد كذلك لأن والده افتتح عيادة كبيرة، تضم طبيبين وثلاث قابلات يدفع هو أجورهم من ماله الخاص. كان كل أهالي البلدة يتلقون رعاية مجانية في تلك العيادة، وأصبح التطعيم يجري لكل أطفال «شدباغي - ناو». كان بابا جان قد أرسل فرقًا لتحديد مواقع المياه في جميع أنحاء البلدة والحفر بحثًا عن آبار. وقد ساعد أخيرًا على إدخال التيار الكهربائي المنتظم إلى «شدباغي - ناو». وافتُتحت عشرة مشروعات على الأقل بفضل قروض جاد بها، وكانت نادرًا ما تُسدد، كما عرف عادل من كبير.

كان عادل يقصد ما قاله للمُدرِّسة في وقت سابق. «يعرف» أنه محظوظ كونه ابن رجل مثل هذا.

فور انتهاء جولات المصافحة، رأى عادل رجلًا ضئيلًا يقترب من والده. كان يرتدي نظارة مُدوَّرة بإطار رفيع، وله لحية رمادية قصيرة، وأسنان صغيرة مثل رؤوس أعواد ثقاب مُشتعلة. كان يتبعه صبي في سن عادل تقريبًا. أصابع قدمي الصبي تبرز من ثقوب مُتشابهة في فردتي حذائه الرياضي، وكان شعره كتلة مُتشابكة وثابتة ومُتلبدة، وبنطلونه الجينز مُتصلبًا من الأوساخ، كما أنه كان قصيرًا جدًّا. وعلى العكس منه، كان التي شيرت مُتهدلًا يكاد يصل إلى ركبتيه.

سدَّ كبير الطريق بين الشيخ وبين بابا جان.

قال:

- سبق أن قلت لك إنه ليس الوقت المناسب.

فقال الشيخ:

- لا أريد سوى كلمة سريعة مع القائد.

تناول بابا جان ذراع عادل وقاده برقة إلى المقعد الخلفي للاندكروزر:

- هيا نذهب يا بُني. أمك في انتظارك.

ركب إلى جانبه وأغلق الباب.

في الداخل، بينما كان شباك السيارة المطلي يرتفع، راح عادل يراقب كبير وهو يقول شيئًا للشيخ لم يستطع عادل سماعه. ثم دار كبير حول مُقدمة السيارة وركب في مقعد السائق، واضعًا البندقية الكلاشنكوف على المقعد المجاور قبل أن يُدير المحرك.

سأله عادل:

- ماذا كان هذا الأمر؟

قال كبير:

- لا شيء مُهم.

استداروا إلى الطريق، وراح بعض الصبية الذين وقفوا في الحشد يطاردونهم لبرهة قبل أن تنطلق اللاندكروزر. قاد كبير عبر الشريط الرئيسي المزدحم الذي يقطع بلدة «شدباغي - ناو»، وهو يواصل إطلاق البوق ويراوغ ليمر بين السيارات. الجميع كانوا يصيحون، والبعض راحوا يلوحون. راقب عادل الأرصفة المزدحمة على جانبيه، وأخذت المناظر المألوفة تظهر ثم تختفي أمام عينيه - الذبائح المُعلَّقة بخطاطيف في متاجر الجزارة، والحدادون وهم يُديرون عجلاتهم الخشبية، ويضخون بأيديهم منافيخ الكير، وتجار الفاكهة يهشون الذباب عن ثمار الكرز والعنب، وحلاق الرصيف على الكرسي الخوص يشحذ شفرته. مروا بمحال شاي، وبيوت كباب، وورشة لإصلاح السيارات، وجامع، قبل أن ينعطف كبير بالسيارة في ميدان البلدة العمومي الكبير، الذي تتوسطه نافورة زرقاء ومُجاهد من الحجر الأسود بارتفاع تسعة أقدام، ينظر في اتجاه الشرق، وعمامته ملفوفة بأناقة فوق رأسه، وسلاح «آر بي جي» على كتفه. كان بابا جان قد كلف بنفسه نحاتًا من كابول لإقامة هذا التمثال.

إلى شمال الطريق، كانت منطقة سكنية تضم عدة بنايات، يتكوَّن أغلبها من شوارع ضيقة غير مرصوفة، وبيوت صغيرة ذات أسقف مُسطحة مدهونة بالأبيض أو الأصفر أو الأزرق. كانت أطباق «الستالايت» فوق أسطح بعض منها، وأعلام أفغانية مُعلَّقة على عدد من النوافذ. أخبر بابا جان عادل أن معظم البيوت والأعمال

في «شدباغي - ناو» قد بُنيت في السنوات الخمس عشرة الأخيرة أو نحو ذلك. كان له يد في بناء العديد منها، ومعظم الناس الذين يعيشون هنا يعتبرونه مؤسس «شدباغي - ناو». وكان عادل يعرف أن كبار رجال البلدة قد عرضوا تسمية البلدة باسم بابا جان لكنه اعتذر عن هذا الشرف.

من هناك، كان الطريق الرئيسي يمتد شمالًا لميلين قبل أن يتصل بـ«شدباغي - كوهنا»، «شدباغ القديمة». لم يرَ عادل قَطُّ القرية كما كانت تبدو قبل عقود. فعندما نقله بابا جان هو وأمه من كابول إلى شدباغ، كانت القرية قد اختفت تمامًا. كل البيوت زالت. وكان الأثر الوحيد الباقي من الماضي هو طاحونة هواء مُتداعية. في «شدباغي - كوهنا»، انعطف كبير إلى اليسار، وخرج من الطريق الرئيسي إلى درب واسع غير مرصوف بطول رُبع ميل يصل الطريق الرئيسي بالأسوار السميكة التي يبلغ ارتفاعها اثني عشر قدمًا للـ«كومباوند» الذي كان يعيش فيه عادل مع والديه - الهيكل الوحيد الذي ما يزال قائمًا إلى الآن في «شدباغي - كوهنا»، باستثناء الطاحونة. الآن، رأى عادل الأسوار البيضاء بينما كانت السيارة تشق طريقها وتقفز على الدرب. وأعلى الأسوار تمتد لفَّات من الأسلاك الشائكة.

حيَّاهم حارس يرتدي زيًّا موحدًا، يقف دائمًا في حراسة البوابة الرئيسية للكومباوند، وفتح لهم البوابة. قاد كبير السيارة مُتجاوزًا الأسوار، وماضيًا في طريق مفروش بالحصى في اتجاه البيت.

كان البيت يعلو بارتفاع ثلاثة طوابق، وقد دُهن بالوردي الزاهي والأخضر الفيروزي. كانت له أعمدة عالية، وأفاريز مُدببة، وزجاج عاكس يُشبه زجاج ناطحات السحاب يتلألأ في الشمس. كما كان

له سطح مُحاط بسور، و«فَرَنده» بفُسيفساء مُتلألئة، وشرفات واسعة لها درابزين من الحديد المشغول. بالداخل، كانت لديهم تسع غرف نوم وسبعة حمَّامات، وأحيانًا، عندما كان عادل وبابا جان يلعبان «الغُمَّيضة»، كان عادل يهيم في أرجاء البيت لساعة أو أكثر قبل أن يعثر على والده. كانت كل الرفوف في الحمَّام والمطبخ مصنوعة من الجرانيت والرخام الكلسي. ومؤخرًا، ومما أثار فرحة عادل، صار بابا جان يتكلم عن حفر حمَّام سباحة في الطابق السفلي.

توقف كبير في المدخل المستدير أمام بوابة البيت الأمامية العالية، وأوقف المحرك.

قال بابا جان:

- هل يمكنك تركنا بمفردنا بعض الوقت؟

أومأ كبير وخرج من السيارة. تابعه عادل وهو يصعد الدرجات الرخامية إلى البوابة ويضغط على الجرس. كان «أزمري»، الحارس الشخصي الثاني - وهو رفيق قصير خشن ومتين البنية - هو مَن فتح البوابة. تبادل الرجلان بضع كلمات، ثم تلكآ على الدرج، وأشعل كل منهما سيجارة.

قال عادل:

- هل يجب أن تذهب فعلًا؟

كان والده مُغادرًا إلى الجنوب في الصباح ليُشرف على حقول القطن التي يمتلكها في «هلمند»، وليقابل العمال في مصنع القطن الذي شيَّده هناك. سيسافر لأسبوعين، وهو زمن بدا لعادلٍ لا مُتناهيًا.

أدار بابا جان نظره إليه. كان يحتل أكثر من نصف المقعد الخلفي، وبدا عادل إلى جواره قزمًا ضئيلًا:

- أتمنى لو لم أكن مُضطرًّا يا بُني.

أومأ عادل برأسه.

- شعرت اليوم بالفخر. كنت فخورًا بك.

وضع بابا جان يده الثقيلة الكبيرة على رُكبتي عادل.

- شكرًا لك يا عادل. أنا أُقدِّر هذا. لكنني أصحبك إلى هذه المناسبات لكي تتعلَّم، لكي تفهم أنه من المهم على الميسورين، أمثالنا، أن يتحملوا مسؤولياتهم.

- فقط كنت أتمنى لو لم تضطر إلى المغادرة هذه المرَّة.

- وأنا أيضًا يا بُني. وأنا أيضًا. لكنني لن أُغادر حتى الغد. سأرجع إلى البيت هذا المساء.

أومأ عادل برأسه، وقد نكسه مُثبتًا نظرته على يديه.

قال بابا بصوت ناعم:

- اسمع، الناس في هذه البلدة بحاجة إليَّ يا عادل، بحاجة إلى مساعدتي لكي يحصلوا على بيت، ولكي يجدوا عملًا، ولكي تستقيم حياتهم. كابول لديها مشاكلها، ولا تستطيع أن تساعدهم. لذا إن لم أُساعدهم فلن يساعدهم أحد، وهكذا سيُعاني هؤلاء الناس.

همهم عادل:

- أعرف هذا.

ضغط بابا جان على رُكبته برفق:

- أنت تفتقد كابول، أعرف، وتفتقد أصدقاءك هناك. لقد كان ترتيبًا صعبًا هنا، عليك وعلى أمك. وأنا أعرف أنني أُسافر طوال

الوقت وأذهب إلى اجتماعات، وأن الكثير من الناس يأخذون من وقتي، لكن... انظر إليَّ يا بُني.

رفع عادل عينيه لتلتقيا بعيني بابا جان. كانتا تشعان ناحيته برقة من تحت مظلة حاجبيه الكثَّين.

- لا أحد على وجه الأرض يهمني أكثر منك يا عادل. أنت ابني. وأنا مُستعد للتضحية بكل ذلك من أجلك. مُستعد للتضحية بحياتي من أجلك يا بُني.

أومأ عادل برأسه، وراحت عيناه تدمعان قليلًا. أحيانًا، عندما يتكلم بابا جان بهذه الطريقة، يشعر عادل بقلبه يمتلئ ويمتلئ حتى يجد من الصعب عليه أن يأخذ نَفَسه.

- هل تفهمني؟

- نعم يا بابا جان.

- هل تُصدِّقني؟

- أُصدِّقك.

- حسنًا. إذًا، أعطِ قُبلة لأبيك.

رمى عادل بذراعيه حول رقبة بابا جان، وضمه والده بقوة وصبر. تذكَّر عادل عندما كان صغيرًا، عندما كان ينقر على كتف أبيه في منتصف الليل وهو ما يزال يرتعد من كابوس رآه، وكيف كان والده يرفع الغطاء ويجعله يصعد إلى فراشه، فيُحكم غطاءه، ويُقبِّل قمة رأسه حتى يتوقف عادل عن الارتعاش ويروح في النوم ثانية.

قال بابا:

- ربما آتي لك بشيء صغير من هلمند.

قال عادل بصوت مكتوم:

- لا حاجة بك لذلك.

كان لديه بالفعل عدد كبير من الألعاب التي لا يعرف ماذا يفعل بها، ولم تكن ثمة لعبة على وجه الأرض يمكن أن تعوضه عن غياب والده.

* * *

في وقت لاحق ذاك اليوم، اقتعد عادل درجة على منتصف السلم وتجسَّس على المشهد الذي يتبدَّى بالأسفل. رنَّ جرس الباب وفتح كبير. الآن كان كبير يستند على إطار الباب وذراعاه معقودتان، يسد المدخل، وهو يتحدث إلى الرجل على الجانب الآخر. كان الشيخ الذي رآه عند المدرسة، الشيخ ذا النظارة والأسنان الشبيهة بأعواد الثقاب المُحترقة. وكان الولد صاحب الحذاء المثقوب هناك أيضًا، يقف إلى جواره.

قال الشيخ:

- إلى أين ذهب؟

قال كبير:

- لديه عمل في الجنوب.

- سمعت أنه سيُسافر غدًا.

هز كبير كتفيه.

- كم سيغيب؟

- شهرين وربما ثلاثة. مَن يعرف.

- هذا مختلف عما سمعته.

قال كبير، وهو يفك ذراعيه:

- أنت الآن تختبر صبري أيها الشيخ.
- سأنتظره.
- ليس هنا، هذا لن يحدث.
- أقصد هناك، على الطريق.
راوح كبير مكانه في نفاد صبر، وقال:
- افعل ما بدا لك. لكن القائد رجل مشغول. لا أحد يعرف متى سيعود.
أومأ الشيخ برأسه وتراجع إلى الخلف، وتبعه الصبي.
أغلق كبير الباب.
فتح عادل ستارة غرفة العائلة، وراقب الشيخ والصبي من النافذة وهما يسيران على الطريق غير المرصوف الذي يصل الكومباوند بالطريق الرئيسي.
قال عادل:
- لقد كذبتَ عليه.
- إنه جزء من عملي الذي أتقاضى عليه أجرًا: أن أحمي والدك من الطمَّاعين.
- وماذا يريد بأية حال؟ وظيفة؟
- شيء مثل هذا.
اتجه كبير إلى الأريكة وخلع حذاءه. رفع بصره إلى عادل وغَمز له بعينه. كان عادل يُحب كبير، أكثر من أزمري، الذي كان ثقيل الظل ونادرًا ما يُوجه إليه كلمة. كان كبير يلعب الورق مع عادل، ويدعوه لمشاهدة أسطوانات «دي في دي» معًا. يُحب الأفلام، ويمتلك مجموعة اشتراها من السوق السوداء، وكان يشاهد عشرة

أو اثني عشر فيلمًا أسبوعيًّا - أفلام إيرانية، وفرنسية، وأمريكية، وبالطبع بوليوود - ولم يكن يُبالي. وأحيانًا عندما تكون والدة عادل في غرفة أخرى وعلى وعد من عادل ألا يُخبر والده، كان كبير يفرغ خزانة الكلاشنكوف الخاص به ويترك عادل يحمله، مثل مُجاهد. الآن كان الكلاشنكوف مُستندًا على الجدار بجوار الباب الأمامي.

تمدد كبير على الأريكة، ورفع قدميه على ذراعها، وبدأ يتصفَّح جريدة.

قال عادل، وهو يترك الستارة ويستدير إلى كبير:

- بدا لي أنهما مُسالمان.

كان يرى جبهة الحارس الشخصي من وراء الجريدة.

همهم كبير:

- ربما كان عليَّ أن أدعوهما لتناول الشاي إذًا! أن أُقدِّم إليهما الكعك أيضًا!

- لا تخلط الجد بالهزل.

- كلهم يبدون مُسالمين.

- هل سيساعدهما بابا جان؟

تنهَّد كبير:

- على الأرجح. والدك مثل نهر مُتدفق بالنسبة إلى شعبه.

خفض صحيفته وابتسم:

- أين سمعنا تلك العبارة؟ ذكِّرني يا عادل. شاهدناه الشهر الماضي.

هز عادل كتفيه، وبدأ يتجه إلى الطابق العلوي.

ناداه كبير وهو على الأريكة:

- لورانس. لورانس العرب، أنطوني كوين.

ثم، وفور أن وصل عادل إلى أعلى السلم:

- إنهما طمّاعان يا عادل. لا تنخدع بمظهرهما. سينتفان ريش والدك إن استطاعا.

* * *

ذات صباح، بعد يومين من مغادرة والده إلى هلمند، صعد عادل إلى غرفة والديه. كانت الموسيقى تصدح من داخل الغرفة صاخبةً ومدويةً. دخل فوجد أمه، بالشورت والتي شيرت أمام شاشة التلفزيون المُسطحة العملاقة، تُقلِّد حركات ثلاث نساء شقراوات مُتعرقات، سلسلة من القفزات والقرفصات وتمارين التخشُّب وشد الساقين. لمحته في مرآة تسريحتها الكبيرة.

قالت وهي تلهث وقد رفعت صوتها فوق الموسيقى:

- هل تنضم إليَّ؟

قال:

- سأجلس هنا وحسب.

جلس على السجادة وراح يراقب أمه، واسمها «أريا»، وهي تقفز ذاهبة وآيبة في الغرفة.

كانت لأم عادل يدان وقدمان رقيقتان، وأنف صغير معقوف إلى أعلى، ووجه جميل مثل ممثلة من أحد أفلام بوليوود التي يشتريها كبير. كانت نحيلة، ورشيقة، ويافعة - كانت في الرابعة عشرة من عمرها فحسب عندما تزوجت من بابا جان. لدى عادل أم أخرى، أكبر سنًّا، أيضًا، وثلاثة إخوة غير أشقاء أكبر منه سنًّا، لكن بابا جان نقلهم إلى الشرق، إلى جلال أباد، ولم يكن عادل

يراهم إلا مرَّة كل شهر أو نحو ذلك عندما يصحبه بابا جان في زيارة إلى هناك. وعلى خلاف أمه وزوجة أبيه، اللتين لا تحب كل منهما الأخرى، كانت الأمور تسير بين عادل وإخوته غير الأشقاء على خير ما يُرام. عندما يزورهم في جلال أباد، كانوا يصحبونه معهم إلى المُتنزهات، والأسواق، والسينما، ومباريات البزكشي. يلعبون معه لعبة «ريزيدنت إيفل» (الشر المقيم)، ويُطلقون معه النار على الزومبي في «كول أوف ديوتي» (نداء الواجب)، ودائمًا يختارونه في فريقهم في مباريات كُرة القدم في الحي. كانت أمنية عادل الأثيرة أن يعيشوا هنا، بالقرب منه.

راح عادل يُراقب أمه وهي ترقد على ظهرها وترفع ساقيها باستقامة عن الأرضية وتنزلهما ثانية، وكُرة بلاستيكية زرقاء محشورة بين كاحليها العاريين.

الحقيقة أن الملل هنا في شدباغ كان يسحق عادل. لم يتخذ ولو صديقًا واحدًا في السنتين اللتين قضوهما هنا. لم يكن يُسمح له بقيادة الدراجة إلى البلدة، ليس بمفرده بالتأكيد، ليس مع موجة الخطف المنتشرة في كل مكان في المنطقة - مع أنه كان يتسلل بين حين وآخر لفترة وجيزة، ويظل دائمًا داخل حدود الكومباوند. لم يكن لديه زملاء دراسة لأن بابا جان لم يكن ليسمح له بارتياد المدرسة المحلية - «لأسباب أمنية» مثلما قال - لذا كان ثمة مُدرِّس خصوصي يأتي إلى المنزل كل صباح من أجل الدروس. إجمالًا، كان عادل يقضي الوقت في القراءة أو اللعب بكُرة القدم بمفرده، أو مشاهدة الأفلام مع كبير، وغالبًا ما تكون الأفلام نفسها مرَّة بعد مرَّة. يتجوَّل بكسل في أرجاء صالات منزلهم العملاق الواسعة

ذات الأسقف العالية، في الغرف الكبيرة الفارغة، أو يجلس لينظر من نافذة غرفته في الطابق العلوي. كان يعيش في قصر، ولكن في عالم مُتقلِّص. في بعض الأيام يشتد به الملل حتى يشعر بأنه يود لو يعضعض الخشب.

يعرف أن أمه كذلك تشعر بوحدة رهيبة هنا. فهي تحاول شغل أيامها بالأنشطة المعتادة: تمارين في الصباح، واستحمام، ثم إفطار، ثم قراءة، وبستَنَة، ثم المسلسلات الهندية في التلفزيون بعد الظهر. عندما يغيب بابا جان، وهو ما يحدث كثيرًا، كانت تتجول في البيت بزي رياضي رمادي وحذاء رياضي، وجهها خالٍ من الزينة، وشعرها مشبوك في كعكة عند مؤخرة عنقها. وهي نادرًا ما تفتح علبة مجوهراتها حيث تحتفظ بكل الخواتم والقلادات والأقراط التي اشتراها لها بابا جان من دبي. كانت تقضي ساعات أحيانًا وهي تتكلم مع أُسرتها في كابول. فقط عندما تزورها أختها ووالداها لبضعة أيام، مرَّة كل شهرين أو ثلاثة، كان عادل يرى أمه تستعيد حيويتها من جديد: ترتدي فستانًا طويلًا من نسيج مطبوع زاهي الألوان، وحذاء بكعب عالٍ، وتضع الزينة على وجهها، عيناها تلتمعان، ويصبح بالإمكان سماع ضحكتها تتردد في المنزل. في تلك الأوقات يلمح عادل ومضة من الشخص الذي ربما كانته من قبل.

عندما يكون بابا جان بعيدًا، يحاول عادل وأمه الائتناس معًا. كانا يجمعان معًا أجزاء لعبة الصور المُقطَّعة، ويلعبان الجولف والتنس على جهاز «وي» للألعاب الخاص بعادل. لكن أفضل الأوقات التي يقضيها عادل مع أمه هي تلك التي يبنيان فيها بناء

منازل من نكَّاشات الأسنان. كانت أمه ترسم مخططًا ثلاثي الأبعاد للبيت على ورقة، بالشرفة الأمامية والسقف الجملوني، والسلالم الداخلية والجدران التي تفصل بين مختلف الغرف. يضعان الأساس أولًا، ثم يُشيدان الجدران والسلالم الداخلية، يقضيان ساعات وهما يضعان الصمغ بحرص على نكَّاشات الأسنان، ويتركان الأجزاء لتجف. قالت والدة عادل إنها، عندما كانت صغيرة قبل زواجها من والد عادل، حلمت بأن تُصبح مهندسة معمارية.

ذات مرَّة، عندما كانا يُشيدان ناطحة سحاب، أخبرت عادل بقصة زواجها من بابا جان.

قالت:

- الحقيقة، كان المُفترض أن يتزوَّج شقيقتي الكُبرى.

- الخالة «نرجس»؟

- نعم، حدث ذلك في كابول. رآها في الشارع ذات يوم وهذا كل شيء. أراد أن يتزوجها. حضر في اليوم التالي، هو وخمسة من رجاله. لقد دعوا أنفسهم بأنفسهم على نحو أو آخر، وكانوا جميعًا مُلتحين.

هزت رأسها وضحكت، وكأن ما فعله بابا جان كان مُضحكًا، لكنها لم تضحك كما كانت تضحك عادة عندما تجد شيئًا ما مُضحكًا.

- كان لا بد لك أن ترى التعبير على وجه جدك وجدتك.

جلسوا في غرفة المعيشة: بابا جان، ورجاله، والوالدان. كانت في المطبخ تُعد الشاي بينما يتكلمون. ثمة مشكلة، كما قالت، لأن أختها نرجس كانت مخطوبة بالفعل، وقد أُعطيت كلمة لابن

عمها الذي يعيش في «أمستردام» ويدرس الهندسة. فكيف لهم أن يفسخوا هذه الخطبة؟ هكذا تساءل والداها.

- ثم أدخل أنا، حاملة صينية عليها الشاي والحلوى. أملأ فناجينهم وأضع الطعام على الطاولة، ويراني والدك، وفيما أستدير للخروج، قال والدك: «ربما كان معك حق، يا سيدي. ليس عدلًا أن تفسخ خطبة، لكن إن قلت لي إن هذه الفتاة محجوزة هي الأخرى، فعفوًا، لن يكون أمامي خيار آخر إلا أن أظن أنك لست مُهتمًّا بي». ثم ضحك. وهكذا تزوجنا.

رفعت أنبوبة صمغ.

- هل أعجبكِ؟

هزت كتفيها قليلًا:

- الحق يُقال، كنت خائفة أكثر من أي شيء آخر.

- لكنه يُعجبكِ الآن، أليس كذلك؟ تحبينه؟

قالت أم عادل:

- بالطبع أُحبه، يا له من سؤال!

- لستِ نادمة على الزواج منه؟

وضعت أنبوبة الصمغ، وانتظرت بضع ثوان قبل أن تُجيب، ثم قالت ببطء:

- انظر إلى حياتنا يا عادل، انظر حولك. ما الذي يُمكن أن أندم عليه؟

ابتسمت وشدت أُذنه برفق:

- ثم، كيف كان لي أن أحظى بك؟

أطفأت والدة عادل التلفزيون الآن، وجلست على الأرض، تلهث، تُجفف العرق عن رقبتها بمنشفة.

قالت، وهي تمط رقبتها:

- لماذا لا تفعل شيئًا بمفردك هذا الصباح؟ سأستحم ثم أتناول الطعام. وكنت أفكر في الاتصال بجدَّيك. لم أتكلم معهما منذ يومين.

تنهَّد عادل ونهض.

في غرفته، في طابق أسفل وفي جناح مختلف من المنزل، أخرج كُرة القدم وارتدى قميص «زيدان»؛ كان بابا جان قد أهداه إليه في عيد ميلاده الأخير، الثاني عشر. عندما نزل إلى الطابق السفلي، وجد كبير غافيًا، وثمة جريدة مفرودة على صدره مثل لحاف. تناول علبة من عصير البرتقال من الثلاجة ومضى خارجًا.

سار عادل على الممر المفروش بالحصى في اتجاه مدخل الكومباوند الرئيسي. كان الكُشك الصغير حيث يجلس الحارس المُسلح للمراقبة فارغًا، وعادل يعرف توقيتات جولات الحارس. فتح البوابة بحرص وخطا إلى الخارج، ثم أغلق البوابة وراءه. وعلى الفور، راوده انطباع بأنه يستطيع أن يتنفس بصورة أفضل على هذا الجانب من السور. في بعض الأيام، كان يشعر بأن الكومباوند يُشبه السجن إلى حد كبير.

سار في اتجاه الظل العريض للسور الخلفي، بعيدًا عن الطريق الرئيسي. هناك، خلف الكومباوند، تقع بساتين بابا جان، التي كان شديد الفخر بها. عدة فدادين من صفوف طويلة متوازية من أشجار الكمثرى، والبرتقال، والمشمش، والكرز، والتين، والمشمش

الهندي أيضًا. عندما كان عادل يخرج في نزهات طويلة مع والده في تلك البساتين، يرفعه بابا عاليًا على كتفيه، وكان عادل يقطف له ولأبيه ثمرتي تفاح ناضجتين. بين الكومباوند والبساتين ثمة فسحة، خالية في معظمها إلا من سقيفة، حيث يخزن البستانيون أدواتهم. الشيء الوحيد الآخر هناك كان الجذع المسطح لما كان ذات مرَّة، كما يُوحي المنظر، شجرة عجوزًا عملاقة. كان بابا جان قد عد حلقاتها مع عادل، واستنتج أن الشجرة ربما شهدت جيش «جنكيز خان» وهو يزحف من أمامها. قال، بهزة أسى من رأسه: «إن مَن قطع تلك الشجرة أيًّا كان ليس سوى أحمق».

كان يومًا حارًّا، الشمس تتوهج في سماء زرقاء صافية تُشبه السماوات المرسومة بأقلام الشمع الملونة التي كان عادل يرسمها وهو صغير. وضع علبة عصير البرتقال على جذع الشجرة، وأخذ يتمرَّن على ركل كرته إلى أعلى بظاهر قدميه على ألا تلمس الأرض. كان رقمه القياسي ثمانيًا وستين مرَّة من دون أن تلمس الكُرة الأرض. حقق هذا الرقم في الربيع، وهو الآن في منتصف الصيف وما يزال يحاول أن يكسره. كان عادل قد وصل إلى الثامنة والعشرين عندما أدرك أن شخصًا يُراقبه. كان صبيًّا، هو نفسه الذي كان بصحبة الشيخ الذي حاول الاقتراب من بابا جان في حفل افتتاح المدرسة. كان مُقرفصًا الآن في ظل السقيفة المبنية من الطوب.

– ماذا تفعل هنا؟

قالها عادل، مُحاولًا نُطق الكلمات بنبرة جافة مثلما يفعل كبير وهو يُحدِّث الغرباء.

قال الولد:

- أجلس في الظل. لا تشِ بي.

- لا يُفترض أن تكون هنا.

- ولا أنت.

- ماذا؟

أطلق الولد ضحكة مكتومة:

- لا تشغل بالك.

مط ذراعيه على الجانبين، ونهض. حاول عادل أن يرى إن كانت جيوبه ممتلئة. ربما جاء هنا لسرقة الفاكهة. مضى الصبي في اتجاه عادل ونقر الكُرة بإحدى قدميه فرفعها عن الأرض، وتلقفها مرَّتين بسرعة، ثم ركلها بكعبه إلى عادل. أمسك عادل بالكُرة وحملها تحت ذراعه.

- هذا المُستقوي بسلاحه الذي يعمل عندكم جعلنا ننتظر هناك على جانب الطريق، أنا ووالدي، ولا يوجد ظل هناك، ولا سحابة واحدة لعينة في السماء.

شعر عادل بالحاجة إلى أن ينبري دفاعًا عن كبير:

- إنه ليس كذلك.

- على أية حال، لقد حرص على أن يجعلنا نرى بندقيته الكلاشنكوف، أستطيع أن أؤكد لك هذا.

نظر إلى عادل، وعلى شفتيه ابتسامة عابثة، كسول. بصق عند قدميه:

- إذًا، أرى أنك من المُعجبين بـ«أبو الروس».

استغرق عادل لحظة ليُدرك مَن كان يقصد. وقال:

- لا يُمكنك أن تحكم عليه بسبب خطأ واحد. لقد كان أفضل لاعب. كان ساحرًا في وسط الملعب.

- رأيت مَن هم أفضل منه.

- حقًّا؟ مثل مَن؟

- مثل «مارادونا».

- مارادونا؟

قالها عادل غاضبًا. لقد خاض هذا الجدل من قبل مع أحد إخوته غير الأشقاء في جلال أباد.

- مارادونا كان مُخادعًا. «يد الله»، هل تتذكر؟

- الجميع يخادعون والجميع يكذبون.

تثاءب الولد وبدأ يمضي في طريقه. كان في طول عادل تقريبًا، ربما أطول قليلًا، والأرجح أنه في عمره أيضًا، هكذا اعتقد عادل. لكنه كان يمشي وكأنه أكبر سنًّا، على نحو ما، من دون تعجُّل، وبنوع من التباهي، وكأنما رأى كل ما يُرى ولم يعد شيء يُثير دهشته.

- اسمي عادل.

- «غلام».

تصافحا. كانت قبضة غلام قوية، وكف يده جافة وخشنة.

- كم عمرك إذًا؟

هز غلام كتفيه:

- ثلاثة عشر، فيما أظن. ربما أربعة عشر الآن.

- ألا تعرف تاريخ ميلادك؟

ابتسم غلام:

- أُراهن أنك أنت تعرف تاريخ ميلادك. أُراهن أنك تنتظره باليوم.

قال عادل بنبرة دفاعية:

- غير صحيح. أقصد، أنا لا أنتظره باليوم.

- يجب أن أذهب، فوالدي ينتظر وحيدًا.

- ظننته جدك.

- ظنك في غير محله.

سأله عادل:

- هل تريد أن تلاعبني ركلة بركلة؟

- هل تقصد مثل ضربات الترجيح؟

- خمس لكل واحد... مَن يُحرز أكثر يربح.

بصق غلام ثانية، وضيَّق عينيه ناظرًا إلى الطريق، ثم عائدًا بنظره إلى عادل. لاحظ عادل أن ذقنه كان صغيرًا قليلًا مقارنة بوجهه، وأن لديه أنيابًا إضافية مُتراكبة على أسنانه الأمامية، أحدها مثلوم على نحو سيِّئ ومُسوَّس. وكان حاجبه الأيسر مشقوقًا نصفين بندبة قصيرة ورفيعة. كذلك، كانت رائحته قبيحة. لكن عادل لم يكن قد تبادل الحوار - ناهيك عن اللعب - مع ولد في مثل عمره منذ نحو سنتين، باستثناء الزيارات الشهرية إلى جلال أباد. جهز عادل نفسه لرد محبط، لكن غلام هز كتفيه وقال:

- شيء تافه. ولمَ لا؟ لكن أنا أُسدِّد أولًا.

استخدما حجرين بدلًا من القائمين، وفصلا بينهما بمسافة ثماني خطوات. سدد غلام ركلاته الخمس الأولى أولًا. وسجَّل واحدة، وركل اثنتين خارج المرمى، واستطاع عادل أن يصد اثنتين

بسهولة. وكانت مهارة غلام في حراسة المرمى أسوأ من مهارته في التسديد. استطاع عادل أن يُسجِّل أربعًا، في كل مرَّة يخدعه ويجعله يرتمي في الاتجاه الخطأ، والتسديدة الوحيدة التي أخفق فيها خرجت خارج المرمى.

- خراء.

قالها غلام وهو ينحني حتى ثنى نفسه نصفين، ويداه على رُكبتيه.

- تلعب ثانيةً؟

حاول عادل ألا يُظهر فرحة شامتة، لكن الأمر كان صعبًا. كان يتيه فرحًا من داخله.

وافق غلام، وجاءت النتيجة أثقل وأثقل. ثانية، لم يُحرز إلا هدفًا واحدًا، وتلك المرَّة أحرز عادل كل ركلاته الخمس.

- يكفي هذا، انقطع نَفَسي.

قالها غلام وهو يرفع يديه عاليًا. مشى متثاقلًا حتى جذع الشجرة المقطوع وجلس مُطلقًا آهة مُتعَبة. أمسك عادل بالكُرة وجلس إلى جواره.

- أظن أن تلك لا تساعد كثيرًا.

قالها غلام، وهو يُخرج علبة سجائر من الجيب الأمامي لبنطلونه الجينز، لم يتبق فيها سوى واحدة. أشعلها بضربة ثقاب واحدة، وسحب نَفَسًا برضا، وقدمها لعادل. شعر عادل بإغراء أن يأخذها، ولو حتى ليترك أثرًا في غلام، لكنه رفض، قلقًا من أن يشم كبير أو أمه رائحته.

قال غلام، وهو يعود برأسه إلى الوراء:

- قرار حكيم.

تكلما بلا اكتراث عن كُرة القدم لبعض الوقت، وكانت مفاجأة سارة لعادل حين رأى أن معرفة غلام قوية بالموضوع. تبادلا القصص عن المباريات المفضَّلة والأهداف المفضَّلة. وذكر كل منهما قائمته بأفضل خمسة لاعبين؛ وكانت قائمتاهما متشابهتين عمومًا فيما عدا أن غلام اختار «رونالدو البرازيلي» فيما اختار عادل «رونالدو البرتغالي». وساقهم الحديث بطبيعة الحال إلى نهائيات كأس العالم ٢٠٠٦ والذكرى المؤلمة، بالنسبة إلى عادل، وواقعة النطح بالرأس. قال غلام إنه شاهد المباراة كلها وهو واقف وسط حشد أمام واجهة محل لبيع التلفزيونات لا يبعد كثيرًا عن المخيم.

- المخيم؟

- المخيم الذي نشأتُ فيه، في باكستان.

أخبر عادل أن هذه هي أول مرَّة يأتي فيها إلى أفغانستان. كان قد عاش طيلة حياته في باكستان في مخيم «جالوزاي» للاجئين حيث وُلد. قال إن جالوزاي أشبه بمدينة، متاهة عملاقة من الخيام والأكواخ الطينية والبيوت المبنية من البلاستيك والألومنيوم تتجاور في متاهة من ممرات ضيقة تتناثر فيها القاذورات والروث. كانت مدينة في أحشاء مدينة أكبر. ولقد نشأ هو وإخوته - كان الأكبر بثلاثة أعوام - في المخيم. عاش في بيت طيني صغير هناك مع إخوته، وأمه، وأبيه، الذي يُدعى «إقبال»، وجدته لأبيه، بروانة. في أزقة المخيم، تعلَّم هو وإخوته المشي والكلام. وهناك ذهبوا إلى المدرسة. وكان يلعب بالعصي وعجلات الدراجات القديمة الصدئة في الشوارع الترابية، راكضًا مع غيره من أطفال المخيم، حتى تغطس الشمس وتناديه جدته لكي يعود إلى البيت.

قال:

- أُحب الحياة هناك. كان لي أصدقاء. أعرف الجميع. وكانت أمورنا على ما يُرام أيضًا. عندي عم في أمريكا، أخ غير شقيق لأبي، العم عبد الله. لم ألتق به من قبل. لكنه كان يُرسل إلينا نقودًا كل بضعة أشهر. وكانت تساعدنا. تساعدنا كثيرًا.

- ولماذا رحلتم؟

- اضطررنا لذلك. أغلق الباكستانيون المُخيم. قالوا إن الأفغان يخصون أفغانستان. ثم انقطعت نقود عمي. وهكذا قال أبي إن بإمكاننا العودة إلى الديار والبدء من جديد، الآن وقد هربت طالبان إلى الجانب الباكستاني من الحدود على أية حال. قال إننا ضيوف لم يعد مُرحبًا بهم في باكستان. وقد أصابني الاكتئاب. إن هذا المكان...

أشاح بيده.

- هذا بلد أجنبي بالنسبة إليَّ. والأولاد في المخيم، الأولاد الذين سبق لهم زيارة أفغانستان، لم يكن لدى أحدهم كلمة طيبة واحدة يقولها عن البلد.

أراد عادل أن يقول إنه يعرف شعور غلام. أراد أن يُخبره كم يفتقد كابول، وأصدقاءه، وإخوته غير الأشقاء في جلال أباد، لكن راوده شعور أن غلام قد يضحك. لذا قال:

- حسنًا، الحياة هنا مُملة فعلًا.

ضحك غلام على أية حال، وقال:

- لا أظن أن ذلك ما كانوا يقصدونه.

استشعر عادل على نحو غامض نبرة توبيخ.

سحب غلام نَفَسًا ونفخ سلسلة من الحلقات. معًا، راقبا الحلقات وهي تنجرف بعيدًا وتتفكك في رقة.

- أبي قال لي ولإخوتي: «انتظروا... انتظروا يا أولاد حتى تتنفسوا الهواء في شدباغ، وحتى تتذوقوا الماء». لقد وُلد أبي هنا، ونشأ هنا أيضًا. قال: «لن تجدوا أبدًا ماء بهذه البرودة وهذه الحلاوة يا أولاد». كان دائمًا يُكلمنا عن شدباغ، والتي لم تكن فيما أظن إلا قرية صغيرة عندما كان يعيش فيها. قال إن ثمة نوعًا من العنب لا ينمو إلا في شدباغ وليس في أي مكان آخر في العالم. تظنه يصف الجنة.

سأله عادل أين يُقيم الآن. رمى غلام عقب سيجارته، ورنا إلى السماء، مُضيِّقًا عينيه في الضوء الساطع:

- هل تعرف الحقل المفتوح هناك بجوار طاحونة الهواء؟

- نعم.

انتظر عادل المزيد، لكن لم يكن هناك المزيد.

- هل تعيش في الحقل؟

غمغم غلام:

- في الوقت الحالي. عندنا خيمة.

- أليس لك أقارب هنا؟

- لا. إما ماتوا أو رحلوا. لكن، أبي عنده خال في كابول. أو كان عنده. فمن يعرف إن كان ما يزال حيًّا. كان شقيق جدتي، يعمل لدى عائلة ثرية هناك. لكنني أظن أن نبي وجدتي لم يتكلما مع بعضهما منذ عقود - خمسين عامًا أو أكثر، فيما أظن. إنهما غريبان عمليًّا. أعتقد أن والدي إن اضطر حقًّا لذلك، سوف يذهب إليه. لكنه يريد أن يحاول تدبير أموره بنفسه هنا. فهذه دياره.

قضيا بضع لحظات من الصمت جالسين على جذع الشجرة، يُراقبان أوراق الشجر في البساتين وهي تهتز بفعل هبات من الريح الدافئة. فكر عادل في غلام وأسرته وهم نائمون في الليالي داخل خيمة، والعقارب والثعابين تزحف في الحقل حولهم من كل اتجاه.

لم يعرف عادل يقينًا لماذا انتهى به الأمر إلى إخبار غلام عن سبب انتقاله هو ووالديه من كابول إلى هنا. أو، بالأحرى، لم يعرف أي الأسباب دعته إلى ذلك. لم يكن مُتأكدًا إن كان قد فعل ذلك ليُبدد الانطباع لدى غلام بأنه كان يحيا حياة خالية من الهموم لأنه يعيش ببساطة في بيت كبير، أو كنوع من مُزايدات الأقران بعضهم على بعض، وربما استجداء للتعاطف. هل فعل ذلك لتضييق الهوة بينهما؟ لم يعرف. ربما لكل تلك الأشياء مُجتمعة. كذلك لم يعرف عادل لماذا بدا له مُهمًّا أن ينال إعجاب غلام، وإن كان قد فهم على نحو غير واضح أن السبب أكثر تعقيدًا من مجرد كونه يُعاني من الوحدة ويشتاق إلى صديق.

قال:

- انتقلنا إلى شدباغ لأن شخصًا حاول أن يقتلنا في كابول. توقفت درَّاجة نارية أمام المنزل ذات يوم وأمطر الراكب منزلنا بالطلقات. لم يُقبض عليه. لكن، والحمد لله، لم يُصب أي منا بأذى.

لم يعرف أي رد فعل كان يتوقع، لكن أدهشه بحق ما فعله غلام. إذ قال وهو ما يزال يُضيِّق عينيه في الشمس:

- نعم، أعرف.

- تعرف؟

- لو وضع أبوك إصبعه في أنفه لسمع الناس بالأمر.

راقبه عادل وهو يُكوِّر علبة السجائر الفارغة ويدسها في الجيب الأمامي لبنطلونه الجينز.

كان عادل يعرف ذلك. شرح له بابا جان أن بعض الناس الذين حاربوا إلى جانبه ضد السوفييت في الثمانينيات أصبحوا مُتنفذين وفاسدين. قال إنهم ضلوا طريقهم. ولأنه لا يستطيع أن يُجاريهم في مؤامراتهم الإجرامية، فلطالما حاولوا أن يبخسوا من قدره، وأن يلوثوا اسمه بنشر شائعات كاذبة ومُؤلمة عنه. لهذا السبب طالما حاول بابا جان أن يُحصِّن عادل - لم يسمح بدخول الصحف إلى المنزل، على سبيل المثال، ولم يُرد لعادل أن يُشاهد نشرات الأخبار في التلفزيون أو يتصفح الإنترنت.

مال غلام إلى الأمام وقال:

- كذلك أسمع أنه مُزارع ممتاز.

هز عادل كتفيه:

- تستطيع أن ترى بنفسك. فقط بضعة فدادين من البساتين. نعم، وأيضًا حقول القطن في هلمند، فيما أعتقد، من أجل المصنع.

تفحَّص غلام عيني عادل، وراحت ابتسامته تتسع على وجهه، كاشفة عن أنيابه المُسوَّسة:

- القطن. أنت أعجوبة. لا أعرف ماذا أقول.

لم يفهم عادل على وجه الدقة. نهض وتلاعب بالكُرة.

- تستطيع أن تقول «مباراة أخرى».

- مباراة أخرى.

- هيا بنا.

- لكن هذه المرَّة، أُراهن أنك لن تُسجِّل أي هدف.
الآن، كان عادل هو الذي يبتسم:
- اختر رهانك.
- هذا سهل. زيدان.
- وإذا كسبت أنا، لا، «عندما» أكسب أنا؟
قال غلام:
- لو كنت مكانك لما أقلقت نفسي بهذا الاحتمال المستحيل.
كانت خدعة ذكية. راح غلام يرتمي يمنة ويسرة، وصدَّ كل ركلات عادل. شعر عادل وهو يخلع قميصه بالغباء بعد أن تعرَّض لخداع سلب منه شيئًا يخصه، شيئًا هو أعز ممتلكاته. يناوله إليه. وببعض الحذر، يشعر بحرقة الدموع ويجاهد لكي يحبسها.
على الأقل كان غلام لبقًا بما يكفي ألَّا يرتديه في حضرته. وبينما كان يمضي في طريقه، أدار رأسه وابتسم:
- أبوك لن يغيب ثلاثة أشهر، صحيح؟
قال عادل:
- سأُلاعبك عليه غدًا. القميص.
- سيكون عليَّ أن أفكر في هذا الأمر.
اتجه غلام عائدًا إلى الطريق الرئيسي. وفي منتصف الطريق، توقف، أخرج من جيبه علبة السجائر المُكوَّرة، وألقاها من فوق سور منزل عادل.

* * *

كل يوم، ولنحو أسبوع، بعد الدروس الصباحية، كان عادل يأخذ كرته ويغادر الكومباوند. في أول مرَّتين، كان يُرتب خروجه

وفقًا لجدول جولات الحارس المُسلح. لكن في الثالثة، أمسك به الحارس ولم يسمح له بالخروج. رجع عادل إلى المنزل وعاد بجهاز «آي بود» وساعة يد. من وقتها، أصبح الحارس يسمح لعادل خلسة بالدخول والخروج شريطة ألا يبتعد أكثر من أطراف البساتين. أما بالنسبة إلى أمه وكبير، فكانا لا يكادان يلحظان غيابه الذي لا يطول لأكثر من ساعة أو ساعتين. كانت تلك إحدى مزايا العيش في بيت كبير بهذا الحجم.

كان عادل يلعب بمفرده خلف الكومباوند، بجوار جذع الشجرة العجوز في الفسحة، وهو يأمل كل يوم أن يرى غلام يسير بخطاه المتمهلة في اتجاهه. كان يُبقي إحدى عينيه على الدرب غير المُمهد المُمتد إلى الطريق الرئيسي وهو يعد ركلاته للكُرة، وهو جالس على الجذع يراقب طائرة نفاثة مقاتلة تشق عنان السماء، وهو يرمي الحصى بشرود من دون هدف. بعد فترة، كان يأخذ كُرته ويُجرجر قدميه عائدًا إلى الكومباوند.

ثم ظهر غلام في أحد الأيام، حاملًا كيسًا ورقيًّا.

- أين كنت؟

قال غلام:

- كنت أعمل.

قال لعادل إنه وأباه قد استؤجرا لبضعة أيام لصناعة الطوب. كانت وظيفة غلام هي خلط الملاط. قال إنه كان يرفع جرادل الماء ذهابًا وإيابًا، ويجر أجولة من الإسمنت والرمال أثقل من وزنه. شرح لعادل كيف كان يمزج الملاط في عربة اليد، ويُقلِّبه في الماء باستخدام معزقة، يُقلِّب مرَّة بعد مرَّة، ويضيف ماء، ثم رملًا،

حتى يكتسب الخليط قوامًا ناعمًا لا يتضعضع. بعدها يدفع العربة إلى صفوف الطوب ويهرول عائدًا لإعداد خلطة جديدة. فتح كفيه وعرض على عادل قروحه.

- واو!

قالها عادل - عرف أن ذلك غباء لكنه لم يستطع التفكير في رد آخر. كانت أكثر مرَّة اقترب فيها من عمل يدوي قبل ثلاث سنوات في عصر أحد الأيام عندما ساعد البستاني في زراعة بضع شتلات تفاح في الباحة الخلفية لمنزلهم في كابول.

قال غلام:

- أحضرت إليك مفاجأة.

مد يده في الكيس ورمى لعادل قميص زيدان.

قال عادل، وقد اندهش وأخذته حماسة حذرة:

- لا أفهم.

- رأيت صبيًّا يرتديه في البلدة قبل يومين...

قالها غلام، وطلب الكُرة بأصابعه. ركلها عادل ناحيته، وراح غلام يركلها وهو يحكي القصة.

- هل تُصدِّق؟ أذهب إليه وأقول: «هيه، إنك ترتدي قميص صاحبي». يرميني بنظرة. واختصارًا للقصة، ننهي الأمر في أحد الأزقة. وفي النهاية، أجده يتوسل إليَّ لكي آخذ القميص.

أمسك بالكُرة وهي في الهواء، وبصق، وابتسم لعادل.

- حسنًا، ربما أكون قد بعته له قبلها بيومين.

- هذا ليس فعلًا صائبًا. إذا بعته له، فقد أصبح قميصه.

- ماذا؟ ألا تريده الآن؟ بعد كل ما عانيته لأعيده إليك؟ لم تكن المسألة من جانب واحد، كما تعرف. فقد وجَّه لي هو الآخر بضع لكمات محترمة.

غمغم عادل:

- ولو...

- ثم إنني خدعتك منذ البداية وساءني ذلك. الآن، ها أنت قد استرجعت قميصك. أما بالنسبة إليَّ...

أشار إلى قدميه، ورأى عادل حذاء رياضيًّا جديدًا أزرق وأبيض.

سأل عادل:

- هل هو بخير، الولد الآخر؟

- سيعيش. الآن، هل سنتجادل أم سنلعب؟

- هل والدك معك؟

- ليس اليوم. إنه في المحكمة في كابول. هيا، لنلعب.

لعبا لبعض الوقت، يركلان الكُرة فيما بينهما، يركضان وراءها. بعدها انطلقا في نزهة. وأخلف عادل وعده للحارس وتوغل معه إلى داخل البساتين. أكلا المشمش الهندي من على الأشجار، وشربا «فانتا» باردة من علبتين تمكن عادل من اختلاسهما من المطبخ.

بعد ذلك، بدآ يلتقيان بتلك الطريقة يوميًّا تقريبًا. كانا يلعبان الكُرة، ويطارد أحدهما الآخر عبر صفوف الأشجار المتوازية في البساتين. كانا يُثرثران حول الألعاب الرياضية والأفلام، وعندما لا يعود بينهما ما يُقال يتطلعان إلى بلدة «شدباغي - ناو»، وسفوح التلال الناعمة في البعيد، وسلسلة الجبال المغبَّشة وراءها، وكان ذلك حسنًا أيضًا.

الآن، صار عادل يستيقظ كل يوم وهو مُشتاق إلى رؤية غلام مُتسللًا في الدرب الترابي، إلى سماع صوته العالي الواثق. كان غالبًا ما يشرد في أثناء دروسه الصباحية، ويحيد انتباهه وهو يفكر في المباريات التي سيلعبانها بعد قليل، والقصص التي سيتبادلانها. كان يخشى أن يفقد غلام. يخشى ألا يجد والد غلام، إقبال، عملًا ثابتًا في البلدة، أو مكانًا للمعيشة، فيضطر غلام إلى الانتقال إلى بلدة أخرى، إلى جزء آخر من البلاد، وقد حاول عادل أن يُجهز نفسه لهذا الاحتمال، أن يُحصن نفسه ضد الوداع الذي سيلي ذلك.

ذات يوم، وهما يجلسان على جذع الشجرة، قال غلام:

- هل سبق أن صاحبت فتاة يا عادل؟

- هل تقصد...

- نعم، أقصد.

شعر عادل بحرارة تندفع إلى أذنيه. ولوهلة فكر في الكذب، لكنه كان يعرف أن غلام يستطيع كشفه. غمغم:

- هل صاحبت أنت؟

أشعل غلام سيجارة وقدَّم واحدة لعادل. تلك المرَّة، أخذها عادل، بعد أن ألقى نظرة خلفه ليتأكد من أن الحارس لا يختلس النظر من وراء الناصية، وأن كبير لم يُقرر أن يخرج من المنزل. سحب نَفَسًا وانطلق على الفور في نوبة سعال مطولة جعلت غلام يبتسم هازئًا ويخبطه على ظهره.

قال عادل، بصوت يئز وعينين تدمعان:

- إذًا، هل صاحبتَ أم لا؟

قال غلام في نبرة تآمرية:

- أحد أصدقائي هناك في المخيم، كان أكبر مني، اصطحبني إلى بيت دعارة في بيشاور.

حكى القصة. الغرفة الصغيرة القذرة. الستائر البرتقالية، والحوائط المشققة، والمصباح الوحيد المُتدلي من السقف، والفأر الذي رآه يمرق على الأرض. صوت عربات التوك توك بالخارج، تطقطق ذهابًا وإيابًا في الشارع، والسيارات تهدر. البنت الصغيرة على الحشية، تُنهي صحنًا من «البرياني»، تمضغ وتنظر إليه بوجه خالٍ من التعابير. كيف تبيَّن، حتى في هذا الضوء الشحيح، أن لها وجهًا جميلًا وأنها في مثل عمره تقريبًا. كيف غرفت آخر حبات الأرز بلقمة نان مطوية، ودفعت الصحن بعيدًا، وتمددت، ومسحت أصابعها في سروالها وهي تخلعه.

أنصت عادل، مبهورًا، طرِبًا. لم يسبق أن حظي بصديق مثل هذا. كان غلام يعرف عن العالم أكثر حتى من إخوة عادل غير الأشقاء الأكبر منه بسنوات. وأصدقاء عادل هناك في كابول؟ هم جميعًا أبناء موظفين ومسؤولين ووزراء. كانوا جميعًا يعيشون تنويعات من الحياة التي يعيشها عادل. تلك الشذرات من حياة غلام، التي سمح لعادل أن يعرفها، تنم عن حياة زاخرة بالأزمات، والأمور غير المتوقعة، والصعاب، ولكنها زاخرة كذلك بالمغامرة، حياة تبعد مسافة عوالم كاملة عن حياة عادل، على الرغم من كونها تتكشف عمليًّا على بُعد بصقة منه. حين ينصت إلى قصص غلام، يجد عادل حياته مُملة على نحو يثير الأسى.

قال عادل:

- إذًا، هل فعلتها؟ هل، تعرف، وضعته فيها؟

- لا. تناولنا فنجان شاي وتناقشنا في أشعار الرومي. ما رأيك «أنت»؟

تورَّد وجه عادل:

- كيف كان الأمر؟

لكن غلام تجاوز الموضوع. كان هذا غالبًا هو النمط الذي تسير عليه محادثاتهما، يختار غلام ما سيتكلمان عنه، ينطلق في إحدى القصص بحماسة، مُسقطًا عادل في حبائله، ثم سرعان ما يفقد الاهتمام ويترك كلًّا من الموضوع وعادل مُعلَّقًا في الهواء.

الآن، بدلًا من إنهاء القصة التي بدأها، قال غلام:

- جدتي تقول إن زوجها، جدي صبور، حكى لها قصة عن هذه الشجرة ذات مرَّة. نعم، كان ذلك قبل أن يقطعها بزمن طويل، بالطبع. حكى جدي لها القصة عندما كانا طفلين صغيرين. القصة هي أنك إذا تمنيت أمنية، عليك أن تركع أمام الشجرة وتهمس بها، فإذا وافقت الشجرة على تلبيتها، تطرح عشر أوراق بالضبط فوق رأسك.

قال عادل:

- لم أسمع بهذا من قبل.

- لم تكن لتسمع بهذا، صحيح؟

عندها انتبه عادل لحقيقة ما قاله غلام:

- انتظر. جدك قطع شجرتنا.

أدار غلام عينيه في اتجاهه:

- شجرتكم؟ إنها ليست شجرتكم.

طرف عادل بعينيه:

- ماذا يعني هذا؟

ازداد غلام تحديقًا في عيني عادل. للمرَّة الأولى، لا يرى عادل أي لمحة من حيوية صديقه المعتادة، ولا ابتسامته الراضية المميزة له، ولا شقاوته المرحة. لقد تحوَّل وجهه، وأصبحت نظرته جادة، تُشبه على نحو مُذهل ملامح رجل بالغ.

- كانت هذه شجرة أُسرتي. وكانت هذه أرض أُسرتي. ظلت أرضنا لأجيال. لقد شيَّد والدك قصره على أرضنا عندما كنا في باكستان في أثناء الحرب.

أشار إلى البساتين:

- هذه؟ لقد كانت بيوت أناس، لكن والدك دكَّها وسوَّاها بالأرض، تمامًا كما سوَّى بالأرض البيت الذي وُلد فيه والدي، الذي نشأ فيه.

طرف عادل بعينيه.

- لقد استولى على أرضنا، وزعم أنها أرضه وشيَّد هذا الـ...

هنا لوى شفتيه في ازدراء وهو يشير بإبهامه ناحية الكومباوند:

- هذا الشيء بدلًا منه.

قال عادل، وهو يشعر بغثيان وقلبه يدق بعنف:

- ظننت أننا صديقان. لماذا تُخبرني بهذه الأكاذيب الرهيبة؟

قال غلام، والدم يصعد إلى خديه:

- هل تتذكر عندما خدعتك وأخذت قميصك. كدت تبكي. لا تُنكر، فقد رأيتك. كان هذا على قميص. قميص. تخيَّل شعور أُسرتي وقد قطعت كل هذا الطريق عائدة من باكستان، لتنزل من

الحافلة وتجد هذا «الشيء» على أرضنا، ثم يأتي المُستقوي بسلاحه ذو البدلة القرمزية الذي يحميكم ليطردنا من أرضنا.

صرخ فيه عادل:

- والدي ليس لصًّا. اسأل أي شخص في «شدباغي - ناو»، اسألهم عما فعله لهذه البلدة.

تذكَّر كيف كان بابا جان يستقبل الناس في جامع البلدة، مُتكئًا على الأرض، وأمامه فنجان شاي، وفي يده مسبحة. طابور مهيب من الناس، يمتد من وسادته إلى المدخل الأمامي، رجال بأيدٍ موحلة، ونساء مُسنَّات بلا أسنان، وأرامل صغيرات يحملن أطفالًا، لكل منهم حاجة، وكل منهم ينتظر دوره أو دورها ليطلب معروفًا، أو وظيفة، أو قرضًا صغيرًا لإصلاح سقف أو حفر قناة ري أو شراء حليب مجفف. ووالده يومئ برأسه، مُنصتًا بصبر لا حدود له، وكأن كل شخص في هذا الطابور يهمه مثل فرد من أفراد العائلة.

قال غلام:

- حقًّا؟ إذًا كيف يملك أبي وثائق الملكية، تلك التي أعطاها للقاضي في المحكمة؟

- أنا على ثقة بأن والدك لو تكلم مع بابا...

- باباك يرفض الكلام معه. يرفض الاعتراف بما فعله. إنه يمر أمامنا بسيارته وكأننا كلاب مُشردة.

قال عادل، مُجاهدًا للحفاظ على ثبات صوته:

- لستم كلابًا. أنتم طمَّاعون. تمامًا كما قال كبير. كان يجب أن أعرف.

نهض غلام، ومشى خطوة أو اثنتين، ثم توقف، وقال:

- لكي تعرف فقط. أنا لا أحمل ضغينة لك. أنت مجرد صبي صغير غافل. لكن عندما يذهب بابا إلى هلمند المرَّة المُقبلة، اطلب منه أن يأخذك معه إلى مصنعه. وانظر ماذا يزرع هناك. وسأُعطيك فكرة: إنه ليس قُطنًا.

* * *

تلك الليلة، قبل العشاء، تمدَّد عادل في حوض استحمام ممتلئ بماء دافئ وبعض الصابون. كان صوت التلفزيون يصله من الطابق السفلي، وكبير يشاهد فيلم قراصنة قديم. كان الغضب، الذي تلكأ طيلة ما بعد الظهر، قد اكتسح عادل، والآن صار يفكر أنه كان قاسيًا مع غلام بشكل زائد عن الحد. لقد قال له بابا ذات مرَّة إنه مهما كان ما يفعله المرء، فأحيانًا يتحدث الفقراء بسوء عن الأغنياء. إنهم يفعلون ذلك أساسًا بدافع الإحباط من حياتهم. ليس ثمة ما يمكن فعله. بل إنه أمر طبيعي. قال: «وعلينا ألَّا نلومهم يا عادل».

لم يكن عادل أكثر سذاجة من أن يفهم أن العالم في الأساس ليس مكانًا عادلًا؛ لم يكن عليه إلا أن ينظر من نافذة غرفته. لكنه تخيَّل أن الاعتراف بتلك الحقيقة، بالنسبة لأمثال غلام، لا يجلب الرضا. ربما كان أمثال غلام يحتاجون إلى شخص يلقون عليه بالمسؤولية، هدف من لحم ودم، شخص يمكنهم الإشارة إليه باعتباره السبب في متاعبهم، شخص يدينونه، يلومونه، يغضبون منه. وربما كان بابا جان مُحقًّا عندما قال إن الرد المناسب هو التفهم، والامتناع عن إصدار الأحكام، بل والترفق في الرد. راقب عادل فقاعات الصابون الصغيرة تطفو إلى السطح وتُفرقع، وهو

يفكر في والده الذي شيَّد المدارس والعيادات الطبية وهو يعرف أن ثمة أناسًا في البلدة ينشرون شائعات خبيثة في حقه.

وبينما كان يُجفف نفسه، أطلت أمه برأسها من باب الحمَّام:

- هل ستنزل لتناول الغداء؟

قال:

- لستُ جائعًا.

دخلت وسحبت منشفة من فوق الرف:

- أوه! تعال. اجلس. دعني أجفف شعرك.

قال عادل:

- أستطيع أن أفعل هذا بنفسي.

وقفت خلفه، عيناها تتفحصانه في المرآة:

- هل أنت بخير يا عادل؟

هز كتفيه. أراحت إحدى يديها على كتفه ونظرت إليه وكأنها تتوقع منه أن يضع خده في يدها، لكنه لم يفعل.

- أمي، هل سبقت لك رؤية مصنع بابا جان؟

لاحظ أن أمه جمدت في مكانها. قالت:

- بالطبع. وأنت أيضًا.

- لا أقصد الصور. هل رأيته بعينيكِ؟ هل ذهبتِ إلى هناك؟

قالت وهي تميل رأسها أمام المرآة:

- وكيف أفعل؟ هلمند ليست آمنة. وأبوك لن يُعرِّضنا أنا وأنت إلى الخطر أبدًا.

أومأ عادل برأسه.

في الطابق السفلي، كانت المدافع تضرب والقراصنة يصرخون بهتافاتهم.

بعدها بثلاثة أيام، ظهر غلام مُجددًا. سار مُهرولًا إلى عادل وتوقف.

قال عادل:

- أنا سعيد بمجيئك. عندي شيء أقوله لك.

من فوق جذع الشجرة تناول معطفًا كان يأخذه معه يوميًّا منذ شجارهما. كان معطفًا من الجلد، بُنيًّا بلون الشوكولاتة، له بطانة ناعمة من صوف الغنم، وله قلنسوة يمكن خلعها أو تثبيتها. مدَّه إلى غلام.

- لم أستخدمه إلا بضع مرَّات. إنه كبير عليَّ. سيكون على مقاسك.

لم يأتِ غلام بحركة. قال بجفاء:

- ركبنا حافلة إلى كابول وذهبنا إلى المحكمة بالأمس. خمِّن ماذا قال لنا القاضي. قال إن لديه أخبارًا سيِّئة. قال إن حادثة وقعت؛ حريقًا صغيرًا احترقت فيه أوراق ملكية أبي. اختفت. أُتلفت.

أنزل عادل يده المُمسكة بالمعطف في بطء.

- وبينما كان يُخبرنا بأنه لا يستطيع عمل شيء حيال ذلك الآن من دون الأوراق، هل تعرف ماذا كان يضع حول معصمه؟ ساعة ذهبية جديدة لم يكن يضعها حين رآه أبي في المرَّة السابقة.

طرف عادل بعينيه.

ألقى غلام نظرة على المعطف. كانت نظرة حادة، عقابية، تريد

أن تُشعره بالعار. وقد نجحت. انكمش عادل. شعر أن المعطف يتبدَّل في يده، يتحوَّل من عرض سلام إلى رشوة.

استدار غلام على عقبيه وهرول عائدًا إلى الطريق، بخطوات خفيفة سريعة.

* * *

مساء يوم عودته، أقام بابا جان حفلًا في البيت. كان عادل يجلس الآن بجوار والده على رأس المفرش الكبير الذي مُدَّ على الأرض للعشاء. يُفضِّل بابا جان أحيانًا الجلوس على الأرض والأكل بأصابعه، خصوصًا إذا كان بصحبة أصدقاء من سنوات الجهاد. كان يقول مازحًا: «يذكرني بأيامي في الكهوف». كانت النساء يأكلن على المائدة في غرفة الطعام بالملاعق والشوكات، وقد اتخذت أم عادل مقعدها على رأس المائدة. وكان عادل يسمع ثرثرتهن تتردد على الحوائط الرخامية. إحداهن، وهي امرأة عريضة الأرداف لها شعر طويل مصبوغ بالأحمر، خُطبت لأحد أصدقاء بابا جان. في وقت سابق من هذا المساء، كانت قد عرضت على أم عادل كاميرتها الرقمية وأطلعتها على بعض الصور لمتجر لوازم الزفاف الذي زاروه في دبي.

وهم يشربون الشاي بعد العشاء، حكى بابا جان قصة عن الوقت الذي نصبت فيه وحدته كمينًا لرتل سوفييتي لمنعه من دخول أحد الوديان في الشمال. وراح الجميع ينصتون باهتمام.

قال بابا جان، وإحدى يديه تمسد رأس عادل بشرود:

- عندما دخلوا في مرمى نيراننا، فتحنا النار. أصبنا عربة المُقدمة، ثم بضع عربات جيب. ظننتهم سيتراجعون أو سيواصلون

التقدم، لكن أولاد العاهرات توقفوا. ترجَّلوا، واشتبكوا معنا في تبادل لإطلاق النار. هل تُصدقون؟

انتشرت همهمة في أرجاء الغرفة، واهتزت الرؤوس يمينًا ويسارًا. كان عادل يعرف أن نصف الرجال في الغرفة على الأقل هم مجاهدون سابقون.

- كنا نفوقهم عددًا، ربما ثلاثة إلى واحد، لكنهم كانوا مُسلحين تسليحًا ثقيلًا، ولم يطل الأمر قبل أن يبدأوا «هم» في مهاجمتنا! مهاجمة مواقعنا في البساتين. وسرعان ما تفرَّق الجميع. ورحنا نجري طالبين النجاة. أنا وذلك الرجل، «محمود»، الذي لا أذكر اسم عائلته، ركضنا معًا. نجري جنبًا إلى جنب في حقل من كروم العنب، ليس ذلك النوع المُعلَّق على العرائش والأسلاك، وإنما النوع الذي يتركه الناس ينمو على الأرض. تتطاير الرصاصات في كل مكان ونحن نركض حفاظًا على حياتنا، وفجأة نتعثر نحن الاثنان ونسقط. وفي ثانية لا أكثر، أنهض على قدمي وأجري، لكني لا أرى أثرًا لمحمود هذا. أستدير وأصرخ: «انهض عليك اللعنة، يا دُبر الحمار».

توقف بابا جان لإحداث أثر درامي. رفع قبضته إلى شفتيه ليكتم ضحكة:

- ثم ينتفض وينطلق راكضًا. وأرى هذا المجنون ابن العاهرة - هل تصدقون؟ - يحمل عناقيد من العنب ملء ذراعيه! كومة كبيرة في كل ذراع!

انفجر الجميع في الضحك. ضحك عادل أيضًا. فرك أبوه ظهره وسحبه ناحيته. بدأ أحدهم في سرد قصة أخرى، ومد بابا

جان يده إلى السجائر الموضوعة بالقرب من صحنه، لكن لم تسنح له الفرصة لإشعالها لأن زجاجًا تهشم فجأة في مكان ما داخل البيت.

من غرفة الطعام، صرخت النساء. وتردد رنين شيء معدني، ربما شوكة أو سكين زبدة، بصوت عالٍ على الرخام. انتفض الرجال ونهضوا على أقدامهم. ودخل أزمري وكبير الغرفة جريًا، وقد سحب كل منهما بندقيته.

قال كبير:

- الصوت جاء من المدخل.

وفور أن قال ذلك، تهشَّم زجاج آخر.

قال أزمري:

- انتظر هنا يا قائد صاحب. سنُلقي نظرة.

زمجر بابا جان، وهو ينهض على قدميه:

- لن يحدث. لن أرتعد خوفًا تحت سقف منزلي.

اتجه إلى البهو، يتبعه عادل، وأزمري، وكبير، وكل الضيوف من الرجال. في طريقهم، رأى عادل كبير يلتقط قضيبًا حديديًّا كانوا يستخدمونه في الشتاء لتأجيج النار في الموقد. رأى عادل أمه أيضًا وهي تجري للانضمام إليهم، وجهها شاحب ومُضطرب. عندما وصلوا إلى البهو، جاء حجر طائرًا عبر النافذة واصطدم حطام الزجاج بالأرض. صرخت المرأة ذات الشعر الأحمر، العروس المُرتقبة. وفي الخارج، تعالى صياح شخص ما.

جاء صوت من خلف عادل:

- اللعنة. كيف استطاعوا تجاوز الحرس؟

صاح كبير:

- قائد صاحب، لا!

لكن والد عادل كان قد فتح الباب الأمامي بالفعل.

كان ضوء النهار يخفت، لكنه الصيف، والسماء كانت ما تزال مغمورة بالأصفر الشاحب. في البعيد، رأى عادل عناقيد صغيرة من الضوء، أناسًا في «شدباغي - ناو» يستعدون للعشاء مع أُسرهم. كانت التلال الممتدة بطول الأفق قد أعتمت، وسوف ينزل الليل قريبًا ليملأ كل الفراغات. لكن الظلام لم يكن دامسًا، ليس بعد، بما يكفي لحجب الشيخ الذي رآه عادل يقف عند أسفل الدرج الأمامي، مُمسكًا بحجر في كل يد.

أدار بابا جان رأسه وقال لأم عادل:

- خُذيه إلى أعلى. الآن!

قادت الأم عادل من كتفيه إلى السلم، في البهو، وإلى داخل غرفة النوم الرئيسية التي تتقاسمها مع بابا جان. أغلقت الباب، أوصدته، أسدلت الستائر، وفتحت التلفزيون. قادت عادل إلى السرير وجلست معه عليه. على الشاشة، كان اثنان من العرب يرتدي كل منهما قميصَ «كورتا» طويلًا فضفاضًا وطاقية محبوكة، يعملان على شاحنة ذات إطارات عملاقة.

قال عادل:

- ماذا سيفعل بالشيخ؟

لم يستطع التوقف عن الارتعاش.

- أمي، ماذا سيفعل بالشيخ؟

تطلَّع إلى أمه، ورأى سحابة تمر على وجهها، ثم أدرك فجأة، أدرك على الفور، أن أيًّا كان ما سيخرج من فمها الآن لن يكون محل ثقة.

قالت بارتعاشة:

- سيتكلم معه. سيُناقش ذلك الشخص أيًّا مَن كان. هذا ما يفعله والدك. إنه يتناقش مع الناس.

هز عادل رأسه. كان الآن يبكي، وينشج:

- ماذا سيفعل به يا أمي؟ ماذا سيفعل بهذا الشيخ؟

ظلت أمه تُكرر الشيء نفسه؛ أن كل شيء سيكون على ما يُرام، أن كل الأمور ستجري على نحو جيد، أن أحدًا لن يصيبه أذى. لكن كلَّما قالتها أمه، ازداد نشيجه، حتى أنهكه عند لحظة ما فراح في النوم على حِجر أمه.

* * *

«قائد سابق ينجو من محاولة اغتيال».

قرأ عادل القصة في مكتب والده، على كمبيوتر والده. وصفت القصة الهجومَ بـ«الخسيس»، والمعتدي بأنه لاجئ سابق «يُشتبه في علاقته بطالبان». وفي منتصف المقال، نُقل على لسان والده قوله إنه شعر بالخوف على أسرته. «وخصوصًا ابني الصغير البريء»، كما قال. لم يكشف المقال عن اسم المعتدي، ولم يُشر من قريب أو بعيد إلى مصيره.

أطفأ عادل الكمبيوتر. لم يكن يُفترض به أن يستخدمه، وقد تجاوز حدوده بالفعل حين دخل مكتب والده. قبل شهر، لم يكن ليجرؤ على أي من ذلك. عاد مُتثاقلًا إلى غرفته، وتمدد على

سريره، ورمى كُرة تنس قديمة نحو الحائط وتلقفها بيده. «طامب، طامب، طامب». لم يمر وقت طويل قبل أن تدس أمه رأسها من الباب وتطلب منه، ثم تأمره، أن يتوقف، لكنه لم يتوقف. تلكأت عند الباب لبُرهة قبل أن تنسل مُبتعدة.

«طامب، طامب، طامب».

على السطح، لم يكن شيء قد تغيَّر. لو كان عادل يُسجل أنشطته اليومية لاكتشف أنه يعود إلى إيقاعه الطبيعي. ما يزال يستيقظ في الساعة نفسها، يغتسل، يتناول إفطاره مع والديه، يحضر دروسه مع مُدرِّسه. بعدها، كان يتناول الغداء ثم يقضي فترة ما بعض الظهر مُمددًا، يشاهد الأفلام مع كبير أو يلعب ألعاب الفيديو.

لكن لا شيء بقي على حاله. ربما كان غلام هو مَن فتح الباب أمامه، لكن بابا جان هو مَن دفعه من الباب. كانت تروس ساكنة في عقل عادل قد بدأت في الدوران. شعر كما لو أنه، بين يوم وليلة، قد اكتسب حاسة جديدة تمامًا، حاسة مكَّنته من إدراك أشياء لم يسبق له أن أدركها، أشياء ظلت تحدق في وجهه منذ سنوات. رأى، على سبيل المثال، كيف كانت أمه تحمل أسرارًا بداخلها. عندما كان ينظر إليها، كانت تلك الأسرار تترقرق فعليًّا على صفحة وجهها. رآها تُصارع لتُخفي عنه كل الأشياء التي تعرفها، كل الأشياء التي تُبقيها حبيسة، مخفيَّة، محروسة بعناية، مثلما هو حالهما في هذا البيت الكبير. رأى للمرَّة الأولى منزل والده محلًّا للبشاعة، والخزي، نُصبًا للظلم، كما كان يراه الآخرون جميعًا بينهم وبين أنفسهم. رأى في هرولة الناس لإرضاء والده الرهبة، والخوف، الذي كان الركيزة الحقيقية لاحترامهم وولائهم. فكر أن

غلام كان ليفخر ببصيرته تلك. للمرَّة الأولى، شعر عادل بأنه يُدرك عن حق التحركات الأوسع التي طالما تحكَّمت في حياته.

ورأى الحقائق المُتصارعة على نحو وحشي، التي تسكن بداخل الشخص. ليس فقط والده، أو والدته أو كبير.

وإنما بداخله هو نفسه.

هذا الاكتشاف الأخير كان، بطريقة ما، الأكثر مفاجأة بالنسبة إلى عادل. إن تَكشُّف ما صار يعرف الآن أن والده قد ارتكبه، باسم الجهاد أولًا، ثم تحت ما كان يسميه «الجزاء العادل للتضحية» - جعل عادل يترنَّح. على الأقل لبعض الوقت. ولأيام بعد تلك الأمسية التي ارتطمت فيها الأحجار بالنافذة، ظلت معدة عادل تؤلمه كلما دخل والده غرفته. كان يسمع والده يُزمجر في هاتفه المحمول، أو يسمعه يُدندن في الحمَّام، فيشعر بعموده الفقري يتداعى، بحلقه يجف على نحو مؤلم. كان والده يُقبِّله قبل النوم، فيجفل عادل غريزيًّا. تراوده كوابيس. يحلم بأنه يقف على أطراف البساتين، يراقب حركة مفاجئة بين الأشجار، التماعة قضيب معدني وهو يرتفع ثم يهوي، صوت معدن يضرب لحمًا وعظمًا. فيستيقظ من تلك الأحلام بصراخ محبوس في صدره. وكانت نوبات من البكاء تجتاحه في لحظات عشوائية.

وفوق ذلك.

وفوق ذلك.

كان شيء آخر يجري. لم يكن الإدراك الجديد قد خبا من عقله، لكنه تدريجيًّا بدأ يجد رفقة. كان تيار آخر مضاد من الوعي يشق طريقه بداخله الآن، تيار لم يزح الأول ولكنه احتل مكانًا إلى جانبه.

كان عادل يشعر بيقظة هذا الجزء الآخر، الأكثر اضطرابًا، من ذاته. هذا الجزء بداخله الذي، على مدار الوقت، سوف يتقبل تدريجيًّا، وعلى نحو غير محسوس تقريبًا، الهوية الجديدة التي تخزه الآن مثل كنزة صوفية مُبللة. رأى أنه، في النهاية، سوف يتقبَّل الأمور على الأرجح مثلما تقبَّلتها أمه. لقد كان غاضبًا منها في البداية؛ والآن أصبح أكثر تسامحًا. ربما قبلت ذلك خوفًا من زوجها، أو كثمن لحياة الترف التي تعيشها. لكنها قبلت في الأغلب، على حد ظن عادل، للسبب نفسه الذي سيقبل من أجله: لأنه كان عليها أن تقبل. أي خيار آخر كان أمامها؟ لم يكن عادل يستطيع أن يهرب من أُسرته أكثر مما يستطيع غلام أن يهرب من أُسرته. إن الناس يتعلَّمون التعايش مع أمور تفوق الخيال. كما هو حاله. هذه هي حياته، وهذه هي أمه، وهذا هو أبوه، وهذا هو، حتى ولو لم يعرف ذلك من قبل.

عرف عادل أنه لن يُحب والده ثانية كما كان يُحبه من قبل، عندما كان ينام سعيدًا مُتكورًا بين ذراعيه الغليظتين. لم يعد يتصور هذا الآن. لكنه سوف يتعلم أن يُحبه ثانية حتى وإن كان بطريقة أخرى، أكثر تعقيدًا واضطرابًا. يكاد عادل يشعر بنفسه وهو يقفز فوق الطفولة. قريبًا، سيهبط على قدميه شابًّا ناضجًا. وعندما يحدث ذلك، سيكون بلا عودة، لأن النُّضج شبيه بما سبق وقاله له والده عن أن يكون المرء بطل حرب: عندما تصبح كذلك، تموت.

مُتمددًا في سريره ليلًا، فكر عادل أنه يومًا ما - ربما غدًا أو بعد غد، وربما الأسبوع المقبل - سيترك المنزل ويسير في اتجاه الحقل بجوار طاحونة الهواء، حيث قال له غلام إن أُسرته تقيم.

فكر أنه سيجد الحقل خاويًا. سيقف على جانب الطريق، يتصور غلام وأمه وإخوته وجدته، أُسرة تسير في طابور وهي تُجرجر مُتعلقاتها بالحبال، تتقدم على أجناب طرق البلاد المتربة، باحثة عن مكان تحط فيه رحالها. غلام هو رب الأسرة الآن. سيكون عليه أن يعمل. سيقضي شبابه في تنظيف القنوات، وحفر المجاري المائية، وصناعة الطوب، وحصد الحقول. سيتحول تدريجيًّا إلى واحد من أولئك الرجال ذوي القامات المنحنية والوجوه المدبوغة الذين طالما رآهم عادل خلف المحاريث.

فكر عادل أنه سيقف هناك برهة في الحقل، يراقب التلال والجبال الشاهقة فوق «شدباغ الجديدة». ثم فكر أنه سيضع يده في جيبه ليخرج ذلك الشيء الذي رآه ذات يوم وهو يمشي في البساتين، النصف الأيسر من نظارة، مكسورًا عند الحافة، والعدسة شبكة عنكبوتية من الشروخ، والذراع تكلس عليها دم جاف. سيرمي النظارة المكسورة في الوحل. وحسِب عادل أنه وهو يستدير ويرجع إلى بيته، سيشعر، أكثر من أي شيء، بالارتياح.

٨
خريف ٢٠١٠

هذا المساء. أعود إلى البيت من العيادة فأجد رسالة من ثاليا على الهاتف الأرضي في غرفتي. أسمعها وأنا أخلع حذائي وأجلس إلى مكتبي. تخبرني أنها مُصابة بنزلة برد، وأنها متأكدة أنها التقطت عدواها من ماما، ثم تسأل عني. تسأل كيف يسير العمل في كابول. وفي النهاية، قبل أن تضع السماعة، تقول: «أودي تظل تقول وتُكرر أنك لا تتصل. بالطبع لن تقول لك. لكنني سأقولها لك. يا ماركوس. من أجل محبة المسيح. اتصل بأمك. يا حمار».

أبتسم.

ثاليا.

أحتفظ بصورة لها على مكتبي، الصورة التي التقطتُها قبل كل تلك السنوات على الشاطئ في تينوس - ثاليا جالسة على صخرة وظهرها للكاميرا. لقد وضعتُ الصورة داخل إطار، مع أنك إذا دققت النظر فستظل ترى بقعة بُنية داكنة في الرُّكن الأيمن السفلي، تحية من الفتاة الإيطالية المجنونة التي حاولت أن تُشعل فيها النار قبل سنوات عدة.

أفتح اللاب توب، وأشرع في تدوين التقارير الطبية لليوم

السابق. غرفتي في الطابق العلوي - واحدة من ثلاث غرف في الطابق الثاني من ذلك البيت الذي أعيش فيه منذ وصولي إلى كابول عام ٢٠٠٢- ومكتبي بجوار النافذة يشرف على الحديقة في الأسفل. لديَّ إطلالة لأشجار المشمش الهندي التي زرعناها أنا ومالك البيت القديم، نبي، قبل بضع سنوات. أستطيع أن أرى المسكن السابق لنبي بطول الجدار الخلفي أيضًا، وقد أُعيد طلاؤه الآن. بعد وفاته، عرضته على شاب هولندي يساعد المدارس الثانوية المحلية في أمور التكنولوجيا. وإلى اليمين، تقبع سيارة سليمان وحدتي الشيفروليه طراز الأربعينيات، ساكنة في مكانها منذ عقود، مكسوَّة بالصدأ مثلما تُكسى الصخرة بالطحالب، تغطيها الآن طبقة رقيقة من الثلوج التي هطلت بالأمس بشكل مُفاجئ، قبل موعدها، أول ثلوج في هذه السنة. بعد موت نبي، فكرت لفترة أن أستأجر مَن يجر السيارة إلى إحدى ساحات الخردة في كابول، لكن قلبي لم يطاوعني. بدت لي جزءًا شديد الأهمية من ماضي المنزل، من تاريخه.

أُنهي التقارير، وأُلقي نظرة على ساعتي. إنها التاسعة والنصف مساء. السابعة مساء هناك في اليونان.

«اتصل بأمك. يا حمار».

إذا كنت سأتصل بماما الليلة، فلا يجب أن أتأخر عن ذلك. أتذكر أن ثاليا كتبت في إحدى رسائلها الإلكترونية أن ماما أصبحت تذهب إلى الفراش مُبكرًا أكثر فأكثر. أسحب نفسًا عميقًا وأستجمع قواي. أرفع السماعة وأطلب الرقم.

* * *

قابلت ثاليا في صيف ١٩٦٧، وأنا في الثانية عشرة من عمري. جاءت هي وأمها، «مادلين»، إلى تينوس لزيارتي أنا وماما. ماما، واسمها «أوديليا»، قالت إن أعوامًا مرت - خمسة عشر عامًا تحديدًا - منذ التقت هي وصديقتها مادلين آخر مرَّة. كانت مادلين قد غادرت الجزيرة في السابعة عشرة من عمرها مُتجهة إلى أثينا لتصبح، لفترة قصيرة على الأقل، ممثلة ذات شهرة متواضعة.

قالت ماما:

- لم أُفاجأ عندما سمعت بأمر تمثيلها. بسبب شكلها. طالما كان الجميع مأخوذين بمادلين. سترى بنفسك عندما تُقابلها.

سألت ماما لماذا لم تأتِ على ذكرها من قبل.

- حقًّا؟ هل أنت مُتأكد؟

- أنا مُتأكد.

- عجيبٌ، تصورت أنني سبق وحدثتك عنها.

ثم قالت:

- الابنة. ثاليا. يجب أن تُراعي مشاعرها، لأنها أُصيبت في حادثة. كلب عضها. لديها ندبة.

لم تُضف ماما المزيد، وكنت أعرف أنني لا يجب أن أضغط عليها في هذا الشأن. لكن هذا التصريح أثارني أكثر بكثير من ماضي مادلين في السينما والمسرح، وزاد من فضولي الشك في أن الندبة لا بد أن تكون كبيرة ومرئية حتى تستحق الفتاة اهتمامًا خاصًّا. وبنوع من الهوس، ظللت أتطلع إلى رؤية تلك الندبة بنفسي.

قالت ماما:

- التقيت أنا ومادلين في قدَّاس، ونحن صغيرتان.

قالت إنهما، بعدها مباشرة، أصبحتا صديقتين لا تفترقان. كانتا تشبكان يديهما تحت المكاتب في الفصل، أو في الفسحة، في الكنيسة، أو وهما تتنزهان أمام حقول الشعير. أقسمتا على أن تظلا أختين مدى الحياة. وقطعتا وعدًا بأن تعيشا قريبتين، حتى بعد زواجهما. سوف تعيشان جارتين، وإذا أصر زوج هذه أو تلك على الانتقال بعيدًا، فستطلبان الطلاق. أتذكر ماما وهي تبتسم قليلًا حين كانت تُخبرني بكل ذلك ساخرة من نفسها، وكأنما تريد أن تنأى بنفسها عن فورة الشباب وحماقته هذه، عن كل تلك الوعود المتهورة المحمومة. لكنني رأيت في وجهها لمحة من ألم خفي أيضًا، مسحة من إحباط كانت كبرياء ماما لا تسمح لها بالاعتراف به.

كانت مادلين متزوجة الآن من رجل ثري يكبرها كثيرًا، اسمه السيد «أندرياس جياناكوس»، كان قد أنتج لها قبل سنوات فيلمها الثاني، والأخير كما تبيَّن لاحقًا. كان يعمل في مجال المقاولات الآن ويمتلك مزرعة كبيرة في أثينا. وقد وقعت بين مادلين والسيد جياناكوس جفوة مؤخرًا على أثر شجار. لم تُخبرني ماما بأي من تلك المعلومات؛ بل عرفتها من قراءة مُختلسة، مُتسرعة، مُبتسرة، لخطاب كانت مادلين قد أرسلته لماما تُخبرها فيه بزيارتها المرتقبة:

أقول لك بحق إن صُحبة أندرياس وأصدقائه اليمينيين وموسيقاهم العسكرية أصبحت أمرًا مُرهقًا جدًّا. أظل مُطبقة الشفتين طوال الوقت. لا أقول شيئًا عندما يثنون على عصابتهم من العسكر الذين

هزئوا بديمقراطيتنا. فلو نطقت ولو بكلمة اعتراض واحدة، أنا واثقة أنهم سيُصنفونني شيوعية فوضوية، ساعتها، حتى نفوذ أندرياس لن يحميني من الزنزانة. أحيانًا أظن أنه يتعمَّد استفزازي لكي أنكر آرائي بنفسي. يا إلهي، كم أفتقدكِ، يا عزيزتي أودي. كم أفتقد رفقتنا.

يوم الوصول المنتظر لضيفتنا، أيقظتني ماما مُبكرًا لترتيب البيت. كنا نعيش في منزل صغير شُيِّد على سفح أحد التلال. ومثل الكثير من بيوت تينوس، كان مبنيًّا بالحجر المطلي بالأبيض، وكان السقف مُسطحًا، ببلاطات حمراء ماسية الشكل. الغرفة العليا الصغيرة التي كنا نتقاسمها أنا وماما لم يكن لها باب - كان السلم الضيق يقود إليها مباشرة - لكن كانت لها كوة على شكل مروحة وشرفة ضيقة لها درابزين من الحديد المشغول بارتفاع الخصر، كان يمكن منها رؤية أسطح البيوت الأخرى، وأشجار الزيتون، والماعز، والأزقة الحجرية الملتوية، والقناطر في الأسفل، وبالطبع، بحر «إيجه»، بلونه الأزرق الهادئ في صباحات الصيف، يعلوه الزبد في فترة ما بعد الظهيرة عندما تهب رياح «ملتيمي» من الشمال.

عندما انتهت ماما من التنظيف، ارتدت ما كان يُعدُّ طقمها الفاخر الوحيد، ذلك الذي ترتديه في الخامس عشر من أغسطس من كل عام، عيد رقاد السيدة العذراء في كنيسة «باناجيا ايفانجلستريا»، حيث يتوافد الحُجاج على تينوس من كل مكان في البحر المتوسط للصلاة أمام أيقونة الكنيسة الشهيرة. ثمة صورة لأمي في هذا الطقم - الفستان الذهبي الطويل الباهت الصدئ ذي

الرقبة المستديرة، السويتر الأبيض الذي انكمش، الجورب، الحذاء الأسود الثقيل. كانت ماما تبدو تمامًا مثل الأرملة المُتزمتة، بوجهها الحاد، وحاجبيها المنفوشين، وأنفها الأفطس، مشدودة في وقفتها، يبدو عليها ورع مُتجهم، وكأنها هي نفسها من الحُجاج. وأنا أيضًا في الصورة، واقف بصلابة إلى جوار فخذ أمي، أرتدي قميصًا أبيض، وشورتًا أبيض، وجوربًا أبيض يصل إلى الرُّكبتين مفرودًا بالكامل. يمكن أن تستنتج من تكشيرتي أنني قد أُمرت بأن أقف مُنتصبًا، بألا أبتسم، أن وجهي قد فُرك جيدًا، وشعري مُشِّط بالماء، ضد رغبتي وبقدر كبير من الاهتمام. يمكن أن تستشعر تيارًا من الاستياء بيننا. تراه في وقفتنا المُتصلبة، في جسدينا اللذين لا يكادان يتلامسان.

أو ربما لا تستشعر ذلك. لكن هذا ما يحدث لي في كل مرَّة أرى الصورة، وكانت المرَّة الأخيرة قبل عامين. لا أستطيع إلا أن أرى الحذر، والجهد، والقلق. لا أستطيع إلا أن أرى شخصين لا يجمعهما إلا الواجب الجيني، مكتوب عليهما أن يحيِّر كل منهما الآخر، ويُحبطه. كلٌّ منهما يشعر أن من واجبه أن يتحدى الآخر.

من نافذة غرفة النوم في الطابق العلوي، رُحت أراقب ماما وهي تمضي إلى ميناء العبَّارات في بلدة تينوس. اقتحمت ماما، بمنديلها المربوط أسفل ذقنها، هذا اليوم الأزرق المشمس. كانت امرأة ضئيلة، صغيرة العظام، لها جسد طفلة، لكن عندما تراها قادمة فإنه يجدر بك أن تفسح لها الطريق. أتذكرها وهي تصحبني إلى المدرسة كل صباح - أمي الآن مُتقاعدة، لكنها كانت مُدرِّسة. ونحن نمشي، لم تكن ماما تمسك يدي قَطُّ. كانت الأمهات الأخريات يفعلن ذلك مع أطفالهن، لكن ليس ماما. تقول إنها يجب

أن تعاملني مثل أي طالب آخر. كانت تتقدم بخُطى منتظمة، قبضتها مضمومة على رقبة السويتر الذي ترتديه، وأحاول أنا أن ألحق بها، وفي يدي علبة الغداء، مهرولًا لألحق بخُطاها. في الفصل، أجلس في الخلف دائمًا. أتذكر أمي وهي واقفة أمام السبورة وكيف كانت تُثبِّت أي طفل يسيء السلوك بنظرة واحدة لاذعة، مثل حجر أُلقي بنبلة، فلا يخيب هدفها. كما كان يمكنها أن تشقك نصفين بلا سلاح سوى نظرة عبوس أو ضربة صمت مفاجئة.

كانت ماما تؤمن بالإخلاص قبل كل شيء، حتى وإن تطلَّب إنكار الذات. على وجه التحديد عندما يتطلب إنكار الذات. وكانت تؤمن كذلك بأنه من الأفضل دائمًا قول الحقيقة، قولها بوضوح، من دون تزويق، وكلما كانت الحقيقة كريهة، كان أحرى بك أن تكشفها. لم تكن تتحمل المائعين. كانت - «وما تزال» - امرأة ذات إرادة هائلة، امرأة لا تُقدم مُبررات، وامرأة لا تريد أن تدخل معها في شجار - على الرغم من أنني لم أفهم قَطُّ على وجه اليقين، حتى الآن، ما إذا كان طبعها فطرة جبلها عليها الله أم شيئًا شكلَّته هي بوحي الضرورة، هي التي مات زوجها بعد عام واحد من زواجهما تاركًا لها تربيتي بمفردها.

رُحت في النوم في الطابق العلوي بعد أن غادرت ماما بفترة وجيزة. وانتفضتُ مُستيقظًا على صوت امرأة عالٍ ورنان. انتصبت في جلستي فرأيتها أمامي، وجهها ممتليء بأحمر الشفاه، والمسحوق، والعطر، وتعرجات خفيفة، إعلان شركة طيران يبتسم لي من أعلى، من خلف البُرقع الرقيق المُثبَّت في قُبعتها الصغيرة المستديرة. كانت تقف في وسط الغرفة في فستان قصير أخضر زاهٍ،

وحقيبة سفر صغيرة عند قدميها، بشعرها البُني المُحمر وأطرافها الطويلة، تبتسم لي من أعلى، وعلى وجهها إشراقة، وهي تتكلم، وصوتها ينضح بالثقة والمرح:

- إذن أنت ماركوس الصغير، ابن أودي! لم تخبرني أنك وسيم هكذا! أوه، إنني أراها فيك، حول العينين - نعم، لك نفس العينين، أظن، متأكدة أنك سمعت ذلك من قبل. كنت مُشتاقة جدًّا لرؤيتك. أنا وأمك - نحن - أوه، لا شك أن أودي أخبرتك، لذا تستطيع أن تتخيَّل، تستطيع أن تتصوَّر، الإثارة التي أنا فيها، أن أراكما، أن أُقابلكما، يا ماركوس. ماركوس فارفاريس! حسنًا، أنا مادلين جياناكوس، واسمح لي أن أقول إنني سُررت بلقائك.

خلعت قفازًا حريريًّا بلون الكريمة يصل إلى مرفقها، قفازًا من ذلك النوع الذي لم أره إلا في المجلات، حيث ترتديه النساء الأنيقات في حفلات السهرة، وهن يُدخنَّ على السلالم الواسعة لدار الأوبرا أو يُساعَدن على الخروج من سيارة سوداء لامعة، تضيء وجوههن مع فرقعة ومضات الفلاشات. كان عليها أن تجذب كل إصبع من أصابع القفاز عدة مرَّات قبل أن يخرج من يدها، ثم انحنت قليلًا من عند الخصر ومدت إليَّ يدها.

قالت:

- فُتنت بلقائك.

عند مدخل الغرفة، إلى جانب أمي، كانت تنظر إليَّ بشرود فتاةٌ شاحبة البشرة، نحيلة، بخصلات شعر مُتهدلة. بخلاف ذلك، لا أستطيع أن أُخبرك بأي شيء. لا أستطيع أن أُخبرك بلون الفستان الذي كانت ترتديه ذاك اليوم - أقصد، إذا كانت قد ارتدت

فستانًا - أو نوع حذائها، أو إذا كانت تلبس جوربًا أم لا، أو إذا كان في معصمها ساعة أو كانت تضع قلادة، أو خاتمًا، أو أقراطًا. لا أستطيع أن أُخبرك لأنك لو كنت في مطعم ورأيت شخصًا ما يخلع ملابسه، ويقفز فوق الطاولة، ويشرع في رمي ملاعق الحلوى في الهواء والتقاطها، فلن تنظر إلى حركاته فحسب، بل إنك لن «تستطيع» أن تنظر إلى غيرها. هكذا كان القناع المُعلَّق على النصف الأسفل من وجه الفتاة، يطمس إمكانية أي ملاحظة أخرى.

- ثاليا، سلِّمي يا عزيزتي. لا تكوني وقحة.

أظنني رأيت إيماءة خافتة بالرأس.

رددتُ بلسان أشبه بورق الصنفرة:

- أهلًا.

كان ثمة تموجات في الهواء. تيار. شعرت بأنني مشحون بشيء يجمع بين الإثارة والرُّعب، شيء يفور بداخلي ثم يتكور على نفسه. كنت أُحدق وأعرف هذا ولم أستطع منع نفسي، لم أستطع إبعاد بصري عن قماش القناع الأزرق السماوي، الشريطين اللذين يربطانه إلى مؤخرة رأسها، الشق الأفقي الرفيع فوق فمها. عرفت ساعتها أنني لم أكن أتحمَّل أن أرى ذلك الذي يُخفيه القناع، أيًّا كان. وأنني لا أطيق صبرًا لرؤيته. لا شيء في حياتي يمكن أن يواصل طريقه وإيقاعه ونظامه الطبيعي حتى أرى بنفسي ذلك الشيء الرهيب والمُفزع لتلك الدرجة التي يلزم معها حمايتي أنا والآخرين منه.

وراودني الاحتمال الآخر، أن يكون هذا القناع قد صُمم ربما لحماية ثاليا منَّا. وقد نجح في ذلك على الأقل في سكرات المقابلة الأولى المدوِّخة تلك.

صعدت مادلين مع ثاليا إلى الطابق العلوي لتفريغ أمتعتهما، بينما ذهبت ماما إلى المطبخ لتمسح قطع سمك موسى بخلطة الدقيق لتجهيز العشاء. طلبت مني أن أُعد لمادلين فنجانًا من «الإلينيكوس كافيس»، وهو ما فعلتُه، وطلبت مني أن آخذه لها في الطابق العلوي، وهو ما فعلتُه أيضًا، على صينية، ومعه طبق صغير من «الباستيللي».

كل تلك العقود مرت، وما زال الخجل يغمرني مثل سائل لزج دافئ عندما أتذكر ما حدث بعد ذلك. حتى اليوم، أستطيع أن أتصور المشهد مثل صورة فوتوغرافية، ثابتة. مادلين تُدخِّن، واقفة إلى جوار نافذة غرفة النوم، تنظر إلى البحر من وراء نظارة شمس بعدسات صفراء مُدوَّرة، إحدى يديها عند خصرها، وكاحلاها متقاطعان. قبعتها موضوعة على خزانة الأدراج. وفوق الخزانة مرآة وفي المرآة ثاليا، جالسة على حافة السرير، ظهرها لي. إنها مُنحنية إلى أسفل، تفعل شيئًا ما، ربما تفك رباط حذائها، وأستطيع أن أرى أنها قد خلعت قناعها. إنه موضوع على السرير إلى جوارها. يسري تيار من البرودة نازلًا في عمودي الفقري وأحاول أن أوقفه، لكن يديَّ ترتعشان، ما يجعل الفنجان الخزفي يُصلصل فوق صحنه، ما يجعل مادلين تُدير رأسها عن النافذة إليَّ، ما يجعل ثاليا ترفع رأسها. وألمح الانعكاس في المرآة.

انزلقت الصينية من بين يديَّ. تهشَّم الخزف. اندلق السائل الساخن، وتدحرجت الصينية تُصلصل على السلم. كانت فوضى عارمة، أنا على يديَّ وقدميَّ، أتقيأ فوق شظايا الخزف المكسور، ومادلين تقول:

– يا ربي. يا ربي.

وماما تهرع صاعدة السلم وهي تصرخ:

- ماذا حدث؟ ماذا فعلت يا ماركوس؟

عضها كلب، هكذا كانت ماما قد أخبرتني مُحذرة. **عندها ندبة.** لم يعض الكلب وجه ثاليا؛ بل «التهمه». وربما ثمة كلمات لوصف ما رأيته في المرآة ذلك اليوم، لكن الأكيد أن كلمة ندبة لم تكن من بينها.

أتذكَّر يدي ماما وهما تقبضان على كتفيَّ، ترفعاني وتديراني، وتقول:

- ماذا بك؟ ماذا بك؟

وأتذكر نظرتها تعلو فوق رأسي. لقد تجمَّدَت هناك. ماتت الكلمات في فمها. شحب وجهها. سقطت يداها من على كتفيَّ. وشهدت لحظتها أكثر الأشياء غرابة، شيئًا أدهشني أكثر مما لو ظهر الملك «قسطنطين» نفسه على باب بيتنا مُرتديًا بدلة مُهرِّج: رأيت دمعة واحدة، تتشكل عند زاوية عين أمي اليمنى.

* * *

تسألني ماما:

- كيف تبدو إذًا؟

- مَن؟

- مَن؟ المرأة الفرنسية. ابنة أخت صاحب المنزل الذي تعيش فيه، الأستاذة الجامعية القادمة من باريس.

أنقل السماعة إلى أذني الأخرى. يدهشني أنها تتذكر. طيلة حياتي، كان يراودني شعور أن الكلمات التي أقولها لماما تتبخر

في الفضاء من دون أن تصل إلى أذنيها، وكأن ثمة خشخشةً بيننا، اتصالًا مُشوَّشًا. أحيانًا عندما أتصل بها من كابول، كما أفعل الآن، أشعر وكأنها قد خفضت صوت السماعة بهدوء ومضت بعيدًا، أنني أتحدث في الفراغ عبر القارات - مع أنني أستطيع أن أشعر بوجود أمي على الخط وأسمعها تتنفس في أذني. في أحيان أخرى، أخبرها عن شيء رأيته في العيادة - عن صبيٍّ تسيل منه الدماء يحمله والده، على سبيل المثال، وثمة شظية مغروسة بعمق في خديه، وأذنه مقطوعة تمامًا، ضحية أخرى للَّعب في الجانب الخطأ من الشارع في الساعة الخطأ أو اليوم الخطأ - ثم، من دون إنذار، أسمع صلصلة عالية، ويروح صوت ماما فجأة يبتعد ولا يعود موجودًا، يعلو ويهبط صدى وقع أقدام، صدى لشيء يزحف على الأرض، وأخرس، في انتظار عودتها، وهو ما يحدث في النهاية، مقطوعةَ الأنفاس دائمًا، وهي تشرح: **قلت لها إنني على ما يُرام وأنا واقفة.** قلت: **يا ثاليا، أريد أن أقف عند النافذة وأنظر إلى الماء وأنا أتكلَّم مع ماركوس،** لكنها تقول: **ستتعبين نفسك يا أودي، يجب أن تجلسي. وبعد ذلك لا أنتبه إلا وهي تسحب الكرسي ذا الذراعين - الكرسي الجلدي الكبير الذي اشترته لي العام الماضي - إلى النافذة. يا ربي. كم هي قوية. أنت لم ترَ الكرسي ذا الذراعين، بالطبع. حسنًا، بالطبع.** ثم تتنهَّد بسخط مُتصنع، وتطلب مني مُواصلة الحكاية، لكنني أكون ساعتها قد فقدت توازني بما لا يسمح لي بذلك. الخلاصة أنها قد جعلتني أشعر بالتوبيخ على نحو غامض، والأكثر من ذلك، أنني أستحق هذا التوبيخ، أنني ارتكبت ذنوبًا غير مُعلنة، جرائم لم تُوجَّه

لي بصددها اتهامات رسمية. وحتى إن واصلت سرد حكايتي، أجدها تبدو في أذنيَّ وقد تضاءلت. لا ترقى إلى دراما ماما مع الكرسي ذي الذراعين وثاليا.

الآن، تقول ماما:

- ماذا كان اسمها؟ باري، أليس كذلك؟

حكيت لماما عن نبي، الذي كان صديقًا عزيزًا عليَّ. إنها لا تعرف سوى الخطوط العريضة لحياته. تعرف أنه في وصيته ترك البيت في كابول لابنة أخته، باري، التي نشأت في فرنسا. لكنني لم أكن قد أخبرتها بشأن نيلا وحدتي، وهروبها إلى باريس بعد السكتة التي أصابت زوجها، والعقود التي قضاها نبي في رعاية سليمان. **ذاك التاريخ**. بكل ما فيه من توازيات وارتدادات. وكأنك تقرأ بصوت عالٍ الاتهامات الموجهة إليك.

أقول:

- باري، نعم. كانت لطيفة، ودافئة، خصوصًا بالنسبة إلى شخص أكاديمي.

- قل لي ثانيةً، ماذا تعمل؟ عالمة كيمياء؟

أقول وأنا أُغلق شاشة اللاب توب:

- **عالمة رياضيات**.

كانت الثلوج قد بدأت في الهطول ثانية، نتفٌ خفيفة دقيقة الحجم تدور في الظلام، ترمي بنفسها على نافذتي.

أحكي لماما عن زيارة باري وحدتي في أواخر الصيف الماضي. كانت عذبة حقًّا. لطيفة، نحيلة، شعر أشيب، عنق طويل بوريد أزرق كامل يزحف على كلا الجانبين، ابتسامة دافئة تكشف

عن أسنان مُتباعدة. بدت هشّةً بعض الشيء، أكبر من سِنِّها. التهاب مفاصل روماتيزمي سيِّئ. اليدان بمفاصلهما الملتهبة البارزة على وجه الخصوص، ما زالتا تتحركان، لكن سيأتي اليوم، وهي تعرف. جعلني هذا أفكر في ماما وفي يومها حين يأتي.

ظلت باري وحدتي معي في البيت في كابول لمدة أسبوع. اصطحبتها في جولة في أرجائه عندما وصلت من باريس. كانت قد رأت البيت آخر مرَّة عام ١٩٥٥، وبدت عليها الدهشة من يقظة ذاكرتها عن المكان، تذكرها لتصميمه العام، درجتي السلم بين غرفة المعيشة وغرفة الطعام، على سبيل المثال، حيث قالت إنها كانت تجلس وسط حزمة من أشعة الشمس في منتصف النهارات وتقرأ كتبها. أذهلها صغر حجم المنزل مقارنة بالنسخة التي في ذاكرتها. عندما اصطحبتها إلى الطابق العلوي، عرفَت أي الغرف كانت غرفتها، مع أن زميلًا ألمانيًّا لي يعمل لحساب برنامج الغذاء العالمي يشغل تلك الغرفة الآن. أتذكر انحباس أنفاسها عندما رأت خزانة الملابس الصغيرة المنخفضة في زاوية غرفة النوم - وهي إحدى مُخلَّفات طفولتها القليلة الباقية. تذكَّرتها من الرسالة التي كان نبي تركها قبل موته. قرفصت إلى جوارها ومررت أناملها على الطلاء الأصفر المُقشَّر، وعلى الزرافات والقرود ذوات الأذيال الطويلة التي بهتت على بابيها. عندما تطلعت إليَّ، رأيت أن عينيها كانتا دامعتين، وسألتني، بخجل واعتذار شديدين، إن كان من الممكن أن أُرسلها لها إلى باريس. عرضت أن تشتري لي خزانة بديلة. كان الشيء الوحيد الذي أرادته من المنزل. قلت لها إنه سيكون من دواعي سروري أن أفعل ذلك.

في النهاية، لم تطلب باري غير الخزانة، التي شحنتها بعد بضعة أيام من رحيلها. عادت باري وحدتي إلى فرنسا من دون أن تأخذ معها أي شيء سوى كراسات الرسم الخاصة بسليمان وحدتي، وخطاب نبي، والقليل من قصائد أمها نيلا، التي كان نبي قد احتفظ بها. الشيء الآخر الوحيد الذي طلبته مني في أثناء إقامتها هو أن أُدبر سيارة تأخذها إلى شدباغ حتى تتمكن من رؤية القرية التي وُلِدت فيها، وكانت تأمل أن تعثر فيها على أخيها غير الشقيق، إقبال.

تقول ماما:

- أظنها ستبيع البيت. الآن وقد أصبح ملكها.

أقول:

- في الحقيقة، هي قالت إنني أستطيع البقاء فيه بقدر ما أُحب، من دون دفع إيجار.

لكم أرى ماما بوضوح وهي تزمُّ شفتيها مُتشككة. إنها من أبناء الجُزر، وهي تشك في دوافع أبناء القارات، وتنظر بارتياب إلى ما يبدو كأعمال خير يقومون بها. كان ذلك واحدًا من الأسباب التي عرفتُ، عندما كنت صبيًّا، أنها ستدفعني إلى هجرة تينوس يومًا ما عندما تسنح الفرصة. نوع من اليأس كان يتملكني كلما سمعت الناس يتكلمون بهذه الطريقة.

أطلب تغيير الموضوع:

- كيف حال بُرج الحمام، على ما يرام؟

- يجب أن أستريح. أشعر بالتعب والإنهاك.

شُخِّصت حالة ماما في أثينا قبل ستة أشهر على يد طبيب

أعصاب كنت قد عزمت على أن تراه بعدما أخبرتني ثاليا أن ماما كانت تتشنج وتُسقط الأشياء طوال الوقت. كانت ثاليا هي التي رافقتها. منذ زيارة طبيب الأعصاب، صارت ماما مُفعمة بالنشاط. أعرف هذا من خلال الرسائل الإلكترونية التي ترسلها إليَّ ثاليا. تُعيد طلاء المنزل، تُصلح تسريبات المياه، تستميل ثاليا لمساعدتها في بناء خلوة جديدة بالكامل في الطابق العلوي، بل وتُغيِّر القرميد المشقوق على السطح، وإن كانت ثاليا، مشكورةً، قد وضعت حدًّا لكل هذا. الآن موضوع برج الحمام. أتصور ماما وكماها مُشمران، وفي يدها مطرقة، والعرق يبلل ظهرها، تدق المسامير وتُنعِّم ألواح الخشب. تُسابق الخلايا العصبية الواهنة، تستغل وجودها وتعصرها لآخر قطرة.

تقول ماما:

- متى سترجع إلى البيت؟

أقول:

- قريبًا.

قريبًا هي الكلمة التي قلتها العام الماضي أيضًا عندما سألتني السؤال نفسه. مرت سنتان منذ زيارتي الأخيرة إلى تينوس.

وقفة قصيرة.

- لا تنتظر طويلًا. أريد أن أراك قبل أن يربطوني إلى رئة حديدية.

تضحك. تلك عادة قديمة؛ المزاح والهزل في مواجهة سوء الحظ، هذا الاحتقار من جانبها لأدنى بادرة من الشفقة على الذات.

كان لها أثر مُتناقض - ومحسوب كما كنت أعرف، إذ يخفف من النوازل ويزيد وطأتها في الوقت نفسه.

تقول:

- تعال لحضور الكريسماس إذا استطعت. قبل الرابع من يناير بأية حال. ثاليا تقول إنه سيكون هناك كسوف للشمس فوق اليونان ذلك اليوم. لقد قرأت ذلك على الإنترنت. يمكن أن نراقبه معًا.

أقول:

- سأحاول يا ماما.

* * *

كان الأمر أشبه بالاستيقاظ صباحًا واكتشاف أن حيوانًا بريًّا قد تجول في أرجاء منزلك. لم يكن ثمة مكان آمن بالنسبة إليَّ. كانت هناك في كل ركن ومنعطف، تطوف، تتسحب، تنقر على وجهها طوال الوقت بمنديل لتُجفف اللعاب الذي يسيل باستمرار من فمها. وقد جعلت أبعاد بيتنا الصغيرة الهرب منها مُستحيلًا. كنت أرتعب على وجه الخصوص من أوقات تناول الوجبات؛ حيث يتوجَّب عليَّ أن أتحمل منظر ثاليا وهي ترفع الجزء السفلي من قناعها لتضع الملعقة في فمها. كانت معدتي تنقلب لرؤية المشهد وسماع الصوت. كانت تأكل بصخب، ولا يني فتات من طعام نصف ممضوغ يتساقط رطبًا على صحنها، أو على المائدة، أو حتى على الأرض. إنها مجبرة على تناول كل السوائل، وحتى الحساء، باستخدام شفَّاطة تحتفظ أمها بمخزون منها في حقيبة يدها. ترشف بصوت عالٍ، وتغرغر وهي تشفط حساء بالشفاطة، وكان دائمًا يلطخ القناع ويسيل على جانب فكها وحتى رقبتها. المرَّة الأولى،

استأذنتُ للقيام، فحدجتني ماما بنظرة قاسية. وهكذا دربت نفسي على تجنب النظر والامتناع عن السماع، لكن الأمر لم يكن سهلًا. أدخل المطبخ فأجدها هناك، تجلس ساكنة بينما تدهن مادلين خدها بمرهم للوقاية من تهيج الجلد. بدأت أعد الأيام، عدًّا تنازليًّا عقليًّا، في انتظار انتهاء تلك الأسابيع الأربعة التي كانت ماما قد قالت إن مادلين وثاليا ستقضيانها معنا.

تمنيت لو أن مادلين جاءت بمفردها. كانت مادلين تروق لي. نجلس، نحن الأربعة، في باحة صغيرة مُربعة أمام بابنا الأمامي، فتروح ترتشف القهوة وتُدخِّن السجائر واحدة بعد أخرى، وقد اكتست زوايا وجهها بالظلال التي تُلقيها شجرة الزيتون في باحتنا، فيما قبعتُها الذهبية المصنوعة من القش - التي لا شكَّ أنها تبدو عبثيَّةً على أي شخص، مثل ماما مثلًا - تناسبها تمامًا. كانت مادلين من أولئك الناس الذين تظهر عليهم الأناقة بسلاسة كما لو أن ذلك شيء وراثيٌّ، مثل القدرة على ليٍّ لسانك على شكل أنبوب. مع مادلين، لم تكن هناك قَطُّ فواصل في الحوار؛ إذ تنساب القصص من بين شفتيها. ذات مرَّة حكت لنا عن أسفارها - لأنقرة، على سبيل المثال، حيث كانت تتجول على ضفاف نهر «إنجوري سو» وترتشف الشاي الأخضر بالروكي، أو المرَّة التي سافرت فيها هي والسيد جياناكوس إلى «كينيا» واعتليا ظهور الفيلة بين أشجار الأكاسيا الشائكة، بل وجلسا يأكلان عصيدة الذرة والأرز بجوز الهند مع القرويين المحليين.

أثارت قصص مادلين اضطرابًا قديمًا بداخلي، نزعة لطالما كانت عندي لاقتحام العالم بشجاعة، أن أصبح جريئًا غير هيَّاب.

بالمقارنة، بدت حياتي في تينوس عادية على نحو ساحق. وتصورت حياتي تنبسط امتدادًا لا متناهيًا من العدم، فقضيت معظم طفولتي في تينوس مُتخبطًا، شاعرًا بأنني ممثل بديل لنفسي، وكيل عني، وكأن ذاتي الحقيقية تسكن في مكان ما، في انتظار أن تتحد يومًا مع هذه الذات الأكثر عتمة وخواء. وشعرت بأنني معزول، منفيٌّ في داري.

قالت مادلين إنها في أنقرة ذهبت إلى مكان يُدعى «كوجولو بارك»، وشاهدت البجع ينزلق على الماء. قالت إن المياه كانت مُبهرة.

قالت، ضاحكة:

- أنا أُبالغ كثيرًا.

قالت ماما:

- لا، ليس حقيقيًّا.

- إنها عادة قديمة. أنا أتكلم كثيرًا. أفعل ذلك دائمًا. هل تتذكرين المتاعب الكثيرة التي كنت أسببها لكلينا، حين أُثرثر في الفصل؟ أنتِ لم ترتكبي الأخطاء قَطُّ يا أودي. كنت تتمتعين بالشعور بالمسؤولية والمواظبة.

- حكاياتك شيقة. إنك تعيشين حياة شيقة.

قلبت مادلين عينيها:

- ليس كما تتصورين.

سألت ماما ثاليا:

- هل أعجبتكِ أفريقيا؟

ضغطت ثاليا المنديل على خدها ولم تُجب. أسعدني ذلك.

فقد كان صوتها أغرب صوت سمعته. فيه رطوبة ما، خليط غريب من اللثغ والغرغرة.

قالت مادلين، وهي تسحق سيجارتها:

- أوه، ثاليا لا تُحب السفر. لا يُعجبها.

قالت ذلك وكأنه حقيقة لا مِراء فيها، ولم تنظر إلى ثاليا لتؤكد كلامها أو تعارضه.

قالت ماما، مُوجِّهة كلامها إلى ثاليا ثانية:

- حسنًا، ولا أنا. أنا أحب أن أكون في البيت. أعتقد أنني لم أجد قَطُّ سببًا قويًّا يدفعني لمغادرة تينوس.

قالت مادلين:

- وأنا لم أجد سببًا للبقاء. إلا أنتِ بالطبع.

لمسَت رسغ ماما:

- تعرفين ما هي أسوأ المخاوف التي شعرت بها عندما رحلتُ؟ أكبر قلق شعرت به؟ كيف سيمكنني أن أمضي في طريقي من دونك يا أودي؟ أقسم لك، كنت مُرتعبة من الفكرة.

قالت ماما ببطء، وهي تسحب نظرتها من على ثاليا:

- لقد تدبرتِ أموركِ على نحو جيد، فيما يبدو.

- أنتَ لا تعرفُ ماذا أقصد.

قالتها مادلين، وانتبهتُ إلى أنها كانت تتحدث إليَّ، حيث كانت تنظر إليَّ مباشرة.

- لم يكن بإمكاني أن أظل واقفة على قدميَّ من دون أمك. لقد أنقذتني.

قالت ماما:

- الآن أنت تُبالغين.

رفعت ثاليا وجهها. كانت تُضيِّق عينيها. طائرة نفاثة، في الزُّرقة في الأعلى، ترسم مسارها في صمت بذيل واحد طويل من البخار.

قالت مادلين:

- لقد أنقذتني أودي من بين يدي أبي.

لم أكن واثقًا ما إذا كانت ما تزال تتحدث إليَّ.

- كان من أولئك الناس الذين ولدوا وفيهم خِسَّة. عيناه جاحظتان، ورقبته قصيرة غليظة على قفاها وحمةٌ داكنة، وقبضتان؛ قبضتان مثل طوبتين. كان يكفي أن يرجع إلى البيت فحسب، من دون أن يفعل شيئًا، مجرد صوت حذائه في الصالة، صلصلة مفاتيحه، دندنته، كانت كافية بالنسبة إليَّ. عندما يجن جنونه، كان يتنفس من أنفه دائمًا، ويغمض عينيه بقوة، وكأنه في تفكير عميق، ثم يفرك وجهه ويقول: **حسنًا يا ابنتي، حسنًا**، فتعرف أنها قادمة - العاصفة قادمة - ولا يمكن إيقافها. لا يستطيع أحد أن يساعدك. أحيانًا، كان يفرك وجهه فحسب، أو يُطلق تنهيدة تتخلل شاربه، فتُظلم الدنيا أمام عيني. لقد التقيت من وقتها برجال مثله. أتمنى لو أقول عكس ذلك، لكن هذا ما حدث. وما تعلَّمته هو أنك إذا تعمقت قليلًا لوجدتهم جميعًا مُتشابهين، على نحو أو آخر. بعضهم أكثر تهذيبًا، نعم. قد تجدين منهم مَن يملك بعض السحر - أو الكثير منه - ويمكن لهذا أن يخدعك. لكن الحقيقة أنهم جميعًا صبية صغار تعساء يخوضون في أوحال سخطهم. إنهم يشعرون بأن الحياة أساءت إليهم. لم تُعطهم حقهم. ولا يمكن لأحد أن يُحبهم بما يكفي. بالطبع ينتظرون منك أن تُحبيهم. يريدون أن

يُضموا، ويُهدهدوا، ويُطمأنوا. لكن من الخطأ أن تمنحيهم هذا، إذ ليس في وسعهم قبوله. ليس في وسعهم قبول الشيء نفسه الذي يحتاجون إليه. وينتهي بهم الأمر إلى كراهيتك لهذا السبب. ويستمر الوضع بلا نهاية لأنه لا يسعهم أن يكرهوك بما فيه الكفاية. يستمر بلا نهاية - البؤس، الاعتذارات، الوعود، نقض العهود، وكل ما في ذلك من تعاسة. كان زوجي الأول على هذه الشاكلة.

كنت مشدوهًا. لم يسبق أن تحدث أحدهم بهذه الصراحة في وجودي من قبل، ليست ماما بالتأكيد. لم يسبق لأحد أعرفه أن عرَّى حظه السيِّئ بتلك الطريقة. شعرت بالحرج لمادلين والإعجاب بصراحتها في الوقت نفسه.

عندما ذكرَت الزوج الأول، لاحظتُ، لأول مرَّة منذ قابلتها، ظلًّا يُخيم على وجهها، لمحة عابرة لشيء قاتم وتطهري، جارح، لا يتناسب مع الضحكات الحيوية، والمزاح، وفستانها الواسع ذي الأزهار الذي له لون القرع. أتذكَّر كيف فكرت وقتها أنها لا بد كانت ممثلة جيدة لكي تُخفي ذلك الإحباط والألم وراء قشرة من المرح. مثل قناع، فكرتُ، وسُررتُ من نفسي لهذا الربط البارع.

لاحقًا، عندما تقدمتُ في السِّن، لم يعد الأمر بهذا الوضوح بالنسبة إليَّ. وحين أُفكر في الأمر بعد مرور هذا الزمن، أجد ثمة تكلفًا في لحظة الصمت التي أعقبت ذِكرها لزوجها الأول، الخذلان في نظرتها، والتهدج في صوتها، والرعشة الخفيفة في شفتيها، تمامًا كما كان ثمة تكلف في طاقتها الهائلة ومزاحها، في فتنتها المرحة الراسخة، وكيف كانت حتى فظاظاتها لها وقع ناعم، تُخفف وطأتها غمزة وضحكة مطمئِنتان. ربما كانتا مظاهر مُفبرَكة للمودَّة، وربما

لا. لقد شوشتني فلم أعد أعرف ما التمثيل وما الحقيقي - وهو ما جعلني أفكر فيها على الأقل كمُمثلة بارعة إلى أبعد الحدود.

قالت مادلين:

- كم مرَّة جئت أركض إلى هذا البيت يا أودي؟

الآن، تعود ابتسامتها من جديد، وتنطلق ضحكتها.

- يا لوالديكِ المسكينين. لكن هذا البيت كان ملجئي. ملاذي. الجزيرة الصغيرة داخل الجزيرة الكبيرة.

قالت ماما:

- كنتِ على الرجب والسعة دائمًا هنا.

- كانت أمكَ هي التي وضعت حدًّا لنوبات الضرب تلك يا ماركوس. هل سبق أن أخبرَتك؟

قلت إنها لم تُخبرني.

- لا يفاجئني ذلك. هذه هي أوديليا فارفاريس.

كانت ماما تفرد الحافة المبرومة للمريلة الموضوعة على حِجرها، وتسوِّيها ثانية وعلى وجهها نظرة حالمة.

- جئت هنا ذات يوم، وأنا أنزف من لساني، وبقعة من الشعر منزوعة عن جانب رأسي، وأذني ما تزال تطن من ضربة تلقتها. كان قد نال مني بحق تلك المرَّة. يا لها من حالة تلك التي كنت فيها. يا لها من حالة!

الطريقة التي كانت مادلين تحكي بها قد تشعر معها بأنها تصف وليمة فاخرة أو رواية جيدة.

- لا تسألني أمكَ لأنها تعرف. بالطبع تعرف. فقط تتمعن فيَّ للحظات طويلة، وأنا أقف هناك، مُرتعشة، ثم تقول - ما زلت أتذكر

الكلمات يا أودي: **حسنًا، هذا الموضوع وصل إلى ما فيه الكفاية.** تقول: **سنقوم بزيارة إلى والدكِ يا مادي.** وأمضي أنا أتوسل إليها. كنت خائفة أن يقتلنا نحن الاثنتين. لكنك تعرف أمك وكيف تكون أحيانًا.

قلت إنني أعرفها، ورمتني ماما بنظرة جانبية.

- لم تكن لتصغي إليَّ. كانت على وجهها تلك النظرة. أنا متأكدة أنك تعرف النظرة. تخرج، لكن ليس قبل أن تتناول بندقية الصيد الخاصة بوالدها. وطوال مسيرتنا في اتجاه بيتي، أحاول أن أوقفها، أقول لها إنه لم يؤذني لتلك الدرجة. لكنها لم تكن لتسمع. نتجه صوب الباب فنرى أبي واقفًا هناك، في المدخل، وترفع أودي الماسورة وتدفعها نحو ذقنه وتقول: **افعلها ثانية وسأرجع وأطلق النار على رأسك بهذه البندقية.** يطرف أبي، وللحظة ينعقد لسانه. لا يستطيع أن ينطق بكلمة. وتريد أن تعرف أفضل جزء يا ماركوس؟ أنظر إلى أسفل فأرى دائرة صغيرة، دائرة مِن - أظنك يمكن أن تُخمِّن - دائرة صغيرة تتسع بهدوء على الأرض بين قدميه الحافيتين.

مشَّطت مادلين شعرها إلى الوراء وقالت، مع فَركة أخرى من القداحة:

- وهذه، يا عزيزي، قصة حقيقية.

لم تكن مضطرة لقول ذلك. كنت أعرف أنها قصة حقيقية. فقد تبينتُ فيها إخلاص ماما الشديد، غير المُعقَّد، عزيمتها الراسخة كالجبال، اندفاعها، حاجتها إلى أن تكون مُقوِّمة المظالم، حامية حمى المضطهدين. وكنت أعرف أنها حقيقية من الآهة التي أطلقتها

ماما من فم مُطبق لدى ذكر ذلك التفصيل الأخير. اعترضت على ذلك. ربما وجدته كريهًا غير مناسب، ليس فقط للسبب الواضح. ففي رأيها أن الناس، حتى وإن سلكوا مسلكًا سيئًا بصورة بشعة في الحياة، يستحقون ولو مقدارًا ضئيلًا من الكرامة في الموت، خصوصًا الأقارب.

راوحت ماما مكانها على كرسيها وقالت:

- إذًا، إذا كنت لا تحبين السفر يا ثاليا، فماذا تحبين؟

استدارت كل أعيننا إلى ثاليا. كانت مادلين قد ظلت تتكلم لبعض الوقت، وأتذكر أنني فكرت، ونحن نجلس في الباحة وضوء الشمس يسقط في بقع في كل مكان حولنا، أن ذلك كان مؤشرًا لمقدرتها على الاستحواذ على الانتباه، على اجتذاب كل شيء إلى دوامتها بالكامل، حتى إن ثاليا قد نُسيت. كذلك تركتُ مساحة لاحتمال أن تكونا قد تكيفتا على هذه الديناميكية بوحي من الحاجة، الابنة الهادئة التي لا يعود لها وجود على خلفية تصرفات الأم المُشتِّتة للانتباه، الغارقة في الذات. ربما كانت نرجسية مادلين نوعًا من الرحمة، من الحماية الأمومية.

غمغمت ثاليا بشيء ما.

- أعلى قليلًا يا عزيزتي.

جاء الاقتراح من مادلين.

تنحنحت ثاليا، وقالت بصوت هادر مُثقل بالبلغم:

- العلوم.

لاحظتُ للمرَّة الأولى لون عينيها. كانتا خضراوين مثل مرج لم ترعَ فيه ماشية، شعرها الداكن الكثيف الخشن. وأن لها بشرة صافية مثل أمها. ربما كانت جميلة يومًا ما، بل وجميلة مثل مادلين.

قالت مادلين:

- أخبريهما بأمر الساعة الشمسية يا عزيزتي.

هزت ثاليا كتفيها.

قالت مادلين:

- لقد بَنَت ساعة شمسية، في باحتنا الخلفية، الصيف الماضي. لم يساعدها أحد، لا أندرياس، ولا أنا بالطبع.

ضحكت بشخير.

سألت ماما:

- استوائية أم أفقية؟

ظهر في عيني ثاليا ومضة اندهاش. ردة فعل متأخرة. مثل شخص يمشي في شارع مزدحم في مدينة أجنبية يلتقط فجأة على مسمع منه كلمة من لغته الأم. قالت بصوتها الرطب الغريب ذاك:

- أفقية.

- ماذا استخدمت كعقرب؟

ثبتت ثاليا عينيها على ماما:

- قطعتُ بطاقة بريدية.

كانت تلك المرَّة الأولى التي أرى فيها كيف يمكن للأمور أن تسير بين الاثنتين. قالت مادلين:

- وهي صغيرة، كانت تُفكك ألعابها. تُحب الألعاب الميكانيكية، والأشياء التي بداخلها آلات، لا لتلعب بها. هل كنت تلعبين بها يا عزيزتي؟ لا، كانت تكسرها، كل تلك الألعاب الثمينة، تكسّرها فور أن نُعطيها لها. كنت أغتاظ جدًّا من هذا، لكن

أندرياس - يجب أن أعطيه حقه هنا - طلب أن أتركها، فتلك علامة على العقل الفضولي.

قالت ماما:

- إذا أحببتِ، يمكن أن نبني واحدة معًا. أقصد ساعة شمسية.

- أنا أعرف الطريقة بالطبع.

قالت مادلين، وهي تمد إحدى قدميها، ثم تثنيها، وكأنها تُليِّنها استعدادًا لوصلة رقص:

- تأدَّبي يا عزيزتي. خالتك أودي تحاول أن تساعد.

قالت ماما:

- ربما شيء آخر. يمكن أن نبني شيئًا آخر.

قالت مادلين بصوت كالأزيز، وهي تنفخ الدخان بسرعة:

- أوه! أوه! لا أُصدق أنني لم أُخبرك بعد يا أودي. عندي لك خبر. خمِّني.

هزت ماما كتفيها.

- سأرجع إلى التمثيل! في الأفلام. لقد عُرض عليَّ دور بطولة، في إنتاج كبير. هل تُصدِّقين؟

- تهانيَّ.

قالتها ماما بتراخٍ.

- معي السيناريو. سأجعلك تقرئينه يا أودي، لكنني أخشى أنك لن تحبيه. هل هذا أمر سيِّئ؟ سأتحطم. لا أُمانع من أن أُخبرك. لن أتجاوز الأمر أبدًا. سنبدأ التصوير في الخريف.

* * *

في الصباح التالي، بعد الإفطار، سحبتني ماما جانبًا.

- ما الأمر؟ ما مُشكلتك؟

قلت إنني لا أعرف عن أي شيء تتحدث.

قالت:

- الأفضل أن تتوقف عن هذا. هذا السلوك الغبي. إنه لا يناسبك.

كانت لها طريقة في تضييق عينيها وإمالة رأسها قليلًا. حتى يومنا هذا، ما تزال تلك الطريقة تفعل فعلها معي.

- لا أستطيع أن أفعل ذلك يا ماما. لا تُجبريني.

- ولماذا تحديدًا؟

خرجت مني الكلمات قبل أن يسعني أن أمنعها:

- إنها وحش.

ضاق فم ماما. لم تنظر إليَّ بغضب، وإنما بنظرة خذلان، وكأنني زلزلتُها. كانت نظرة يأس، استسلام. مثل نحَّات يُسقط مِطرقته وإزميله في النهاية، مُتخليًا عن كتلة عنيدة لن تتخذ أبدًا الصورة التي قد تصوَّرها.

- إنها إنسان وَقَع له شيء رهيب. أطلق عليها هذه الصفة ثانية، أريد أن أراك تفعلها. قُلها ثانية وانظر ماذا سيحدث لك.

بعدها بقليل كنا نمشي أنا وثاليا على ممشى مُغطًّى بالحصى يحيط به جدار حجري من الجانبين. حرصتُ على المشي أمامها لأسبقها ببضع خطوات حتى لا يظن المارة - أو، لا قدر الله، أحد الصبية من المدرسة - أننا معًا، وهو ما سيحدث، بالطبع، على أية حال. كان يمكن لأي شخص أن يرى. على الأقل، كنت آمل أن

تُوحي المسافة بيننا إلى استيائي وترددي. ولراحتي، لم تبذل هي جهدًا لتلحق بي. مررنا بمُزارعين عائدين من السوق وقد بدا عليهم التعب ولفحت الشمس وجوههم. تكابد حميرهم في سيرها تحت سلال من الخوص تحوي بضائع لم تُبع، وحوافرها تُطقطق على الممشى. كنت أعرف معظم المُزارعين، لكنني أبقيت رأسي مُنكَّسًا وتحاشيت النظر إليهم.

قدت ثاليا إلى الشاطئ. اخترت شاطئًا صخريًّا كنت أذهب إليه أحيانًا، عارفًا أنه لن يكون مُزدحمًا مثل بعض الشواطئ الأخرى، مثل «أنجيوس بومانوس». شمَّرتُ بنطلوني وقفزتُ من صخرة وعرة إلى التالية، مُتجهًا إلى صخرة قريبة من موقع تكسُّر الأمواج وانسحابها. خلعت حذائي وأنزلت قدميَّ في بركة صغيرة ضحلة تكوَّنت بين عنقود من الصخور. مرق سرطان من نوع «الناسك» هاربًا من أصابع قدمي. ورأيت ثاليا إلى يميني تستقر على صخرة قريبة.

جلسنا لفترة طويلة من دون كلام نراقب البحر وهو يهدر مُصطدمًا بالصخور. هبت عصفة ريح قارسة فصدمت أذنيَّ، ناثرة رائحة الملح على وجهي. حلَّقت بجعة فوق المياه الخضراء المزرقَّة، بجناحين مفرودين. كانت سيدتان تقفان متجاورتين، وأرجلهما غاطسة في الماء إلى الرُّكبتين، ترفعان تنورتيهما إلى أعلى. إلى الغرب، كنت أرى الجزيرة، الأبيض المُهيمن الذي طُليت به البيوت وطواحين الهواء، والأخضر في حقول الشعير، والبُني الكابي في الجبال الوعرة التي تنساب منها الينابيع كل عام. مات أبي على جبل من تلك الجبال. كان يعمل في محجر رخام

أخضر، وذات يوم، عندما كانت ماما حُبلى بي في ستة أشهر، انزلق عن جرف وسقط من ارتفاع مائة قدم. قالت ماما إنه كان قد نسي تأمين نفسه بحزام الأمان.

قالت ثاليا:

- يجب أن تكف عن ذلك.

كنت أرمي الحصى في سطلٍ من القصدير المطليِّ موضوعٍ بالقرب مني، وشعرت بالارتباك، فأخطأت الهدف.

- ماذا بكِ؟

- أقصد أن تكف عن التملُّق والتظاهر. أنا لا أريد هذا.

كانت الريح تُطوِّح شعرها فيرتطم برأسها، وكانت تُثبِّت بيدها القناع على وجهها. تساءلتُ إذا كانت تعيش بهذا الخوف كل يوم، الخوف من أن تطيح عصفة ريح به من على وجهها وأن يكون عليها أن تُطارده، مكشوفة الوجه. لم أقل شيئًا. رميت حصاة أخرى وأخطأت الهدف ثانية.

قالت:

- أنت حمار.

بعد بُرهة نهضَت، فتظاهرت أنا بالبقاء. ثم نظرت خلفي ورأيتها تتسلق الشاطئ، عائدة إلى الطريق، فانتعلتُ حذائي ثانية وتبعتها إلى البيت.

عندما عُدنا، كانت ماما تفرم الباميا في المطبخ، ومادلين تجلس بالقرب منها، تطلي أظافرها وتُدخِّن، وتنفض الرماد في صحن. انكمشتُ ببعض الخوف عندما لاحظتُ أن الصحن هو أحد قطع طقم الصيني الذي ورثته ماما عن جدتها. إنه الشيء الوحيد ذو

القيمة الحقيقية الذي تمتلكه ماما، طقم الصيني هذا، وكانت تقريبًا لا تنزله من فوق الرف القريب من السقف حيث تحتفظ به.

كانت مادلين تنفخ على أصابعها بين أنفاس السيجارة وتتكلم عن «باتاكوس»، و«بابادوبولوس»، و«ماكاريزوس»، الكولونيلات الثلاثة الذين قاموا بانقلاب عسكري - انقلاب الجنرالات، كما سُمِّيَ وقتها - في وقت سابق من ذلك العام في أثينا. تقول إنها تعرف كاتبًا مسرحيًا - «رجل حبُّوب حبُّوب» كما وصفته - سُجن بتهمة أنه مُخرب شيوعي. وكان هذا عبثًا، بالطبع. محض عبث. تعرفين ماذا يفعلون بالناس، «الإي إس إيه»، ليجبروهم على الكلام؟

تقول هذا بصوت خفيض وكأن الشرطة العسكرية تختبئ في مكان ما من المنزل.

- يضعون خرطومًا في مؤخرتك ويفتحون الماء بأقصى قوة. حقيقي يا أودي. أقسم لك. يغطِّسون خِرقًا في أقذر الأشياء - قذارات بشرية، تفهمين - ثم يدسونها في أفواه الناس.

قالت ماما بلا انفعال:

- أمر فظيع.

تساءلتُ ما إذا كان الضجر قد أصابها من مادلين بالفعل: ذلك السيل من الآراء السياسية المُتعجرفة، وحكايات الحفلات التي قد حضرتها مادلين مع زوجها، والشعراء والمثقفون والموسيقيون الذين قرعت معهم كؤوس الشمبانيا الطويلة، وقائمة الرحلات غير الضرورية وغير المنطقية التي قامت بها لمدن أجنبية، وآراؤها التي لا تني تُلقيها حول الكارثة النووية والزيادة السكانية والتلوث.

جارت ماما مادلين، مُبتسمة في أثناء قصصها وهي تفتعل نظرة اندهاش مُمتعضة، لكنني كنت أعرف أنها لا تُحسن الظن فيها. الأرجح أنها كانت تعتقد أن مادلين تتباهى. الأرجح أنها كانت تشعر بالحرج منها.

هذا هو ما يُفسد، ما يُلوِّث، طِيبة ماما وشجاعتها وانتفاضها لنجدتك: الدَّين الذي يُظلل تلك الأفعال، والمطالبات، والالتزامات التي تُثقل ظهرك بها، وطريقتها في استغلال تلك الأفعال كعُملة تقايضها بالولاء والوفاء. أفهم الآن لماذا رحلت مادلين قبل كل تلك السنوات. فالحبل الذي يسحبك من الطوفان يمكن أن يُصبح أنشوطة تلتف حول رقبتك. دائمًا ما يُحبِط الناس ماما في النهاية، وأنا منهم؛ لا يستطيعون رد ما يدينون به، ليس بالطريقة التي تتوقعها ماما منهم. إن عزاء ماما هو الرضا العابس المُتمثل في أن تُصبح لها اليدُ العليا، الحريةُ في إطلاق الأحكام من علياء موقعها الإستراتيجي، وما يؤهلها لذلك أنها دائمًا الشخص الذي يتعرض للخذلان.

يُحزنني ذلك لما يكشفه لي عن مدى الاحتياج الذي تشعر به ماما نفسها، مدى قلقها، خوفها من الوحدة، رُعبها من التعرُّض للهجر، والتخلي. وما الذي يكشفه ذلك عني، أنا الذي أعرف هذا عن أمي، أعرف تحديدًا ما الذي تحتاج إليه، ومع ذلك فقد حرمتها منه عمدًا وبإصرار، وظللت حريصًا على أن أبتعد عنها حتى يفصل بيننا محيط، أو قارة - أو الاثنان، وهو الأفضل - على مدار الشطر الأعظم من العقود الثلاثة الماضية؟

كانت مادلين تقول:

- إنهم لا يفهمون سُخرية الأقدار، ضباط المجلس العسكري، وهم يسحقون الناس بهذه الطريقة. في اليونان! مهد الديمقراطية... حسنًا، ها أنتما أخيرًا! كيف سارت الأمور؟ ماذا فعلتما؟

قالت ثاليا:

- لعبنا على الشاطئ.

- هل كان مُمتعًا؟ هل استمتعتما؟

قالت ثاليا:

- قضينا وقتًا رائعًا.

قفزت عينا ماما مُتشككتين مني إلى ثاليا ثم عائدتين إليَّ، لكن مادلين أشرقت واستحسنت بصمت:

- عظيم! الآن ولم أعد قلِقة بشأن توافقكما معًا، يمكن لنا أنا وأودي أن نقضي بعضًا من وقتنا بمفردنا. ماذا تقولين يا أودي؟ ما زالت أمامنا الكثير من الأخبار لنتبادلها.

ابتسمت ماما بشجاعة ومدت يدها إلى رأس ثمرة كرنب.

* * *

من وقتها فصاعدًا، صرنا أنا وثاليا نُترك لحالنا. كان يُفترض بنا أن نستكشف الجزيرة، نلعب الألعاب على الشاطئ، نُسلي أنفسنا كما يُنتظر من الأطفال. كانت ماما تُعد ساندويتشًا لكلٍّ منا، وننطلق بعد الإفطار.

فور أن نتوارى عن الأنظار، كنا نفترق عادة. عند الشاطئ، أنزل للسباحة أو أتمدد على صخرة خالعًا قميصي بينما تنطلق ثاليا لجمع الأصداف أو دحرجة الأحجار على سطح الماء، من دون جدوى لأن الأمواج كانت عالية جدًّا. نمشي على الطرق التي

تتلوى عبر مزارع العنب وحقول الشعير، ناظرين إلى ظلينا، وكلٌّ مشغول بأفكاره. في أغلب الأوقات نتسكع من دون هدف. لم يكن ثمة الكثير من الأنشطة السياحية في تينوس في تلك الأيام. كانت جزيرة زراعية، فعليًّا، يعيش فيها الناس على ما تُدره الأبقار والماعز وأشجار الزيتون والقمح. وهكذا ينتهي بنا الأمر إلى الشعور بالملل، فنتناول الغداء في مكان ما، صامتين، في ظل شجرة أو طاحونة هواء، ناظرين بين لُقمة وأخرى إلى الوديان، وحقول الشجيرات الشائكة، والجبال، والبحر.

ذات يوم، قادتني خُطاي إلى البلدة. كنا نعيش على الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة، حيث لا تبعد بلدة تينوس سوى مسيرة بضعة أميال إلى الجنوب. كان ثمة متجر صغير يُديره أرمل سمين الوجه يُدعى السيد روسوس. في أي يوم، كان يُحتمل أن ترى في واجهة هذا المتجر أي شيء، كآلة كاتبة من الأربعينيات، أو حذاء جلديٍّ ثقيل مما يلبسه العمال، أو آلات تحديد اتجاه الريح، أو حامل قديم لأصص الزرع، أو شموع عملاقة، أو صليب، أو، بالطبع، نسخ من أيقونة باناجيا ايفانجلستريا، أو ربما حتى غوريلَّا نحاسية. كان الرجل مُصورًا هاويًا أيضًا، لديه غرفة مُظلمة مُرتجلة في خلفية المتجر. عندما كان الحُجاج يأتون إلى تينوس في شهر آب (أغسطس) لزيارة الأيقونة، كان السيد روسوس يبيع لهم بكرات من الأفلام، ويظهِّر لهم صورهم في الغرفة المُظلمة مقابل أجر.

قبل نحو شهر من ذلك الوقت، كنت قد رأيت كاميرا في واجهة عرض ذلك المتجر، مُستقرة على حافظتها الجلدية البالية التي لها لون الصدأ. كل بضعة أيام، أمشي إلى المتجر، أُحدق في الكاميرا،

وأتخيَّل نفسي في الهند، والحافظة الجلدية مُعلَّقة من شريطها على كتفي، ألتقط صورًا لمشاتل الأرز ومزارع الشاي التي كنت قد رأيتها في **ناشيونال جيوغرافيك**. سأصور طريق «الإنكا تريل»، وعلى ظهر جمل، في شاحنة قديمة مُختنقة بالتراب، أو على الأقدام، سأتحدى الحر حتى أقف لأحدق في أبي الهول والأهرامات، وكنت سأصورها أيضًا وأرى صوري منشورة في المجلات فاخرة الطباعة. هذا ما جاء بي إلى واجهة السيد روسوس ذاك الصباح - مع أن المتجر كان مُغلقًا في ذلك اليوم - لكي أقف أمامه، جبهتي مضغوطة على الزجاج، أحلم أحلام يقظتي.

- ما نوعها؟

تراجعتُ قليلًا، فرأيت انعكاس ثاليا في الواجهة. كانت تربِّت على خدها الأيسر بالمنديل.

- الكاميرا؟

هززت كتفيَّ.

قالت:

- يبدو أنها «آرجوس» من طراز «سي ثري».

- وكيف تعرفين؟

قالت مُوبِّخة:

- الأمر بسيط، فهي أكثر كاميرات الخمسة وثلاثين ملليمترًا مبيعًا في العالم على مدار السنوات الثلاثين الماضية، ولو أنها ليست جميلة. إنها قبيحة الشكل. تبدو مثل قالب من الطوب. إذًا، تريد أن تُصبح مُصوِّرًا؟ أقصد عندما تكبر؟ أمك تقول هذا.

أستدير نحوها:

- أمي قالت لكِ هذا؟

- وماذا في ذلك؟

هززت كتفيَّ. شعرت بالحرج لأن ماما ناقشت هذا الأمر مع ثاليا. تساءلتُ كيف قالتها. كان بوسعها أن تستلَّ من ترسانة أسلحتها طريقة جادة على نحو هازئ تتكلم بها عن الأشياء التي تجدها مشؤومة أو مُبتذلة. كان بوسعها أن تجعل طموحك يتضاءل أمام عينيك. **ماركوس يريد أن يطوف العالم ويلتقطه بعدسته.**

جلست ثاليا على الرصيف وغطت رُكبتيها بتنورتها. كان يومًا حارًّا، الشمس تقرض الجلد كما لو كانت أسنانًا، ولم يكن هناك أحد تقريبًا في الخارج باستثناء زوجين مُسنين يمشيان في الشارع مشية مُتصلبة مُتثاقلة. كان الزوج - واسمه ديميس - يضع طاقية رمادية مُسطحة ومعطفًا بُنيًّا من التويد بدا ثقيلًا جدًّا في هذا الموسم. عيناه واسعتان، ونظرته مُتجمدة، أتذكر، كما هو حال بعض المُسنين، وكأنهم مندهشون بالمفاجأة المهولة المُتمثلة في تقدُّم العمر - ولم يخطر ببالي، إلا بعد ذلك بزمن طويل، في كلية الطب، أنه مصاب بداء باركنسون. لوَّحا لي وهما يمران من أمامي، فلوحت لهما. رأيتهما يلاحظان ثاليا، وقفة لحظية في خطاهما، ثم واصلا طريقهما.

قالت ثاليا:

- هل عندك كاميرا؟

- لا.

- هل سبق أن التقطت صورة؟

- لا.

- وتريد أن تُصبح مُصوِّرًا؟!
- هل تجدين ذلك غريبًا؟
- بعض الشيء.
- إذًا، إذا قلت إنني أريد أن أُصبح شرطيًّا، فستظنين أن ذلك غريب أيضًا؟ لأنه لم يسبق لي أن كبَّلت أي شخص بالأصفاد.

عرفتُ من اللين في عينيها أنها كانت ستبتسم، لو استطاعت ذلك. قالت:

- إذًا، أنت حمار ذكي. نصيحة: لا تذكر الكاميرا في وجود أمي وإلا ستشتريها لك. إن لديها رغبة شديدة في إسعادك.

كان المنديل يمس الخد ثم يبتعد عنه.

- لكنني أشك أن أوديليا ستوافق. أظنك تعرف هذا بالفعل.

اندهشتُ وارتبكتُ في آنٍ من قدرتها على استيعاب هذا القدر الكبير في هذا الزمن المحدود. وفكرتُ، ربما يكمن السرُّ في القناع، في مزية الاختباء، حرية أن يكون المرء مُراقِبًا، أن يلاحظ ويُدقق.

- والأرجح أنها ستجعلك تُعيدها.

تنهَّدتُ. كان ذلك صحيحًا. لم تكن ماما لتسمح بمثل هذه الترضيات السهلة، خصوصًا الترضيات التي يُدفع فيها مال.

نهضت ثاليا على قدميها ونفضت التراب عن مؤخرتها.

- دعني أسألك، هل عندك علبة في البيت؟

* * *

كانت مادلين ترتشف النبيذ مع ماما في المطبخ، وأنا وثاليا في الطابق العلوي، نطلي علبة أحذية بأقلام سميكة سوداء. كانت

العلبة تخص مادلين وتحوي حذاء جلديًّا جديدًا، بلون أخضر ليموني، وكعب عالٍ، ما يزال ملفوفًا في ورقته الرقيقة.

سألتها:

- أين كانت تنوي ارتداء «هذا»؟

كنت أسمع مادلين من الطابق السفلي، تتحدث عن فصل تمثيل حضرته ذات مرَّة حيث طلب منها المُدرِّب، كتمرين، أن تتظاهر بأنها سحلية تجلس بلا حراك على صخرة. وأعقب ذلك موجة من الضحكات - ضحكاتها.

انتهينا من طبقة الطلاء الثانية، وقالت ثاليا إنه يجدر بنا أن نضع طبقة ثالثة، لنتأكد من أننا لم نهمل ولا نقطة. يجب أن يكون الأسود بدرجة واحدة وتام الإعتام.

قالت:

- الكاميرا هكذا في الأساس. علبة سوداء بفتحة تسمح بدخول الضوء وشيء يمتص الضوء. أعطني إبرة.

ناولتها واحدة من إبر خياطة ماما. كنت مُتشككًا، هذا أقل ما يمكن أن أقوله، من فاعلية هذه الكاميرا المصنوعة منزليًّا، من أن بإمكانها القيام بأي عمل على الإطلاق - علبة حذاء وإبرة؟! لكن ثاليا انغمست في المشروع بإيمان وثقة بالغين جعلاني مُجبرًا على ترك مساحة للإمكانية غير المحتملة أن يعمل هذا الشيء. جعلتني أفكر في أنها تعرف أشياء لا أعرفها.

قالت، وهي تثقب العلبة بحرص مُستخدمة الإبرة:

- لقد أجريت بعض الحسابات. من دون عدسة، لا يمكننا أن نصنع الثقب على الوجه الصغير، فالعلبة طويلة جدًّا. لكن العرض

مُناسب تمامًا. الأهم هو صنع ثقب بالحجم المضبوط. ستة أعشار المليمتر، تقريبًا، فيما أعتقد. ها نحن. الآن نحتاج إلى غالق للعدسة.

من الأسفل، كان صوت مادلين قد خفَت ليصبح نوعًا من الهمهمة. لم أسمع ما تقوله لكن كان بإمكاني معرفة أنها تتحدث ببطء أكثر من ذي قبل، تلفظ الكلمات ببطء، وتصورتُها مُنحنية إلى الأمام، مرفقاها على ركبتيها، تنظر إلى عيني ماما، من دون أن تطرف. على مر السنين، صار بإمكاني التعرف على نبرة الصوت هذه عن قرب. عندما يتكلم الناس بتلك الطريقة، فالأرجح أنهم يُسِرُّون، يكشفون، يعترفون بكارثة ما، يتضرعون إلى المستمع. إنها النبرة التي يستخدمها مسؤولو إخطار عائلات الضحايا الذين يطرقون الأبواب، والمحامون الذين يُروِّجون لعملائهم مزايا صفقات الاعتراف بالجُرم مقابل تخفيف الأحكام، ورجال الشرطة الذين يوقفون السيارات في الثالثة صباحًا، والأزواج المُخادعون. كم مرَّة استخدمتها بنفسي في المستشفيات هنا في كابول؟ كم مرَّة اصطحبت أُسرًا بأكملها إلى غرفة هادئة، وطلبت منهم الجلوس، وسحبت كرسيًّا لنفسي، مُستجمعًا إرادتي لكي أنقل الخبر، مُرتعبًا من الحوار الذي سيتلوه؟

قالت ثاليا بهدوء:

- إنها تتحدث عن أندرياس. أُراهن على ذلك. لقد تشاجرا شجارًا عنيفًا. ناولني الشريط وهذا المقص.

- كيف هو؟ أقصد بالإضافة إلى كونه غنيًّا؟

- مَن؟ أندرياس؟ لا بأس به. يسافر كثيرًا. وعندما يكون في

البيت، يدعو أناسًا دائمًا، أناسًا مُهمين - وزراء، جنرالات، هذا النوع. يتناولون الشراب بجوار المدفأة، ويتكلمون طوال الليل، كلامًا في الأعمال والسياسة غالبًا. أستطيع أن أسمعهم من غرفتي. يُفترض بي أن أظل في الطابق العلوي عندما يكون أندرياس بصحبة ضيوف. لا يُفترض بي أن أنزل. لكنه يشتري لي أشياء. يدفع لمُدرِّس لكي يأتي إليَّ في المنزل. ويتكلم معي بلُطف.

لصقَت قطعة مُربعة من الكرتون، كنا قد لونَّاها بالأسود هي الأخرى، فوق الفتحة.

كانت الأمور هادئة في الطابق السفلي. تخيَّلتُ تفاصيل حركة المشهد في رأسي: مادلين تبكي من دون صوت، تتلاعب بمنديلها في شرود كما لو كان كتلة من الصلصال. ماما لا تُقدِّم إليها عونًا كبيرًا، تنظر بجمود بابتسامة صغيرة على وجه مضموم كما لو كان شيئًا حامضًا يذوب تحت لسانها. لا تستطيع ماما أن تتحمل بكاء الناس في حضورها. لا تكاد تستطيع النظر إلى عيونهم المنفوخة، ووجوههم الصريحة المُتوسلة. إنها ترى البكاء علامةً على الضعف، استجداءً صارخًا للانتباه، ولا تنساق وراء ذلك. لا تستطيع أن تُجبر نفسها على المواساة. بعد أن كبرتُ، عرفتُ أن ذلك لم يكن من أفضل طباعها. إنها تعتقد أن الحزن يجب أن يكون خاصًّا، لا شيئًا للتباهي. ذات مرَّة، عندما كنت صغيرًا، سألتها إن كانت قد بكت عندما سقط والدي ولقي مصرعه:

- **في الجنازة؟ أقصد، الدفن؟**

- **لا، لم أبكِ.**

- **لأنكِ لم تكوني حزينة؟**

- **لأنه لم يكن شأن أي شخص آخر إن كنت حزينة أم لا.**

- **هل ستبكين إذا متُّ يا ماما؟**

قالت:

- **لنأمل ألا نضطر أبدًا إلى معرفة الإجابة.**

التقطت ثاليا علبة ورق التصوير الفوتوغرافي وقالت:

- أعطني المصباح اليدوي.

دخلنا الخلوة الخاصة بماما، حريصين على إغلاق الباب وسد منافذ ضوء النهار بقطع قماش حشرناها تحته. وفور أن أصبحنا في ظلام دامس، طلبت مني ثاليا أن أُضيء المصباح، الذي كنا قد غطَّيناه بعدة طبقات من السيلوفان الأحمر. كل ما أراه من ثاليا في هذا الوهج المُعتم هو أصابعها النحيلة وهي تقص ورقة من ورق التصوير وتلصقها داخل علبة الحذاء في مواجهة الثقب. كنا قد اشترينا الورق من متجر السيد روسوس في اليوم السابق. عندما اتجهنا إلى منضدة البيع، حدق السيد روسوس في ثاليا من فوق نظارته وقال: **هل هذا سطو مسلح؟**. صوَّبت ثاليا إليه سبابتها وأرجعت إبهامها إلى الخلف وكأنها تضغط على نابض مُسدس.

أعادت ثاليا غطاء علبة الحذاء، وغطت الثقب بالغالق. وفي الظلام قالت:

- غدًا، تلتقط أول صورة في مسارك المهني.

ولم أعرف إن كانت تمزح أم لا.

* * *

وقع اختيارنا على الشاطئ. وضعنا علبة الأحذية على صخرة مُسطحة وثبتناها بقوة باستخدام حبل - قالت ثاليا إنه لا يجب أن

تكون هناك أي حركة على الإطلاق عندما نفتح الغالق. انتقلَت إلى جواري وألقت نظرة على العلبة وكأنها تنظر من عدسة كاميرا.

قالت:

- إنها لقطة مثالية.

- تقريبًا. نحتاج إلى موضوع للتصوير.

نظرت إليَّ، فهمت قصدي، فقالت:

- لا، لن أفعل هذا.

تجادلنا طويلًا، ثم وافقَت في النهاية، ولكن بشرط ألا يظهر وجهها. خلعت حذاءها وتسلَّقت صفًّا من الصخور على بُعد بضع أقدام في مواجهة الكاميرا، وذراعاها مفرودتان جانبًا كمن يمشي على الحبل. جلست على إحدى الصخور، وواجهت الغرب في اتجاه سيروس وكيثنوس. سوَّت شعرها ليُغطي الشريطين في مؤخرة رأسها، اللذين يُثبِّتان القناع في مكانه. نظرت إليَّ من فوق كتفها.

صاحت:

- تذكَّر. عدّ إلى مائة وعشرين.

استدارت لتواجه البحر.

انحنيتُ ونظرت إلى الصندوق، ثم إلى ظهر ثاليا، التكوين الصخري من حولها، سياط الأعشاب البحرية المتشابكة بينهما مثل أفاعٍ نافقة، زورق سَحْب يتمايل في البعيد، المد يرتفع مكتسحًا الشاطئ الوعر ثم مُتراجعًا. رفعت الغالق عن الثقب وبدأت في العدِّ.

واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة...

نحن مُمددان في الفراش. على شاشة التلفزيون اثنان من عازفي الأكورديون يتباريان، لكن جيانا كتمت الصوت. ضوء

منتصف النهار يتخلل ستائر الإعتام، ساقطًا في شرائط على بقايا بيتزا «المارغريتا» التي كنا قد طلبناها للغداء من خدمة الغرف. جلبها إلينا رجل طويل نحيل بشعر مُهندم، مدهون ومُمشط إلى الخلف، يضع معطفًا أبيض وربطة عنق سوداء. على الطاولة التي دفعها إلى داخل الغرفة كان ثمة مزهرية محزَّزة فيها وردة حمراء. رفع الغطاء المقبب عن البيتزا بأناقة بالغة، وحرك يده كساحر يُحيي جمهوره بعد أن أخرج أرنبًا من قبعته.

حولنا، بين الملاءات المختلطة، كانت تتناثر صورٌ عرضتها على جيانا، صور لرحلاتي على مدار العام ونصف الماضيين: بلفاست، مونتيفيديو، طنجة، مارسيليا، ليما، طهران. أعرض عليها صورًا للكومونة التي انضممت إليها لبعض الوقت في كوبنهاجن، حيث عشت مع أناس من جماعات «البيت» بتيشيرتات مُمزقة وطواقي «بيني» صغيرة، كانوا قد أسسوا مجتمع حكم ذاتي في قاعدة عسكرية سابقة.

تسأل جيانا:

- **أين أنت؟ أنت لست في الصور.**

أقول:

- **أُفضل البقاء خلف العدسة.**

هذا حقيقي. لقد التقطت مئات الصور، ولن تجدني في أيٍّ منها. دائمًا أطلب نسختين من الصور المطبوعة عند تظهير الأفلام. أحتفظ بنسخة، وأرسل الأخرى بالبريد إلى ثاليا هناك في الديار.

تسألني جيانا كيف أُموِّل رحلاتي، وأشرح لها أنني أصرف من مال ورثته. وهذا صحيح جزئيًّا، لأن المال من ميراث ثاليا وليس

ميراثي. بخلاف مادلين، التي لم يرد ذكرها لأسباب واضحة في وصية أندرياس، ورد اسم ثاليا. أعطتني نصف مالها. كان يُفترض بي أن أستخدمه في الالتحاق بالجامعة.

ثمانية.. تسعة.. عشرة...

تدفع جيانا جسدها باستخدام مرفقيها وتنحني عبر الفراش، من فوقي، ونهداها الصغيران يحتكان بجلدي. تُخرج علبتها، وتشعل سيجارة. كنت قد التقيتها في اليوم السابق في بياتزا دي إسبانيا. كنت أجلس على درج حجري يصل الميدان مع الكنيسة فوق التل. صعدَت السلم وقالت لي شيئًا بالإيطالية. بدت لي مثل الكثير جدًّا من الفتيات الجميلات، اللواتي يبدو عليهن افتقاد الهدف، ممن رأيتهن يتسكعن حول كنائس روما وفي ساحاتها. كن يُدخنَّ ويتكلمن بصوت عالٍ ويضحكن كثيرًا. هززت رأسي وقلت:

- **عفوًا؟**

ابتسمت، وقالت:

- **آه!**

ثم قالت بإنجليزية ذات لكنة أجنبية واضحة:

- **قدَّاحة؟ سيجارة.**

هززت رأسي وقلت لها بإنجليزيتي أنا ذات اللكنة الأجنبية الواضحة إنني لا أُدخِّن. ابتسمت. كانت عيناها مُشعتين مُتململتين، وقد ألقت شمس آخر الصباح هالة حول وجهها ذي الشكل الماسي.

أروح في إغفاءة قصيرة ثم أصحو عليها وهي تلكزني في ضلوعي.

تقول بالإيطالية: **لا توا راجاتزا؟** (حبيبتك؟). لقد وجدَت

صورة ثاليا على الشاطئ، تلك التي التقطتُها قبل سنوات بكاميرتنا ذات الثقب المصنوعة يدويًّا.

أقول:

- لا.

- **أختك؟**

- لا.

- **لا توا كوجينا؟ (ابنة عمك)؟**

أهز رأسي.

تتفحص الصورة لبُرهة، وهي تسحب أنفاسًا سريعة من سيجارتها. تقول بحدة، بل وبغضب، وهو ما يفاجئني:

- **نو. كويستا إيلا توا راجاتزا. (لا، إنها حبيبتك). أعتقد أنها كذلك، أنت كذَّاب!**

ثم لا أُصدِّق عينيَّ حين تستلُّ قداحتها وتشعل النار في الصورة.

أربعة عشر.. خمسة عشر.. ستة عشر.. سبعة عشر...

نحو منتصف النهار ونحن عائدان إلى موقف الحافلات، أدرك أنني فقدت الصورة. أقول لهما إنني أريد الرجوع. ليس أمامي خيار. يجب أن أرجع. «ألفونسو»، وهو **هواسو** (كاوبوي من التشيلي) نحيل الجسم، مزموم الشفتين يرافقنا كمُرشد غير رسمي، ينظر إلى جاري مُستفهمًا. غاري أمريكي. إنه «الذكر المهيمن» بين ثلاثتنا. له شعر أشقر داكن، وعلى خديه بثور حب الشباب. إنه وجه من اعتاد الحياة الشاقة. غاري مزاجه سيِّئ، وقد ازداد سوءًا جرَّاء الجوع وعدم توفر الشراب، والطفح المُقزز على ربلة ساقه اليمنى الذي أصيب به حين احتك بشجيرة **ليتر** في اليوم السابق. كنت قد

التقيت بهما في بار مزدحم في سانتياغو، حيث، بعد نصف دزينة من كؤوس شراب **البيسكولا**، اقترح ألفونسو نزهة على الأقدام إلى الشلال في سالتو ديل أبوكويندو، حيث كان أبوه يصحبه عندما كان صبيًّا. قمنا بالنزهة في اليوم التالي، وخيَّمنا بجوار الشلال لقضاء الليل. دخنَّا الماريجوانا، والمياه تزأر في آذاننا، ومن فوقنا سماء مفتوحة على وسعها مكتظة بالنجوم. والآن كنا في طريق العودة مُتثاقلين إلى سان كارلوس دي أبوكويندو لنستقل حافلة.

يرفع غاري الحافة العريضة لقُبعته الإسبانية ويمسح جبينه بمنديل. يقول:

- إنها مسيرة ثلاث ساعات في الاتجاه العكسي يا ماركوس.

يردد ألفونسو صداه بالإسبانية:

- **تريس أوراس، أجالي كومبريندي؟**

- **أعرف.**

- **وما زلت تريد العودة؟**

- **نعم.**

يقول ألفونسو:

- **بارا أونا فوتو؟** (من أجل صورة واحدة؟)

أومئ برأسي. أظل صامتًا لأنهما لن يفهما. أنا نفسي لست واثقًا من كوني أفهم.

يقول غاري:

- **تعرف أنك ستضلُّ الطريق.**

- **على الأرجح.**

يقول غاري، وهو يمد إليَّ يده:

- حظًّا سعيدًا إذًا يا صديقي.

ويقول ألفونسو:

- إس أون غريغو لوكو. (إنه يوناني مجنون)

أضحك، فليست تلك المرَّة الأولى التي أوصف فيها باليوناني المجنون. نتصافح. يُحكم غاري شرائط حقيبة ظهره، ويعود الاثنان إلى الدرب الذي يمتد في منحنيات الجبال. يلوِّح غاري مرَّة واحدة من دون أن ينظر وهما ينعطفان في منعطف حاد. أسير عائدًا من حيث جئنا. يستغرق الأمر مني أربع ساعات، في الحقيقة، لأنني أضل الطريق فعلًا كما تنبأ غاري. أشعر بالإرهاق لدى وصولي لموقع التخييم. أبحث في كل مكان، راكلًا الأجمة، ومُدققًا النظر بين الصخور. يتفاقم رُعبي وأنا أفتش عبثًا. ثم، بينما أحاول أن أُهيِّئ نفسي للأسوأ، ألمح ومضة بيضاء وسط حزمة من الشجيرات فوق منحدر خفيف. أجد الصورة عالقةً بين شبكة من النباتات الشائكة. أنتشلها، أنفض عنها التراب، وعيناي تفيضان بدموع الارتياح.

ثلاثة وعشرون.. أربعة وعشرون.. خمسة وعشرون...

في «كاراكاس» أنام تحت جسر. بيت شباب في بروكسل. أحيانًا أُبذِّر وأستأجر غرفة في فندق لطيف، آخذ حمَّامًا ساخنًا طويلًا، أحلق ذقني، أتناول وجبات وأنا في رداء الاستحمام، أُشاهد تلفزيونًا مُلونًا. المدن، الطرق، الأرياف، الناس الذين أقابلهم - تصبح الملامح غامضة مشوشة. أقول لنفسي إنني أبحث عن شيء ما. لكن يومًا بعد يوم، يزداد إحساسي بأنني أهيم على وجهي، في انتظار أن يحدث لي شيء ما، شيءٌ يُغيِّر كل شيء، شيءٌ كانت حياتي بأكملها تقودني إليه.

أربعة وثلاثون.. خمسة وثلاثون.. ستة وثلاثون...

يومي الرابع في الهند. أترنح على درب ترابي بين ماشية شاردة، يدور العالم تحت قدميَّ. ظللت أتقيأ طوال اليوم. جلدي أصفر بلون الساري، وأشعر وكأن أيادي غير مرئية تسلخه. عندما أعجز عن مواصلة المشي، أرقد على جانب الطريق. رجل عجوز على الجانب الآخر من الطريق يُقلِّب شيئًا في قدر حديدية كبيرة. إلى جواره قفص، وداخل القفص ببغاء أحمر وأزرق. يمر من أمامي بائع داكن البشرة يدفع عربة مليئة بزجاجات خضراء فارغة. هذا آخر ما أتذكره.

واحد وأربعون.. اثنان وأربعون...

أستيقظ في غرفة كبيرة. الهواء مُثقل بالحر، ورائحة أشبه بالشمَّام العطن. أنا مُمدد على سرير مُفرد بإطار حديدي، لا تفصلني عن المصطبة الجامدة الخالية من النوابض إلا مرتبة رقيقة في سُمك كتاب. الغرفة ممتلئة بأسرَّة مثل سريري. أرى أذرعًا ذابلة تتدلى عن الأجناب، وسيقانًا داكنة رفيعة كأعواد الثقاب تبرز من تحت أغطية مُلطخة، وأفواهًا مفتوحة شحيحة الأسنان، ومراوح سقف كسولة، وجدرانًا تُلطخها بقع من العفن. النافذة بجواري تُدخل هواء ساخنًا دبقًا وضوء شمس يطعن الأحداق. المُمرِّض - وهو رجل مسلم مفتول العضلات وعابس الوجه اسمه **غول** - يقول لي إنني قد أموت من الالتهاب الكبدي.

خمسة وخمسون.. ستة وخمسون.. سبعة وخمسون...

أسأل عن حقيبة ظهري. يقول لي غول بلامبالاة:

- **أي حقيبة ظهر؟**

كل مُتعلقاتي اختفت - ملابسي، نقودي، كتبي، كاميرتي.

يقول غول بإنجليزيته الرنانة، وهو يشير إلى عتبة النافذة إلى جواري:

- هذا هو الشيء الوحيد الذي تركه لك اللصوص.

إنها الصورة. ألتقطها وأرفعها. ثاليا، شعرها يخفق في النسيم، والماء يتماوج بالزَّبَد من حولها، قدماها الحافيتان على الصخور، يترامى أمامها بحر إيجه متلاطم الأمواج. تصعد غصة إلى حلقي. لا أريد أن أموت هنا، بين أولئك الغرباء، بعيدًا عنها بهذا القدر. أدسُّ الصورة في الفراغ بين الزجاج وإطار النافذة.

ستة وستون.. سبعة وستون.. ثمانية وستون...

الصبي في السرير المجاور لي له وجه رجل مُسن، مُنهك، غائر، منحوت. بطنه منتفخ بورم بحجم كُرة البولينج. كلما لمسه مُمرِّض هناك، يغمض عينيه بقوة وينفتح فمه فجأة في نحيب صامت مُعذَّب. هذا الصباح، يحاول أحد المُمرِّضين، ليس غول، أن يجعله يبتلع حبوبًا، لكن الصبي يدير رأسه من جانب إلى آخر، وحلقه يُصدر صوتًا أشبه بصنفرة لوح خشبي. أخيرًا، يفتح المُمرِّض فمه عنوة، ويدس فيه الحبوب. عندما يُغادر، يُدير الصبي رأسه ببطء ناحيتي. نتبادل النظرات عبر المساحة بين سريرينا. تسقط دمعة صغيرة وتنحدر على خده.

خمسة وسبعون.. ستة وسبعون.. سبعة وسبعون...

المعاناة، اليأس في هذا المكان، يُشبه موجة؛ يتقلب من سرير إلى آخر، يصطدم بالجدران العفنة، ويرتد في قوة إليك. يمكنك أن تغرق فيه. أنام كثيرًا. عندما لا أنام، أهرش. أتناول الحبوب

التي يعطونني إياها، وتجعلني الحبوب أنام ثانية. غير ذلك، أنظر من أعلى إلى الشارع الصاخب خارج العنبر، إلى نور الشمس وهو ينزلق فوق خيام الأسواق ومتاجر الشاي في الأزقة الخلفية. أُشاهد الأولاد وهم يلعبون بالكريَّات الزجاجية على الأرصفة التي تذوب فتنسكب إلى مصارف موحلة، والنساء العجائز الجالسات على الأبواب، وباعة الشوارع الذين يرتدون «الدوتي»، ويقرفصون على حشياتهم، ويكشطون ثمار جوز الهند، وينادون على أكاليل الأزهار المخملية، أحدهم يُطلق صرخة تصم الآذان من الطرف الآخر من الغرفة. أغفو.

ثلاثة وثمانون.. أربعة وثمانون.. خمسة وثمانون...

أعرف أن الصبي اسمه «منار». كانت أمه عاهرة، وأبوه لصًّا. يعيش مع عمته وعمه، اللذين كانا يضربانه. لا أحد يعرف على وجه الدقة ما المرض الذي يقتله، فقط يعرفون أنه يقتله. لا أحد يزوره، وعندما يموت، بعد أسبوع من الآن - بعد شهر أو اثنين على الأكثر - لن يأتي أحد لاستلامه. لن يحزن أحد عليه. لن يتذكره أحد. سيموت حيث عاش، في الشقوق. عندما ينام، أجد نفسي أنظر إليه، إلى صدغيه الغائرين، الرأس الذي يبدو كبيرًا جدًّا على كتفيه، الندبة المخضبة على شفته السفلى حيث اعتاد القَوَّاد الذي يُدير أعمال أمه، كما أخبرني غول، أن يُطفئ فيها سيجارته. أحاول التحدث إليه بالإنجليزية، ثم ببضع كلمات أوردو أعرفها، لكنه يكتفي بأن يطرف في وهن. أحيانًا أضم يديَّ وأصنع ظلال حيوانات على الحائط لأحظى منه بابتسامة.

سبعة وثمانون.. ثمانية وثمانون.. تسعة وثمانون...

ذات يوم يُشير منار إلى شيء خارج النافذة. أتبع إصبعه، أرفع رأسي، لكنني لا أرى شيئًا سوى شريط أزرق من السماء بين السُّحب، وأطفال في الأسفل يلعبون بماء يتدفق من مضخة في الشارع، وحافلة تبصق عادمها. ثم أدرك أنه يشير إلى صورة ثاليا. أنتشلها من النافذة وأناوله إياها. يُقرِّبها من وجهه، من جهة الزاوية المحترقة، ويُحدق فيها طويلًا. أتساءل ما إذا كان البحر هو ما يجذبه. أتساءل ما إذا كان قد سبق له أن تذوَّق ماء مالحًا أو دار رأسه وهو يتابع المد يتراجع من على قدميه. أو ربما أحس بصلة ما مع ثاليا، مع أنه لا يستطيع رؤية وجهها، وهي شخص يعرف إحساس الألم. يُعيد إليَّ الصورة. أهز رأسي. أقول:

- أبقها معك.

يعبر على وجهه ظِل من الشك. أبتسم. ولا أعرف يقينًا، لكنني أظنه يبتسم بدوره.

اثنان وتسعون.. ثلاثة وتسعون.. أربعة وتسعون...

أهزم التهاب الكبد. غريب أنني لا أعرف إن كان غول مسرورًا أم مُحبطًا لأنني أثبتُّ خطأ تنبؤاته. لكنني أعرف أنني فاجأته وأنا أسأله إن كان بإمكاني أن أبقى كمُتطوع. يرفع رأسه، يقطب حاجبيه. أنتهي إلى الاضطرار إلى الكلام مع أحد رؤساء التمريض.

سبعة وتسعون.. ثمانية وتسعون.. تسعة وتسعون...

غرفة الاستحمام تنضح برائحة البول والكبريت. كل صباح أحمل منار إليها، أمسك جسده العاري بين ذراعي، بحرص حتى لا يتأرجح - كنت قد رأيت أحد المتطوعين من قبل يحمله على كتفه كما لو كان جوال أرز. أخفضه برقة على المقعد وأنتظر أن يسترجع

أنفاسه. أشطف جسده الصغير الهش بماء دافئ. يجلس منار دائمًا في صمت، وصبر، كفاه على رُكبتيه، ورأسه مُنكس إلى أسفل. إنه يُشبه رجلًا مُسنًّا أعجف مفزوعًا. أُمرر الإسفنجة المُصبَّنة على قفصه الصدري، نتوءات عموده الفقري، على لوحي الكتف الناتئين كزعانف القرش. أحمله عائدًا إلى سريره، أناوله الحبوب. يشعر بالسكينة حين تُدلَّك قدماه وربلتا ساقيه، فأُدلكها له، ببطء. عندما ينام، يفعل ذلك دائمًا وصورة ثاليا نصف مدسوسة تحت وسادته.

مائة وواحد.. مائة واثنان...

أخرج في نزهات طويلة حول المدينة بلا هدف، إلا الابتعاد عن المستشفى، الأنفاس الجماعية للمرضى والمُحتضرين. أسير في مغارب شمس مُتربة عبر شوارع تصطف على جانبيها جدران تحمل رسوم جرافيتي، مارًّا بأكشاك مسقوفة بألواح الصفيح وقد تكدست معًا جنبًا إلى جنب، عابرًا ممرات فيها فتيات صغيرات يحملن سلالًا مليئة بالروث الجاف على رؤوسهن، ونساء مكسوات بالسناج الأسود يغلين أسمالًا في أوعية ضخمة من الألومنيوم. أفكر كثيرًا في منار وأنا أهيم على وجهي في متاهة من الأزقة الضيقة. منار ينتظر الموت في تلك الغرفة المليئة بهياكل مُحطمة مثله. أفكر كثيرًا في ثاليا، جالسة على الصخرة، ناظرة إلى البحر. أستشعر شيئًا عميقًا بداخلي يجذبني إلى الداخل، يشدني مثل تيار بحري. أريد أن أستسلم له، أن أتركه يستولي عليَّ. أريد أن أتخلى عن هيئتي، أن أنزلق من ذاتي، أن أتخلى عن كل شيء، كما يطرح ثعبان جلده القديم.

لا أقول إن منار غيَّر كل شيء. هذا لم يحدث. أتعثر هائمًا

في أرجاء العالم لنحو عام آخر قبل أن أجد نفسي أخيرًا في مكتب في ركن إحدى مكتبات أثينا، مُطالعًا استمارة تقديم لكلية الطب. بين منار والاستمارة الأسبوعان اللذان قضيتهما في دمشق، اللذان لم أعد أتذكر منهما سوى وجهين مُبتسمين لامرأتين بكُحل سميك وفي فم كل منهما سِن ذهبية. أو الأشهر الثلاثة في القاهرة في قبو بيت مُتداعٍ يُديره صاحب أملاك حشَّاش. أنفق نقود ثاليا مُستقلًّا الحافلات في أيسلندا، مُرافقًا فرقة «بَنك روك» في ميونيخ. في عام ١٩٧٧، أكسر مِرفقًا في احتجاج لمناهضة الأنشطة النووية في بلباو.

لكن في لحظات السكون، في رحلات الركوب الطويلة في مؤخرة حافلة أو في صندوق شاحنة، يدور عقلي دائمًا عائدًا إلى منار. التفكير فيه، وفي عذاب أيامه الأخيرة، وعجزي تجاه هذا العذاب، يجعل كل ما فعلته، وكل ما أريد أن أفعله، يبدو تافهًا مثل العهود الصغيرة التي تقطعها لنفسك قبل النوم، تلك التي تستيقظ وقد نسيتها.

مائة وتسعة عشر... مائة وعشرون.

أُسقط الغالق.

* * *

ذات ليلة في نهاية ذلك الصيف، علمتُ أن مادلين ستُغادر إلى أثينا تاركة ثاليا معنا، على الأقل لبعض الوقت.

قالت:

- بضعة أسابيع فقط.

كنا نتناول العشاء، نحن الأربعة، صحنًا من حساء الفاصوليا البيضاء أعدته ماما ومادلين معًا. ألقيت نظرة على ثاليا عبر المائدة

لأرى إن كنت أنا الوحيد الذي فاجأته مادلين بالخبر. وبدا لي أن الأمر كذلك. كانت ثاليا هادئة تدس ملاعق الحساء في فمها، رافعة قناعها قليلًا مع كل رحلة من رحلات الملعقة. في ذلك الوقت، كنت قد اعتدت على صوتها وأكلها ولم يعد ذلك يضايقني، أو على الأقل ليس أكثر من مشاهدة عجوز تأكل مستخدمة طقم أسنان لا يناسب مقاسها، كما ستفعل ماما بعدها بسنوات.

قالت مادلين إنها سوف ترسل لإحضار ثاليا بعد الانتهاء من تصوير فيلمها، الذي قالت إنه سيكتمل قبل أعياد الكريسماس بوقت معقول.

قالت، وقد اغتسل وجهها بالمرح المعتاد:

- الحقيقة، سأدعوكم جميعًا إلى أثينا، وسنحضر الافتتاح معًا! ألن يكون ذلك رائعًا يا ماركوس؟ نحن الأربعة وقد تهندمنا، ندخل دار العرض بثقة وأناقة.

وافقتُها، وإن وجدت مشكلة في تصور ماما في رداء أنيق أو داخلة بثقة إلى أي مكان.

شرحت مادلين كيف ستسير الأمور على خير ما يُرام، كيف تستطيع ثاليا استكمال دراستها عندما تفتح المدرسة أبوابها بعد أسبوعين - في البيت بالطبع - مع ماما. قالت إنها سترسل لنا بطاقات بريدية وخطابات، وصورًا من موقع التصوير. قالت المزيد، لكنني لم أسمع أغلب ما قالته. شعرت بارتياح هائل دار له رأسي حقيقة. كان رُعبي من انتهاء الصيف الوشيك أشبه بعقدة في بطني، تشتد أكثر مع كل يوم يمر بينما أصلِّب نفسي في مواجهة الوداع الوشيك. أستيقظ كل صباح الآن مُشتاقًا لرؤية ثاليا على مائدة الإفطار، لسماع صوتها الغريب. وفور أن نأكل نسارع إلى الخارج،

نتسلق الأشجار، ويطارد أحدنا الآخر في حقول الشعير، ونمضي عبر الأعواد ونحن نُطلق صرخات حرب، والسحالي تتناثر بعيدًا عن أقدامنا. نخفي كنوزًا وهمية في كهوف، ونعثر على أماكن في الجزيرة يتردد فيها أعلى صدى. كنا نلتقط صورًا لطواحين الهواء وأبراج الحمام بكاميرتنا ذات الثقب ونأخذها إلى السيد روسوس، الذي يظهِّرها لنا. بل وسمح لنا بالدخول إلى غرفته المظلمة وعرَّفنا بمختلف المظهِّرات، والمثبِّتات، وحمامات الإيقاف.

الليلة التي أعلنت فيه مادلين خطتها، تقاسمت هي وماما زجاجة نبيذ في المطبخ، حيث قامت مادلين بمعظم الشُّرب، بينما كنا أنا وثاليا في الطابق العلوي نلعب دور «تافلي». كانت ثاليا في موقع «المانا» وقد حرَّكت بالفعل نصف فيشها إلى بيتها على لوحة اللعب.

قالت ثاليا، وهي ترمي النرد:

- لديها عشيق.

قفزتُ.

- مَن؟

- يقول مَن؟ مَن في رأيك؟

كنت قد تعلَّمت، على مدار الصيف، أن أقرأ تعبيرات ثاليا من عينيها، وكانت تنظر إليَّ الآن وكأنني واقف على الشاطئ أسألها أين الماء. حاولت أن أُصحح بسرعة. قلت، وخداي يحترقان:

- أعرف مَن. أقصد مَن هو... تعرفين...

كنت صبيًّا في الثانية عشرة من العمر، ولم يحتوِ قاموسي كلمات مثل عشيق.

- ألا تستطيع التخمين؟ المُخرج.

- كنت سأقولها.

- إلياس. إنه رجل مُهم. يلصق شعره إلى أسفل كما لو كنا في العشرينيات. ولديه شارب صغير رفيع أيضًا. أظن أنه يعتقد أن ذلك يجعله يبدو فاسقًا. إنه سخيف. يظن أنه فنان عظيم، بالطبع. وماما تظن هذا أيضًا. يجب أن تراها معه، خجولة وخاضعة جدًّا، وكأنها يجب أن تنحني أمامه وتُدلِّلَه لأنه عبقري. لا أفهم كيف لا تراه على حقيقته.

- هل ستتزوجه الخالة مادلين؟

تهز ثاليا كتفيها.

- لديها أسوأ ذوق في الرجال. **الأسوأ على الإطلاق.**

هزَّت النرد في يديها، وبدا عليها التفكُّر.

- باستثناء أندرياس، أعتقد. فهو لطيف. لطيف فعلًا. لكنها، بالطبع، ستهجره. إنها لا تقع إلا في غرام أولاد الحرام.

- تقصدين مثل أبيكِ؟

تعبس قليلًا.

- أبي كان غريبًا التقته وهي في طريقها إلى أمستردام. في محطة قطار في أثناء عاصفة مطيرة. قضيا بعد ظهر أحد الأيام معًا. ليست عندي فكرة مَن كان، ولا عندها هي.

- نعم. أتذكر أنها قالت شيئًا عن زوجها الأول. قالت إنه كان يشرب، لهذا افترضتُ...

قالت ثاليا:

- حسنًا، كان هذا دوريان. كان مُهمًّا هو الآخر.

نقلَت فيشة أخرى إلى بيتها على لوحة اللعب.

- كان يضربها. ينتقل من اللطف إلى الظرف إلى الغضب العارم في غمضة عين. مثل الطقس، كيف يتغير فجأة؟ كان هكذا. وينسى بحق عندما يشرب. يترك صنبور المياه مفتوحًا، على سبيل المثال، ويُغرق البيت. أتذكر أنه نسي إطفاء الموقد ذات مرَّة وكاد يحرق كل شيء.

صنعَت بُرجًا صغيرًا بمجموعة من الفيشات. راحت تعمل بصمت لبُرهة وهي تعدل استقامته.

- الشيء الوحيد الذي كان يحبه دوريان فعلًا هو أبوللو. كل أطفال الحي يخافون منه - أقصد من أبوللو. ولم يكن أي منهم قد رآه تقريبًا؛ فقط يخافون من نباحه. كان ذلك كافيًا بالنسبة إليهم. يبقيه دوريان مربوطًا بسلسلة في آخر الباحة، ويُطعمه شرائح كبيرة من لحم الضأن.

لم تخبرني ثاليا بالمزيد. ومع ذلك، لم أجد صعوبة في تصور ما جرى. دوريان مغشيٍ عليه، الكلب منسي، يتجول في الباحة دون قيد، باب من السِّلك مفتوح.

سألتها بصوت خفيض:

- كم كان عُمرك؟

- خمسة.

ثم وجَّهت إليها السؤال الذي ظل في رأسي منذ بداية الصيف:

- أليس هناك شيء يمكن أن... أقصد، ألا يستطيعون أن يفعلوا...

أشاحت ثاليا ببصرها. وقالت بثقل وبما بدا لي ألمًا عميقًا:

- أرجوك لا تسأل. الموضوع يتعبني.

قلت:

- أنا آسف.

- سأُخبرك يومًا ما.

وقد أخبرتني، لاحقًا. الجراحة الخرقاء، النقاهة الكارثية، والعدوى التي أصابت الجرح، ثم تحولت إلى تسمم، سدَّ كليتيها، وتسبب لها في فشل كبدي، والتهم السديلة الجراحية الجديدة، وأجبر الجرَّاحين على قطع ليس فقط السديلة وإنما أيضًا المزيد مما بقي من خدها الأيسر وجزء من عظام فكها كذلك. المضاعفات التي أبقتها في المستشفى لنحو ثلاثة أشهر. لقد كادت أن تموت، كان يُفترض أن تموت. بعد ذلك، لم تكن لتسمح لهم بلمسها ثانية.

قلت:

- ثاليا. أنا آسف كذلك على ما بدر مني عندما رأيتك.

رفعت عينيها تجاهي. وعادت اللمحة المرحة القديمة.

- يجب أن تأسف. لكنني كنت أعرف قبل أن تتقيأ على الأرض حتى.

- تعرفين ماذا؟

- أنك حمار.

* * *

غادرت مادلين قبل يومين من بدء المدرسة. ارتدت فستانًا بلا أكمام، أصفر بلون الزبدة، يلتصق بقوامها النحيل، ووضعت نظارة شمس بإطار سميك، ومنديلًا حريريًّا أبيض معقودًا بقوة ليُثبت شعرها. كان يبدو على هيئتها وكأنها تخشى أن تنحلَّ أجزاء

منها – كما لو كانت تُلملم نفسها حرفيًّا. عند مرفأ العبَّارات في بلدة تينوس، عانقتنا جميعًا، وكان العناق الأقوى والأطول لثاليا، شفتاها على قمة رأس ثاليا في قُبلة مُمتدة لا تنقطع. لم تخلع نظارتها.

سمعتها تهمس:

– احضنيني كما أحضنك.

وانصاعت ثاليا بهدوء.

عندما انطلق صرير العبَّارة، وراحت تتمايل مُبتعدة في المياه، ظننت أن مادلين ستقف على السطح وتلوح لنا وتنفخ لنا القُبلات، لكنها اتجهت مسرعة نحو مُقدمة السفينة، واتخذت مقعدًا.لم تنظر في اتجاهنا.

عندما عدنا إلى البيت، طلبت منا ماما أن نجلس. وقفت أمامنا وقالت:

– ثاليا، أُريدك أن تعرفي أنك لست مُضطرة لوضع هذا الشيء في هذا البيت بعد الآن. ليس لأجل خاطري، ولا لأجل خاطره. ضعيه إذا كانت هذه رغبتك. وليس عندي ما أقوله في هذا الشأن أكثر من ذلك.

عندها فهمتُ، بوضوح مُفاجئ، ما قد عرفَته ماما بالفعل. أن القناع كان لأجل خاطر مادلين، لكي يعفيها هي من الحرج والعار.

لوقت طويل، لم تُحرك ثاليا ساكنًا أو تنطق بكلمة. ثم، ببطء، ارتفعت يداها، وفكت الأربطة عند مؤخرة رأسها. أنزلت القناع. نظرتُ إليها في وجهها مباشرة. شعرتُ بدافع غير إرادي لأن أجفل، مثلما تفعل عندما تنطلق فجأة موسيقى صاخبة. لكنني لم أفعل. ثبتُّ نظرتي، وقررتُ ألا أطرف.

قالت ماما إنها ستُلقنني دروسي في البيت حتى ترجع مادلين لكي لا تُضطر ثاليا إلى البقاء في البيت بمفردها. كانت تُعطينا دروسنا في المساء، بعد العشاء، وتُكلِّفنا بواجبات منزلية نُنجزها في الصباح حين تذهب هي إلى المدرسة. بدا لي ذلك معقولًا، على الأقل من الناحية النظرية.

لكن تبين أن المذاكرة، وخصوصًا في غياب ماما، مستحيلة تقريبًا. كان خبر تشوه ثاليا قد انتشر في شتى أرجاء الجزيرة، وراح الناس يطرقون على الباب، يأكلهم الفضول. كنت تظن أن الجزيرة قد خلت فجأة من الدقيق، والثوم، وحتى الملح، وأن بيتنا هو المكان الوحيد الذي تستطيع أن تجد فيه تلك الأشياء. بل ولم يبذلوا جهدًا لإخفاء نواياهم. عند الباب، كانت عيونهم دائمًا ما تطير فوق كتفي. يشرئبون بأعناقهم، يقفون على أطراف أصابعهم. معظمهم لم يكونوا جيرانًا لنا أصلًا. يسيرون لأميال من أجل فنجان من السُّكر. بالطبع لم أسمح لهم قَطُّ بالدخول. وكنت أشعر بقدر من الرضا عندما أُغلق الباب في وجوههم. لكنني كنت أشعر أيضًا بالغم، والإحباط، مُدركًا أنني لو بقيت هنا لتأثرت حياتي بعمق بهؤلاء الناس. سوف أُصبح، في النهاية، واحدًا منهم.

كان الأطفال أسوأ وأكثر وقاحة. كل يوم أضبط أحدهم يجوس في الخارج، يتسلَّق جدار بيتنا. ونحن نُذاكر، كنت أجد ثاليا تنقر على كتفي بقلمها، وتشير بذقنها فأستدير لأجد وجهًا، وأحيانًا أكثر من وجه، مضغوطًا على النافذة. ثم ساء الأمر كثيرًا، حتى أصبح علينا أن نصعد إلى الطابق العلوي ونسدل الستائر. وذات يوم فتحتُ الباب لصبي كنت أعرفه من المدرسة، بيتروس، وثلاثة من

أصدقائه. عرض عليَّ حفنة من العُملات المعدنية من أجل نظرة. قلت له: لا، أين كان يظن نفسه، في سيرك؟

في النهاية، كان عليَّ أن أُخبر ماما. وعندما سمعَت اندفع غليان أحمر صاعدًا إلى وجهها، وصرَّت أسنانها.

في الصباح التالي جهَّزت لنا كتبنا وساندويتشين، ووضعتها على الطاولة. فهمت ثاليا قبل أن أفهم، وانكمشتْ كورقة شجر، وبدأت احتجاجاتها عندما حان وقت الخروج.

- لا يا خالة أودي.

- أعطني يدكِ.

- لا، أرجوكِ.

- هيا. أعطني إياها.

- لا أريد الذهاب.

- سنتأخر.

- لا تُجبريني يا خالة أودي.

شدت ماما ثاليا من يديها، وأنهضتها من على الكرسي، ثم انحنت، وثبتتها بنظرة كنت أعرفها جيدًا. لا شيء على وجه الأرض يمكن أن يردعها الآن. قالت، بصوت استطاعت أن تجعله ناعمًا وحاسمًا:

- ثاليا. أنا لا أشعر بالحرج منكِ.

خرجنا، ثلاثتنا - ماما، بشفتين مزمومتين تمضي قُدمًا وكأنها تشق ريحًا قاسية، قدماها تتقدمان في خُطى سريعة، صغيرة، ومختالة. تخيَّلت ماما تمشي بتلك العزيمة إلى بيت والد مادلين قبل كل تلك السنوات، وفي يدها بندقية.

راح الناس يُحملقون ويشهقون ونحن نندفع مرورًا بهم على الطرقات الطويلة الملتوية. كانوا يتوقفون ليُحدقوا، وبعضهم راحوا يشيرون. حاولت ألا أنظر. كانوا مجموعة مُشوَّشة من الوجوه الشاحبة والأفواه المفغورة في زوايا رؤيتي.

في ساحة المدرسة، تفرَّق الأطفال ليفسحوا لنا الطريق. سمعت صرخة فتاة. مضت ماما وسطهم مثل كُرة بولينج وسط القوارير، وهي تشد ثاليا وراءها. راحت تدفع وتشق طريقها إلى ركن الساحة، حيث يوجد مقعد طويل. صعدت عليه، وساعدت ثاليا لتصعد إلى جانبها، ثم أطلقت صفارتها ثلاث مرَّات. وعمَّ السكون الساحة.

صاحت ماما:

– هذه ثاليا جياناكوس. من اليوم...

توقفت قليلًا.

– الذي يبكي، أيًّا من كان، لتخرس قبل أن أجعلك تخرس. الآن، من اليوم، ثاليا طالبة في هذه المدرسة. أنتظر منكم أن تعاملوها بذوق وأدب. إذا سمعت أن شخصًا قال كلمة سخرية، فلسوف أجده وأجعله يأسف على ذلك. أنتم تعرفونني. وليس لديَّ ما أقوله في هذا الشأن أكثر من ذلك.

نزلت عن المقعد وتوجهت، وهي تمسك يد ثاليا، إلى الصف.

منذ ذلك اليوم فصاعدًا، لم تضع ثاليا القناع ثانية، لا في الخارج، ولا في البيت.

* * *

قبل أعياد الكريسماس تلك السنة بأسبوعين، وصلنا خطاب من مادلين. لقد تأخَّر التصوير أكثر من مرَّة بشكل غير مُتوقَّع. أولًا، سقط مدير التصوير - كتبت مادلين «DOP» وكان على ثاليا أن تشرح لي ولماما - عن سقالة في الموقع وكُسرت ذراعه في ثلاثة مواضع. ثم تسبَّب الطقس في تعقيد كل اللقطات في الموقع.

... وهكذا أصبحنا فيما يُشبه «وضعية الانتظار»، كما يقولون. لن يكون ذلك أمرًا سيِّئًا بالكامل، فهو يُعطينا وقتًا لتنعيم بعض التجاعيد في السيناريو، ولو أنه يعني أننا لن نجتمع كما كنت آمل. كم أنا مُحطمة يا أعزائي. وكم أفتقدكم جميعًا، وخصوصًا أنت يا ثاليا، يا حبيبتي. لا يسعني إلا أن أعد الأيام حتى يأتي الربيع، ويكون هذا التصوير قد اكتمل، ويُتاح لنا أن نجتمع ثانية. إنني أحملكم أنتم الثلاثة في قلبي كل دقيقة من حياتي.

قالت ثاليا بلامبالاة، وهي تُعيد الخطاب إلى ماما:

- لن ترجع.

- بالطبع سترجع.

قلتها مصعوقًا. استدرت إلى ماما، مُنتظرًا منها أن تقول شيئًا، أن تنبس على الأقل بكلمة تشجيع. لكن ماما طوت الخطاب، ووضعته على الطاولة، وذهبت في هدوء لتغلي ماءً من أجل القهوة. وأتذكر أنني رُحت أفكر كم كان استهتارًا من جانبها ألا تُطمئن ثاليا حتى وإن كانت تتفق معها على أن مادلين لن تعود. لكنني لم أعرف - ليس بعد - أن كلًّا منهما أصبحت تفهم الأخرى

بالفعل، ربما أفضل مما أفهم أنا أيًّا منهما. كانت ماما تحترم ثاليا أكثر من أن تُدللها. لم تكن لتهين ثاليا بتطمينات كاذبة.

جاء الربيع، بكل بهائه الأخضر اليانع، ومضى. تلقينا من مادلين بطاقة بريدية واحدة وما بدا أنه خطاب مكتوب على عجل، أبلغتنا فيه ببعض المشكلات في موقع التصوير، تلك المرَّة مشكلات لها علاقة بالمُمولين الذين كانوا يهددون بالانسحاب بسبب التأخير. في هذا الخطاب، وبخلاف سابقه، لم تحدد موعدًا لرجوعها.

ذات عصر دافئ في أوائل الصيف - كان ذلك عام ١٩٦٨- ذهبنا أنا وثاليا إلى الشاطئ مع فتاة تُدعى دوري. في ذلك الوقت، كانت ثاليا قد عاشت معنا في تينوس لعام ونصف، ولم تعد تشوهاتها تجتذب الهمسات والنظرات المُتلكئة. ما تزال، وسوف تظل دائمًا، محاطة بطوق من الفضول، لكن حتى ذلك بدأ يخفُّ ويتضاءل. لقد أصبح لها أصدقاؤها وحدها - ودوري من بينهم - الذين ما عادوا يفزعون من منظرها، أصدقاء كانت تتناول معهم الغداء، وتتبادل معهم النمائم، وتلعب معهم بعد المدرسة، وتذاكر معهم. لقد أصبحَت، مع أن ذلك لم يكن مُحتمل الحدوث، عادية تقريبًا، ويجب أن أعترف بدرجة من الإعجاب تجاه طريقة سكان الجزيرة في قبولها كواحدة منهم.

ذلك العصر، كنا ثلاثتنا قد قررنا السباحة، لكن المياه كانت باردة جدًّا، فانتهى بنا الأمر إلى التمدد على الصخور، وأخذ قيلولة. عندما عُدنا أنا وثاليا إلى البيت، وجدنا ماما في المطبخ، تُقشر جزرًا، وعلى الطاولة يوجد خطاب آخر لم يُفضَّ.

قالت ماما:

- إنه من زوج أمكِ.

تناولت ثاليا الخطاب وصعدت إلى الطابق العلوي. مر وقت طويل قبل أن تنزل. أسقطت الورقة على الطاولة، وجلست، وتناولت سكينًا وجزرة.

- إنه يريدني أن أعود إلى البيت.

- مفهوم.

قالتها ماما. وظننت أنني سمعت رعشة خافتة للغاية في صوتها.

- ليس إلى البيت بالضبط. يقول إنه تعاقد مع مدرسة خاصة في إنجلترا. أستطيع أن أُسجِّل في الخريف. قال إنه سيدفع المصروفات.

سألتُ:

- وماذا عن الخالة مادلين؟

- لقد رحلَت. مع إلياس. هربا معًا.

- وماذا عن الفيلم؟

تبادلت ماما وثاليا نظرة ثم التفتتا إليَّ في اللحظة نفسها، وفهمتُ أنهما كانتا تعرفان طوال الوقت.

* * *

ذات صباح في عام ٢٠٠٢، بعد أكثر من ثلاثين عامًا، في الوقت الذي أستعد فيه للانتقال من أثينا إلى كابول، أُصادف نعي مادلين في الجريدة. كانت كُنيتها الآن قد صارت كوريس، لكنني ألحظ في وجه المرأة العجوز تلك الابتسامة المألوفة بالعينين المُشرقتين، وآثارًا واضحة من جمالها في الشباب. تقول الفقرة الوجيزة أسفل صورتها إنها قد عملت بالتمثيل لوقت قصير في شبابها قبل أن

تُؤسس فرقتها المسرحية الخاصة في أوائل الثمانينيات. وقد تلقَّت فرقتها مديحًا نقديًّا على عدد من العروض، أبرزها العرض الذي استمر طويلًا لمسرحية يوجين أونيل: «رحلة النهار الطويلة إلى الليل»، في منتصف التسعينيات، ومسرحية تشيخوف: «النورس»، ومسرحية ديمتريوس مبوجريس: «ارتباطات». ويقول النعي إنها كانت معروفة وسط المجتمع الفني في أثينا بأعمالها الخيرية، وحصافتها، وأناقتها، والحفلات الفاخرة التي كانت تُنظمها، واستعدادها للمغامرة مع كُتَّاب مسرحيين مغمورين. وتقول الفقرة إنها ماتت بعد صراع طويل مع انتفاخ الرئة، لكنها لا تذكر ما إذا كان لها زوج أو أطفال على قيد الحياة. ويزيد من دهشتي أن أعرف أنها عاشت في أثينا لأكثر من عقدين، في بيت لا يبعد عن بيتي في كلوناكي أكثر من ستة شوارع.

أضع الجريدة. أندهش حين أشعر بمسحة استياء من تلك المرأة الميتة التي لم أرها لأكثر من ثلاثين عامًا. شعور بالرفض تجاه تلك القصة التي تكشف طبيعتها. لطالما تصوَّرتها تعيش حياة عاصفة، مُنفلتة، سنوات صعبة من سوء الحظ - سقوطًا ونهوضًا، انهيارًا، ندمًا - وعلاقات حب يائسة، طائشة. لطالما تخيَّلتها وقد دمَّرت نفسها واستنزفت حياتها إلى موت مُبكر من ذلك النوع الذي يُسميه الناس «تراجيديًّا». بل إن جزءًا مني كان يُثني عليها نظرًا لاحتمال أن تكون قد عرفت بذلك، أن تكون قد جلبت ثاليا إلى تينوس لتُعفيها، لتُنقذها من الكوارث التي كانت مادلين تُدرك عجزها تجاهها. لكنني الآن أتصوَّر مادلين كما كانت ماما - ولا بد- تتصورها: مادلين، رسامة الخرائط، جالسة، ترسم

بهدوء خريطة مستقبلها، وتستبعد بعناية ابنتها المُرهِقة من حدودها. وقد نجحت على نحو مُذهل، على الأقل وفقًا لهذا النعي وروايته المُشذبة لحياتها القويمة، في أن تعيش حياة زاخرة بالإنجازات، والبهجة، والاحترام.

أجدني لا أقوى على قبول ذلك. النجاح، الإفلات من العواقب. أمر مُنافٍ للعقل. أين الضريبة؟ القصاص العادل؟

مع ذلك، وأنا أطوي الجريدة، يبدأ شك مُلحٌّ في الاستقرار. إشارة خفيفة على أنني قسوت في الحكم على مادلين، بل وعلى أننا لم نكن مختلفين كثيرًا، أنا وهي. ألم نشتق كلانا إلى الهروب، البدء من جديد، الحصول على هويات جديدة؟ ألم نحلَّ كلانا، في نهاية الأمر، قيودنا ونفك المراسي التي كانت تثبتنا إلى الأسفل؟ أستخف بالفكرة، أقول لنفسي إننا لسنا مُتشابهَين على الإطلاق، حتى وأنا أستشعر أن الغضب الذي أحسه تجاهها قد يكون في الحقيقة قناعًا لحسدي لها على نجاحها في هذا الأمر أفضل بكثير مما فعلتُ.

أرمي الجريدة. إذا كانت ثاليا ستعرف، فلن يكون ذلك عن طريقي.

* * *

أزاحت ماما بَشْر الجزر عن الطاولة بسكين والتقطته في سُلطانية. إنها تزدري الناس الذين يهدرون الطعام. ستصنع من البَشر برطمانًا من المربى.

قالت:

- حسنًا، عليكِ اتخاذ قرار خطير يا ثاليا.

أدهشتني ثاليا حين استدارت إليَّ وقالت:

- ماذا ستفعل لو كنت مكاني يا ماركوس؟

سارعت ماما تقول:

- نعم، أنا أعرف ماذا سيفعل.

- سأذهب.

قلتها، ردًّا على ثاليا، وأنا أنظر إلى ماما، مُستمتعًا بلعب دور المُتمرد كما تظنني ماما. بالطبع، كنت أقصدها أيضًا. لم أُصدِّق أن ثاليا ستتردد أصلًا. لو كنت مكانها، لقفزت مُتشبثًا بالفرصة: تعليم خاص، في لندن.

قالت ماما:

- عليكِ أن تُفكري في الأمر.

قالت ثاليا مُترددة:

- لقد فكرتُ بالفعل.

ثم، بتردد أكبر، وهي ترفع عينيها لتلتقيا بعيني ماما:

- لكنني لا أُريد التكهُّن.

وضعت ماما السكين. سمعتُ فرقعة نَفَس خافتة. هل كانت تكتم النَّفس؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن وجهها الرزين لم يكشف ولو إشارة واحدة تدلّ على الارتياح.

- الإجابة نعم. بالطبع نعم.

مدت ثاليا ذراعها فوق الطاولة ولمست رسغ ماما:

- شكرًا يا خالة أودي.

قلت:

- سأقولها مرَّة واحدة. أعتقد أن هذا خطأ. أنت ترتكبين خطأ.

استدارتا ونظرتا إليَّ.

قالت ثاليا:

- هل تريدني أن أرحل يا ماركوس؟

قلت:

- نعم. سأفتقدك، كثيرًا، وأنت تعرفين هذا. لكن لا يُمكنك إهدار فرصة التعلُّم في مدرسة خاصة. ستذهبين إلى الجامعة بعدها. يمكن أن تُصبحي باحثةً، عالمةً، أستاذة جامعية، مُخترعةً. أليس هذا ما تريدينه؟ أنتِ أذكى شخص عرفته. تستطيعين أن تُصبحي ما تريدين.

قطعتُ كلامي.

قالت ثاليا بإرهاق:

- لا يا ماركوس. لا أستطيع.

قالتها بحسم مُجلجل سدَّ كل قنوات النقض.

بعدها بسنوات عدة، عندما بدأتُ تدريبي لأُصبح جراح تجميل، فهمت شيئًا لم أكن قد فهمته ذاك اليوم في المطبخ وأنا أجادل ثاليا لتترك تينوس من أجل المدرسة الداخلية. عرفتُ أن العالم لا يرى ما بداخلك، أنه لا يهتم مثقال ذرة بالآمال والأحلام، والأحزان، التي تختفي خلف قناع الجلد والعظم. كان الأمر بهذه البساطة، والعبث، والقسوة. مرضاي كانوا يعرفون ذلك. كانوا يعرفون أن قدرًا كبيرًا من حالهم، والحال التي سيصبحون عليها، أو التي يمكن أن يصبحوا عليها، يتمحور حول تناسق هيكلهم العظمي، المسافة بين عينيهم، طول ذقنهم، مدى بروز قمة أنفهم، يتمحور حول ما إذا كانت لهم زاوية أنفية جبهية نموذجية أم لا.

الجمال هبة هائلة، غير مُستحَقة، تُمنح على نحو عشوائي، وغبي.

وهكذا اخترت تخصصي لكي أُعادل الفُرص لأجل أشخاص مثل ثاليا، لكي أُصحِّح، مع كل حركة من مبضعي، ظلمًا عشوائيًّا، لكي أتخذ موقفًا صغيرًا ضد نظام عالمي كنت أراه مُشينًا، نظام يمكن فيه لعضة كلب أن تسلبَ من فتاة صغيرة مستقبلها، وتجعلها منبوذة، ومدعاة للاستهزاء.

على الأقل هذا ما أقوله لنفسي. أفترض أنه كانت هناك أسباب أخرى دفعتني لاختيار جراحة التجميل. المال، على سبيل المثال، والمنزلة، والمكانة الاجتماعية. القول بأنني اخترتها فقط بسبب ثاليا هو تسطيح شديد - على الرغم من جمال الفكرة - أمر مُرتب ومُتوازن بشكل زائد عن الحد. وإذا كنت قد تعلَّمت أي شيء في كابول، فهو أن سلوك الإنسان مُضطرب وغير مُتوقَّع وغير مُنشغل بالتناسق والانسجام. لكنني أجد راحة في الأمر، في فكرة النسق، في أن تبلغ سردية حياتي شكلًا معينًا، مثل صورة في غرفة مُظلمة، قصة تتكشف رويدًا رويدًا، وتؤكد على الخير الذي طالما أردت رؤيته في نفسي. تلك القصة هي ما يساعدني على المضي قُدمًا.

قضيت نصف مساري المِهني في أثينا، أُزيل التجاعيد، أرفع الحواجب، أشد الترهلات، أُعيد تشكيل الأنوف الشائهة. وقضيت النصف الآخر في فعل ما أردته «حقًّا»، وهو أن أسافر في أرجاء العالم - إلى أمريكا الوسطى، إلى إفريقيا جنوب الصحراء، إلى جنوب آسيا، وإلى الشرق الأقصى - وأعالج الأطفال، أُصلح الشفاه والحلوق المشقوقة، أُزيل أورام الوجه، أُصلح الإصابات في

وجوههم. لم يكن العمل في أثينا مُرضيًا بهذا القدر، لكن الراتب كان جيدًا، ويمنحني رفاهية أن آخذ عطلات بالأسابيع والأشهر في كل مرَّة لعملي التطوعي.

ثم، في أوائل عام ٢٠٠٢، تلقيت مكالمة هاتفية في مكتبي من امرأة كنت أعرفها. اسمها أمرا أديموفيتش. مُمرِّضة من البوسنة، وكنا التقينا في مؤتمر في لندن قبل بضع سنوات، وحدث بيننا شيء مُمتع في نهاية الأسبوع اتفقنا أن نُبقيه بلا تبعات، وإن بقينا على اتصال وظللنا نتقابل اجتماعيًّا من وقت إلى آخر. قالت إنها تعمل لحساب منظمة غير ربحية في كابول الآن، وإنهم يبحثون عن جرَّاح تجميل ليعمل في علاج الأطفال - شفاه مشقوقة، إصابات في الوجه أحدثتها الشظايا والرصاصات، أشياء من هذا النوع. وافقت على الفور. ونويت أن أبقى ثلاثة أشهر. ذهبت في أواخر ربيع ٢٠٠٢، ولم أرجع.

* * *

تأتي ثاليا لتُقلَّني من مرفأ العبَّارات. تضع وشاحًا صُوفيًّا أخضر ومعطفًا ثقيلًا ورديًّا باهتًا على سويتر مفتوح من الأمام وبنطلون جينز. تُطيل شعرها هذه الأيام، وتتركه مُنسدلًا على كتفيها ومفروقًا من المنتصف. شعرها أبيض، وهذا الملمح - وليس الجزء العلوي المشوَّه من وجهها - هو الذي يخضُّني ويصدمني عندما أراها. لا أقول إنها تدهشني؛ فثاليا بدأت في المشيب وهي في منتصف الثلاثينيات وبانتهاء العقد التالي كان شعرها قد صار أبيض كالقطن. أعرف أنني أيضًا قد تغيَّرت: الكرش التي تنمو بعناد، الانسحاب المُتوقَّع لحدود الشعر. لكن جسد المرء يتدهور بصورة تدريجية،

غير محسوسة تقريبًا بقدر ما هي مخاتلة. أما رؤية ثاليا وقد شاب شعرها فيُقدِّم دليلًا مُزلزلًا على مسيرتها المحتومة والثابتة في اتجاه الشيخوخة - ومسيرتي أنا أيضًا بالتبعية.

تقول، وهي تُحكم ربط الوشاح حول رقبتها:

- ستبرد.

إننا في كانون ثاني (يناير)، والوقت ضُحى، والسماء غائمة ورمادية. وثمة نسيم بارد يجعل الأوراق المُكرمشة تُخشخش على أشجارها.

أقول:

- تريدين البرد، تعالي إلى كابول.

ألتقط حقيبتي.

- كيفما تريد يا دكتور: نركب الحافلة أم نمشي؟ كما تريد.

أقول:

- دعينا نمشِ.

نتوجَّه شمالًا. نقطع بلدة تينوس. القوارب الشراعية واليخوت راسية في المرسى الداخلي. الأكشاك تبيع البطاقات البريدية والتيشيرتات. أناس يرتشفون القهوة حول موائد صغيرة مستديرة أمام المقاهي، يقرأون الجرائد، يلعبون الشطرنج. نُدُلٌ يضعون أدوات المائدة على الطاولات من أجل الغداء. ساعة أخرى أو ساعتان وتهب رائحة طهو السمك من المطابخ.

تشرع ثاليا بحماس في حكاية قصة عن بيوت صغيرة مطلية بالأبيض يُشيِّدها المقاولون في جنوب بلدة تينوس، تُطل على جزيرة ميكونوس وبحر إيجه. إنها تُشيد بالأساس ليشغلها السياح

أو الأثرياء الذين أصبحوا يتوافدون منذ التسعينيات لقضاء الصيف. تقول إن تلك البيوت الصغيرة ستزوَّد بحمَّام سباحة ومركز للياقة البدنية.

لقد ظلت تراسلني عبر البريد الإلكتروني لأعوام، تحكي لي تلك التغيرات التي تعيد تشكيل تينوس أولًا بأول: الفنادق الشاطئية التي تعلوها أطباق الستالايت وتُتيح الدخول إلى الإنترنت عبر الاتصال الهاتفي، الملاهي الليلية والبارات والحانات، المطاعم والمتاجر التي تخدم السياح، سيارات التاكسي، الحافلات، الحشود، النساء الأجنبيات اللاتي يتمددن على الشواطئ ونصفهن العلوي عارٍ، المزارعون الذين يركبون الشاحنات الآن بدلًا من الحمير - أو بالأحرى من بقي من المزارعين، فقد رحل أغلبهم قبل زمن طويل، وإن كان بعضهم يعود الآن للعيش في الجزيرة على رواتب التقاعد.

- أودي ليست سعيدة جدًّا بهذا الأمر.

تقولها ثاليا، وتقصد التحول. كانت قد كتبت لي عن ذلك أيضًا - تشكُّك سكان الجزيرة الأكبر سنًّا في الوافدين الجُدد والتغيرات التي يجلبونها معهم.

أقول:

- لا يبدو أنك تمانعين في التغيير.

تقول:

- لا جدوى من الاعتراض على المحتوم.

ثم تضيف:

- أودي تقول «مفهوم أن يكون هذا رأيك يا ثاليا. فأنتِ لم تُولدي هنا».

تُطلق قهقهة عالية.

- يظن المرء أنه بعد قضاء أربعين سنة في تينوس سيكون له الحق، لكن هذا ما يسمعه في النهاية.

كانت ثاليا قد تغيَّرت هي الأخرى. حتى وهي ترتدي معطف المطر، أستطيع ملاحظة أن ردفيها ازدادا سُمكًا، أصبحا أكثر امتلاء - ليس امتلاءً ناعمًا، وإنما امتلاءً متينًا. ثمة جرأة مُحببة تميزها الآن، طريقة مُعابثة ماكرة في التعليق على الأشياء التي أفعلها والتي أظنها ترى فيها قدرًا من الحماقة. البريق في عينيها، هذه الضحكة الجديدة من القلب، التورد الدائم في الخدين - الانطباع الإجمالي الذي يراودك هو أنها زوجة مُزارع. امرأة تنتمي إلى ملح الأرض، مودتها المتينة تُوحي بسُلطوية وصلابة راسختين لن تكون حكيمًا إن أنت شككت فيهما.

أسأل:

- كيف حال العمل؟ أما زلت تعملين؟

تقول ثاليا:

- من وقت إلى آخر. أنت تعرف الظروف.

نهز رأسينا معًا. في كابول، كنت قد تابعت أخبار الإجراءات التقشفية، وشاهدت على «سي إن إن» شُبَّانًا يونانيين مُلثَّمين يرجمون رجال الشرطة بالحجارة أمام البرلمان، وضباطًا في دروع مكافحة الشغب يُطلقون قنابل غاز، ويضربون بالهراوات.

ثاليا لا تُدير مشروعًا بالمعنى الحقيقي. قبل العصر الرقمي،

كانت في الأساس امرأة أعمال يدوية. تزور الناس في بيوتهم لتلحم ترانزستور الطاقة في أجهزة التلفزيون الخاصة بهم، أو تستبدل مُكثفات الإشارات في أجهزة الراديو القديمة التي تعمل بالأنابيب المُفرغة. كانت تُستدعى لإصلاح ثيرموستات الثلاجات المعطوبة، وصيانة السِّباكة التي تُسرب المياه. وكان الناس يدفعون لها قدر استطاعتهم. وإذا لم يستطيعوا الدَّفع، كانت تعمل على أية حال. قالت لي:

- أنا لا أريد النقود حقًّا. أنا أفعل ذلك من أجل التسلية. ما زلت أشعر بالإثارة وأنا أفتح الأشياء وأرى كيف تعمل من الداخل.

هذه الأيام، تعمل وكأنها قسم تكنولوجيا مُكوَّن من امرأة واحدة، أعمال حرة. كل ما تعرفه علَّمته لنفسها. وهي تتقاضى أجرًا رمزيًّا لحل مشكلات أجهزة الكمبيوتر لدى الناس، تغيير إعدادات بروتوكول الإنترنت، إصلاح أعطال ملفات التطبيقات، عيوب البطء، عمليات التحديث وإخفاق تحميل برامج التشغيل. وقد اتصلتُ بها أكثر من مرَّة من كابول، أطلب مساعدتها مع جهاز «آي بي إم» الخاص بي حين يتعطل.

عندما نصل إلى بيت أمي، نقف للحظة في الباحة إلى جوار شجرة الزيتون العجوز. ألمح إشارات على حمى العمل التي أصابت ماما مؤخرًا - الحوائط التي أُعيد دهانها، برج الحمام نصف المنتهي، مطرقة وعلبة مفتوحة من المسامير فوق قطعة خشب. أسأل:

- كيف حالها؟

- نعم. صعبة المراس كعادتها. لهذا ركَّبتُ هذا الشيء.

تشير إلى طبق ستالايت مُثبَّت فوق السطح.

- نشاهد مسلسلات أجنبية. المسلسلات العربية هي الأفضل، أو الأسوأ، وهو الأمر نفسه. نحاول أن نفهم الحبكات. هذا يُبقيني بعيدة عن مخالبها.

تندفع عبر الباب الأمامي.

- مرحبًا بك في دارك. سأُعدُّ شيئًا لتأكله.

* * *

غريبة هي العودة إلى هذا المنزل. أرى بضعة أشياء غير مُعتادة، مثل الكرسي الجلدي الرمادي في غرفة المعيشة، وطاولة صغيرة منخفضة من الخوص بجوار التلفزيون. لكن كل شيء آخر في مكانه المعتاد على نحو أو آخر: طاولة المطبخ، المُغطاة الآن بمفرش من الفينيل مطبوعة عليه ثمار باذنجان وكمثرى، كراسي البامبو ذات الظهور المستقيمة، مصباح الزيت القديم وحامله الخوص، زجاجته سوداء من الدخان، صورتي أنا وماما - أنا بالقميص الأبيض، وماما في فستانها المُميز - ما تزال مُعلَّقة فوق رف المدفأة في غرفة المعيشة، الطقم الصيني الخاص بماما ما يزال على الرف العالي.

مع ذلك، وأنا أضع حقيبتي، أشعر وكأن ثمة فجوة واسعة وسط كل شيء. العقود التي عاشتها ماما هنا مع ثاليا، إنها فضاءات شاسعة مظلمة بالنسبة إليَّ. لقد كنت غائبًا. غائبًا عن كل الوجبات التي تقاسمتها ثاليا وماما على تلك الطاولة، الضحكات، الشجارات، نوبات الملل، الأمراض، الخيط الطويل من الطقوس البسيطة التي تُشكل الحياة. إن دخول بيت طفولتي أمر مُشوِّش قليلًا، مثل قراءة نهاية رواية قد بدأتُها، ثم تركتُها منذ زمن طويل.

- ما رأيك في بعض البيض؟

تقولها ثاليا، وقد وضعت بالفعل مريلة الصدر، وراحت تصب الزيت في المقلاة. تتحرك في أرجاء المطبخ مُسيطرة، كما يتحرك صاحب ملك في ملكيته.

- بالطبع. أين ماما؟

- نائمة. كانت ليلتها صعبة.

- سأُلقي نظرة سريعة.

تُخرج ثاليا خلاط بيض من الدرج.

- أيقظها، وسيكون حسابك معي عسيرًا يا دكتور.

صعدتُ السلم إلى غرفة النوم على أطراف أصابعي. الغرفة مظلمة. شريحة ضوء طويلة ورفيعة تندفع عبر الستائر المُسدلة، وتتقطع على سرير ماما. الهواء مُثقل بالمرض. ليست رائحة، وإنما أشبه بوجود مادي. كل طبيب يعرف هذا. المرض ينساب في الغرفة مثل تيار. أقف في المدخل للحظة لكي أسمح لعيني بالتكيف. الظلام يقطعه مُربع من ضوء مُلون مُتغير على خزانة الأدراج بجوار السرير من الجانب الذي أفهم أنه جانب ثاليا، جانبي أنا القديم. إنه واحد من إطارات الصور الرقمية تلك. حقل مزروع بشتلات الأرز وبيوت خشبية بأسقف من القرميد الرمادي، تخبو الصورة وتتحول إلى سوق مزدحمة وأغنام مسلوخة مُعلَّقة من خطاطيف، ثم رجل داكن البشرة مُقرفصًا بجوار نهر مُوحل، ينظف أسنانه بإصبعه.

أسحب كرسيًّا وأجلس إلى جوار ماما. وإذ أنظر إليها الآن بعد أن تكيفت عيناي، أشعر بشيء بداخلي يسقط. يُربكني كيف

تضاءلت ماما. بالفعل. منامتها المطبوع عليها أزهار تبدو فضفاضة حول كتفيها الصغيرتين، فوق صدرها المُسطح. لا تشغلني طريقة نومها، بفم مفتوح ومقلوب إلى أسفل، وكأنما تحلم حلمًا كريهًا. لكنني أستاء لرؤية طقم أسنانها وقد انزلق من مكانه في نومها. عيناها ترفَّان بخفة. أجلس هناك لبرهة. أسأل نفسي: ماذا كنت تتوقع؟ أصغي لدقات الساعة على الحائط، صلصلة سكينة ثاليا العريضة وهي تحتك بالمقلاة في الطابق الأسفل. أجرِد التفاصيل التافهة في حياة ماما في هذه الغرفة: التلفزيون ذو الشاشة المُسطَّحة المُثبَّت على الحائط، جهاز الكمبيوتر في الركن، كُتيب «السودوكو»، الذي بدأته ولم تنهه، على طاولة الفراش، وقد علَّمت الصفحة بنظارتها، جهاز التحكم في التلفزيون، القطرة المُطهِّرة للعين، أنبوب كريم من مركبات الستيرويد، أنبوب لاصق طقم الأسنان، زجاجة صغيرة من الحبوب، وعلى الأرض، شبشب قطني الملمس بلون المحار. لم تكن لتضع مثل هذا الشبشب قَطُّ في الماضي. وإلى جوار الشبشب، كيس مفتوح من الحفاضات التي تُرتدى مثل الملابس الداخلية. لا أستطيع أن أجمع بين ماما وبين تلك الأشياء. أقاومها. تبدو لي مثل مُتعلقات شخص غريب. شخص خامل، مُسالم. شخص لا يمكن أن تغضب منه.

على الجانب الآخر من الفراش تتبدَّل الصور داخل الإطار الرقمي. أُتابع بضع صور. ثم يخطر لي الأمر. أعرف هذه الصور. لقد التقطتها بنفسي. عندما كنت... ماذا؟ أتجول في أرجاء العالم، فيما أعتقد. كنت أحرص دائمًا على طباعة مجموعتين وإرسال

واحدة منهما إلى ثاليا. وكانت تحتفظ بها. كل تلك السنوات. ثاليا. تسرَّبت المحبة داخلي حلوة كالعسل. لقد كانت أختي الحقيقية، منارتي الحقيقية، طوال الوقت.

تُناديني من الطابق السفلي.

أنهض بهدوء. وأنا أغادر الغرفة، يعلق شيء بنظري. شيء مؤطر، موضوع على الحائط تحت الساعة. لا أستطيع أن أتبينه على نحو جيد في الظلام. أفتح هاتفي المحمول وأُلقي نظرة في وهجه الفضي. إنها قصة من «أسوشييتد برس» عن المُنظمة غير الربحية التي أعمل لحسابها في كابول. أتذكر المقابلة. كان الصحفي شابًّا كوريًّا أمريكيًّا لطيفًا يتكلم بتأتأة خفيفة. كنا قد تقاسمنا صَحنًا من «الكابولي» - «بيلاف» أفغاني، مع الأرز البني، والزبيب، والضأن. وفي وسط القصة ثمة صورة جماعية. أنا، وبعض الأطفال، ونبي في الخلف، نقف بثبات، أيدينا خلف ظهورنا، يبدو علينا التوجُّس، والخجل، والاعتزاز بالنفس في الوقت نفسه، كما يبدو الأفغان غالبًا في الصور. أمرا هناك أيضًا بصحبة ابنتها المُتبناة، روشي. وكل الأطفال يبتسمون.

- ماركوس.

أُطفئ الهاتف المحمول وأتوجه نحو الطابق السفلي.

تضع ثاليا أمامي كوبًا من الحليب وصحنًا من البيض فوق طبقة من الطماطم يتصاعد منه البخار.

- لا تقلق، لقد حلَّيت الحليب بالسُّكر.

- تتذكرين؟

تتخذ مقعدًا، ولا تهتم بخلع المريلة. تُريح مرفقيها على الطاولة وتراقبني وأنا أتناول الطعام، وهي تنقر بمنديلها بين حين وآخر على خدها الأيسر.

أتذكر كل الأوقات التي حاولت فيها إقناعها بأن تسمح لي بالعمل على وجهها. أخبرتها أن التقنيات الجراحية قد قطعت طريقًا طويلًا منذ الستينيات، وأنني متأكد أنني أستطيع، إن لم يكن إصلاح، فعلى الأقل تحسين تشوهها على نحو كبير. رفضت ثاليا، وهو ما حيَّرني أيما حيرة. قالت لي: **هذه أنا**. وفكرت حينها أنها إجابة غير مُرضية وبلا طعم. ماذا يعني هذا أصلًا؟ لم أفهم. وراودتني أفكار مُتحاملة عن نزلاء سجون، محكوم عليهم بالسجن مدى الحياة، خائفين من الخروج، مُرتعبين من إطلاق سراحهم المشروط، مُرتعبين من التغيير، مُرتعبين من مواجهة حياة جديدة خارج الأسلاك الشائكة وأبراج الحراسة.

ما يزال عرضي لثاليا قائمًا حتى اليوم. أعرف أنها لن تقبله. لكنني أفهم الآن. لأنها كانت مُحقة - هذه هي حقًّا. لا أستطيع التظاهر بمعرفة إحساس التحديق في هذا الوجه في المرآة يوميًّا، التمعن في الخراب البشع، واستجماع الإرادة لتقبله. التوتر الهائل في الأمر، الجهد، الصبر. قبولها يتشكَّل ببطء، على مر الأعوام، مثل صخور عند جرف شاطئي يضربها المد فينحتها. لقد استغرق الكلب لحظات لكي يعطي ثاليا هذا الوجه، واستغرقت هي عُمرًا كاملًا لتُشكله وتجعل منه هوية. لن تسمح لي بأن أُبطل كل هذا بمبضعي. سيكون الأمر أشبه بفتح جرح جديد فوق القديم.

أتناول لُقيمات من البيض، لأنني أعرف أن ذلك سيُسعدها، مع أنني لا أشعر بجوع حقيقي.

- مذاقه طيب يا ثاليا.

- إذًا، هل تشعر بالحماس؟

- ماذا تقصدين؟

تمد يديها وراءها وتفتح دُرجًا من أدراج منضدة المطبخ. تستخرج نظارة شمس بعدسات مُربعة. يستغرق مني الأمر لحظة. ثم أتذكر. الكسوف.

- نعم، بالطبع.

تقول:

- في البداية، فكرت أن نُراقبه من ثقب صغير وحسب. لكن أودي قالت لي إنك قادم. وقلت: حسنًا، لنفعلها إذن بالأسلوب الصحيح.

نتكلم قليلًا عن الكسوف المُتوقَّع في اليوم التالي. تقول ثاليا إنه سيبدأ في الصباح ويكتمل بحلول الظهيرة أو نحو ذلك. لقد ظلت تراجع تحديثات حالة الطقس، وشعرَت بالارتياح عندما عرفَت أن الجزيرة لا تنتظر يومًا غائمًا. تسألني إن كنت أريد المزيد من البيض وأقول نعم، وتحكي لي عن مقهى إنترنت جديد حل محل متجر العاديَّات القديم الذي كان يملكه السيد روسوس.

أقول:

- رأيت الصور. بالأعلى. والمقال أيضًا.

تمسح فتات الخبز الذي خلفتُه عن الطاولة بكفها، وترميه من فوق كتفها في مغسلة المطبخ من دون أن تنظر.

- نعم، كان ذلك أمرًا سهلًا. مسحها ضوئيًّا ثم رفعها. الجزء الصعب كان تصنيفها حسب البلد، إذ إنَّ عليَّ أن أجلس وأستكشف لأنك لم تُرسل ملاحظات قَطُّ، فقط الصور. كانت حاسمة جدًّا في هذا الأمر، الترتيب بحسب البلد. تريدها بهذه الطريقة. لقد أصرَّت على ذلك.

- مَن؟

تُطلق تنهيدة.

- يقول مَن! أودي. مَن غيرها؟

- كانت فكرتها؟

- والمقال أيضًا. هي التي وجدته على الإنترنت.

أقول:

- ماما بحثت عني على الإنترنت؟

تُطلق ضحكة خفيفة.

- ما كان عليَّ أن أُخبرك. الآن لن تتوقف. إنها تبحث عن اسمك كل يوم. صحيح. لديك مُترصِّد يُلاحقك على الفضاء الإلكتروني يا ماركوس فارفاريس.

* * *

تنزل ماما بعد الظهيرة بقليل. ترتدي رداء حمَّام أزرق داكنًا والشبشب ذا الملمس القُطني الذي كرهتُه فور أن رأيته. يبدو أنها قد مشطت شعرها. أرتاح حين أجدها تتحرك بشكل طبيعي فيما يبدو وهي تنزل درجات السلم، وهي تفتح ذراعيها لي، وتبتسم بنعاس.

نجلس إلى الطاولة لتناول القهوة.

تسألني، وهي تنفخ في فنجانها:

- أين ثاليا؟

- خرجت لشراء شيء حلو. ليوم غد. هل هذه تخصكِ يا ماما؟

أشير إلى عصا تستند على الحائط خلف الكرسي الجلدي ذي الذراعين. لم أكن قد لاحظتها عندما دخلت.

- نعم، نادرًا ما أستخدمها. فقط في الأيام الصعبة، وفي النزهات الطويلة. وحتى وقتها، أستخدمها فقط من أجل راحة البال.

تقولها وهي تبالغ في الإنكار، فأعرف أنها تعتمد عليها أكثر كثيرًا مما تقول.

- أنا قلِقة عليك أنت. الأخبار من هذا البلد الرهيب. ثاليا لا تُريدني أن أسمعها. تقول إنها ستُثير أعصابي.

أقول:

- ثمة أحداث تقع، نعم. لكن في أغلب الأحيان يعيش الناس حياتهم. وأنا حريص دائمًا يا ماما.

بالطبع لا أُخبرها عن إطلاق النار في بيت الضيافة على الجانب الآخر من الشارع، أو موجة الهجمات الأخيرة على موظفي الإغاثة الأجانب، أو أنني أقصد بـ«الحرص» أنني أحمل معي مسدس عيار ٩ ملليمتر عندما أتجول في المدينة بسيارتي، وهو ما لا يجب أن أفعله على الأرجح في الأساس.

تأخذ ماما رشفة من القهوة، وتجفل قليلًا. لا تضغط عليَّ. ولست مُتأكدًا إن كان هذا أمرًا جيدًا. لست مُتأكدًا إن كانت قد انجرفت بعيدًا، غاصت في نفسها كما يفعل المُسنون، أو إن كانت

تلك كياسة منها حتى لا تضطرني إلى الكذب أو الكشف عن أشياء لن تُسبب لها إلا الإزعاج.

تقول:

- افتقدناك في الكريسماس.

- لم أتمكَّن من الإفلات يا ماما.

تومئ برأسها.

- أنت هنا الآن. هذا هو المهم.

آخذ رشفة من قهوتي. أتذكر وأنا صغير عندما كنت أنا وماما نتناول الإفطار على تلك الطاولة كل صباح، في هدوء، بل في وقار تقريبًا، قبل أن نمشي إلى المدرسة معًا. كنا قليلًا جدًّا ما نتكلم.

- تعرفين يا ماما. أنا قلِق عليك أيضًا.

- لا داعي للقلق. أنا أعتني بنفسي جيدًا.

ومضة من الكبرياء المتحدية القديمة، مثل لمعة شاحبة في الضباب.

- لكن إلى متى؟

- طالما ظللت قادرة.

- وعندما لا تعودين قادرة، ماذا سيحدث؟

لا أتحداها، بل أسأل لأنني لا أعرف. لا أعرف ماذا سيكون دوري أو حتى إذا كنت سألعب أي دور.

تُصوِّب نظرتها إليَّ بثبات، ثم تضيف ملعقة سُكر إلى فنجانها، وتقلبه ببطء.

- إنه أمر طريف يا ماركوس، لكن الناس عادة ما يفكرون في الاتجاه العكسي. يفكرون في كون حياتهم تسير وفق ما يريدون، لكن الحقيقة أن ما يقودهم هو ما يخافون منه. ما لا يريدونه.

- لا أفهم يا ماما.

- حسنًا، لنأخذك مثلًا. مغادرتك لهذا البيت، والحياة التي صنعتها لنفسك. لقد كنت خائفًا من أن تُحبس هنا، معي. كنت خائفًا أن أعيق تقدمك. أو خذ ثاليا مثلًا. لقد ظلت هنا لأنها لم ترغب في أن يحدق الناس فيها أكثر من ذلك.

أُراقبها وهي تتذوق قهوتها، تضع ملعقة سُكر أخرى. أتذكر كيف كنت أشعر في صباي بالنقص وأنا أحاول أن أُجادلها. كانت تتحدث بطريقة لا تدع مجالًا للرد، تكتسحني في الحقيقة، تقولها من أول كلمة، بوضوح، بصورة مباشرة. لطالما تلقيت الهزيمة من قبل أن أقول ولو كلمة واحدة. وطالما بدا لي ذلك ظلمًا.

أسأل:

- وماذا عنكِ يا ماما؟ ما الذي تخافين منه؟ ما الذي لا تريدينه؟

- أن أكون عبئًا.

- هذا لن يحدث.

- نعم، أنت مُحق في هذا الأمر يا ماركوس.

يغمرني إحساس بعدم الارتياح لسماع تلك الملاحظة الغامضة. يومض عقلي عائدًا إلى الخطاب الذي كان نبي قد أعطاه لي في كابول، اعترافه اللاحق لوفاته. العهد الذي أبرمه معه سليمان وحدتي. لا يسعني إلا التساؤل عما إذا كانت ماما قد أبرمت عهدًا مُشابهًا مع ثاليا، ما إذا كانت قد اختارت ثاليا لإنقاذها عندما يحين الوقت. أعرف أن في وسع ثاليا أن تفعلها. لقد صارت قوية. تستطيع أن تُنقذ ماما.

تتفحص ماما وجهي.

- لديك حياتك وعملك يا ماركوس.

تقولها برقة أكبر الآن، وهي تُعيد توجيه مسار المحادثة، وكأنها قد اختلست النظر إلى داخل عقلي، ورأت مخاوفي. طقم الأسنان، الحفاضات، الشبشب ذو القوام القُطني - لقد جعلتني تلك الأشياء أبخسها حقها. ما زالت صاحبة اليد العليا، وستظل كذلك دائمًا.

- لا أريد أن أُثقل عليك.

كذبة - تلك العبارة الأخيرة التي تقولها - لكنها على الأقل كذبة بيضاء. لن أكون أنا من يُثقَل عليه. تعرف هذا كما أعرفه. أنا غائب، على بُعد آلاف الأميال. الإزعاج، والجهد، والمشقة، كل ذلك سيقع على عاتق ثاليا. لكن ماما تُدرِجني معهما، تمنحني شيئًا لم أكسبه، ولم أحاول أن أكسبه.

أقول بوهن:

- لن تكون الأمور على هذا النحو.

تبتسم ماما:

- بالحديث عن عملك، أظنك تعرف أنني لم أكن أوافق تمامًا عندما قررت أن تذهب إلى هذا البلد.

- كانت عندي شكوك، نعم.

- لم أفهم لماذا تذهب. لماذا تتخلى عن كل شيء - المسار المهني، المال، البيت في أثينا - كل ما قد عملتَ لأجله، وتختبئ في ذلك المكان العنيف.

- كانت لديَّ أسبابي.

- أعرف.

ترفع الفنجان إلى شفتيها، ثم تخفضه من دون أن ترشف. تقول ببطء، وبخجل تقريبًا:

- أنا لستُ ماهرة في هذا الأمر، لكن ما أحاول أن أُخبرك به هو أنك قد نجحت. لقد جعلتني أفخر بك يا ماركوس.

أخفض بصري إلى يدي. أشعر بكلماتها تنزل عميقًا في داخلي. لقد أربكني، باغتني على حين غرة، هذا الذي قالته. أو البريق الناعم في عينيها عندما قالته. لا أعرف ماذا يُفترض أن أقول ردًّا عليها.

أتمكَّن من إخراج همهمة:

- شكرًا يا ماما.

لا أستطيع قول المزيد، ونجلس هادئين لبُرهة، والهواء بيننا مُثقل بالحرج، وبوعينا بكل الوقت الذي أُهدر، وكل الفُرص التي تطايرت بعيدًا.

تقول ماما:

- كنت أريد أن أسألك عن شيء.

- ما هو؟

- جيمس باركنسون، جورج هنتنجتون، روبرت جريفز، جون داون، والآن رفيقي لو جيريج. كيف استطاع الرجال احتكار أسماء الأمراض أيضًا؟

أطرف وتطرف ماما، ثم تضحك وأضحك. حتى وأنا أنسحق من الداخل.

* * *

في الصباح التالي، نتمدد في الخارج على أرائك مُريحة. ماما تضع وشاحًا سميكًا وسترة رمادية ثقيلة، تُدفئ ساقيها من البرد الحاد ببطانية صُوفية. نرتشف القهوة، ونتناول قضمات من

السفرجل المخبوز بنكهة القرفة الذي اشترته ثاليا من أجل هذه المناسبة. نضع نظارات الكسوف الخاصة بنا، ونتطلَّع إلى السماء. قضمة صغيرة أُخذت من الحافة الشمالية للشمس، فبدت أشبه بشعار التفاحة المميز على كمبيوتر «آبل» المحمول الذي تفتحه ثاليا من وقت إلى آخر لتُرسل ملاحظات إلى أحد المنتديات على الإنترنت. بطول الشارع، استقر الناس على الأرصفة وفوق الأسطح لمشاهدة المنظر. والبعض اصطحب عائلته إلى الجانب الآخر من الجزيرة، حيث ثبتت الجمعية الفلكية الهيللينية أجهزة تلسكوب.

أسأل:

- متى يُفترض أن يبلغ ذروته؟

تقول ثاليا:

- قُبيل العاشرة والنصف.

ترفع نظارتها، تنظر إلى ساعتها.

- أي بعد نحو ساعة.

تفرك يديها بحماس، تنقر شيئًا ما على لوحة المفاتيح.

أُراقبهما؛ ماما بنظارتها الداكنة، ويداها المعروقتان المزرقتان معقودتان على صدرها، وثاليا تضرب على المفاتيح بحماسة، بشعر أبيض ينسكب من أسفل طاقية «البيني» الصغيرة.

لقد نجحتَ.

تمددتُ على الأريكة في الليلة السابقة، أفكر فيما قالته ماما، وشردت أفكاري إلى مادلين. تذكرت، وأنا صبي، كيف كنت أستشيط غضبًا من كل الأشياء التي لا تفعلها ماما، الأشياء التي تفعلها الأمهات الأخريات: أن تمسك بيدي ونحن نمشي، أن

تُجلسني على حجرها، تقرأ لي حكايات قبل النوم، تُقبِّلني في خدي وتتمنى لي نومًا هانئًا. تلك الأشياء كانت حقيقية. لكن، طوال تلك السنين، ظللت أعمى عن الحقيقة الأعظم، التي ظلت مدفونة بعمق تحت أحزاني، بلا اعتراف ولا تقدير. حقيقة أن أمي لم تكن لتهجرني قَطُّ. كانت تلك هديتها إليَّ، اليقين الراسخ بأنها لن تفعل بي ما قد فعلته مادلين بثاليا. كانت أمي ولن تهجرني. وقد تقبَّلتُ ذلك وانتظرتُه منها بكل بساطة. لم أشكرها على ذلك أكثر مما أشكر الشمس لأنها تشرق على وجهي.

تصيح ثاليا:

- انظروا!

فجأة، في كل مكان حولنا - على الأرض، وعلى الجدران، وعلى ملابسنا - تجسدت مناجل صغيرة لامعة من الضوء، الشمس هلالية الشكل تشع عبر أوراق شجرة الزيتون في باحتنا. أرى هلالًا يرتعش على سطح القهوة في الفنجان الخاص بي، وآخر يتراقص على رباط حذائي.

تقول ثاليا:

- افتحي يديك يا أودي. بسرعة.

تفتح ماما يديها، وكفاها إلى أعلى. تخرج ثاليا من جيبها مُربعًا من الزجاج المُزخرف. تمسك به فوق يدي ماما. فجأة، ترتعش أقواس قزح هلالية صغيرة على الجلد المُجعَّد ليدي أمي. تشهق.

- انظر إلى ذلك يا ماركوس!

تقولها ماما، وهي تُطلق العنان لابتسامتها بفرح تلميذة. لم يسبق لي أن رأيت ابتسامتها بهذا الصفاء، وبهذه التلقائية.

نجلس، ثلاثتنا، نراقب أقواس قزح الصغيرة المُرتعشة على يدي أمي، وأشعر بالحزن وبوجع قديم، كل منهما مثل مخلب في حلقي.

لقد نجحتَ.

لقد جعلتني فخورة بك يا ماركوس.

أنا في السادسة والخمسين من عمري. وقد انتظرت طيلة حياتي لأسمع تلك الكلمات. هل فات أوان هذا؟ علينا؟ هل أهدرنا الكثير جدًّا لوقت طويل جدًّا، أنا وماما؟ جزء مني يعتقد أنه من الأفضل أن نمضي قُدمًا كما كنا، أن نتظاهر بأننا لا نعرف كم كنا غير مُنسجمَين. بهذه الطريقة نُقلل الألم. ربما أفضل من هذه المنحة التي جاءت بعد الأوان. هذه الومضة الصغيرة المُرتعشة الواهية مما كان يمكن أن يكون بيننا. لن يجلب ذلك سوى الندم، أقولها لنفسي، وما فائدة الندم؟ إنه لا يُعيد أي شيء. وما فقدناه لا يمكن استرجاعه.

مع ذلك عندما تقول ماما:

- أليس جميلًا يا ماركوس؟

أقول لها:

- بلى يا ماما. جميل.

وبينما أشعر بشيء ينفتح بداخلي، أمد يدي وأمسك بيدها.

٩

شتاء ٢٠١٠

عندما كنت فتاة صغيرة كان عندنا أنا وأبي طقس ليلي. بعد أن أقول «بسم الله» عشرين مرَّة وبعد أن يُحكم غطائي في الفراش، يجلس هو بجانبي وينتشل الأحلام السيئة من رأسي بإبهامه وسبابته. كانت أصابعه تقفز من جبهتي إلى صدغيَّ، مُفتشة في صبر خلف أذنيَّ، على مؤخرة رأسي، وكان يُصدر صوت «بوب» - مثل زجاجة تُنزع سدادتها - مع كل كابوس ينتشله من رأسي. يدس الأحلام، واحدًا بعد آخر، في كيس خفي في حجره ويسحب رباط الكيس بإحكام، ثم يكشط الهواء بحثًا عن أحلام سعيدة لتحل محل الأحلام التي عزلها بعيدًا. كنت أُراقبه وهو يرفع رأسه قليلًا ويكشر، عيناه تجوسان من جنب إلى جنب، وكأنه ينتبه ليسمع موسيقى بعيدة. أكتم أنفاسي مُنتظرة اللحظة التي ينبسط فيها وجه أبي في ابتسامة، عندما يُغرِّد: «آه، واحد هنا»، عندما يكوِّر يديه، ويترك الحلم يهبط بين كفيه مثل بتلة تدور ببطء بعد أن سقطت من شجرة. بعدها، برقة، برقة شديدة - يقول أبي إن كل الأشياء الطَّيبة في الحياة هشة وسهلة الضياع - كان يرفع يديه إلى وجهي، يفرك كفه بجبهتي ويدخل السعادة إلى رأسي.

أسأله:

- بمَ سأحلم الليلة يا بابا؟

- نعم، اليوم. حسنًا، اليوم يوم خاص.

يقول هذا دائمًا قبل أن يُخبرني بالحلم، ثم يخترع قصة من وحي اللحظة. في أحد الأحلام التي أعطاها لي، أصبحتُ أشهر رسَّامة في العالم. وفي أخرى، أصبحت ملكة على جزيرة مسحورة، وكان عندي عرش طائر. بل إنه منحني حلمًا عن حلواي المفضلة، الجيلي. كنت أمتلك القدرة، بحركة من عصاي، على تحويل أي شيء إلى جيلي - حافلة مدرسية، مبنى «إمباير ستيت»، المحيط الهادئ بأكمله، كما أحب. وأكثر من مرَّة، أنقذت الكوكب من الدمار بأن لوحت بعصاي في اتجاه نيزك وشيك الاصطدام. يقول أبي، الذي لم يحكِ لي كثيرًا عن أبيه، إنه قد ورث منه المقدرة على الحكي. قال إنه عندما كان صبيًّا، كان والده يُجلسه أحيانًا - إن كان في مزاج طيب، ما يعني أن ذلك لم يكن يحدث كثيرًا - ويحكي له قصصًا مسكونة بالجن والحوريات وغيلان الديف.

في بعض الليالي، كنت أتبادل الأدوار مع بابا. يغمض عينيه وأروح أنا أمسح وجهه بكفيَّ، مُحدقة في جبينه، فوق أشواك خديه غير الحليقين، والشعرات الخشنة في شاربه.

- **إذًا، ما هو حلمي الليلة؟**

يهمس بذلك، وهو يأخذ بيديَّ، في الوقت الذي تتسع فيه ابتسامته؛ لأنه كان يعرف بالفعل الحلم الذي سأعطيه إياه. إنه الحلم نفسه في كل مرَّة، وفيه يتمدد هو وأخته الصغيرة تحت شجرة تفاح

مُزهرة، يروحان في قيلولة العصر. الشمس دافئة على خدودهما، وضوؤها ينعكس على العشب والأوراق والزهور المتشابكة في الأعلى.

كنت طفلة وحيدة، أشعر غالبًا بالوحدة. بعد أن أنجبني والداي، اللذان التقيا في باكستان وكلاهما في الأربعين تقريبًا، قد قررا عدم المجازفة بمحاولة أخرى. أتذكر كيف كنت أنظر بحسد إلى كل طفل في حينا، في مدرستي، لديه أخ أو أخت صغيرة. كم كنت مُتحيرة من الطريقة التي يعامل بها بعضهم إخوته، غافلين عن حظهم السعيد. كانوا يتصرفون مثل الكلاب البرية. يقرصون، ويضربون، ويدفعون، ويخون أحدهم الآخر بكل طريقة يمكنهم التفكير فيها، بل ويضحكون من ذلك أيضًا. كانوا لا يتحدثون إلى بعضهم بعضًا. لم أكن أفهم. أنا التي قضيت أغلب سنواتي الأولى أتحرَّق شوقًا لأخ أو أخت. بل إن ما تمنيته حقًّا كان توأمًا، شخصًا يبكي إلى جواري في المهد، ينام إلى جانبي، يرضع معي من ثدي أمي، شخصًا لا أتمالك إلا أن أُحبه بكل جوارحي، وأنظر إلى وجهه فأرى نفسي.

هكذا، كانت أخت بابا الصغيرة، باري، هي رفيقتي السرية، لا تتراءى لأحد غيري. كانت أختي، الأخت التي طالما تمنيت لو منحها لي والداي. أراها في مرآة الحمَّام ونحن نغسل أسناننا جنبًا إلى جنب في الصباح. كنا نرتدي ملابسنا معًا. تتبعني إلى المدرسة وتجلس بالقرب مني في الفصل - ناظرة مباشرة إلى الأمام ناحية السبورة، وكان بإمكاني دائمًا أن أرى سواد شعرها وبياض إطلالتها

الجانبية من زاوية عيني. كنت آخذها معي إلى فناء المدرسة في الفسحة، أشعر بوجودها ورائي وأنا أنزلق على زلاقة، وعندما أقفز من قضيب إلى آخر في ملعب القرود. بعد المدرسة، عندما أجلس إلى طاولة المطبخ وأرسم، كانت تشخبط بصبر إلى جواري أو تقف لتنظر من النافذة حتى أنتهي، فنجري خارجًا لنلعب الحبل، وظلانا التوأمان يقفزان إلى أعلى وإلى أسفل على الإسمنت.

لم يعرف أحد بأمر ألعابي مع باري، ولا حتى أبي. كانت سري.

أحيانًا، عندما لا يكون أحد حولنا نأكل العنب ونتكلم ونتكلم - عن الأولاد، وأي الحبوب أطيب مذاقًا، وأفلام الرسوم المتحركة التي نحبها، وأطفال المدرسة الذين لا نحبهم، وأي المُدرِّسين هو الشرير. كان لنا نفس اللون المُفضَّل (الأصفر)، والآيس كريم المُفضَّل (الكرز الداكن)، والمسلسل المفضل (آلف). كلٌّ منا تريد أن تصبح فنانة عندما نكبر. وبطبيعة الحال، تخيَّلتنا مُتطابقتين لأننا، في نهاية الأمر، توأمان. أحيانًا أكاد أراها - أقصد «أراها» بحق - عند طرف بصري. حاولت أن أرسمها وفي كل مرَّة كنت أُعطيها العينين الخضراوين الفاتحتين نفسيهما، المائلتين قليلًا مثل عيني، والشعر الداكن المُتموِّج نفسه، والحاجبين المائلين اللذين يتلامسان تقريبًا. فإذا سألني أي شخص، كنت أُجيبه أنني رسمت نفسي.

حكاية فقدان أبي لأخته كانت معروفة بالنسبة إليَّ مثل القصص التي حكتها ماما لي عن النبيِّ، قصص سوف أتعلَّمها ثانية فيما بعد عندما يُسجلني والداي في مدرسة أيام الآحاد في مسجد بهايوارد. مع ذلك، وعلى الرغم من معرفتي لها، كنت أطلب كل ليلة أن

أسمع قصة باري ثانية، فتشدني بجاذبيتها. ربما فعلت ذلك لأننا، ببساطة، نحمل الاسم نفسه. ربما لهذا السبب شعرت بصلة بيننا، مُبهمة، غامضة، ولكنها حقيقية. لكن الأمر لم يقتصر على ذلك. كنت أشعر بأنها تلمسني، وكأن ما قد حدث لها أثَّر فيَّ أنا أيضًا. كنا مُتشابكتين، هكذا شعرتُ، عبر نظام غير مرئي، وبطُرق لم أستطع فهمها بصورة واضحة، مُرتبطتين بأكثر من اسمينا، بأكثر من روابطنا العائلية، كما لو كنا، معًا، نُكمل صورة مجزَّأة.

كنت مُتيقنة من أنني إذا أنصتُّ لقصتها بما يكفي، فسوف يتكشف لي شيء عن نفسي.

- هل تعتقد أن والدك كان حزينًا؟ لأنه باعها؟

- بعض الناس يخفون حزنهم ببراعة يا باري. كان من هذا النوع. لا يُمكنك أن تعرفي من النظر إليه. كان رجلًا صلبًا. لكنني أعتقد، نعم، أعتقد أنه كان حزينًا في داخله.

- وهل أنت حزين؟

كان أبي يبتسم ويقول:

- ولماذا أحزن وأنتِ عندي؟

لكن، حتى وقد بلغ هذه السِّن، فقد كان يُمكنني أن أرى الأمر مثل وحمة في وجهه.

وطوال حوارنا ذاك، كان ثمة خيال يُداعب رأسي.حيث أراني أدخر كل النقود، لا أنفق دولارًا واحدًا على الحلوى أو الصور اللاصقة، وعندما تمتلئ حصالتي - التي كانت على شكل حورية بحر تجلس على صخرة - سأكسرها وأضع كل النقود في جيبي

وأنطلق لأعثر على أخت بابا الصغيرة، أيًّا كان مكانها، وعندما أجدها سأعاود شراءها وأعود بها إلى بابا في البيت. سوف أُسعد أبي. لم يكن ثمة شيء في العالم أرغب فيه أكثر من أن أكون أنا من يطرد أحزانه.

كان أبي يسألني:

- **إذًا ما هو حلمي الليلة؟**

- **أنت تعرف بالفعل.**

ابتسامة أخرى:

- **نعم، أعرف.**

- **بابا؟**

- **ممم؟**

- **هل كانت أختًا صالحة؟**

- **كانت مثالية.**

كان يُقبِّلني على خدي ويُحكم البطانية حول رقبتي. وعند الباب، بعد أن يُطفئ النور، يتوقف ليقول:

- **كانت مثالية، مثلك تمامًا.**

كنت دائمًا أنتظر حتى يُغلق الباب قبل أن أنزلق من الفراش، أجلب وسادة أخرى، وأضعها إلى جانب وسادتي، وأروح في النوم كل ليلة وأنا أشعر بقلبين توأمين يدقان في صدري.

* * *

أنظر في ساعتي وأنا أنعطف بالسيارة في اتجاه الطريق السريع من مدخل «أولد أوكلاند رود». الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر فعلًا، وسأحتاج أربعين دقيقة على الأقل قبل أن أصل إلى

مطار سان فرانسيسكو، ما لم تكن هناك أي حوادث أو أعمال على الطريق ١٠١. من الزاوية الإيجابية، فهي رحلة دولية، وسيكون عليها أن تمر بالجمارك، وربما سيمنحني ذلك بعض الوقت. أنحرف إلى المسرب الأيسر وأدفع سيارتي «الليكزوس» إلى سرعة تُقارب الثمانين ميلًا.

أتذكر محادثة دارت بيني وبين بابا، كانت بمنزلة مُعجزة صغيرة، قبل نحو شهر. كان الحوار أشبه بفقاعة واهنة من العبارات المعتادة، مثل جيب صغير من الهواء في أعماق مُحيط مُظلم وبارد. كنت قد تأخرت في إعداد غدائه، وأدار رأسه إليَّ من كرسيه الذي يتمدد عليه وقال ملاحظة، بنبرة نقدية لطيفة جدًّا، مفادها أنني كنت مُبرمجة جينيًّا على عدم التقيد بالمواعيد:

- مثل أمك، رحمها الله.

ثم تابع، مُبتسمًا، وكأنما ليُطمئنني:

- مع ذلك، فكل شخص يجب أن يكون فيه عيب ما.

قلت وأنا أضع صحن الأرز والفاصولياء على حِجره:

- إذًا هذا هو العيب البسيط الوحيد الذي ألقاه الله في طريقي؟ الاعتياد على التأخير؟

ويجب أن أقول إنه فعل ذلك بتردد كبير. مد بابا يده إلى يديَّ:

- لقد خلقك قريبة من الكمال، قريبة جدًّا.

- حسنًا، إذا أردت فسوف يُسعدني أن أكشف لك بعض العيوب الأخرى.

- أنت تُخفينها، أليس كذلك؟

- بلى، أكوام وأكوام. جاهزة للانطلاق، عندما تكون شيخًا مُسنًّا ومسكينًا.

- أنا شيخ مُسن ومسكين.

- الآن تريدني أن أشعر بالأسى من أجلك.

أعبث في الراديو، أُحوِّل من الكلام إلى موسيقى الكانتري إلى موسيقى الجاز ثم إلى الكلام ثانية. أُطفئه. أشعر بأنني مُضطربة ومُتوترة. أتناول هاتفي المحمول من فوق الكرسي المجاور. أتصل بالبيت وأترك الهاتف مفتوحًا على حِجري.

- أهلًا؟

- **أهلًا يا بابا.** هذه أنا.

- باري؟

- نعم يا بابا. هل كل شيء على ما يُرام في البيت بينك وبين «هكتور»؟

- نعم. إنه شاب رائع. أعد لنا بيضًا. تناولناه بالخبز المحمص. أين أنت؟

أقول:

- في السيارة.

- ذاهبة إلى المطعم؟ ليس عندكِ وردية اليوم، صحيح؟

- لا، أنا في طريقي إلى المطار يا بابا. سأُحضر شخصًا من هناك.

يقول:

- حسنًا. سأطلب من أمك إعداد الغداء. يُمكنها أن تجلب شيئًا من المطعم.

- حسنًا يا بابا.

شعرت بالارتياح لأنه لا يذكرها ثانية. لكن، في بعض الأيام، كان لا يتوقف: **لماذا لا تخبرينني أين هي يا باري؟ هل تُجري عملية؟ لا تكذبي عليَّ. لماذا يكذب الجميع عليَّ؟ هل رحلَت بعيدًا؟ هل هي في أفغانستان؟ إذًا، سأذهب أنا أيضًا. سأذهب إلى كابول، ولن يمكنك منعي.** ويستمر الأخذ والرد بهذه الطريقة، بابا يروح ويجيء، مُهتاجًا؛ وأنا أُغذيه بالأكاذيب، ثم أحاول تشتيت انتباهه بمجموعة كتالوجات الديكور الخاصة به أو بشيء في التلفزيون. أحيانًا تنجح هذه الطريقة، لكن في أحيان أخرى يكون مُحصَّنًا ضد حِيَلي. يستبد به القلق حتى تسيل دموعه، ويدخل في حالة من الهستيريا. يضرب بيده على رأسه ويهتز إلى الأمام وإلى الخلف في كرسيه، وهو ينشج، وساقاه ترتعشان، ثم يكون عليَّ أن أجعله يبتلع قرص «أتيفان». أنتظر حتى تغيم عيناه، ثم، عندما يحدث ذلك، أرتمي على الأريكة، مُنهكة، مقطوعة النَّفس، أكاد أبكي أنا نفسي. أنظر، باشتياق، إلى الباب الأمامي والفتحة من ورائه وأريد أن أخرج منه وأظل أمشي وأمشي. ثم يتأوَّه بابا في نومه، وأستفيق فجأة، يجيش الذنب في داخلي.

- هل يمكن أن أُكلم هكتور يا بابا؟

أسمع السماعة تنتقل من يد إلى يد. في الخلفية، صوت جماهير تجأر في برنامج مسابقات، ثم تصفيق.

- هيه، يا صبية.

يعيش هكتور خواريز في البيت المقابل. ظللنا جيرانًا لسنوات

طويلة، وأصبحنا صديقين في آخر بضع سنين. يأتي إلى البيت مرَّتين أسبوعيًّا فنتناول أنا وهو وجبات سريعة ونشاهد البرامج التافهة في التلفزيون حتى وقت متأخر من الليل، برامج «تلفزيون الواقع» في الأغلب. نقضم بيتزا باردة ونهز رأسينا بانبهار مَرَضيٍّ على الطرائف وفورات الغضب على الشاشة. كان هكتور جندي مارينز، جاء توزيعه في جنوب أفغانستان. قبل سنتين، أُصيب إصابة سيئة في هجوم بقنبلة بدائية الصُّنع. خرج كل جيرانه لاستقباله لدى عودته إلى الديار أخيرًا من إدارة شؤون المحاربين. كان والداه قد علقا لافتة «**مرحبًا بعودتك إلى الديار يا هكتور**» في الباحة الأمامية في الخارج، مع بالونات والكثير من الزهور. صفق الجميع عندما توقف الوالدان أمام المنزل. وكان العديد من الجيران قد خبزوا الفطائر. شكره الناس على خدمته. قالوا: **كن قويًّا الآن، باركك الرب**. جاء أبوه، سيزار، لزيارتنا بعدها ببضعة أيام، وثبتنا أنا وهو نفس المنحدر الخاص بالكراسي المتحركة الذي كان سيزار قد ابتناه خارج بيته ليقود إلى الباب الأمامي، والعلم الأمريكي ينسدل عليه. أتذكر، ونحن نُثبِّت المنحدر، أنني شعرت بالحاجة إلى الاعتذار إلى سيزار على ما أصاب هكتور في مسقط رأس أبي.

أقول:

– أهلًا. فكرت في الاطمئنان عليكما.

يقول هكتور:

– كل شيء على ما يُرام هنا. أكلنا. وشاهدنا برنامج «السعر المناسب»، والآن نرتعد أمام برنامج «العجلة»، والتالي «الثأر».

– آه. أنا آسفة.

- علامَ يا «ميخا»؟ إننا نقضي وقتًا طيبًا. أليس كذلك يا إيب؟

أقول:

- شكرًا على إعداد البيض.

يخفض هكتور صوته قليلًا:

- كان «بان كيك»، في الحقيقة. وخمِّني ماذا؟ لقد أحبَّها. أكل قطعة من أربع طبقات.

- أنا مدينة لك بحق.

- بالمناسبة، لقد أعجبتني اللوحة الجديدة حقًّا يا صبية. تلك التي تُصوِّر طفلًا في قبعة مُضحكة. إيب أراها لي. كان فخورًا بها جدًّا. وأنا قلت في نفسي: اللعنة. يحق لك أن تفخر يا رجل.

أبتسم وأنا أنتقل من مسربٍ إلى آخر لكي أفسح الطريق لسيارة ظلت خلفي.

- ربما أعرف الآن الهدية التي سأُعطيها لك في الكريسماس.

يقول هكتور:

- ذكِّريني ثانية لماذا لا نستطيع أن نتزوج؟

أسمع بابا يحتج في الخلفية ويضحك هكتور، بعيدًا عن السماعة:

- أنا أمزح يا إيب. أرجوك تحمَّلني. أنا مُعاق.

ثم يعود إليَّ:

- أعتقد أن والدكِ أظهر لي وجهه «البشتون» لتوِّه.

أُذكِّره بأن يعطي بابا حبوب آخر الصباح وأُغلق الخط.

* * *

الأمر يُشبه رؤية صورة فوتوغرافية لشخصية إذاعية، وكيف يتبين أن هذا الشخص لا يبدو كما تخيَّلته في عقلك، حين كنت تستمع إلى صوته في سيارتك. بالطبع كنت أعرف هذا. أجريت حساباتي وتوصلت إلى أنها يجب أن تكون في أوائل الستينيات أو نحو ذلك. مع ذلك فمن الصعب التوفيق بين هذه المرأة ذات الشعر الرمادي وبين الفتاة الصغيرة التي طالما تخيَّلتها، فتاة في الثالثة من عمرها بشعر مُتموج داكن وحاجبين طويلين يكادان يلتقيان، مثل حاجبيَّ. كما أنها أطول مما تخيَّلت. أستطيع أن أتبين ذلك، مع أنها جالسة، على مقعد مستطيل بالقرب من كشك ساندويتشات، تنظر حولها بخجل وكأنها تائهة. لها كتفان ضيقتان، وبنية رقيقة، ووجه لطيف، وشعرها مشدود بقوة إلى الخلف ومُثبَّت برباط رأس من الكروشيه. تضع أقراطًا من اليشم، وترتدي بنطلون جينز باهت اللون، وسترة طويلة قرنفلية فاتحة، ووشاحًا أصفر ملفوفًا حول رقبتها بأناقة أوروبية اعتيادية. كانت قد أخبرتني في رسالتها الإلكترونية الأخيرة أنها ستضع الوشاح لكي أستطيع التعرف عليها بسهولة.

لم تكن قد رأتني بعد، وأتلكأ للحظة بين المُسافرين الذين يدفعون عربات أمتعتهم في أرجاء الصالة، وسائقي سيارات الليموزين وهم يرفعون لافتات بأسماء الزبائن. يدق قلبي بجلبة داخل قفصي الصدري، وأقول لنفسي: **هذه هي. هذه هي. هذه هي حقًّا.** ثم تلتقي أعيننا، ويشرق وجهها حين تتعرف عليَّ، وتلوح بيدها.

نلتقي عند المقعد المستطيل. تبتسم هي وترتعش ركبتاي.

إنها تمتلك ابتسامة بابا بالضبط - باستثناء فجوة بحجم حبة أرز بين أسنانها الأمامية العليا - الملوية من جهة اليسار، كيف تُجعد الابتسامة وجهها وتكاد تغلق عينيها، كيف تَميل برأسها قليلًا. تنهض، وألاحظ يديها، المفاصل ذات العُقد، الأصابع المعقوفة بعيدًا عن الإبهام، النتوءات بحجم حبة الحمص عند رسغها. أشعر بقرصة في معدتي، إذ يبدو الأمر مؤلمًا.

نتعانق، وتُقبِّلني على خديَّ. بشرتها ناعمة مثل اللباد. عندما نتراجع، تظل تمسك بي عن بُعد، يداها على كتفيَّ، وتنظر في وجهي وكأنها تقيِّم لوحة. ثمة غشاوة نديَّة في عينيها المُتألقتين بالسعادة.

- أعتذر على التأخير.

تقول:

- لا توجد مشكلة. أخيرًا، أراكِ. أنا سعيدة جدًّا وحسب.

لكنتها الفرنسية تبدو أوضح وجهًا لوجه مما كانت عبر الهاتف.

أقول:

- أنا أيضًا سعيدة. كيف كانت رحلتكِ؟

- تناولتُ قُرصًا، لولاه لما استطعت النوم. كنت سأظل يقظة طوال الوقت. لأنني سعيدة جدًّا ومُتحمِّسة جدًّا.

تثبِّتني بنظرتها، بابتسامتها المشرقة - وكأنها تخاف أن تنكسر الرُّقية السحرية إن هي أدارت بصرها - حتى تردد صوت من جهاز النداء فوق رأسينا ينصح الرُّكاب بالإبلاغ عن أي أمتعة متروكة بلا صاحب، ثم استرخى وجهها قليلًا.

- هل يعرف عبد الله أنني آتية إلى هنا؟

أقول:

- أخبرته أنني سأُحضر ضيفًا إلى البيت.

لاحقًا، بعد أن جلسنا في السيارة، أختلس نظرات سريعة إليها. أمر غريب غاية في الغرابة. ثمة شيء خيالي على نحو عجيب في باري وحدتي، وهي تجلس في سيارتي، لا تفصلنا سوى بوصات قليلة. في لحظة، أراها بوضوح تام - الوشاح الأصفر حول رقبتها، الشعيرات الرقيقة عند حدود شعرها، الوحمة بلون القهوة أسفل أذنها اليسرى - وفي اللحظة التالية، تُطوى ملامحها في نوع من الغشاوة، وكأنني أراها من وراء زجاج أغبش. وأشعر، لوهلة، بدوار.

- هل أنتِ بخير؟

تقولها، وهي تُعاينني بينما تربط إبزيم حزامها.

- أظل أفكر في أنكِ ستختفين.

- عفوًا؟

أقول، وأنا أضحك بعصبية:

- لا شيء... الأمر لا يُصدق فحسب. أنكِ موجودة حقًّا. إنكِ هنا حقًّا.

تومئ برأسها، مبتسمة.

- نعم، وأنا أيضًا. أنا أيضًا أحس بأنه أمر غريب. تعرفين، في حياتي كلها لم تسبق لي مقابلة شخص يحمل اسمي.

أُدير المُحرِّك.

- ولا أنا. أخبريني إذًا عن أبنائك.

وأنا أنطلق خارجة من ساحة الانتظار، تحكي لي كل شيء عنهم، مُستخدمة أسماءهم وكأنني قد عرفتهم طيلة حياتي، وكأنني أنا وأولادها كبرنا معًا، وخرجنا في نزهات عائلية، وذهبنا للتخييم، وقضينا عطلات صيفية على منتجعات شاطئية حيث صنعنا عقودًا من الأصداف ودفنَّا بعضنا بعضًا تحت الرمال.

وكم أتمنى لو أننا فعلنا.

تقول لي إن ابنها، ألان - وتضيف «ابن عمتك» - وزوجته، آنا، قد أنجبا طفلًا خامسًا، بنتًا صغيرة، وانتقلوا إلى فالينسيا، حيث اشتروا منزلًا.

- فينالمون (أخيرًا)، كانت شقتهم في مدريد كريهة!

ابنتها الأولى، إيزابيل، التي تؤلف الموسيقى للبرامج التلفزيونية، كُلفت بتأليف الموسيقى لأول أفلامها الكبيرة. أما زوج إيزابيل، ألبرت، فهو الآن رئيس الطبَّاخين في مطعم مرموق في باريس.

تسألني:

- كنتِ تمتلكين مطعمًا؟ أظنك أخبرتني بهذا الأمر في رسالتك الإلكترونية.

- يعني، كان مطعم والديَّ. لطالما حلم أبي بامتلاك مطعم. ساعدته على إدارته. لكنني اضطررت لبيعه منذ بضع سنوات. بعد وفاة أمي وبعد أن أصبح بابا... غير قادر.

- يا إلهي، أنا آسفة.

- لا تتأسفي. فأنا لم أُخلق لعمل المطاعم.

- هكذا أظن. أنتِ فنانة.

كنت قد أخبرتها، بصورة عابرة في أول مكالمة بيننا عندما سألتني عما أفعله، أنني أحلم بالالتحاق بكلية الفنون ذات يوم.

- الحقيقة، أنا ما يمكن أن تُسميه **نسَّاخة**.

تنصت بانتباه وأنا أشرح لها أنني أعمل لحساب مؤسسة تقوم بإدارة بيانات عدد من كبريات الشركات.

- أكتب لهم الاستمارات، والمنشورات، والإيصالات، وقوائم العُملاء، والقوائم البريدية، هذا النوع من الأشياء. المهم أن تعرفي كيف تكتبين على الكمبيوتر. والراتب معقول.

تقول:

- مفهوم.

تفكر قليلًا ثم تقول:

- هل تجدينه مُمتعًا، هذا العمل؟

نمر بـ«رِد - وود سيتي» في طريقنا إلى الجنوب. أمد ذراعي من فوق حجرها وأشير من شباكها:

- هل ترين ذلك المبنى؟ ذاك العالي ذا اللافتة الزرقاء؟

- نعم؟

- لقد وُلدت هناك.

- آه. بون (جيد).

تُدير رقبتها لتواصل النظر ونحن نمر من أمامه.

- أنت محظوظة.

- كيف؟

- لأنكِ تعرفين من أين أتيت.

- أعتقد أنني لم أُفكر في الأمر كثيرًا من قبل.

- غريب، بالطبع لا. لكن من المهم أن تعرفي هذا، أن تعرفي جذورك. أن تعرفي أين بدأتِ كشخص. لولا ذلك لبدت حياتك غير حقيقية بالنسبة إليك. مثل لغز، **فو كمبرينيه** (أنت تفهمين). مثل أن تفوتك بداية قصة وأنت الآن في مُنتصفها، تحاولين أن تفهمي.

أتخيَّل أن هذا ما يشعر به بابا هذه الأيام. حياته فراغات تجعل منها لُغزًا. كل يوم قصة مُحيرة، لُغز يُجاهد ليحلَّه.

نظل صامتين لبضعة أميال.

أقول:

- ربما تسألين هل أجد عملي مُمتعًا؟ عُدت إلى البيت ذات يوم ووجدت المياه مفتوحة في مغسلة المطبخ. كان ثمة زجاج مكسور على الأرض، وموقد الغاز مفتوح. عندها عرفت أنني لا أستطيع أن أتركه وحده بعد ذلك. ولأنني لا أقدر على دفع راتب مرافق مقيم يرعاه، فقد بحثت عن عمل يُمكنني إنجازه من البيت. **أن يكون ممتعًا** ليس جزءًا من الموضوع.

- وكلية الفنون تستطيع أن تنتظر.

- يجب أن تنتظر.

أخشى أن تقول بعدها كم أن بابا محظوظ بكوني ابنته، لكن، لارتياحي وامتناني، تكتفي بأن تومئ برأسها، وعيناها تبحران مرورًا بلافتات الطريق السريع. الناس الآخرون، من جانبهم - وخصوصًا الأفغان - دائمًا ما يشيرون إلى حُسن حظ بابا، وكيف أنني نِعمة. يتحدثون عني بإعجاب. يجعلون مني قديسة؛ الابنة التي تخلَّت

بصورة بطولية عن حياة لامعة، وادعة ومتميزة، لكي تبقى في البيت وتعتني بوالدها. **بابا، ومن قبله ماما،** أتخيَّلهم يقولونها بأصوات عالية وتعاطف كبير. **كل تلك السنين من تمريضها. أي متاهة كانت تلك. والآن الأب. ليست حسناء، بالطبع، لكن كان لديها خطيب، ذلك الأمريكيُّ الذي يعمل في قطاع الطاقة الشمسية. كان في وسعها أن تتزوجه، لكنها لم تفعل. لأجلهما. تلك الأشياء التي ضحت بها. نعم، كل والد يجب أن يكون له ابنة مثل هذه.** إنهم يثنون على طبعي المرح. يتعجَّبون من شجاعتي ونُبلي كما يتعجَّب الناس لمرأى أولئك الذين يتجاوزون تشوهًا جسديًّا أو ربما عيبًا في النُّطق.

لكنني لا أتعرف على نفسي في تلك النسخة من القصة. على سبيل المثال، في بعض الصباحات أرى بابا جالسًا على حافة سريره، يُعاينني بنظرة دامعة، ينتظر بصبر نافد أن أضع الجورب في قدميه الجافتين المُبرقشتين، يُدمدم متذمِّرًا باسمي ويرسم تعبيرًا طفوليًّا على وجهه. يُجعِّد أنفه بطريقة تجعله يبدو مثل حيوان قارض مُخيف ورطب، وأمتعض منه عندما يصنع ذلك الوجه. أمتعض منه بسبب وضعه. أمتعض منه بسبب الحدود الضيِّقة التي تحيط بوجودي، لكونه السبب في أن أفضل سنيِّ حياتي تتسرَّب من بين يديَّ. ثمة أيام لا أريد فيها إلا أن أتحرر منه ومن ضيق خُلقه واحتياجه الدائم. أنا لست قديسة بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

أتجه إلى المخرج المؤدي إلى الشارع الثالث عشر. بعد بضعة أميال، أتوقف في مدخل بيتنا، في «بيفر كريك كورت»، وأُطفئ المحرك.

تنظر باري من النافذة إلى بيتنا المكوَّن من طابق واحد: باب المرآب بطلائه المُقشَّر، زخارف النافذة زيتية اللون، الأسدين الحجريين الرخيصين اللذين يقفان حارسين على جانبي الباب الأمامي - لم يطاوعني قلبي على التخلص منهما لأن بابا يُحبهما، مع أنني أشك في كونه سيُلاحظ. لقد عشنا في هذا البيت منذ عام ١٩٨٩، عندما كنت في السابعة، إذ استأجرناه أولًا، قبل أن يشتريه بابا من مالكه عام ١٩٩٣. تُوفِّيت أمي في هذا البيت، في صباح مُشمس عشية الكريسماس، في سرير مستشفى وضعتُه لها في غرفة الضيوف حيث قضت الأشهر الثلاثة الأخيرة من حياتها. طلبت مني أن أنقلها إلى تلك الغرفة لتُطل على المنظر من النافذة. قالت إنه يرفع من روحها المعنوية. تمددت على السرير، ساقاها مُتورِّمتان ورماديتان، وقضت أيامها في النظر من النافذة على الزقاق، الباحة الأمامية التي تطوِّقها أشجار قيقب يابانية كانت قد زرعتها قبل سنوات، وأحواض الزرع نجمية الشكل، ورقعة العشب التي يتخللها ممشى ضيق من الحصى، وسفوح التلال في البعيد واللون الذهبي الوافر العميق الذي تتحول إليه تلك التلال في منتصف النهار عندما تسطع عليها الشمس بأقصى بريقها.

تقول باري بهدوء:

- أنا متوترة جدًّا.

أقول:

- هذا مفهوم. لقد مرَّت ثمانية وخمسون عامًا.

تخفض بصرها إلى يديها المتشابكتين في حِجرها.

- لا أكاد أتذكر أي شيء عنه. ما أتذكَّره، ليس وجهه ولا صوته. فقط أن ثمة شيئًا طالما ظل مفقودًا في حياتي. شيئًا جميلًا. شيئًا... يا إلهي، لا أعرف ماذا أقول. هذا كل شيء.

أُومئ برأسي. أعرف أنه من غير المناسب أن أُخبرها كم أفهمها. أُوشك على أن أسألها إن كان قد سبق لها أن حظيت بأدنى فكرة عن وجودي.

تعبث بأطراف وشاحها المُنَسَّلة.

- هل تعتقدين أن ثمة احتمالًا أن يتذكَّرني؟

- هل تريدين الحقيقة؟

تتفحص وجهي.

- بالطبع، نعم.

- ربما كان من الأفضل له ألا يتذكَّرك.

أُفكر فيما قاله الدكتور بشيري، طبيب والديَّ منذ زمن طويل. قال إن بابا بحاجة إلى نسقٍ مُوحدٍ، نظامٍ، أقل قدرٍ من المفاجآت، **حياة فيها قدرة على التوقُّع.**

أفتح الباب.

- هل تسمحين بالانتظار في السيارة لدقيقة؟ سأُرسل صديقي إلى منزله، ثم يُمكنكِ مقابلة بابا.

تضع يديها على عينيها، ولا أريد الانتظار لأرى إن كانت ستشرع في البكاء.

* * *

عندما كنت في الحادية عشرة، شاركَت كل فصول الصف الخامس في مدرستي الابتدائية في رحلة ميدانية يتبعها مبيت في

متحف الأحياء المائية في «مونتيراري باي». وطوال الأسبوع حتى يوم الجمعة ذاك، لم يكن زملائي في الفصل يتحدثون إلا في هذا الموضوع، في المكتبة أو وَهُمْ يلعبون «المُربعات الأربعة» في الفُسحة، وكم سيكون الأمر مُمتعًا عندما يغلق المتحف أبوابه، إذ سيصبحون أحرارًا في الركض حول المعروضات، في بيجاماتهم، بين أسماك «أبو مطرقة»، و«الوطواط»، و«تنانين البحر»، و«الحبار». أخبرتنا مُدرِّستنا، السيدة «جيلسبي»، أن مناضد الطعام سوف تُنصب حول المتحف، وسيكون الطلاب أحرارًا في الاختيار بين ساندويتشات زبدة الفول السوداني بالجيلي وبين المعكرونة بالجبنة. قالت: **يُمكنكم تناول حلوى «البراوني» للتحلية أو آيس كريم الفانيليا**. سوف يدسُّ الطلاب أنفسهم في حقائب النوم تلك الليلة وينصتون إلى المُدرِّسين وهم يقرأون لهم حكايات قبل النوم، وسينامون بين أفراس البحر والسردين وأسماك «قرش النمر» التي تتزلق عبر الأوراق الطويلة للأعشاب البحرية المتأرجحة. بحلول يوم الخميس، كان الترقُّب في الفصل قد وصل ذروته. وحتى معتادو الشغب حرصوا على الالتزام التام خوفًا من أن تُكلفهم شقاوتهم عدم المشاركة في الرحلة إلى متحف الأحياء المائية.

بالنسبة إليَّ، كان الأمر يُشبه بعض الشيء مشاهدة فيلم مُثير بعد كتم الصوت. شعرت أنني بمنأى عن كل المرح، مُنعزلة عن المزاج الاحتفالي - مثلما كنت أشعر في كل كانون أول (ديسمبر) حين يعود زملاء فصلي إلى بيوتهم ليجدوا أشجار «تنُّوب دوجلاس»، وجوارب أعياد الميلاد مدلاة فوق المدافئ وأهرامات من الهدايا. قلت للسيدة جيلسبي إنني لن أذهب معهم. وعندما سألتني عن

السبب، قلت إن الرحلة الميدانية تأتي في مناسبة إسلامية. ولست متأكدة إن كانت قد صدقتني.

ليلة الرحلة، بقيت في البيت مع والديَّ، وشاهدنا حلقة من مسلسل «مردر شي روت» (جريمة كتبَتها). حاولت التركيز على الحلقة وألا أُفكر في الرحلة الميدانية، لكن عقلي أصر على الانجراف. تخيَّلت زملائي، في تلك اللحظة نفسها، في بيجاماتهم، والمصابيح اليدوية في أيديهم، وجباههم مضغوطة على زجاج حوض ثعبان البحر العملاق. شعرت بانقباض في صدري، وراوحت بثقلي على الأريكة. قذف بابا، وهو مُرتمٍ على الأريكة حبات فول سوداني محمص في فمه وقهقه على شيء قالته «أنجيلا لانسبري». وإلى جواره، لمحتُ ماما تتأملني بجدية، ووجهها مُكفهر، لكن عندما التقت أعيننا انبسطت ملامحها بسرعة وابتسمت - ابتسامة مختلَسة، خصوصية - وغصتُ أنا في أعماقي وأجبرت نفسي على رد ابتسامتها. تلك الليلة، حلمتُ بأنني كنت على الشاطئ، أقف حتى خصري في المحيط، ومياه بمختلف درجات الأخضر والأزرق، بلون اليشم، والياقوت، والزمرد، والفيروز، تهز ردفيَّ برفق. وعند قدميَّ تنزلق أسراب من السمك، وكأن المحيط كان متحفي المائي الخاص. كانت تحتك بأصابع قدمي وتُدغدغ ربلتي ساقيَّ ألفُ ومضة مُتلألئة من الضوء فوق رمال بيضاء.

في يوم الأحد ذاك، كان بابا قد أعد لي مفاجأة. أغلق المطعم ذلك اليوم - وهو شيء لم يفعله من قبل تقريبًا - وأخذني بالسيارة إلى متحف الأحياء المائية في مونتيراري. ظل بابا يتكلم بحماس طوال الطريق، عن المرح الذي ينتظرنا، وكم يتوق لرؤية مختلف

أسماك القرش على وجه التحديد، وماذا سنتناول على الغداء. وفيما كان يتحدث، تذكرت عندما كنت صغيرة وكان يأخذني إلى حديقة حيوانات الأطفال في «كيلي بارك» والحدائق اليابانية المجاورة لرؤية «الشبوط الياباني»، وكيف كنا نُعطي أسماء للأسماك، وكيف كنت أتشبث بيده وأُفكر بيني وبين نفسي أنني لن أحتاج طيلة حياتي إلى أي إنسان آخر.

في المتحف، رحت أتجوَّل بمرح بين المعروضات، وفعلت ما بوسعي للإجابة عن أسئلة بابا حول أنواع الأسماك المختلفة التي أعرفها. لكن المكان كان ساطعًا وصاخبًا بشكل زائد عن الحد، وكانت المعروضات المميزة مزدحمة للغاية. لم تكن تُشبه ما تخيَّلت الأمور عليه في ليلة الرحلة الميدانية. كانت مُكابدةً. وقد أجهدتني محاولة التظاهر بأنني أقضي وقتًا سعيدًا. شعرت بألم وشيك في بطني، وغادرنا بعد ساعة أو نحو ذلك من التسكُّع. وفي طريق عودتنا، ظل بابا ينظر إليَّ نظرات مكلومة وكأنه يوشك أن يقول شيئًا ما. شعرت بعينيه تضغطان عليَّ، فتظاهرت بالنوم.

العام التالي، في المدرسة الإعدادية، كانت البنات في سني يتزينَّ بظلال العيون ومُلمِّع الشفاه. كُن يذهبن إلى حفلات فرقة «بويز تو مِن» الموسيقية، وإلى حفلات الرقص المدرسية، وفي مواعيد غرامية جماعية إلى ملاهي «غريت أميركا»، حيث يصرخن في أثناء سقطات وانعطافات قطار الرُّعب. حاولت زميلاتي في الفصل الالتحاق بفرقة كُرة السلة أو فرقة التشجيع. والفتاة التي كانت تجلس خلفي في دروس اللغة الإسبانية، وهي فتاة شاحبة البشرة مُغطاة بالنمش، تقدمت لفريق السباحة، واقترحَت بصورة

عابرة ذات يوم، ونحن نجمع أغراضنا بعد الجرس، أن أحاول أنا أيضًا. لم تكن تفهم. كان والداي سيموتان من الحرج إن أنا ارتديت ثوب سباحة على الملأ. لا أقول إنني كنت أريد ذلك. فقد كان إحساسي بجسدي رهيبًا أنا أيضًا. كنت نحيلة من فوق الخصر ومُكتنزة جدًّا من أسفل على نحو غير مُتناسق، وكأن الجاذبية قد سحبت ثقلي إلى نصفي السفلي. كنت أبدو وكأنني تشكَّلت بيد طفل يلعب إحدى تلك الألعاب التي تخلط فيها أجزاء الجسد المختلفة وتوافق بينها أو، بالأحرى، تعكسها بأكثر من طريقة حتى يضحك الجميع لمنظرها. قالت أمي إن لي **عظامًا قوية**. قالت إن أمها كانت لها البنية نفسها. وأخيرًا، توقفَت، بعد أن تبينَت، فيما أظن، أن **كبيرة العظام** صفة لا تحب البنت أن تُنادى بها.

مع ذلك، فقد تكلمتُ مع بابا ليسمح لي بمحاولة الانضمام إلى فريق الكُرة الطائرة، لكنه أخذني بين ذراعيه وأمسك رأسي بين يديه برفق. وقدم حُجته: مَن سيأخذني إلى التمرين؟ مَن سيوصلني إلى المباريات؟ آه، كنت **أتمنى لو أن لدينا الرفاهية يا باري، مثل آباء أصدقائك، لكن أنا وأمك علينا أن نكسب رزقنا. لن أسمح بأن نعود ثانية إلى الإعانة الاجتماعية. هل تفهمين يا حبيبتي. لن أسمح بذلك.**

وعلى الرغم من حاجته إلى كسب الرزق، كان بابا يجد الوقت ليوصلني إلى دروس اللغة الفارسية في «كامبل». فبعد ظهر كل ثلاثاء، بعد المدرسة، كنت أجلس في فصل اللغة الفارسية، ومثل سمكة تُجبر على السباحة عكس التيار، أحاول أن أقود قلمي عكس طبيعة يدي، من اليمين إلى اليسار. توسلت إلى بابا لكي أتوقف عن

دروس الفارسية، لكنه رفض. قال إنني سأُقدِّر فيما بعد الهدية التي يمنحها لي. قال إن الثقافة لو كانت بيتًا، فإن اللغة هي مفتاح الباب الأمامي لهذا البيت، ولكل ما في داخله من غرف. قال إنه من دونها ينتهي بك الأمر مُنفلتًا، بلا ديار ولا هوية شرعية.

ثم كانت هناك الآحاد، حيث أضع طرحة قطنية بيضاء، ويوصلني هو إلى المسجد في هايوارد من أجل دروس القرآن. كانت القاعة التي ندرس فيها - أنا ودستة من الفتيات الأفغانيات - صغيرة، دون مكيف هواء، وتُشَمُّ منها رائحة البياضات التي لم تُغسل. النوافذ كانت ضيقة وعالية، مثلما تبدو نوافذ الزنازين في الأفلام، والسيدة التي تُعلِّمنا هي زوجة بقَّال في «فريمونت». كنت أُحبها أكثر عندما تحكي لنا قصصًا عن حياة النبي، أجدها شيقة - كيف عاش طفولته في الصحراء، وكيف ظهر له الملاك جبريل في الكهف وأمره أن يقرأ آيات القرآن، وكيف كان كل مَن يقابله يُفتن بوجهه الطَّيب المُشرق. لكنها كانت تقضي جُلَّ الوقت في سرد قائمة طويلة من التعليمات، تُحذرنا من كل الأشياء التي يجب أن نتجنَّبها بأي ثمن كفتيات مُسلمات عفيفات وإلا أفسدتنا الثقافة الغربية: الأولاد - أولًا وقبل كل شيء، بطبيعة الحال - ولكن أيضًا موسيقى الراب، ومادونا، ومسلسل «ميلروز بليس» (سكن ميلروز)، والبنطلونات القصيرة، والرقص، والسباحة أمام الناس، وتشجيع الفرق الرياضية، والمشروبات الكحولية، ولحم الخنزير، والببروني، والبيرغر غير الحلال، وطائفة واسعة من الأشياء الأخرى. أجلس على الأرض، أتعرق من الحرارة، وقدماي تنملان، مُتمنية لو أستطيع رفع الطرحة من على رأسي، لكن، بالطبع، لا تستطيع أن تفعل ذلك في مسجد.

أتطلع إلى النوافذ، لكنها لم تكن تُظهر إلا شرائح ضيقة من السماء. كنت أتوق إلى لحظة خروجي من المسجد، عندما يضرب الهواء المُنعش وجهي وأشعر دائمًا بانبساط في صدري، الارتياح التالي لفك عُقدة مُزعجة.

لكن حتى يحين الموعد، كان مهربي الوحيد هو أن أرخي اللجام في عقلي. من وقت إلى آخر، كنت أجد نفسي أفكر في «جيريمي وارويك»، زميلي في فصل الرياضيات. جيرمي كانت له عينان زرقاوان بلون البحر، وشعر مُشعث على الطريقة الإفريقية مع بشرته البيضاء. كان كتومًا ومُتأملًا، يعزف على الجيتار في فرقة «جراج روك» - في برنامج المواهب السنوي بالمدرسة. لقد عزفت الفرقة نسخة صاخبة من أغنية «هاوس أوف ذا رايزينج صن» (بيت الشمس المشرقة). في الفصل، كنت أجلس خلفه بأربعة صفوف إلى اليسار. أحيانًا أتصورنا نتبادل القُبلات، يداه تحيطان بمؤخرة رقبتي، ووجهه قريب من وجهي حتى إنه يُخفي العالم بأكمله. وكان إحساس يسري في جسدي وكأن ريشة دافئة ترتعش برقة على بطني، وأطرافي. بالطبع لم يكن ذلك مُمكنًا. لم يكن في الإمكان قيام علاقة بيننا أنا وجيريمي. فإن كان لديه ولو أدنى إحساس بوجودي، فهو لم يلمِّح لي بذلك قَطُّ. وهو أمرٌ لا بأس به. بهذه الطريقة، كان بإمكاني التظاهر بأن العائق الوحيد الذي يقف بيننا أنني لا أُعجبه.

كنت أعمل في الصيف في مطعم والدي. وأنا أصغر سنًّا، كنت أحب مسح الطاولات، والمساعدة في ترتيب الصحون وأدوات المائدة، أن أطوي المناديل الورقية، وأضع زهرة غيربيرا حمراء في

المزهريات المُدورة الصغيرة في منتصف كل طاولة. أتظاهر بأنني لا غنى عني في هذا المشروع العائلي، أن المطعم سوف ينهار من دوني أنا التي تحرص على ملء كل أوعية الملح والفلفل.

عندما وصلت إلى المدرسة الثانوية، كانت الأيام في مطعم «كباب إيب» تمر ثقيلة، طويلة وساخنة، وقد خبا قدْرٌ كبيرٌ من البريق الذي كنت أراه في الأشياء داخل المطعم في طفولتي، ثلاجة الصودا القديمة في الزاوية بطنينها، مفارش الطاولات المصنوعة من الفينيل، الفناجين البلاستيكية المبقعة، الأسماء الرخيصة للأصناف في القوائم المغلَّفة - كباب القافلة، بيلاف ممر خيبر، دجاج طريق الحرير - والمُلصق ذو الإطار الرديء لفتاة أفغانية من مجلة «ناشيونال جيوغرافيك»، تلك الفتاة ذات العينين المُميزتين - وكأنهم أصدروا مرسومًا لكل مطعم أفغاني بأن يُعلق عينيها لتحدق من على الجدار. وبجوار المُلصق، علق بابا لوحة زيتية كنت قد رسمتها وأنا في الصف السابع لمنارات مسجد هيرات العالية. أتذكر شحنة الفخر والزهو التي شعرت بها عندما علَّقها بابا، وأنا أرى الزبائن يأكلون كباب الضأن تحت عملي الفني.

في ساعة الغداء، بينما نهرع أنا وماما ذهابًا وإيابًا ككُرة البينج بونج من الدخان المُفعم بالتوابل في المطبخ إلى الطاولات حيث نخدم موظفي المدينة ورجال الشرطة، كان بابا يجلس - بابا وقميصه الأبيض المُبقَّع بالدهون، وخصلة كثيفة من شعر صدره الأبيض تنسكب من الزر العلوي المفتوح، وذراعاه المُشعِرتان الغليظتان. بابا مُشرق الوجه، يُلوِّح بمرح لكل زبون يدخل المطعم: **أهلًا يا سيدي! أهلًا يا سيدتي! مرحبًا بكم في مطعم «كباب إيب».**

أنا إيب. هل تتكرَّمون وتخبروني بطلبكم من فضلكم؟ كنت أنكمش حرجًا لعدم إدراكه أنه يبدو مثل التابع الشرق أوسطي الأحمق في مسلسل «سِت كوم» رديء. ثم، مع كل وجبة أُقدِّمها، كان هناك هذا العرض الجانبي لبابا وهو يقرع الجرس النحاسي القديم. بدأ الأمر كمزحة، فيما أظن، هذا الجرس، الذي كان بابا قد علَّقه بخطاف إلى الحائط خلف منضدة الخزانة. والآن كلما وصل طلبٌ إلى إحدى الطاولات، كان يُحيِّي بقرع حماسيٍّ من جرسه النحاسي. كان الزبائن المُداومون معتادين عليه - ولم يعودوا يسمعونه أصلًا - أما الزبائن الجُدد فكانوا يُرجعون ذلك غالبًا إلى السحر العجائبي للمكان، وإن ورَدَت بعض الشكاوى من وقت إلى آخر.

قال بابا ذات ليلة: **ليس مطلوبًا منك قرع الجرس بعد اليوم.** كان ذلك في فصل الربيع من سنتي الأخيرة في المدرسة الثانوية. كنا في السيارة أمام المطعم، بعد أن أغلقنا، ننتظر أمي، التي نسيت حبوب «الأنتاسيد» الخاصة بها في الداخل، وكان عليها أن تعود مُسرعة لتجلبها. كان بابا مُتجهِّم الوجه، ومزاجه عَكرًا من أول اليوم. بدأ رذاذ خفيف يتساقط فوق المول التجاري المُسطَّح. كان الوقت مُتأخرًا، وساحة الانتظار فارغة، إلا من سيارتين مُتوقفتين عند ممر خدمة السيارات الخاص بمطعم كنتاكي وشاحنة مصفوفة أمام مغسلة، وبداخلها شابان، والدخان يتصاعد من شباكيهما.

قلت:

- **كان الأمر مُسليًا أكثر عندما لم أكن مجبرة على ذلك.**
- **هكذا كان حال كل شيء، فيما أظن.**

أطلق تنهيدة ثقيلة.

تذكرت كم أثار الأمر حماستي وأنا صغيرة، عندما كان بابا يرفعني عاليًا من إبطيَّ لأقرع الجرس، وعندما يُنزلني ثانية كان وجهي يشع بالسعادة والفخر.

شغَّل بابا جهاز التدفئة، وعقد ذراعيه.

- **الطريق طويل إلى بلتيمور.**

قلت ببشاشة:

- **تستطيع أن تطير لزيارتي في أي وقت.**

- **أطير في أي وقت؟**

كررها بنوع من التهكُّم:

- **أنا أكسب رزقي من طهي الكباب يا باري.**

- **إذًا، سأحضر أنا لزيارتك.**

أدار بابا وجهه نحوي، وحدجني بنظرة مُضطربة. كانت كآبته أشبه بالظلمة التي تضغط نفسها على شبابيك السيارة.

كل يوم وعلى مدار شهر ظللت أتفقد صندوقنا البريدي، وقلبي يركب فوق أمواج من الأمل كلما توقفت شاحنة التوصيل أمام بيتنا. آخذ البريد إلى الداخل، أغمض عينيَّ، أفكر: **ربما يكون هذا.** وكنت أفتح عيني وأُغربل الفواتير والكوبونات وأوراق اليانصيب. ثم، يوم الثلاثاء من الأسبوع السابق، مزَّقت ظرفًا فوجدت الكلمات التي كنت أنتظرها: **يُسعدنا أن نبلغك....**

قفزت. صرخت - عواء حقيقي يمزق الحلق جعل عينيَّ تدمعان. وعلى الفور تقريبًا، قفزَت صورة إلى رأسي: ليلة افتتاح معرض، فستاني بسيط، وأسود، وأنيق، وأنا مُحاطة برعاة الفنون

والنُّقاد ذوي الجباه المُقطبة، أبتسم وأجيب عن أسئلتهم، بينما تتلكأ مجموعات من المُعجبين أمام لوحاتي الكانافاه، والسقاة بقفازات بيضاء يطوفون في أرجاء المعرض يصبون النبيذ، ويُقدِّمون قِطعًا صغيرة من السلمون مع الشَّبَت وأعواد الهليون ملفوفة في معجنات منفوشة. أصابتني واحدة من نوبات النشوة المفاجئة، من ذلك النوع الذي يجعلك تريد أن تحضن الغرباء وترقص معهم في دوائر واسعة.

قال بابا:

- أنا قلق على أمكِ.

- سأتصل كل ليلة. وعد. تعرف أنني سأفعل.

أومأ بابا برأسه. تساقطت أوراق أشجار القيقب بجوار مدخل ساحة الانتظار مع هبَّة ريح مفاجئة.

قال:

- هل فكرت ثانية، في الأمر الذي ناقشناه؟

- تقصد المعهد المتوسط؟

- سنة واحدة، وربما سنتان. فقط لتُعطيها فرصة للتعوُّد على الفكرة. ثم يُمكنك إعادة التقديم.

انتابتني رجفة غضب مفاجئة:

- بابا، هؤلاء الناس راجعوا العلامات التي حصَّلتها في الامتحان وكذلك تخطيطاتي، ثم فحصوا أوراقي، وفكروا مليًّا في أعمالي الفنية، ولم ينتهوا فقط لقبولي وإنما ليعرضوا عليَّ منحة دراسية. إنه واحد من أفضل معاهد الفن في البلاد. إنها ليست كلية ترفضها. أنت لا تحظى بفرصة ثانية مثل هذه.

قال وهو يعدل ظهر مقعده:

- هذا صحيح.

كوَّر يديه ونفخ فيهما هواء دافئًا.

- أنا أفهم بالطبع. بالطبع. أنا سعيد لأجلِك.

كنت أرى الصراعَ الذي يعتمل داخله في ملامح وجهه، والخوفَ أيضًا. ليس فقط خوفًا عليَّ وما قد يحدث لي على بُعد ثلاثة آلاف ميل من البيت. وإنما الخوف منِّي، من فقداني، من القدرة التي كنت أمتلكها، عبر غيابي، على جعله تعيسًا، على أن أمزق إربًا قلبَه المفتوح، الضعيف، إذا قررتُ ذلك، ككلب دوبرمان يمزق قطة صغيرة.

وجدت نفسي أُفكِّر في أخته. في ذلك الوقت، كانت صلتي بباري - التي كان وجودها ذات مرَّة يضرب في أعماقي - قد خبت منذ زمن طويل. كنت أُفكِّر فيها بصورة مُتقطعة. ومع مر السنين، كبرت عنها، كما كبرتُ عن بيجامتي المُفضَّلة ودُمى حيواناتي المحشوة التي كنت أتشبث بها من قبل. لكنني وقتها فكرت فيها مُجددًا وفي الصلات التي تربط بيننا. إذا كان ما وقع لها هو أشبه بموجة تكسَّرت بعيدًا جدًّا عن الشاطئ، فإن ارتداد تلك الموجة الآن هو الذي يتجمَّع كبركة حول كاحليَّ، ثم ينحسر عن قدميَّ.

تنحنح بابا ونظر من النافذة إلى السماء المُظلمة والقمر المُغطَّى بالسُّحب، عيناه مُبللتان بالمشاعر.

- كل شيء سوف يُذكرني بكِ.

كانت الطريقة الرقيقة، المشوبة بمسحة من فزع، التي نطق بها هذه الكلمات، هي التي جعلتني أعرف أن أبي كان إنسانًا جريحًا، أن

حبه لي كان حقيقيًّا، وشاسعًا، وباقيًا مثل السماء، وأنه سيظل جاثمًا على صدره. كان حُبًّا من النوع الذي، عاجلًا أم آجلًا، يضعك في ركن أمام خيار: إما أن تُمزق قيودك وتتحرر، وإما أن تبقى وتتحمَّل قسوته حتى وهو يعصرك ويجعل منك شيئًا أصغر من نفسك.

مددت ذراعي من المقعد الخلفي المُظلم ولمست وجهه. أراح خده على كفي.

همهم قائلًا:

- **ما الذي أخَّرها هكذا؟**

قلت:

- **إنها تتأكد من غلق الأبواب.**

شعرتُ بالتعب. تابعتُ أمي وهي تهرع إلى السيارة. كان الرذاذ قد تحوَّل إلى وابل غزير.

بعدها بشهر، قبل أسبوعين من الموعد المُقرر لطيراني شرقًا إلى الجامعة، زارت أمي الدكتور بشيري لتُخبره أن حبوب الأنتاسيد لم تساعدها على تخفيف آلام معدتها. أرسلها لإجراء فحص بالموجات فوق الصوتية. وجدوا ورمًا بحجم الجوزة في مبيضها الأيسر.

* * *

- بابا؟

إنه ممدد على كرسيه، يجلس بلا حراك، منحنيًا بتراخٍ إلى الأمام. يرتدي بنطلونه الرياضي القطني، والجزء الأسفل من ساقيه مُغطًّى بشالٍ من الصوف عليه مربعات. يرتدي سويترٍ كنت قد

اشتريته له في العام الماضي على قميص من الفانيللا أحكم إغلاقه حتى الزر العلوي. هكذا يصر على ارتداء قمصانه الآن، الياقة مُزرَّرة، ما يجعله يبدو طفوليًّا وهشًّا في آن، مُستسلمًا لشيخوخته. يبدو وجهه منتفخًا قليلًا اليوم، وخصلات من شعره الأبيض تنسكب شعثاء على جبهته. إنه يشاهد «من سيربح المليون؟» وعلى وجهه تعبير ذاهل مُتجهِّم. عندما أناديه، تتلكأ نظرته على الشاشة، وكأنه لم يسمعني، قبل أن يتطلَّع إليَّ باستياء. لديه بثرة صغيرة تنمو على الجفن السفلي لعينه اليسرى. يحتاج إلى حلاقة.

- بابا، هل يمكنني أن أكتم صوت التلفزيون للحظة؟

يقول:

- أنا أُشاهد.

- أعرف، لكن لديك زائرًا.

سبق وأخبرته بأمر زيارة باري وحدتي في اليوم السابق، ومرَّة ثانية هذا الصباح. لكنني لا أسأله إن كان يتذكر. إنه شيء تعلَّمته منذ وقت طويل؛ ألَّا أضعه موضع فحص، لأن ذلك يحرجه ويجعله دفاعيًّا، وعدوانيًّا أحيانًا.

آخذ جهاز التحكم من على ذراع الكرسي وأُغلق الصوت، وأنا أُهيِّئ نفسي لفورة غضب. أول مرَّة انفعل في فورة غضب، كنت مُقتنعة أنها تمثيلية، حركة يتظاهر بها. لارتياحي، يكتفي بابا بالاحتجاج بتنهيدة طويلة وزفرة من أنفه.

أُشير إلى باري، التي تتلكأ الآن في الردهة عند مدخل غرفة المعيشة. ببطء، تتقدَّم في اتجاهنا، وأسحب لها كرسيًّا أضعه

بالقرب من كرسي بابا. إنها كتلة من الإثارة المتوترة. أرى ذلك. تجلس مُنتصبة، شاحبة، تميل إلى الأمام على حافة الكرسي، ركبتاها مضغوطتان معًا، ويداها متشابكتان، وابتسامتها مزمومة جدًّا حتى إن شفتيها تتحولان إلى اللون الأبيض. عيناها مُثبتتان على بابا، وكأنها لا تملك سوى لحظات معه وتحاول حفر وجهه في ذاكرتها.

- بابا، هذه هي الصديقة التي كلَّمتك عنها.

يُعاين المرأة ذات الشعر الرمادي إلى جواره. لديه طريقة في النظر إلى الناس هذه الأيام تسبب التوتر لهم، حتى عندما ينظر إليهم مباشرة، لا تفصح نظراته عن شيء. يبدو مشتتًا، منغلقًا، كما لو أنه يقصد النظر إلى مكان آخر ووقعت عيناه عليهم مصادفة.

تتنحنح باري. مع ذلك، يرتعش صوتها عندما تتكلم:

- أهلًا يا عبد الله. اسمي باري. أمر رائع أن أراك.

يُومئ برأسه ببطء. أستطيع أن أرى على وجه الخصوص الشك والارتباك يلوحان على صفحة وجهه كموجات من الانقباضات العضلية. تتحول عيناه من وجهي إلى وجه باري. يفتح فمه في نصف ابتسامة مشدودة كما يفعل عندما يفكر أن حيلة تُلعب عليه.

يقول أخيرًا:

- لديكِ لكنة.

أقول:

- إنها تعيش في فرنسا. وعليك أن تتحدث بالانجليزية يا بابا. فهي لا تفهم الفارسية.

يُومئ بابا برأسه. يقول لباري:

- إذًا، تعيشين في لندن؟

- بابا!

- ماذا؟

يستدير نحوي بحدة. ثم يفهم ويضحك ضحكة صغيرة مُحرَجة قبل أن يتحول عن الفارسية.

- هل تعيشين في لندن؟

تقول باري:

- في باريس، في الحقيقة. أعيش في شقة صغيرة في باريس.

لا ترفع عينيها عنه.

- لطالما خططت أن أصطحب زوجتي إلى باريس، سلطانة - كان هذا اسمها، يرحمها الله. كانت دائمًا تقول: **يا عبد الله، خُذني إلى باريس. متى ستأخذني إلى باريس؟**

في الحقيقة، لم تكن أمي تحب السفر كثيرًا. لم تفهم لماذا تضحي بالراحة والأُلفة في بيتها من أجل محنة الطيران وحزم الأمتعة. لم تكن تمتلك حس المغامرة في الطعام - فكرتها عن الطعام الغرائبي مقصورة على «الدجاج بالبرتقال» في مطعم «التيك أوي» الصيني في شارع تايلور. وأمر عجيب أن يستدعيها بابا، من حين إلى آخر، بهذا التحديد الخارق - مُتذكرًا، على سبيل المثال، أنها كانت تملِّح الطعام بضرب فتات الملح عن كف يدها، أو عادتها في مقاطعة الناس في الهاتف بينما لا تفعل ذلك أبدًا وجهًا لوجه - وكيف، في أحيان أخرى، تجافيه الدقة على هذا النحو العنيف. أتخيَّل أمي وهي تخبو أمامه، وجهها يتراجع إلى ظلال، وذكراها تتقلص مع كل يوم يمر، تتسرب مثل رمال من قبضة مطبقة. إنها

تصبح مجرد خطوط خارجية شبحية، صدفة خاوية، يشعر أنه مُجبر على ملئها بتفاصيل وهمية وسمات شخصية مفبركة، كما لو كانت الذكريات الكاذبة أفضل من عدم وجود أي ذكريات على الإطلاق.

تقول باري:

- حسنًا، إنها مدينة جميلة.

- مع ذلك، فربما آخذها. لكن عندها السرطان هذه الأيام. إنه من النوع النسائي - ماذا تسمونه؟ - الـ...

أقول:

- سرطان المبيض.

تومئ باري برأسها، وترفُّ نظرتها إلى ناحيتي، ثم تعود إلى بابا.

يقول بابا:

- أكثر ما تريده هو صعود برج إيفل. هل رأيتِه؟

تضحك باري وحدتي.

- برج إيفل؟ نعم. كل يوم. لا أستطيع أن أتجنبه في الحقيقة.

- هل صعدتِه؟ إلى القمة؟

- صعدته، نعم. المنظر جميل من أعلى. لكنني أخاف من الأماكن المرتفعة، لذا فالأمر لا يُشعرني دائمًا بالارتياح. لكن في القمة، في اليوم المشمس اللطيف، تستطيع أن ترى لأكثر من ستين كيلومترًا. بالطبع في كثير من الأيام لا يكون الجو لطيفًا ولا مُشمسًا لهذه الدرجة.

يصدر بابا آهة. تتشجع باري، وتكمل الكلام عن البرج، كم سنة استغرق بناؤه، كيف أنه لم يكن من المُفترض أن يبقى في باريس

بعد «معرض العالم» عام ١٨٨٩. لكنها لا تستطيع قراءة عيني بابا مثلما أستطيع أنا. لقد انبسطت قسماته. لا تدرك أنها فقدته، أن أفكاره تحوَّلت بالفعل إلى مسار آخر مثل أوراق شجر عصفت بها الريح. تقترب منه باري وهي جالسةٌ على كرسيها. تقول:

- هل كنت تعرف يا عبد الله أنهم مُضطرون لطلاء البُرج كل سبع سنوات؟

يقول بابا:

- قلتِ ما اسمك؟

- باري.

- نفس اسم ابنتي.

- نعم، أعرف.

يقول بابا:

- لديكما الاسم نفسه. الاسم نفسه. هذا هو الحال.

يسعل، ويمسح بشرود دمعة صغيرة في الذراع الجلدية لكرسيه المتمدد.

- عبد الله، هل يمكن أن أسألك سؤالًا؟

يهز بابا كتفيه.

تتطلع باري إليَّ وكأنما تطلب مني الإذن. أُومئ برأسي أن تواصل. تنحني إلى الأمام في كرسيها.

- كيف قررت أن تختار هذا الاسم لابنتك؟

يشيح بابا ببصره إلى النافذة، وإظفره ما تزال تكشط الدمعة وتمسحها في ذراع كرسيه.

- هل تتذكر يا عبد الله؟ لماذا هذا الاسم؟

يهز رأسه. بيده المضمومة يشد سُترته ويقفلها حتى الحلق. لا تكاد شفتاه تتحركان وهو يشرع في طنين هامس، همهمة إيقاعية يلجأ إليها دائمًا عندما ينهبه القلق ويعجز عن العثور على إجابة، عندما يكون كل شيء قد تشوَّش وأصبح غامضًا وتغمره دفقة من الأفكار غير المترابطة، وهو ينتظر يائسًا أن تنقشع الغيمة.

تقول باري:

- عبد الله؟ ما هذا؟

يهمهم:

- لا شيء.

- لا، هذه الأغنية التي تغنيها - ما هي؟

يستدير إليَّ، مغلوبًا على أمره. إنه لا يعرف.

أقول:

- إنها تُشبه أغنية أطفال. هل تتذكر يا بابا؟ لقد قلت إنكَ تعلَّمتها عندما كنت صبيًّا. قلت إنكَ تعلَّمتها من أمك.

- حسنًا.

تقول باري بإلحاح، وبصوت مُتهدج:

- هل يمكنك أن تُغنيها لي؟ من فضلك يا عبد الله، هل تُغنيها؟

يُطأطئ رأسه ويهزها ببطء.

أقول برقة، وأنا أسند رأسي على كتفه ناتئة العظام:

- هيا يا بابا. لا بأس.

مُترددًا، وبصوت عالٍ مُرتعش ومن دون أن يرفع رأسه، يُغني بابا البيت نفسه عدة مرَّات:

رأيت جنية صغيرة حزينة

تحت ظلال شجرة الورقاء

أقول لباري:

- كان يقول إن ثمة بيتًا آخر، لكنه نسيه.

تُطلق باري وحدتي ضحكة مُفاجئة تتردد مثل صيحة حلقية عميقة، وتغطي فمها. تهمس قائلة:

- آه، **مون ديو** (يا إلهي).

ترفع يديها، وبالفارسية تغني:

أعرف جنية صغيرة حزينة

عصفت بها الريح في ليلة ليلاء

تظهر طيات على جبهة بابا. للحظة عابرة، أظنني ألمح التماعة صغيرة في عينيه، لكنها سرعان ما تخبو، ويعود وجهه هادئًا مرَّة أخرى. يهز رأسه.

- لا. لا، لا أظنها كانت هكذا على الإطلاق.

تقول باري:

- آه يا عبد الله...

مُبتسمة، وبعينين دامعتين، تتناول باري يدي بابا وتمسك بهما في يديها. تُقبِّل ظهر كل يد وتضغط كفيه على خدَّيها. يبتسم بابا، وقد راحت الدموع تتجمَّع في بركة في عينيه هو الآخر. ترفع باري رأسها، تطرف لتسقط دموع سعادة، وأرى أنها تظن أنها قد اخترقت الحصون، أنها استدعت أخاها الضائع بتلك الأنشودة السحرية مثل جنيٍّ في حكاية. تظن أنه يراها بوضوح الآن. لكنها سرعان ما تُدرك

أن تلك مجرد ردة فعل، استجابة للمستها الدافئة وإظهار محبتها. إنها مجرد غريزة حيوانية، لا أكثر. هذا أمر أعرفه بوضوح مُؤلم.

* * *

قبل بضعة أشهر من اليوم الذي أعطاني فيه الدكتور بشيري رقم هاتف إحدى دور المُسنين، انطلقنا أنا وأمي إلى رحلة في جبال «سانتا كروز»، وأقمنا في فندق في عطلة نهاية الأسبوع. أمي لم تكن تحب الرحلات الطويلة، لكننا كنا نذهب في رحلات قصيرة من حين إلى آخر، أنا وهي، قبل أن يشتد عليها المرض. كان بابا يعتني بالمطعم، وأقود أنا السيارة إلى بوديجا باي، أو ساوساليتو، أو سان فرانسيسكو، حيث نُقيم دائمًا في فندق بالقرب من «يونيون سكوير». كنا نستقر في غرفتنا ونطلب خدمة الغرفة، نشاهد أفلامًا بحسب الطلب. بعدها، كنا ننزل إلى «رصيف السُّفن» - كانت ماما تنجذب لكل الفخاخ التي تُنصب للسواح - ونشتري الجيلاتي، ونشاهد كلاب البحر وهي تقفز إلى أعلى وأسفل في الماء بالقرب من الرصيف. كنا نرمي العملات في الحقائب المفتوحة بجوار عازفي الجيتار في الشوارع وفي الحقائب التي يُعلِّقها الفنانون الإيمائيون على ظهورهم، أولئك الرجال الذين يطلون أنفسهم بالسبراي ويتحركون مثل الروبوتات. كنا دائمًا ما نقوم بزيارة لمتحف الفن الحديث، فأروح، وذراعاي تحيطان بكتفيها، أُطلعها على أعمال «ريفيرا»، و«كالو»، و«ماتيس»، و«بولوك». أو نذهب إلى حفلة صباحية، حيث إن أمي كانت تحب تلك الحفلات، لنشاهد فيلمين أو ثلاثة، ونخرج في الظلام، أعيننا غائمة، وآذاننا تطن، ورائحة البوشار تفوح من أصابعنا.

كانت الأمور أسهل مع أمي - طالما كانت كذلك - وأقل تعقيدًا، وأقل مراوغة. لم يكن عليَّ أن أظل يقظة بهذا القدر، أن أُراقب ما أقوله طوال الوقت خوفًا من أن أجرحها. كان بقائي معها وحدنا في عطلات نهاية الأسبوع تلك أشبه بالتكوُّر داخل سحابة ناعمة، وعلى مدار يومين كانت كل همومي تتساقط، بلا تبعات، ألف ميل إلى أسفل.

كنا نحتفل بنهاية جولة أخرى من العلاج الكيماوي - والتي تبيَن أنها آخر جولاتها. كان الفندق جميلًا، مكانًا مُنعزلًا. لديهم مُنتجع صحي، ومركز للياقة البدنية، وصالة ألعاب بها شاشة تلفزيونية كبيرة الحجم، وطاولة بلياردو. كانت غرفتنا كابينة لها سقيفة خشبية نطل منها على حمَّام السباحة، والمطعم، وغابة أشجار الخشب الأحمر التي تنتصب عاليًا فتُناطح السحاب. بعض الأشجار كانت قريبة جدًّا، حتى إنك ترى التباينات الدقيقة في درجة اللون على فراء سنجاب يمرق مُتسلقًا جذعها. في أول صباحاتنا هناك، استيقظت أمي وقالت: **بسرعة يا باري، يجب أن تري هذا**. كان ثمة غزالة تقضم أوراق شجيرة أمام النافذة.

كنت أدفع كرسيها المتحرك في الحدائق. تقول: **أنا منظرٌ يُشاهده الناس**. أُوقفها بجوار النافورة وأجلس على مقعد مستطيل بجانبها، الشمس تُدفئ وجهينا، ونظل نراقب طيور الطنان وهي تمرق بين الأزهار حتى تروح هي في النوم، ثم أدفعها لنعود إلى كابينتنا.

في عصر أيام الآحاد، كنا نتناول الشاي مع الكرواسون في الشرفة خارج المطعم الذي كان عبارة عن صالة سقفها على شكل

برج مستدق، بها رفوف كتب، ورسمٌ لشبكة صيد الأحلام على أحد جدرانها، وفرن حجري حقيقي. وفي الأسفل، كان هناك رجلٌ بوجه درويش وفتاة بشعر أشقر خفيف يلعبان مباراة بينج بونج مُملة.

قالت ماما:

- علينا أن نفعل شيئًا بشأن هذين الحاجبين.

كانت تضع معطفًا شتويًّا فوق سترة وطاقية البيني الصغيرة الصوفية الكستنائية التي كانت قد حاكتها لنفسها قبل عام ونصف، عندما بدأت كل تلك المهرجانات، على حد تعبيرها.

قلت:

- سأرسمهما لكِ من جديد.

- إذن، اجعليهما مُثيرين.

- مُثيرين مثل إليزابيث تايلور في فيلم «كليوباترا»؟

ابتسمت بوهن:

- لمَ لا؟

تناولت رشفة صغيرة من الشاي. ابتسامتها أبرزت كل الخطوط الجديدة في وجهها.

- عندما قابلتُ عبد الله، كنت أبيع الملابس على الرصيف في بيشاور. قال لي إن حاجبيَّ جميلان.

وضع لاعبا البينج بونج المضربين. كانا الآن يستندان على السور الخشبي، يتقاسمان سيجارة، يتطلَّعان إلى السماء التي كانت ساطعة وصافية إلا من بعض نسائل السحب. كان للفتاة ذراعان طويلتان نحيلتان.

قلت:

- قرأت في الصحيفة أن ثمة معرضًا للفنون والمنتجات اليدوية في كابيتولا اليوم. إذا كانت لديك رغبة، فربما نذهب بالسيارة، نلقي نظرة. يمكننا حتى أن نتناول العشاء هناك، إذا أحببتِ.

- باري؟

- نعم.

- أريد أن أُخبرك بشيء.

- حسنًا.

قالت أمي:

- عبد الله عنده أخ في باكستان. أخ غير شقيق.

استدرت إليها بحدة.

- اسمه إقبال. عنده أبناء، وأحفاد أيضًا. يعيش في مخيم للاجئين قرب بيشاور.

وضعتُ فنجاني، وشرعت أتكلم، لكنها أسكتتني.

- هأنذا أُخبركِ، أليس كذلك؟ هذا هو المهم. أبوكِ لديه أسبابه. أنا متأكدة أنكِ تستطيعين اكتشافها، أعطي الأمر بعض الوقت. الشيء المهم هو أن له أخًا غير شقيق ظل يرسل إليه نقودًا لمساعدته.

أخبرتني كيف ظل بابا، لسنوات الآن، يرسل إلى هذا الإقبال - عمي، فكرت بارتجافة في داخلي - ألف دولار كل ثلاثة أشهر، حيث يذهب إلى «ويسترن يونيون»، ويُحوِّل النقود إلى أحد البنوك في بيشاور.

سألت:

- لماذا تُخبرينني الآن؟

- لأنني أعتقد أنكِ يجب أن تعرفي، حتى وإن كان هو لا يعتقد ذلك. أيضًا، سيكون عليكِ أن تتولي المعاملات المالية قريبًا وعندها ستكتشفين على كل حال.

أشحت بوجهي، ورُحت أتابع قِطًّا مُنتصب الذيل يمشي مُتوجسًا في اتجاه لاعبي البينج بونج. مدت الفتاة يدها لتربت عليه، وتوتر القط في البداية، لكنه عاد وتكوَّر على السور، وسمح للفتاة بتمرير يديها على أذنيه، وفوق ظهره. كان عقلي يدور مثل بكرة. أنا لي أقارب خارج الولايات المتحدة.

قلت:

- الحسابات سوف تظل بين يديكِ لوقت طويل يا ماما.

فعلت ما بوسعي لكي أُخفي الرعشة في صوتي.

توقفنا عن الحديث لفترة. وعندما تكلَّمَت ثانية، كان ذلك بنبرة أكثر خفوتًا، وأبطأ، مثلما كان الحال وأنا صغيرة عندما نذهب إلى المسجد لحضور جنازة فتقرفص أمامي وتشرح لي بصبر أن عليَّ أن أخلع حذائي عند المدخل، وأن أظل صامتة في أثناء الصلاة ولا أتململ، ولا أشكو، وأن أدخل الحمَّام الآن حتى لا أضطر إلى ذلك لاحقًا.

قالت:

- لن يحدث. ولا تظني أنه سيحدث. لقد حان الأجل. عليكِ أن تجهزي نفسك له.

نفختُ عصفة من الهواء، واستقرت غصة في حلقي. من مكان

ما، انطلق أزيز منشار كهربائي، أنينه المتصاعد يتنافر تنافرًا عنيفًا مع سكون الغابة.

- والدكِ مثل الطفل. مرعوب من الهجران. سيضل طريقه من دونكِ يا باري، ولن يجد طريقه بعد ذلك.

حوَّلت بصري إلى الأشجار. شعاع الشمس ينهمر على الأوراق الخفيفة، اللحاء الخشن للجذوع. دفعت لساني بين القواطع، وعضضت عليه بقوة. دمعت عيناي، وغمر فمي طعم الدم النحاسي.

قلت:

- أخ؟!

- نعم.

- تراودني أسئلة كثيرة.

- اسأليني الليلة. عندما لا أكون مُتعبَة هكذا. سأُخبرك بكل ما أعرفه.

أومأتُ برأسي، وتجرعتُ ما بقي من الشاي الذي كان قد برد. على طاولة قريبة، كان زوجان في مُنتصف العُمر يتبادلان صفحات الجريدة. المرأة، بشعرها الأحمر ووجهها المُنتصب، ترقبنا في صمت من فوق صفحة الجريدة، عيناها تتحولان مني إلى أمي ذات الوجه الكالح، إلى قبعتها البيني، إلى يديها اللتين رسمت الكدمات خرائط عليهما، إلى عينيها الغائرتين وابتسامتها الشاحبة. عندما التقت أعيننا، ابتسمت المرأة قليلًا كما لو كان ثمة معرفة خفية بيننا، ففهمتُ أنها قد مرت بالتجربة هي الأخرى.

- إذًا، ماذا ترين يا أمي؟ المعرض، هل لديكِ رغبة في الذهاب؟

تلكأت نظرة أمي على وجهي. بدت عيناها كبيرتين جدًّا مقارنة برأسها، ورأسها كبيرًا جدًّا مقارنة بكتفيها.

قالت:

- يُمكنني شراء قبعة جديدة.

رميت المنديل الورقي على الطاولة، ودفعت كرسيِّي إلى الخلف، ودرت حول الجانب الآخر. رفعتُ كوابح الكرسي المتحرك وسحبته بعيدًا عن الطاولة.

قالت أمي:

- باري؟

- نعم؟

أدارت رأسها دورة كاملة لتتطلع إليَّ. اندفع ضوء الشمس عبر أوراق الأشجار وراح يخز وجهها. قالت:

- هل تعرفين كم خلقكِ الله قوية؟ كم خلقكِ قوية وطيِّبة؟

ليس ثمة بيان للطريقة التي يعمل بها العقل. تلك اللحظة، على سبيل المثال. من بين آلاف وآلاف اللحظات التي قضيناها أنا وأمي معًا خلال كل تلك السنين، كانت تلك اللحظة أكثرها إشراقًا، اللحظة التي تتذبذب بأكبر قدر من الطنين في مؤخرة عقلي: أمي تتطلع إليَّ من فوق كتفها، ووجهها مقلوب عالِيه أسفله، كل تلك النقاط المُبهرة من الضوء ترتعش على بشرتها، وسؤالها لي عما إن كنت أعرف كم خلقني الله طيبة وقوية.

* * *

بعد أن يروح بابا في النوم على الكرسي المتمدد، تقفل باري برقَّة سحَّاب سُترته، وتسحب الشال لتُغطي جذعه. تدس خصلة شاردة من شعره خلف أذنه وتقف إلى جانبه، تراقبه وهو نائم لبُرهة. أنا أُحب مراقبته وهو نائم؛ لأنك ساعتها لا تلاحظ أن به سوءًا. مع إغماض عينيه، يرتفع الخواء، والنظرة الشاردة الشاحبة أيضًا، ويبدو بابا أكثر أُلفة. في نومه، يبدو أكثر انتباهًا وحضورًا، كما لو أن شيئًا من ذاته القديمة قد تسرَّب عائدًا إليه. أتساءل إن كانت باري تستطيع تصور الأمر، وهي تنظر إلى وجهه المستريح على الوسادة، كيف كان من قبل، كيف كانت ضحكته.

ننتقل من غرفة المعيشة إلى المطبخ. أُخرج قِدرًا من الخزانة وأملؤه في المغسلة.

تقول باري، وفي صوتها شحنة من الإثارة:

- أريد أن أُريكِ بعضًا من هذه.

تجلس إلى الطاولة، وتنشغل في تقليب صفحات ألبوم صور أخرجته من حقيبة سفرها قبل قليل.

أُدير رأسي إليها وأنا أصب الماء من القِدر فيَ آلة القهوة، وأقول:

- أخشى ألا ترقى القهوة للمعايير الباريسية.

- اطمئني، فأنا لست من مهاويس القهوة.

كانت قد خلعت الوشاح الأصفر ووضعت نظارة القراءة، وراحت تُحدق في الصور من ورائها.

عندما تبدأ آلة القهوة في القرقرة، أتخذ مقعدي إلى طاولة المطبخ بجوار باري. تقول:

- **آه، وي. فوالا. ها هي.**

تُدير الألبوم وتدفعه في اتجاهي. تنقر على إحدى الصور.

- هذا هو المكان. حيث ولدنا أنا وأبوك. وأخونا إقبال أيضًا.

عندما اتصلَت بي من باريس أول مرَّة، ذكرَت اسم إقبال - كدليل، ربما، لكي تُقنعني أنها لا تكذب عليَّ بخصوص هويتها. لكنني كنت أعرف بالفعل أنها تُخبرني بالحقيقة. عرفت منذ اللحظة التي التقطتُ فيها سماعة الهاتف ونطقت هي باسم أبي في أذني وسألتني إن كان هذا مسكنه الذي تتصل به. وقلت أنا: **نعم، مَن يتكلم؟** وقالت هي: **أنا أخته.** دق قلبي بعنف، وبحثت عن كرسي أرتمي عليه، وبدا كل ما حولي فجأة صامتًا، تُرمى الإبرة فيتردد رنينها. كانت صدمة نعم، من ذلك النوع الذي يظهر في الفصل الثالث من المسرحيات ونادرًا ما يحدث للناس في الحياة الحقيقية. لكن على مستوى آخر - مستوى يتحدى المنطق، مستوى أكثر هشاشة، من ذلك الذي يتهشم وتتناثر شظاياه إن أنا نطقت اسمه فحسب - لم أكن مندهشة من اتصالها، بل وكأنني ظللت أنتظره طيلة حياتي، أن نتمكن، من خلال حبكة مُربكة، أو موقف، أو مُصادفة، أو قدر، أو ما شئت أن تطلق عليه من الأسماء، من أن تعثر كلٌّ منا على الأخرى.

بعد ذلك أخذت سماعة الهاتف معي إلى الباحة الخلفية وجلست على كرسي بجوار حوض الخضراوات، حيث أهتمُّ بنبتات الفلفل الحلو والقرع العملاق التي كانت أمي قد زرعتها. أدفأت الشمس رقبتي وأنا أشعل سيجارة بيدين مُرتعشتين.

قلت:

- أعرفك. أعرفك طيلة حياتي.

أعقب ذلك صمت من الناحية الأخرى، لكن انطباعًا واتاني بأنها كانت تبكي من دون صوت، بأنها أشاحت برأسها بعيدًا عن الهاتف لكي تفعل ذلك.

تحدثنا لنحو ساعة. أخبرتها بأنني أعرف ما قد حدث لها، وكيف كنت أطلب من أبي أن يعيد عليَّ الحكاية قبل النوم. قالت باري إنها نفسها لم تكن تعرف تاريخها، وكانت ستموت على الأرجح من دون معرفته ما لم يصلها خطاب تركه شقيق زوجة أبيها، نبي، قبل موته في كابول، والذي فصَّل فيه أحداث طفولتها من بين أمور أخرى. كان الخطاب قد تُرِكَ في رعاية شخص اسمه ماركوس فارفاريس، وهو جراحٌ يعمل في كابول، بدأ بعدها البحث عن باري، ووجدها في فرنسا. في الصيف، كانت باري قد سافرت إلى كابول لملاقاة ماركوس فارفاريس الذي رتب لها زيارة إلى شدباغ.

قرب نهاية المكالمة، شعرت بها تستجمع قواها قبل أن تقول أخيرًا:

- حسنًا، أظن أنني مُستعدة. هل يمكنني أن أتحدث إليه الآن؟

عندها كان عليَّ أن أُخبرها.

أُقرِّب ألبوم الصور مني الآن، وأتفحَّص الصورة التي تشير إليها باري. أرى قصرًا مُتواريًا خلف جدران بيضاء زاهية عالية تعلوها أسلاك شائكة. أو، بالأحرى، فكرة شخص مُضلَّلة بشكل تراجيدي عن قصر، ثلاثة طوابق، بالألوان الوردي، الأخضر، الأصفر، الأبيض، سطحًا مُحاطًا بجدار ساتر وبه أبراج وكرانيش

ناتئة، فسيفساء وزجاج عاكس من الذي يستخدم في ناطحات السحاب. إنه نصب تذكاري للفن المُبتذل يستحق الرثاء.

أتنهَّد.

- يا إلهي!

تقول باري:

- **سي أفرو، نو**؟ إنه بشع. الأفغان يسمونها **قصور بارونات المُخدرات.** هذا القصر هو مسكن مُجرم حرب شهير.

- إذًا، هذا هو كل ما تبقَّى من شدباغ.

- من قرية «شدباغ القديمة»، نعم. هذا، وفدادين كثيرة مزروعة بأشجار الفاكهة. الـ - ماذا تسمينها؟ - **دي فيرجير**.

- بساتين.

- نعم.

تُمرر أصابعها على صورة القصر.

- أتمنى لو أعرف أين كان بيتنا القديم بالضبط، أقصد أين من قصر بارون المخدرات هذا. سأكون سعيدة إن عرفت المكان بالتحديد.

تخبرني بأمر «شدباغ الجديدة» - بلدة حقيقية، بمدارس، وعيادة طبية، وحي للتسوق، بل وفندق صغير أيضًا - التي شُيدت على بُعد نحو ميلين من موقع القرية القديمة. تلك البلدة هي التي ذهبَت إليها مع مُترجمها للبحث عن أخيها غير الشقيق. وكنت قد عرفت ذلك في سياق تلك المكالمة الهاتفية الطويلة مع باري، كيف أن أحدًا في البلدة لم يعرف إقبال حتى صادفت باري شيخًا

كان يعرفه؛ صديق طفولة لإقبال، كان قد رآه هو وأُسرته يقيمون في حقل أجرد بالقرب من طاحونة الهواء القديمة. أخبر إقبال ذلك الصديق القديم بأنه عندما كان في باكستان تلقى نقودًا من أخيه الأكبر الذي يعيش في شمال كاليفورنيا. قالت باري في الهاتف: **سألت، وسألت. هل أخبركَ إقبال باسم أخيه؟ وقال الشيخ: نعم، عبد الله. وبعد ذلك لم يعد الباقي صعبًا، أقصد العثور عليكِ وعلى أبيك.**

قالت باري: **سألت صديق إقبال أين هو إقبال الآن. سألته ما الذي حدث له، وقال الشيخ إنه لا يعرف. لكنه بدا مُتوترًا جدًّا، ولم يكن ينظر إليَّ وهو يقول ذلك. وأفكر يا باري، أخشى أن مكروهًا قد أصاب إقبال.**

تُقلِّب بضع صفحات أخرى الآن وتريني صورًا لأطفالها - ألان، إيزابيل، وتييري. ولقطات لأحفادها - في حفلات أعياد الميلاد، أو وهم يتخذون وضعية التصوير في ثياب السباحة على حافة حمَّام سباحة. وشقتها في باريس - الحوائط الزرقاء الفاتحة، وستائر التعمية البيضاء المُتطاولة حتى الأعتاب، ورفوف الكتب، ومكتبها الفوضوي في الجامعة، حيث كانت تدرِّس الرياضيات قبل أن يُجبرها التهاب المفاصل الروماتيزمي على التقاعد.

أظل أُقلِّب صفحات الألبوم وهي تزودني بتعليقات على اللقطات - صديقتها القديمة كوليت، ألبرت زوج إيزابيل، إريك زوج باري نفسها، الذي كان كاتبًا مسرحيًّا وتُوفِّي بأزمة قلبية عام ١٩٩٧. أتوقف عند صورة لهما معًا، شابان بصورة لا تُصدَّق،

يجلسان جنبًا إلى جنب على وسائد برتقالية اللون في مطعم ما، هي في بلوزتها البيضاء، وهو في تيشيرت، وشعره، الطويل والخفيف، مربوطٌ في ذيل حصان.

تقول باري:

- هذه هي الليلة التي التقينا فيها. كان موعدًا مُرتبًا.

- وجهه ينمُّ عن طِيبة.

تومئ باري برأسها.

- نعم. عندما تزوجنا، فكرتُ: نعم، أمامنا وقت طويل معًا. فكرتُ في نفسي، ثلاثون عامًا على الأقل، وربما أربعون. خمسون، إذا كنا محظوظين. ولمَ لا؟

تُحدق في الصورة، ضائعة للحظة، ثم تبتسم بخفة:

- لكن الزمن مثل الجمال، لا تنالين منه بقدر ما تشتهين.

تدفع الألبوم بعيدًا وترتشف قهوتها.

- وأنتِ؟ ألم تتزوجي قَطُّ؟

أهز كتفيَّ، وأقلب صفحة أخرى.

- كادت الفأس أن تقع في الرأس مرَّة.

- عفوًا، الفأس تقع في الرأس؟

- يعني كدت أفعلها. لكننا لم نصل إلى مرحلة الخاتمين.

ليس ذلك صحيحًا. كان الأمر مُؤلمًا ومُزريًا. حتى الآن، ما زالت ذكراه تُشعرني بألم ناعم خلف عظمة صدري.

تحني رأسها.

- **آسفة. أنا وقحة جدًّا.**

- لا. لا بأس. لقد وجد واحدة أجمل وأقل... إعاقة، فيما أظن. وبالحديث عن الجمال، مَن هذه؟

أُشير إلى امرأة بارعة الجمال ذات شعر داكن طويل وعينين واسعتين. في الصورة، تمسك بسيجارة وكأنها ضجرة - مرفقها ملتصق بخاصرتها، ورأسها مرفوع إلى أعلى بإهمال - لكن نظرتها خارقة، مُتحدية.

- هذه ماما. أمي، نيلا وحدتي. أو، كنت أظنُّها أمي. تفهمين.

أقول:

- إنها فاتنة.

- كانت كذلك. لقد انتحرت. ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين.

- آسفة.

- نو، نو. لا بأس.

تمسح الصورة شاردةً بطرف إبهامها.

- كانت ماما أنيقة وموهوبة. تقرأ الكُتب، ولديها العديد من الآراء القوية، وكانت تقول آراءها تلك للناس دائمًا. لكن كان لديها أيضًا حزن عميق جدًّا. طيلة حياتي، كانت تعطيني جاروفًا وتقول: **املئي تلك الثقوب بداخلي يا باري.**

أومئ برأسي. أُفكر أنني أفهم شيئًا من هذا.

- لكنني لم أستطع. ولاحقًا، صرت لا أرغب في ذلك. كنت أرتكب أفعالًا طائشة، أفعالًا مُستهترة.

تُسند ظهرها إلى كرسيها، كتفاها مُتهدلتان، تضع يديها البيضاوين الرقيقتين في حِجرها. تتفكر لدقيقة قبل أن تقول:

- **جوريه دو أيتر بلو جنتي** - كان عليَّ أن أكون أكثر رفقًا بها. هذا أمر لا يندم عليه المرء أبدًا. لن تقولي لنفسك أبدًا عندما تصيرين عجوزًا: **يا إلهي، كم أتمنى لو لم أكن رفيقة بهذا الشخص**. لن تقولي هذا أبدًا.

للحظة، يبدو وجهها محزونًا. تُشبه فتاة مدارس بائسة. تقول بوهن:

- لم يكن أمرًا صعبًا. كان عليَّ أن أكون أكثر رفقًا. كان عليَّ أن أكون مثلكِ.

تُطلق تنهيدة ثقيلة وتُغلق ألبوم الصور. وبعد فترة صمت، تقول بفرح:

- آه، **بون** (حسنًا). الآن أُريد أن أطلب منكِ شيئًا.

- بكُل سرور.

- هل يمكن أن تُريني المزيد من رسوماتك؟

نتبادل الابتسام.

* * *

تقضي باري شهرًا معي أنا وبابا. في الصباحات، نتناول الإفطار معًا في المطبخ: قهوة سوداء وخبزًا محمصًا لباري، ولبنًا لي، وبيضًا مسلوقًا مع الخبز لبابا، وهو طبق أصبح يُحبه كثيرًا في السنة الأخيرة. كنت خائفة أن يرفع هذا من مستوى الكوليسترول لديه، بتناول كل هذا البيض، وسألت الدكتور بشيري في أثناء واحدة من زيارات بابا. منحني الدكتور بشيري واحدة من ابتساماته مزمومة الشفتين وقال: آه، **لن أقلق من هذا الأمر**. وطمأنني ذلك - على الأقل لفترة وجيزة، وفي يوم كنت فيه أساعد بابا في ربط إبزيم

حزام كرسيه وخطر لي أن الدكتور بشيري ربما كان يقصد حقًّا: **لقد تجاوزنا كل تلك الأمور أصلًا.**

بعد الإفطار، أنسحب إلى مكتبي - والمعروف أيضًا بغرفة نومي - وتظل باري برفقة بابا وأنا أعمل. بناءً على طلبها، كتبتُ لها جدول البرامج التلفزيونية التي يُحب أن يشاهدها، ومواعيد تناول حبوبه في منتصف الصباح، والوجبات الخفيفة التي يُحبها ومتى يميل إلى طلبها. كانت فكرتها أن أكتب كل تلك الأشياء.

قلت:

- يمكنكِ سؤالي متى شئتِ.

قالت:

- لا أريد إزعاجكِ. وأريد أن أعرف. أريد أن أعرفه.

لا أُخبرها أنها لن تعرفه أبدًا كما تريد. مع ذلك، أُخبرها ببعض حيل المهنة. على سبيل المثال: إذا بدأ بابا نوبة هياج أستطيع عادة، وإن ليس دائمًا، أن أُهدئه - وما زال التفسير يُحيرني - بأن أُناوله بسرعة كتالوج تسوق منزلي مجاني أو نشرة إعلانية عن الأثاث. ولديَّ مخزون جاهز من الاثنين.

- إذا أردتِه أن يأخذ قيلولة، افتحي التلفزيون على محطة الطقس أو أي شيء له علاقة بالجولف. ولا تدعيه يشاهد برامج الطبخ أبدًا.

- لماذا؟

- إنها تُثير أعصابه لسبب ما.

بعد الغداء، نخرج ثلاثتنا في نزهة. نحرص على ألا تطول لأجل خاطرهما - التعب الذي ينتاب بابا بسرعة، والتهاب المفاصل عند باري. عينا بابا فيهما حذر، يمشي بقلق على الرصيف بيني وبين

باري، مُعتمرًا «بيريه» قديمًا، ومُرتديًا سُترته، ومُنتعلًا خفه اللين المُبطَّن بالصوف. ثمة مدرسة إعدادية خلف الشارع لها ملعب كُرة قدم غير مُعتنى به، وأمامه ملعب صغير آخذ بابا إليه غالبًا. دائمًا ما نجد أمًّا شابة أو اثنتين، وبجانبهما عربة أطفال، وطفلًا رضيعًا يلعب في صندوق الرمل، وبين حين وآخر زوجين من المُراهقين الهاربين من المدرسة، يتأرجحان بكسل ويُدخِّنان. نادرًا ما ينظرون إلى بابا - المراهقون - وإن فعلوا فدون مبالاة، أو حتى بازدراء مُبطَّن، وكأن أبي كان من الأفضل له ألا يسمح لنفسه بالسقوط فريسة لتقدم العمر والشيخوخة.

ذات يوم، آخذ استراحة من العمل، وأذهب إلى المطبخ لتسخين قهوتي فأجدهما يشاهدان فيلمًا معًا. بابا على كرسيه المُتمدد، وخفه اللين يبرز من أسفل شاله، ورأسه محنيٌّ إلى الأمام، وفمه مفتوح قليلًا، وحاجباه مُتقاربان في تركيز أو ارتباك، وباري تجلس إلى جانبه، يداها مُتشابكتان في حِجرها، وقدماها مُتقاطعتان من عند الكاحلين.

يقول بابا:

- مَن هذه البنت؟

- لاتيكا.

- مَن؟

- لاتيكا، فتاة العشوائيات. تلك التي لم تتمكن من اللحاق بالقطار.

- لا تبدو فتاة صغيرة.

تقول باري:

- نعم، لأن سنين كثيرة قد مرَّت. لقد كبرت الآن، هل ترى؟

ذات يوم في الأسبوع الماضي، في الملعب، كنا ما نزال جالسين على أحد مقاعد المُتنزَّه المستطيلة، ثلاثتنا، وقالت باري:

- **عبد الله، هل تتذكر عندما كنتَ صبيًّا أنه كانت لك أخت صغيرة.**

لم تكد تنهي جملتها حتى شرع بابا في البكاء. ضغطت باري رأسه على صدرها وهي تقول:

- **أنا آسفة. أنا آسفة.**

وراحت تُكررها مرَّة بعد مرَّة بذعر، وهي تمسح خديه بيديها، لكن نوبة النشيج استمرت بصورة عنيفة جدًّا حتى إنه بدأ يختنق.

- وهل تعرف مَن هذا يا عبد الله؟

يُصدر بابا آهة.

- إنه جمال. الولد من برنامج المسابقات.

يقول بابا بفظاظة:

- لا. ليس هو.

- ألا تظن؟

- إنه يُقدِّم الشاي.

- نعم، كان هذا - ماذا تسميه - كان هذا من الماضي. من زمن سابق. كان هذا...

- **فلاش باك.**

أُتمتم بالكلمة وأنا أشرب فنجان قهوتي.

- برنامج المسابقات يحدث الآن يا عبد الله. وقد كان يُقدِّم الشاي في زمن سابق.

يطرف بابا بخواء. على الشاشة، جمال وسليم جالسان فوق بناية عالية، أقدامهما تتدلى فوق الشارع.

تراقبه باري وكأنها تنتظر لحظةً سيتفتح فيها شيء في عينيه. تقول:

- دعني أسألك سؤالًا يا عبد الله. لو ربحت مليون دولار، فماذا ستفعل؟

يكشر بابا، ويراوح مكانه، ثم يتمدد أكثر على كرسيه.

تقول باري:

- أنا أعرف ماذا سأفعل.

ينظر بابا إليها بوجه خالٍ من التعبيرات.

- لو ربحت مليون دولار، سأشتري بيتًا في هذا الشارع. بهذه الطريقة، نكون جيرانًا، أنا وأنت، وكل يوم آتي إلى هنا ونشاهد التلفزيون معًا.

يبتسم بابا.

لكن بعد دقيقة واحدة، بعد أن أكون قد عُدت إلى غرفتي ووضعت السماعات في أذنيَّ وبدأت الطباعة، أسمع شيئًا يتهشم بصوت عالٍ وبابا يصرخ بشيء ما بالفارسية. أنزع السماعات وأهرع إلى المطبخ. أرى باري وقد ألصقت ظهرها بالحائط حيث الميكروويف، يداها مضمومتان تحت ذقنها في وضع دفاعي، وبابا، بعينين وحشيتين، ينقض على كتفها بعصاه. وشظايا كوب ماء تتلألأ عند أقدامهما.

يصرخ بابا عندما يراني:

- أخرجيها من هنا! أريد أن تخرج هذه المرأة من بيتي!

- بابا!

كان خدا باري شاحبين، والدموع تنهمر من عينيها.

- أنزل العصا يا بابا. بالله عليك. ولا تتحرك، ستجرح قدميك.

أُصارع لشد العصا من يده لكنه يُقاوم بقوة.

- أريد أن تخرج هذه المرأة! إنها لصة!

تقول باري ببؤس:

- ما الذي يقوله؟

- لقد سرقت حبوب دوائي!

أقول:

- إنها حبوبها يا بابا.

أضع يدًا على كتفه وأقوده إلى خارج المطبخ. يرتعش تحت كفي. ونحن نمر من أمام باري يكاد ينقض عليها ثانيةً، ويكون عليَّ أن أمنعه.

- حسنًا، يكفي هذا يا بابا. وتلك هي حبوبها وليست حبوبك. إنها تأخذها لعلاج يديها.

أسحب كتالوج تسوُّق من على طاولة القهوة في الطريق إلى الكرسي المُتمدد.

يقول بابا، وهو يتقلب في الكرسي:

- أنا لا أثق بهذه المرأة. أنت لا تعرفين، أنا أعرف اللصوص عندما أراهم!

يلهث وهو يشد الكتالوج من يدي ويبدأ في تقليب صفحاته بعنف. ثم يرميه في حِجره وينظر إليه، وقد ارتفع حاجباه إلى أعلى.

- وكاذبة لعينة أيضًا. هل تعرفين ماذا قالت لي، هذه المرأة؟ هل تعرفين ماذا قالت؟ إنها **أختي! أختي!** انتظري ماذا ستقول سلطانة حين تسمع عن هذا الأمر.

- حسنًا يا بابا. سنُخبرها معًا.

- امرأة مجنونة.

- سنُخبر أمي، ثم سنضحك نحن الثلاثة على المرأة المجنونة خلف هذا الباب. الآن، اهدأ يا بابا. كل شيء سيكون على ما يُرام. حسنًا.

أغيِّر المؤشر على قناة الطقس وأجلس إلى جواره، أُدلِّك كتفه، حتى يتوقف عن الارتجاف وتهدأ أنفاسه. تمر أقل من خمس دقائق قبل أن يغفو.

في المطبخ، تجلس باري مُتراخية على الأرض، ظهرها مسنود إلى غسالة الصحون. تبدو مصدومة. تُجفف عينيها بمنديل ورقي. تقول:

- أنا آسفة جدًّا. لم يكن ذلك تصرفًا حكيمًا مني.

- لا بأس.

أقولها، وأنا أمد يدي أسفل المغسلة لأتناول سلَّة مهملات ومكنسة. أجد حبوبًا بلون وردي-برتقالي مُبعثرة على الأرض بين الزجاج المُهشَّم. ألتقطها واحدة بعد واحدة وأكنس الزجاج عن مشمع الأرضية.

- **جو سوي إين إمبيسيل** (أنا غبيَّة). كانت عندي رغبة كبيرة في إخباره. ظننت أنني ربما إذا أخبرته بالحقيقة... لا أعرف فيمَ كنت أفكر.

أُفرغ الزجاج المكسور في صفيحة القمامة. أركع، وأُسوِّي ياقة قميص باري، وأتفحَّص كتفها حيث ضربها بابا.

- ستتحول تلك إلى كدمة. وأنا أعرف ما أقوله.

أجلس على الأرض إلى جانبها.

تفتح كفيها، وأسكب فيهما الحبوب.

- هل هو كذلك عادة؟

- في بعض الأيام وكأنَّما يصيبه مسٌّ من الجنون.

- ألا تفكرين في اللجوء إلى مختصين؟

أتنهَّد، وأنا أُومئ برأسي. لقد فكرتُ كثيرًا مُؤخرًا في الصباح المحتوم الذي سأستيقظ فيه فأجد البيت فارغًا بينما بابا يرقد مُتكوِّرًا على سرير غير مألوف، يُعاين صينية إفطار جاءه بها شخص غريب. بابا مُتهدل خلف طاولة في صالة أنشطة ما، يغفو في أثناء جلوسه. أقول:

- أعرف، لكن ليس الآن. أريد أن أعتني به طالما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

تبتسم باري وتتمخَّطُ من أنفها.

- أفهم ذلك.

لست مُتأكدة من كونها تفهم. لا أُخبرها بالسبب الآخر. لا أكاد أستطيع الاعتراف به لنفسي. ألا وهو: كم أخاف أن أتحرَّر على الرغم من الرغبة التي تراودني كثيرًا لذلك. أخاف مما سيحدث لي، مما سأفعله بنفسي، عندما يرحل بابا. طيلة حياتي، عشت مثل سمكة في متحف للأحياء المائية، في أمان الحوض الزجاجي، خلف حاجز شفَّاف لكنه غير قابل للاختراق. كنت حرة في ملاحظة

العالم المتلألئ على الجانب الآخر، في تصور نفسي بداخله، إذا أردت. لكنني طالما ظللت محبوسة، مُطوَّقة، بحدود صلبة لا تلين، مُتمثلة في الوجود الذي شيده بابا لأجلي، بوعي في بداية الأمر، عندما كنت صغيرة، والآن بصورة تلقائية، الآن وهو يذوي بعيدًا يومًا بعد يوم. أظنني اعتدت على الزجاج وأصبحت أرتعب من اللحظة التي سينكسر فيها، عندما أصبح وحيدة، سأنسكب إلى المجهول المفتوح الواسع وأظل أتقلب وأتخبط، عاجزة، ضائعة، أجاهد لالتقاط أنفاسي.

إن الحقيقة التي نادرًا ما أعترف بها هي أنني ظللت طوال الوقت بحاجة إلى ثِقل بابا على ظهري.

وإلا، فلماذا تخليت بطيب خاطر عن أحلام كلية الفنون، ولم أقاوم مقاومة تُذكَر عندما طلب مني بابا ألا أذهب إلى بلتيمور؟ لماذا تركتُ «نيل»، الرجل الذي خُطبت إليه قبل بضع سنين؟ كان يمتلك شركة صغيرة لتركيب ألواح الطاقة الشمسية، له وجه مُربَّع ومُجعَّد أحببته لحظة رأيته في مطعم «كباب إيب»، وعندما سألته عن طلبه رفع بصره عن القائمة وتطلع إليَّ وابتسم. كان صبورًا وودودًا ومعتدل الطباع. ليس صحيحًا ما قلته لباري عنه. نيل لم يهجرني من أجل امرأة أكثر جمالًا. أنا التي خرَّبت الأمور معه. حتى عندما وعدني أن يتحول إلى الإسلام، وأن يأخذ دروسًا في الفارسية، رحت أبحث عن عيوب أخرى، عن أعذار أخرى. كنت فزعة، في النهاية، ورحت أركض إلى كل الفتحات والشقوق والأخاديد المألوفة لحياتي في البيت.

تبدأ باري في النهوض من جانبي. أراقبها وهي تُسوِّي تجاعيد

فستانها، وأندهش مُجددًا من معجزة كونها هنا، تقف على بُعد بوصات مني.

أقول:

- أريد أن أُريكِ شيئًا.

أنهض وأذهب إلى غرفتي. إحدى مزايا عدم مغادرة بيتك هو أن أحدًا لا ينظف غرفتك القديمة ويبيع ألعابك في سوق الأغراض المستعملة، ولا أحد يتبرع بالملابس التي احتفظت بها عندما كبرت. أعرف أن عندي عددًا من تذكارات الطفولة كبيرًا جدًّا بالنسبة إلى امرأة قاربت الثلاثين، معظمها مُكدَّس في صندوق كبير أسفل سريري أفتح الآن غطاءه. في الداخل ثمة دمى قديمة، المُهر الوردي الذي له عُرف كنت أمشطه، كتب الصور، كل بطاقات التهنئة بعيد الميلاد وعيد الحب التي كنت قد صنعتها لأجل والديَّ وأنا في المدرسة الابتدائية مُستخدمةً حبوب الفاصولياء الحمراء والترتر والنجوم الصغيرة المتلألئة. آخر مرَّة تكلمنا، أنا ونيل، بعد أن أفسدتُ الأمور بيننا، قال: **لا أستطيع انتظارك يا باري. لن أنتظر حتى تنضجي.**

أُعيد الغطاء وأرجع إلى غرفة المعيشة، حيث استقرت باري في الأريكة المواجهة لبابا. أجلس إلى جوارها.

- هاكِ.

أقولها، وأنا أُناولها كومة من البطاقات البريدية.

تمد يدها إلى نظارة القراءة الخاصة بها الموضوعة على الطاولة الجانبية، وتنزع الرباط المطاطي الذي يجمع البطاقات البريدية معًا. حين تنظر في أول بطاقة، تعبس. إنها صورة من «لاس فيجاس»،

لفندق «سيزارس بالاس» في الليل، مُتلألئًا بأنواره. تقلبها وتقرأ الرسالة بصوت عالٍ:

١٢ تموز (يوليو) ١٩٩٢

عزيزتي باري،

لن تُصدِّقي مدى حرارة هذا المكان. اليوم أُصيب بابا ببثرة عندما وضع يده على سقف سيارتنا المستأجَرة! وكان على ماما أن تضع عليها معجون أسنان. في «سيزارس بالاس»، لديهم جنود رومانيون بسيوف وخوذات وعباءات سوداء. وظل بابا يحاول إقناع أمي أن تأخذ صورة معهم لكنها رفضت. لكنني فعلتها! سوف أُريكِ الصورة عندما أرجع إلى البيت. هذا هو كل شيء الآن. أفتقدك. أتمنى لو كنت هنا.

باري

ملحوظة: أتناول أروع «آيس كريم صنداي» وأنا أكتب لك هذه الرسالة.

تتناول البطاقة التالية. من قصر «هيرست كاسل». تقرأ الرسالة هامسة الآن:

كان لديه حديقة حيوانات خاصة به! كم هو رائع؟ كانغارو، وحمير وحشية، وظباء، وجمال باكترية - الجمال ذات السنامين!

وواحدة من «ديزني لاند»، يظهر فيها ميكي بقبعة السحرة، يلوح بعصا:

صرخت ماما عندما سقط الرجل المشنوق من السقف! كان يجب أن تسمعي صرختها!

خليج «لا جولا». شاطئ «بيج سور». طريق الـ١٧ ميلًا. غابة موير. بحيرة تاهوي:

أفتقدك. كنتِ ستُحبين المكان بالتأكيد. أتمنى لو كنتِ هنا.

أتمنى لو كنت هنا.

أتمنى لو كنت هنا.

تخلع باري نظارتها.

- هل كتبتِ تلك البطاقات لنفسك؟

هززت رأسي.

- بل لكِ.

أضحك وأتابع:

- أمر مُحرج.

تضع باري البطاقات على طاولة القهوة وتقترب مني:

- احكي لي.

أنكس رأسي وأنظر إلى يديَّ وأدوِّر ساعتي حول معصمي.

- كنت أتظاهر بأننا توأمان، أنا وأنت. لم يكن بإمكان أحد أن يراكِ سواي. كنت أُخبركِ بكل شيء. كل أسراري. كنتِ حقيقية بالنسبة إليَّ، ودائمًا قريبة مني. كنت أشعر بقدر أقل من الوحدة بفضلك، وكأننا **قرينان**. هل تعرفين تلك الكلمة؟

تظهر ابتسامة على شفتيها.

- نعم.

- كنت أتصورنا مثل ورقتي شجر، عصفت الريح ففرقت بينهما مسافة أميال، ولكنهما مرتبطتان بالجذور العميقة المتشابكة للشجرة التي سقطتا منها.

تقول باري:

- بالنسبة إليَّ، كان الأمر معكوسًا. تقولين إنكِ كنت تشعرين بوجود ما، لكنني لم أكن أشعر إلا بغياب. ألم غامض من دون مصدر. كنت مثل المريض الذي لا يستطيع أن يُحدِّد للطبيب الجزء الذي يؤلمه، فقط يحس بالألم.

تضع يدها على يدي، ولا تنطق أيٌّ منا بكلمة لبرهة.

من فوق الكرسي المُتمدد، يُصدر بابا آهة ويتقلب.

أقول:

- أنا آسفة بحق.

- على ماذا؟

- على أن كلًّا منكما وجد الآخر بعد فوات الأوان.

تقول، وصوتها يتهدَّج بالمشاعر:

- لكننا وجدنا بعضنا، أليس كذلك؟ والآن هو على هذه الحال. لا بأس. أنا سعيدة. لقد وجدت جزءًا من نفسي كان مفقودًا.

تعتصر يديَّ.

- ووجدتكِ يا باري.

أيقظت كلماتها أشواق طفولتي. أتذكر كيف كنت، حين أشعر بالوحدة، أهمس باسمها - **باسمنا** - وأكتم نَفَسي، في انتظار صدى، متأكدة من أنه سيأتي يوم. سماعها تنطق باسمي الآن، في هذا المطبخ، يطوي معه بسرعة كل السنين التي فرقتنا سنة فوق سنة،

مرَّة بعد مرَّة، وكأن الزمن مثل أوكورديون ينكمش على نفسه حتى يُصبح بعرض صورة، بطاقة بريدية، مثل عبارة تنقل أكثر ذكريات طفولتي إشراقًا لتجلس إلى جواري، لتمسك بيدي، ولتنطق باسمي. **اسمنا**. أشعر بشيء يدور، يطقطق ويسكن في مكانه، شيء نُزع عني قبل سنين طويلة يعود ويستقر بإحكام من جديد. وأشعر برفة خفيفة في صدري، النبض المكتوم لقلب آخر، يشرع في الانطلاق إلى جوار قلبي.

في كرسيه المُتمدد، ينهض بابا مُستندًا على مرفقيه. يدعك عينيه، وينظر إلينا.

- ما الذي تخططان له يا بنات؟

يبتسم.

* * *

أغنية أطفال أخرى. هذه المرَّة عن الجسر في آفينيون.

تدندن باري اللحن لأجلي، ثم تُنشد الكلمات:

سور لو بون دافينيون

لون إي دانس، لون إي دانس

سور لو بون دافينيون

لون إي دانس توس أون رون

(على جسر أفينيون

فوقه نرقص، فوقه نرقص

على جسر أفينيون

نرقص جميعًا في حلقةٍ وندور)

- علَّمتها لي ماما عندما كنت صغيرة.

تقولها، وهي تُحكم عقدة وشاحها حماية من عصفة كاسحة من الريح الباردة. اليوم بارد لكن السماء صافية والشمس قوية تضرب صفحة نهر «الرون» الرمادي المعدني وتتهشم على سطحه إلى شظايا صغيرة من الألق.

- كل أطفال فرنسا يعرفون هذه الأغنية.

نجلس على مقعد خشبي مستطيل في مواجهة المياه، وهي تُترجم الكلمات، أنظر بتعجب إلى المدينة على الجانب الآخر من النهر. فبعد أن اكتشفت تاريخي الخاص مؤخرًا، تمتلئ نفسي بالرهبة وأنا أجد نفسي في مكان مُكتظ بالتاريخ، وكله تاريخ مُسجَّل، محفوظ. إنها معجزة. كل شيء في هذه المدينة معجزة. أشعر بالعجب من صفاء الهواء، من الريح التي تنقض على النهر، فتجعل المياه تخبط ضفافه الصخرية، من قوة الضوء وكثافته وكيف يبدو وكأنه يسطع من كل اتجاه. من مقعدي، أرى الأسوار القديمة تُطوِّق وسط البلدة العتيقة وتشابكاتها من الشوارع الضيقة الملتوية؛ البرج الغربي لكاتدرائية أفينيون، ومن فوقه يتألق التمثال المُذهب للسيدة العذراء.

تخبرني باري بتاريخ الجسر - الراعي الصغير الذي زعم، في القرن الثاني عشر، أن ملائكة أمرته ببناء جسر فوق النهر وأثبت صحة مزاعمه بأن رفع حجرًا عملاقًا وألقى به في الماء. تخبرني بأمر مراكبيَّة الرون الذين كانوا يصعدون الجسر لِتكريم قديسهم الراعي، القديس «نيكولا»، وعن الفيضانات على مرِّ القرون التي ضربت أقواس الجسر وجعلتها تتداعى. تقول تلك الكلمات

بحماس متوتر وسريع كما كانت في اليوم السابق عندما قادتني في أرجاء قصر الباباوات القوطي، وهي ترفع سماعات المرشد الآلي عن رأسها لتشير إلى جدارية، وتنقر على مرفقي لتوجه انتباهي إلى نحت شيق، أو زجاج مُلوَّن، أو أضلاع السقف فوق رأسينا.

أمام القصر البابوي، راحت تتكلم من دون توقف تقريبًا، تنسكب منها أسماء كل القديسين والباباوات والكاردينالات ونحن نتمشى في ميدان الكاتدرائية وسط أسراب الحمام، والسواح، والتجار الأفارقة في عباءاتهم ذات الألوان الفاقعة وهم يبيعون الأساور والساعات المُقلَّدة، والموسيقي الشاب ذي النظارة، الجالس على قفص تفاح، يعزف أغنية «بوهيميان رابسودي» (الملحمة البوهيمية) على جيتاره الأكوستك. لا أتذكر هذه الثرثرة من زيارتها لنا في الولايات المتحدة ويبدو لي الأمر مثل حيلة للتأجيل، وكأننا نلف وندور حول الشيء الذي تريد أن تفعله بحق - أن نفعله معًا - وكأن كل تلك الكلمات تُشبه الجسر.

تقول:

- لكنكِ سترين جسرًا حقيقيًّا بعد قليل. عندما يصل الجميع. سنذهب معًا إلى بون دو غارد. هل تعرفينه؟ لا؟ أوه **لا لا**، **سي فريمو مارفييو** (هذا شيء رائع). شيَّده الرُّومان في القرن الأول لنقل المياه من أور إلى «نيم. خمسون كيلومترًا! إنه تحفة معمارية يا باري.

وصلت فرنسا منذ أربعة أيام، أمضيت يومين في أفينون، أنا وباري أخذنا قطار «تي جي في» السريع إلى هنا من باريس الباردة المُلبَّدة بالغيوم، فخرجنا إلى سماوات صافية، وريح دافئة، وجوقة من حشرات الجدجد التي لا تكف عن الأزيز من كل شجرة. تلا

ذلك اندفاع مجنون لإنزال حقائبي، وكدت أخفق في ذلك، إذ قفزتُ من القطار قبل لحظة من انزلاق الأبواب مُغلقة من خلفي. أُسجل ملاحظة الآن. عليَّ أن أُخبر بابا كيف أنني لو كنت تأخرت ثلاث ثوانٍ لانتهى بي الأمر في مارسيليا.

سألتني باري في باريس ونحن في التاكسي من مطار شارل دي غول إلى شقتها:

- **كيف حاله؟**

قلت:

- **يتقدَّم على الطريق.**

يعيش بابا الآن في دار للرعاية. عندما ذهبتُ لمعاينة المؤسسة، وقد اصطحبتني المديرة، «بيني» - وهي امرأة طويلة هزيلة بشعر أصفر مُحمر مُموج - في أرجاء المكان، فكرت: ليس سيِّئًا.

ثم قلت: **ليس سيِّئًا.**

كان المكان نظيفًا، بشبابيك تطل على حديقة، حيث قالت «بيني» إنهم يُقيمون حفلة شاي كل أربعاء في الرابعة والنصف. وكان البهو يعبق برائحة قرفة وصنوبر خفيفة، كما بدا العاملون، ومعظمهم أصبحت أعرفه بالاسم، دمثين، صبورين، وأكفاء. كنت قد تصورت نساء عجائز، بوجوه مُحطمة، وشعرات نابتة من ذقونهن، يسيل لُعابهن، ويثرثرن مع أنفسهن، مُحدقات في شاشات التلفزيون. لكن معظم النزلاء الذين رأيتهم لم يكونوا مُسنين إلى تلك الدرجة، والكثير منهم لم يكونوا يستخدمون الكراسي المتحركة أصلًا.

قلت:

- أظنني توقعت أسوأ من ذلك.

- حقًا؟

قالتها بيني، وهي تُطلق ضحكة مرحة، احترافية.

- كان ذلك قلة ذوق، أنا آسفة.

- إطلاقًا. نحن نعلم جيدًا الصورة التي لدى معظم الناس عن هذه الأماكن.

وأضافت بعد أن نظرت فوق كتفها بنبرة جادة وحذرة:

- نحن هنا في منطقة الرعاية الدائمة. وبحسب ما ذكرتِه لي عن والدكِ، فلستُ متأكدة أن هذه المنطقة ستُناسبه. أظن أن وحدة رعاية الذاكرة ستكون ملائمة له. ها قد وصلنا.

استخدمَت بطاقة لتفتح الباب. لم تكن الوحدة المُغلقة تفوح برائحة القرفة ولا الصنوبر، وشعرت بانقباض في داخلي، وأخبرتني غريزتي أن عليَّ أن أستدير وأخرج من المكان. وضعَت «بيني» يدها حول ذراعي وضغطت عليه. نظرت إليَّ بِرَّقة بالغة. جاهدتُ لأُكمل الجولة، وقد أطاحت بي موجة هائلة من الإحساس بالذنب.

في الصباح السابق على سفري إلى أوروبا، ذهبت لزيارة بابا. عبرت بهو منطقة الرعاية الدائمة ولوَّحت لكارمن، وهي من غواتيمالا وتقوم بالرد على المكالمات الهاتفية. مررت بقاعة الأنشطة الاجتماعية، حيث امتلأت برواد من كبار السِّن ينصتون إلى رباعية وترية يعزفها طلاب مدرسة ثانوية في ملابس رسمية، ثم بالقاعة متعددة الأغراض وما فيها من أجهزة الكمبيوتر ورفوف الكتب وأطقم الدومينو، ثم من أمام لوحة الأخبار وما عليها من نصائح وأخبار متنوعة - **هل تعلم أن فول الصويا يمكن أن يخفض**

نسبة الكوليسترول؟ لا تنسَ «ساعة المسابقات والألغاز» هذا الخميس ١١ صباحًا!

دخلتُ الوحدة المُغلقة. ليس ثمة حفلات شاي في هذا الجانب من الباب، ولا لعبة «بِنغو»، ولا أحد هنا يبدأ نهاره بممارسة «التاي تشي». ذهبت إلى غرفة بابا، لكنه لم يكن هناك. كان سريره مُرتَّبًا، وتلفزيونه مُغلقًا، وثمة كوب نصف ممتلئ بالماء على طاولة فراشه. أحسست بقدر من الارتياح. أكره أن أجد بابا في سرير المستشفى، مُمددًا على جنبه، ويده مدسوسة تحت الوسادة، وعيناه مُنسحبتان تنظران إليَّ بخواء.

وجدت بابا في صالة الاستجمام، غاطسًا في كرسي متحرك، بجوار الشباك الذي يُطل على الحديقة. كان يرتدي بيجامة من الفانيلا، والبيريه الخاص به، وحِجره مُغطًّى بمريلة تسميها «بيني» «مريلة المُتململين». كانت لها أشرطة يمكنه ربطها، وأزرار يحب أن يفكها ويزررها. تقول «بيني» إن ذلك ينشط أصابعه.

قبَّلتُه على خده وسحبت كرسيًّا. كان شخص قد حلق له ذقنه، وبلل شعره ومشطه أيضًا، وكانت تفوح من وجهه رائحة الصابون. قلت:

– **إذًا، غدًا هو اليوم الكبير. سأُسافر لزيارة باري في فرنسا. تتذكر أنني أخبرتك بذلك؟**

طرف بابا بعينيه. حتى قبل إصابته بالسكتة، كان قد بدأ ينسحب بالفعل، يسقط في فترات طويلة من الصمت، ويبدو عليه البؤس. ومنذ السكتة، أصبح وجهه قناعًا، فمه مُتجمِّد دائمًا في ابتسامة صغيرة مُؤدبة مائلة لا تصعد إلى عينيه أبدًا. لم ينطق بكلمة

منذ السكتة. أحيانًا، تنفرج شفتاه ويُخرج صوتًا خشنًا أشبه بزفير، «آآآآآه!»، يعلو في النهاية ليبدو مثل صيحة اندهاش، وكأن ما قلته قَدَح تجليًّا صغيرًا في داخله.

- سنلتقي في باريس، ثم سنأخذ القطار إلى أفنيون. إنها بلدة بالقرب من جنوب فرنسا. البلد التي كان يعيش فيها الباباوات في القرن الرابع عشر. وهكذا سنُعاين بعض المناظر هناك. لكن الجزء العظيم هو أن باري قد أخبرت كل أولادها بزيارتي وسوف ينضمون إلينا.

ابتسم بابا، مثلما ابتسم عندما مر عليه هكتور الأسبوع السابق لرؤيته، ومثلما ابتسم عندما أريته استمارة تقدُّمي إلى كلية الفنون والعلوم الإنسانية بولاية سان فرانسيسكو.

- ابنة أختك إيزابيل وزوجها، ألبرت، لديهما بيت للعطلات في بروفينس، بالقرب من بلدة تُدعى «لي بو». بحثت عنها على الإنترنت يا بابا. إنها بلدة مُدهشة. شُيدت على قمم الأحجار الجيرية في جبال الألب. يمكن زيارة أطلال قلعة قديمة من القرون الوسطى هناك ومشاهدة السهول والبساتين. سآخذ صورًا كثيرة وأُريها لك عندما أرجع.

على مقربة، كانت امرأة عجوز في رداء حمَّام تُجمِّع في هدوء قطع لعبة «الصور المُقطَّعة». وعلى الطاولة المجاورة، كانت امرأة أخرى بشعر أبيض منفوش تحاول ترتيب الشوك والملاعق وسكاكين الزبدة في درج أدوات الطعام. وعلى شاشة التلفزيون الكبيرة في الركن، كان «ريكي» و«لوسي» (في مسلسل: «أُحب لوسي») يتجادلان، والأصفاد تكبلهما معًا.

قال بابا:

- آآآآه!

- ألان، هذا هو ابن أختك، وزوجته، آنا، سيحضران من إسبانيا مع أطفالهما الخمسة. لا أعرف أسماءهم، لكنني سأعرفها بالتأكيد. ثم - وهذا هو الجزء الذي يجعل باري سعيدة بحق - ابن أختك الآخر - ابنها الأصغر، تييري - سيأتي أيضًا. لم تره منذ سنين، ولم يتحدثا معًا. لكنه سيأخذ عطلته السنوية من وظيفته في إفريقيا وسيعود إلى الديار. أي أنه سيكون لمّ شمل للعائلة كلها.

قبَّلت خده مرَّة أخرى عندما نهضت لأُغادر. أبقيت وجهي على وجهه قليلًا، وأنا أتذكر كيف كان يأتي لاصطحابي من دار الحضانة ويقود السيارة حتى مطعم «دينيز» ليأخذ أمي من عملها. كنا نجلس في مقصورة، في انتظار أن تُوقِّع أمي في دفتر الانصراف، وأروح أنا أتناول مغرفة الآيس كريم التي يحضرها لي المدير في كل مرَّة، وأُطلع بابا على الرسومات التي رسمتها في ذلك اليوم. كم كان صبورًا في معاينة كل واحدة منها، يعبس وهو يتفحَّصها بدقة، ويومئ برأسه.

ابتسم بابا ابتسامته.

- يا إلهي، كدت أنسى.

انحنيت وأديت طقس الوداع المعتاد، وأنا أمسح بأناملي على خده صعودًا إلى جبينه المُجعَّد وصدغيه، على شعره الرمادي الخفيف والقشور الخشنة في فروة رأسه وحتى وراء أذنيه، مُنتشلةً كل الأحلام السيِّئة من رأسه. فتحتُ الكيس الخفي لأجله، ورميت فيه الكوابيس، ثم سحبتُ رباط الكيس بإحكام.

- **هاك.**

أخرج بابا صوتًا أجش.

- **أحلامًا سعيدة يا بابا. أراك بعد أسبوعين.**

خطر لي أننا لم نفترق من قبل هذه المدة من الزمن.

وأنا في طريق الخروج، راودني إحساس غريزي أن بابا كان يُراقبني. لكن عندما استدرت لأنظر، كان رأسه مُنكسًا، وكان يعبث بأحد أزرار «مريلة المُتململين».

تتحدث باري الآن عن بيت إيزابيل وألبرت. عرضت عليَّ صورًا له. إنه بيت جميل، بيت ريفي «بروفينسي» مُرمَّم مصنوع من الحجر، شُيد على تلال «لوبيرون»، بجوار بابه الأمامي أشجار فاكهة وعريشة، وفي الداخل بلاط من الفخار وعوارض خشبية مكشوفة.

- لا يظهر ذلك في الصور التي عرضتها عليك، لكنكِ تطلين منه على منظر وهميٍّ لجبال «فوكليز».

- هل سيسعنا جميعًا؟ عددنا كبير على بيت ريفي.

تقول:

- **بلو أون إيه دو فو، بلو أون ري** (كُلَّما كان هناك مجانين أكثر شعرنا بالسعادة أكثر). ما هي العبارة الانجليزية التي تقابلها؟ اللمَّة تجلب السعادة؟

- تجلب البهجة.

- **آه فوالا. سي سا** (تمامًا، بالضبط).

- وماذا عن الأطفال، أين هم...؟

- باري؟

ألتفتُ إليها.

- نعم.

تتنهَّدُ تنهيدة طويلة.

- يُمكنكِ أن تعطيني إياها الآن.

أومئ برأسي. أمد يدي إلى حقيبة اليد الموضوعة بين قدميَّ.

أظن أنه كان يُفترض بي العثور عليها قبل شهور عندما نقلتُ بابا إلى دار الرعاية. لكن عندما كنت أحزم أمتعة بابا، مددت ذراعي في خزانة الردهة لأُنزل الحقيبة الكبيرة، التي كانت فوق حقيبتين أُخريين، وتتسع لكل ملابس بابا. ثم أخيرًا استجمعت شجاعتي لتنظيف غرفة والديَّ. نزعت ورق الحائط القديم، وأعدت طلاء الحوائط. أخرجت سريرهما ذا الحجم الملكي، وتسريحة أمي المُزوَّدة بمرآة، وأفرغت الخزانات من بدلات أبي، وبلوزات أمي وفساتينها المُغلَّفة بالبلاستيك. كوَّمتها في المرآب لكي آخذها في نقلة أو اثنتين للجمعيات الخيرية. نقلت المكتب إلى غرفتهما، التي أستخدمها الآن كمكتب أعمل فيه وأدرس عندما تبدأ الفصول في الخريف. أفرغت الخزانة أسفل سريري أيضًا. وفي كيس قمامة رميت كل ألعابي القديمة، وفساتين الطفولة، وكل الصنادل وأحذية التنس التي لم أعد أستخدمها. لم يعد في وسعي تحمل النظر إلى بطاقات التهنئة بأعياد الميلاد وعيد الأب وعيد الأم التي كنت قد صنعتها لوالديَّ. لم يعد في إمكاني النوم ليلًا وأنا أعرف أنها عند قدميَّ. كان ذلك مؤلمًا جدًّا.

ثم حدث الأمر وأنا أنظف خزانة الردهة، عندما أخرجت الحقيبتين المتبقيتين لتخزينهما في المرآب، إذ شعرت بجلجلة داخل إحداهما. فتحت الحقيبة فوجدت حزمة ملفوفة بورق بُني

سميك، وكان ثمة ظرف ملصق بالحزمة كُتبت عليه، بالانجليزية، كلمتا **لأختي باري**. على الفور، تعرفت على خط بابا منذ أن كنت أعمل معه في مطعم «كباب إيب» حين كنت آخذ طلبات الطعام التي يُدوِّنها وهو يقف خلف الخزانة.

أُسلِّم الحزمة لباري، مُغلقة.

تنظر إليها وهي تضعها في حِجرها، تُمرر يديها على الكلمات المخطوطة على الظرف. من الجانب الآخر من النهر، تشرع أجراس كنيسة في الرنين، وعلى صخرة بارزة من حافة المياه يمزق طائر أحشاء سمكة ميتة إربًا.

تُفتش باري في حقيبة يدها، تبحث عن شيء في قاعها. تقول:

- **جي أوبلييه ميه لونيت**. لقد نسيت نظارة القراءة.

- هل تريدين أن أقرأه لكِ؟

تحاول نزع الظرف عن الحزمة، لكن اليوم ليس من الأيام التي تشعر فيها بأنها على ما يُرام، وبعد قليل من التردد وعدم القبول، تناولني الحزمة. أحرر الظرف وأفتحه. أفرد الرسالة المطوية في داخله.

- لقد كتبها بالفارسية.

تقول باري، وحاجباها معقودان من القلق:

- لكنكِ تستطيعين قراءتها، أليس كذلك؟ تستطيعين ترجمتها.

- بلى.

أقولها، وأنا أشعر بابتسامة صغيرة بداخلي، مُمتنة - ولو مُتأخرًا - على كل أصائل الثلاثاء التي كان يأخذني فيها بابا إلى كامبل لدروس الفارسية. أُفكر فيه الآن، مُشعثًا وضائعًا، يترنح في

الصحراء، وتتناثر على الطريق من خلفه كل القطع اللامعة التي نزعتها منه الحياة.

أُمسك الرسالة بقوة كي لا تُطيِّرها الريح العاصفة. أقرأ لباري الجمل الثلاث المكتوبة بخط غير منتظم:

يقولون لي إنني يجب أن أخوض في المياه، التي سأغرق فيها عما قريب. قبل أن أنزل، أترك لكِ هذه على الشاطئ. أدعو الله أن تجديها، يا أختي، لكي تعرفي ما كان في قلبي قبل أن أغوص.

وثمة تاريخ أيضًا، أغسطس ٢٠٠٧. أقول:

- أغسطس ٢٠٠٧. كان هذا بعد تشخيص حالته.

وقبل أن تتصل بي باري بثلاث سنوات.

تومئ باري برأسها، وهي تمسح عينيها بظاهر يدها. يمر من أمامنا زوجان على دراجة بمقعدين، الفتاة في المقدمة - شقراء، ذات وجه وردي، ونحيلة - والفتى في الخلف، بضفائر وبشرة بلون القهوة. على العُشب على بُعد بضع أقدام، فتاة مُراهقة في تنورة جلدية قصيرة سوداء تجلس، تتكلم في هاتف محمول، وهي مُمسكة برسن كلب «تيريَرْ» صغير بلون الفحم.

تناولني باري الحزمة. أُمزق الورقة من حولها. في الداخل، ثمة علبة شاي من الصفيح، على غطائها صورة باهتة لرجل هندي مُلتحٍ يرتدي سُترة حمراء طويلة، يمسك بفنجان شاي يتصاعد منه الدخَان، وكأنه يُقدِّمه إلى شخص ما. كان الدخان المُنبعث من فنجان الشاي قد خبا كثيرًا، وبهت لون السترة الأحمر حتى كاد أن يصير ورديًّا. أفكُّ المشبك وأرفع الغطاء. أجد العلبة مُكتظةً بريشات من

كل الألوان، كل الأشكال: ريشات خضراء كثيفة وقصيرة، ريشات بلون الزنجبيل ذات عيدان سوداء وطويلة، ريشة بلون الخوخ، ربما من بطة برية، بمسحة من البنفسجي الفاتح، ريشات بُنية ببُقع داكنة بطول العود الداخلي، وريشة طاووس خضراء بعين كبيرة في قمتها.

أستدير إلى باري.

- هل تعرفين معنى هذا؟

تهز باري رأسها، وذقنها يرتعش. تأخذ مني العلبة وتحدق في داخلها. تقول:

- لا. فقط أعرف أن عبد الله تألَّم أكثر مني كثيرًا عندما فقد كلٌّ منا الآخر. كنت أنا المحظوظة لأن صِغر سِنِّي حماني. **جو بوفيه أوبلييه**. كنت ما أزال أتمتع برفاهية النسيان. أما هو فلا.

ترفع ريشة، تُمررها على رسغها، تُعاينها وكأنها تأمل أن تدب فيها الحياة وتطير.

- لا أعرف ما معنى هذه الريشة، قصتها، لكنني أعرف أنها تعني أنه كان يُفكِّر فيَّ طيلة تلك السنين. كان يتذكَّرني.

أضع ذراعي حول كتفها وهي تبكي بصمت. أُراقب الأشجار المغسولة بالشمس، النهر الذي يتدفَّق من أمامنا وتحت الجسر - جسر «بونت سانت بينزيه» - الذي تتكلَّم عنه أغنية الأطفال. إنه نصف جسر، في الحقيقة، حيث لم تتبق منه إلا أربعة من أقواسه، ينتهي في منتصف النهر. وكأنه يمدُّ ذراعه محاولًا أن يتحد مع الجانب الآخر، لكنه لا يصل.

تلك الليلة في الفندق، أظل مُستيقظة في فراشي أُراقب السحب وهي تدفع القمر الكبير المُنتفخ المُعلَّق في شبَّاكنا. في الأسفل،

تطقطق الكعوب على حصى الطريق. ضحكات وثرثرات. درَّاجات مُزودة بمحرك بخاري صغير تقعقع في مرورها. من المطعم على الجانب الآخر من الشارع، صلصلة الأكواب على الصينيات. رنين بيانو يتعرَّج صاعدًا إلى الشباك، ثم إلى أذنيَّ.

أستدير وأراقب باري وهي نائمة إلى جواري بلا صوت. وجهها شاحب في الضوء. أرى بابا في وجهها - بابا الشاب المُفعم بالأمل، السعيد، كما كان في الماضي - وأعرف أنني سأراه كلما نظرت إلى باري. إنها لحمي ودمي. وقريبًا سأُقابل أولادها، وأولاد أولادها، ودمي يجري في عروقهم هم أيضًا. أنا لست وحيدة. تتملَّكني سعادة مفاجئة على حين غرة. أشعر بها تقطر في داخلي، وتدمع عيناي من الامتنان والأمل.

وأنا أراقب باري في نومها، أُفكر في لُعبة قبل النوم التي كنا نلعبها أنا وبابا. التطهُّر من الأحلام السيئة، واستبدالها بالأحلام السعيدة. أتذكر الحلم الذي كنت أعطيه له. وبحرص لكي لا أوقظ باري، أمد يدي الآن وأُريح كفي برفق على جبينها، وأُغمض عينيَّ.

إنه أصيل منوَّر بالشمس. يعودان طفلين، أخٌ وأختُه، صغيرين مُتبصرين وفتيين، يتمددان على بقعة من العُشب الطويل في ظلال شجرة تفاح مُلتهبة بالأزهار. العشب دافئ على ظهريهما والشمس على وجهيهما، تترقرق عبر فوضى الأزهار من فوقهما. يستريحان بنعاس، برضا، جنبًا إلى جنب، رأسه يتكئ على حافة جذع غليظ، ورأسها يتخذ من المعطف الذي طواه لها وسادة. بعينين نصف مُغمضتين، تراقب شحرورًا فوق فرع شجرة. تيارات من الهواء البارد تهب عبر الأوراق وإلى أسفل.

تدير وجهها لتنظر إليه، أخيها الأكبر، حليفها في كل شيء، لكن وجهها قريب أكثر من اللازم فلا تستطيع أن تراه كله. فقط مُنحدر جبينه، وبروز أنفه، وتقوُّس رموشه. لكنها لا تُمانع. إنها سعيدة بما يكفي كونها إلى جواره، معه - أخيها - وبينما يسحبها النُّعاس ببطء بعيدًا، تشعر بنفسها مُحاطة بموجة من السكينة. تُغمض عينيها، تنجرف، هادئة البال، كل شيء واضح، ومُشرق، هكذا، دفعة واحدة.



شكر وعرفان

قبل الشُّكر، عليَّ توضيح بعض الأمور: إن قرية شدباغ مكان مُتخيَّل، وإن كان لا يستحيل وجود قرية بهذا الاسم في مكان ما في أفغانستان. إن كانت الحال كذلك، فلم يسبق لي زيارتها. أما أغنية عبد الله وباري، وعلى الأخص الإشارة إلى «جنية صغيرة حزينة»، فقد استلهمتُها من قصيدة للشاعرة الفارسية العظيمة الراحلة «فروغ فروخزاد». وأخيرًا فإن عنوان هذا الكتاب مُستلهَم جزئيًّا من قصيدة وليام بليك الجميلة «Nurse's Song».

أود أن أُقدِّم شكري لبوب بارنت ودنين هاويل على ما قدَّماه إليَّ في هذا الكتاب من توجيه ودعم رائعين. والشكر موصول لهلين هيللر، ودافيد غروسمان، وجودي هوتشكِس، وشكرًا أيضًا لتشاندلر كروفورد، على حماسها، وصبرها، ونصحها. وجزيل الشكر لمجموعة الأصدقاء في «ريفرهيد بوكس»: جيني مارتن، وكيت ستارك، وساره ستاين، وليزلي شوارتز، وكريج. د. بيرك، وهيلين يِنتوس، وغيرهم كثيرون لم أذكر أسماءهم ولكنني أشعر بامتنان عميق لهم على مساعدتهم في إخراج هذا الكتاب للقُرَّاء.

أشكر مُراجع اللغة الرائع، توني دافيز، الذي قدَّم أكثر بكثير مما يتطلبه الواجب.

كما أتوجه بامتنان خاص جدًّا لمُحررتي، سارة ماكغراث، عظيمة الموهبة، على ما تتمتع به من رؤية وبصيرة، وعلى توجيهاتها الرقيقة، وعلى مساعدتي في صياغة هذا الكتاب بطُرق تعجز قُدرتي على التذكر عن حصرها. لم يسبق لي أن استمتعت بعملية التحرير بهذا القدر يا سارة.

أخيرًا، أشكر سوزان بيترسِن كنيدي، وجيفري كلوسكي على ثقتهما وإيمانهما الراسخ بي وبكتابتي.

والشكر لكل أصدقائي وأقاربي على بقائهم في صفِّي دائمًا، وعلى تحمُّلهم إياي بصبر، ولُطف، ورفق. وكالعادة، أشكر زوجتي الجميلة، رويا، ليس فقط على قراءة نُسخ عديدة من مخطوطات هذا الكتاب وتحريرها، ولكن أيضًا على تسييرها لأمور حياتنا اليومية، دون أدنى تذمر أو احتجاج، لكي أتمكَّن من الكتابة. من دونك يا رويا، فإن هذا الكتاب كان سيتوقف في مكان ما في الفقرة الأولى من الصفحة الأولى. أُحبُّكِ.

وردّدت الجبَال الصَّدى

في بيتهم في شدباغ، كانت باري تحتفظ تحت وسادتها بعلبة شاي من الصفيح أعطاها لها عبد الله. كان لها مشبك صدئ، وعلى غطائها رجل هندي ملتحٍ، يعتمر عمامة ويرتدي سترة طويلة، يرفع بيديه فنجانًا من الشاي يتصاعد منه البخار. وداخل العلبة تتراصّ كل الريشات التي جمعتها باري. كانت أعز مقتنياتها إلى قلبها: ريشات ديوك خضراء داكنة وخمرية كثيفة، ريشة بيضاء من ذيل حمامة، ريشة عصفور ترابية اللون عليها بقع داكنة، أما أكثر ما كانت تفخر به باري، فكانت ريشة طاووس خضراء تتغير ألوانها في الضوء، في آخرها عين كبيرة جميلة.

تلك الأخيرة كانت هدية أهداها إليها عبد الله قبل شهرين. كان قد سمع عن صبي من قرية أخرى تمتلك أسرته طاووسًا، وذات يوم عندما كان الأب بعيدًا، يحفر قنوات الري في بلدة تقع إلى الجنوب من شدباغ، مشى عبد الله إلى تلك القرية الأخرى، وعثر على الصبي، وطلب منه ريشة من الطائر. أعقبت ذلك مفاوضات، في نهايتها وافق عبد الله على أن يقايض حذاءه بالريشة. ولدى عودته إلى شدباغ، وريشة الطاووس مدسوسة في خصر بنطلونه أسفل قميصه، كان عقباه قد انفلقا وصارا يلطخان الأرض بالدماء.

* * *

في هذه الرواية البديعة، المحتشدة بالمواقف الإنسانية المثيرة والعواطف النبيلة، يصوّر خالد حسيني ماضي أفغانستان وحاضرها، دون انحياز. إنه يسعى إلى تقديم مسقط رأسه كما هو دون رتوش، مركّزًا على علاقة مدهشة تقوم بين أخ وأخته، يفرّقهما الفقر، ثم يلتقيان على حافّة الشيخوخة وفقدان الذاكرة فلا يتعرّف أحدهما على الآخر.

ولد خالد خسيني بمدينة كابول في أفغانستان عام ١٩٦٥، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٥ حيث يعمل طبيبًا. روايتاه «عدّاء الطائرة الورقية» و«ألف شمس ساطعة» (الطبعة العربية من منشورات بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر) من أكثر الكتب مبيعًا وقد ترجمتا إلى عدد كبير من اللغات.





ISBN 978-9927101908

تصميم الغلاف: ديفيد مان
الخط: سلاف خليفة
صور الغلاف: iStockphoto / Alamy ©